
سهام ترجمان
يا مال الشام

من القلب

بكثير كثير من الفرح الحقيقي ، تلقيت فيض المشاعر الصادقة ممن أغدق عليّ من نبع محبته وكرم نفسه وحرارة تقديره وتشجيعه لقلمي ، فشد على يدي ووقف الى جانبي وساعدني ومهد لي الطريق الصعبة لاعادة طبع « ياما الشام » ليخرج الى عشاقه على هذه الصورة المفرحة ٠

بدأ الطبع في مطابع الادارة السياسية للجيش والقوات المسلحة ، ادارتي الغالية التي مر علي بها موظفة أحد وعشرون ربيعا في ربيع هذا العام الدمشقي الذي بدأ يتفتح فيه بجنون زهر المشمش وزهر النارنج والليمون ، وانتهى الطبع في الخريف ٠

ومازلت في الادارة السياسية أربط قدري بالقلم ، بالكلمة ، بالحقيقة ، أحقق ذاتي ككاتبة تهوى الوطن والانسان والحرية والادب والفن والتراث والحضارة ٠

الادارة هي بيتي وأهلها هم أهلي ٠

ونهر من مشاعر المحبة والتقدير وعبارات الامتنان ، ينبع من قلبي ويصب في بحيرة كل من أحب كتابتي وكتابي ، وكل من طالبني باعادة طبع « ياما الشام » وكل من ساعدني على اعادة الطبع ، أيام اصبح الطبع صعبا جدا وغاليا جدا ٠

نهر من المحبة الاخوية الانسانية الكبيرة ينبع من قلبي ويصب في بحيرة السيد رئيس الجمهورية العربية السورية ، القائد العام للجيش والقوات المسلحة الفريق حافظ الاسد ٠ ابن الوطن البار ، والقائد الحكيم ،

ابن الجبال الشم ، وابن اللاذقية عروس الساحل السوري وحفيدة أوغاريت مبدعة الابجدية الاولى · المحبة لهذا الرجل الانسان حافظ الاسد الذي أحب دمشق الشــام وأحــب أهلهــا · وسكن فيهــا وأعطاها واعطى أهلها مــن حبـــات قلبــه ، فسجل لــه عطاؤه فــي سجل تاريخها الذهبي بخط عربي مذهب الحواشي والمعاني ·

أهل الشام ، وأنا واحدة منهم ، نحمل لهذا الرجل في ذواتنا دنيــا من المحبة والتقدير لما فعله ويفعله ، لوقف تيار هدم معالم حضارة دمشــق وتمزيق هويتها العربية ، وللوقوف في وجه الحريق الكبير الذي مانفك يلتهم بغباء تاريخي ، البيوت العربية الدمشقية ، وأشجــار الغوطة وبســاتــين الشام ، فيحول واحة الشام الى صحراء بتوقعات علمية حتمية ·

أوامر الرجل الحازمة صدرت لتنقذ ماتبقى من جمال وسحر هــــذه المدينــة العربية الاصيلة جسدا وروحا ، ولترد الكرامــة والطمأنينة وشعور الاستقرار وطيب العيش لاهل الشام الطيبــين الشعبيــين البسطــاء الذين تعرضت بيوتهم العربية القديمة الجميلة للهــدم بحجة التنظيم ·

وفي تاريخ ١٦ أيار عام ١٩٧٢ وفي مجلــة « جيش الشعب » الصادرة عن الادارة السياسية للجيش والقوات المسلحة ، كتبت مقالا جريئا محموما في صيغة كتاب مفتوح الى رئيس الجمهورية العربيــة السورية السيـــــد الــرئيس حــافظ الاســـد بعنوان :

« نــوح جـديــد في طــوفــان الشــام »

كان له دوي كبير وأثر فعال في تحويل مجرى الطوفان ، لصالح الشام وأهل الشــام ، وأشعر بفخر كبير ، كفرد في هذا الوطن ، وصوت من هذه المدينة العاصمة ، وابنة محبة للشــام وأهل الشــام ، أن يلقى مقالـــي «الصدى» في صــدر الرجل الكبير والاب العطوف ورب الاسرة المثــالـــي ، ويكون « الامــــر » التاريخي ، بوقف طوفان الهدم وطوفان الدموع عــن الشــام وأهل الشام ، الامر الذي يسعدني أن اثبته للاجيال وأضيفه للتاريخ، وأعلقه وساما على صدري مكافأة على محبتي للشام ·

قلت في كتابي المفتوح المرفوع الى السيد رئيس الجمهورية الفريــق حــــافظ الاســـد :

« دمشق القديمة الغالية على قلوب أهل الشام وعشاق الشام ، بكل حاراتها وبيوتها وأسواقها وسكانها بحاجة الى « نوح جديد » كي ينقذها من طوفان يأكل الاخضر واليابس في حياتها · هذا الطوفان الخطير ينبع من « جبال محافظة مدينة دمشق » ، ومن أرصدة تجار البناء في البنوك ، ومن أزمة السكن المدمرة ومن الانفجار السكاني الهائل ·

دمشق القديمة تهدم كلها ، ليعمر مكانها دمشق جديدة من الاسمنت والحديد والزفت ·

وكتبت أخاطب الرئيس مباشرة :

وسمعت أن الاسر الدمشقية في الاحياء الشعبية ، الشيوخ والنساء ، النساء الارامل والاطفال ، يبكون على أعتاب المسؤولين والمهندسين في محافظة مدينة دمشق ، يبكون يقبلون الايادي يتوسلون أن يمهلهم من في قلبه رحمة حتى يجدوا مأوى ، ولا من يرد لان النظام نظام والامر أمر ! !

وسمعت من سكان البيوت والعمارات الانيقة العالية في « المالكي » ، ان فلاحي بساتين الشام وخاصة بساتين الربوة الشهيرة التي خلدها الشعراء باشعارهم ، قرب شارع المالكي المزروع بالاسمنت الملون وعلب الكبريت ، سمعت من السكان الاغنياء ، أن الفلاحين في بساتين الربوة يبكون يبكون ، لايريدون أن يتركوا بيوت الطين وبساتينهم وأنهار بردى السبعة ولا أحد يسمع البكاء · الارض تصادر ، يعطى لاصحابها ثمن رمزي ، تباع للاثرياء ولتجار البناء بطريق المزاودة بمبالغ خيالية ، ولا أعرف من يقبض الفائض ؟ !

اللجان الوقورة تتصرف بكل حزم ، لابد من الرحيل عن الارض ، لابد من الهدم ، هدم الاشجار الخضراء ، لنعمر اشجارا من حجارة يسكنها عصافير الجنة ·

ويتطاول شارع المالكي ، ويسير نحو الربوة بخيلاء الطاووس ، وترتجف دواوين الشعر والتاريخ رعبا ·

هذا الطوفان لايأخذ بطريقه الا بيوت الفقراء ، ليعمر مكانها عمارات عالية الطوابق أنيقة الشرفات ، تعيش بالطول لا بالعرض ، بعضها يباع على الخريطة وبعضها على « العظم » وبعضها على « اللحم » · عمارات تصعد بشموخ على دمشق القديمة مخلفة وراءها « بكاء تاريخيا » وأسرا بكاملها تبكي وتولول وتنوح لانها لاتجد المأوى ·· ولانها تلقت أمرا بالنزوح ·

لم يفكر أصحاب « التنظيم » بان يهيئوا لهذه الاسر الشعبية الطيبة الفقيرة ، مدينة نموذجية تسترهم ، وتحميهم من التشرد داخل وطنهم ٠ قالوا لهم وعن طريق التلفزيون جملة سمعتها بنفسي :

المواطن يجب أن « يدبر نفسه » ٠٠ هذه مشكلته ٠٠ نحن نعطيه ثمن منزله ونطلب منه أن يبحث عن بيت آخر ويرحل ٠٠ ويجب أن يبحث عن حل لمشكلته بنفسه ، وليس كل شيء على عاتق المسؤولين ! ! ٠

وتساءلت بغضب يومها وأنا جالسة فوق « كنبة » مريحة ، وفي بيت ليس مهددا بالاخلاء :

ـ ماهذا الذي يحدث لاهل مدينتي ولمدينتي ! ! ولماذا ! ! وأحسست بأن الكنبة تحولت الى شوك ، وبيتي أصبح بلا سقف ولا جدران ، وأغراضي وأمتعتي مرمية في الشارع ٠٠ !!

تساءلت : ولكن من الذي خلق المشكلة ! ! أعرف الجواب : الانفجار السكاني ! !

ولكن هل على فقراء دمشق وحدهم ان يدفعوا ثمن الضغط السكاني في العاصمة المتنامية نحو الملايين ؟ ؟

وهل ستدفع أقدم مدينة في التاريخ ، ثمن هذا الانفجار السكاني المعاصر ؟ ؟

انني مربوطة اليدين ، ولكن انسانا واحدا في هذا الوطن الصغير الذي أعيش فيه قد ظهر فجأة بيننا ليفك أسري ويطلق لنا حرية الكلمة البناءة ، ومن هذا المنطلق أكتب كلمة للتاريخ لا للنشر ٠

انني مربوطة اليدين ، حرة الضمير واللسان ، حريتي لها نبعان : ذاتي والانسان الكبير الذي أرجو أن يسمح لي بأن أقول له بأنه بالنسبة لنا «كنوح جديد » مع احترامي وتقديسي للنبي نوح عليه السلام ٠

من يدري ، ربما هذا الانسان غير الدمشقي ابن اللاذقية ، قد أرسلته لنا العناية الالهية لينقذ دمشق من براثن غولها المرعب ، ومن أنياب تجارها القساة الجهلة ! ! لا بل أنا واثقة أنه هو وحده الذي سينقذ الشام من تجارها وجهلهم التاريخي بقيمة حضارة مدينتهم ٠

انني أنادي بأعلى صوتي ، أنا مع الفلاحين الفقراء في بساتين الشام والربوة ودمر والهامة وقرى الغوطة ، أنا مع الفقراء في أحياء وحارات الشام الضيقة القديمة ٠

أنا أعتز بأنني ابنة تلك الجوهرة النادرة ابنة الشام العتيقة الفقيرة ، أنا لا أنسى أصلي ، أنا لاأنسى أهلي ·

في التاريخ العربي أمرأة مجهولة أصابها ضيم فنادت بصورة عفوية باسم أمير المؤمنين « وامعتصماه » ،وسمع الرجل الكبير صرختها واهتز من أعماقه، ووقعت حرب عظيمة انتصر فيها المؤمنون ، وردت الى المرأة العربية كرامتها ·

فان ارتفع صوتي أطلب النجدة من القائد الذي بايعه الشعب ، لضيم وقع على مدينتي الشام ، فهل سيصل صوتي الى الرجل الكبير فيهزه من الاعماق ويأمر فورا ببناء الصحراء حول دمشق لحل أزمة السكن وبحفر الانفاق تحت دمشق لحل أزمة المواصلات وبمنع أي معول يضرب ماتبقى من حضارة دمشق وجمال غوطة دمشق · ! !

أطلقت صرختي الانسانية الحضارية لا الفردية الاقليمية ، وأنا انتظر بأمل عظيم رجع الصدى ·

أرفع رأسي الى جبل قاسيون ، الى الانسان الكبير الذي بايعه الشعب ، الى رئيس الجمهورية في القصر الجمهوري المطل على بساتين الربوة ، الى السيد الفريق حافظ الاسد ، أتكلم باسم الشام وأهلها ، أطلب منه أن يحول هموم الشعب الى أفراح ·

انك أنت وحدك المنقذ ياسيادة الرئيس حافظ الاسد · أنت « نوح الجديد » الذي سينقذ الشام من طوفان التنظيم وطوفان الدموع ·

ان الاشجار تبكي على ضفتي بردى تودع بعضها لاول مرة في تاريخ الشام ، وتنحدر دموعها على خدود بردى ·

دعنا ياسيدي الرئيس ، نحن أهل الشام نعيش في الشام · انقذنا من أنفسنا ·

أنت قلب كبير وأب عظيم وانسان حقيقي واسمح لي أن أنقل اليك عبر قلمي صوت شعبك الفقير في العاصمة المتهمة بالبورجوازية ، فربما لم يصلك هذا الصوت من قبل وأنا أعرف أن في ذهنك مسؤوليات مصيرية أكبر ، أكبر من مشكلة أزمة السكن ، أو مشكلة هدم الاحياء الشعبية ·

ياسيادة الرئيس ، الصحراء حول دمشق حول الغوطة واسعة تنتظر الملايين فلماذا لانعمرها ولماذا يصر التجار على أن يهدموا الشام الحقيقية باسم أزمة السكن وازمة المواصلات ! ؟ ؟

الشام ياسيادة الرئيس بكل بيوتها العربية الاصيلة بكل ياسمينها وكبادها ، وليمونها ووردها وعنبها بكل أهلها البسطاء الطيبين ، الشام بحاجة اليك ٠

الغوطة المزهرة المعطرة المثمرة أيها الانسان الكبير تحتمي بك من أعدائها أعداء الشجرة والانسان والحياة والحضارة فهل ستمسح دموع أهل الشام وشجر الغوطة !

الطوفان يلتهم دمشق التاريخ ، وأنا الح مركبك قادما ، لينقذ مدينة التاريخ ، وليسجل التاريخ بعد مئات السنين هذه الجملة الذهبية عنك :

« ان العناية الالهية قد أرسلت لدمشق منقذا منذ ألف سنة فحماها من الدمار ورحمها وحفظها من الاندثار ، وكان حاكما محبوبا من شعبه عادلا لاينام على ضيم ، خرج من صفوف شعبه لينقذ شعبه من مؤامرات عديدة ٠ اسمه حافظ الاسد وهو من أبناء منطقة الساحل السوري لا من أبناء دمشق » ٠

ان هولاكو قد ترك أثرا سيئا على الحضارة والتاريخ ٠٠

وليكن اسمك ياسيادة الرئيس الفريق حافظ الاسد أبيض ناصعا في سجل الحضارة والتاريخ ٠

اقتل هولاكو العصر ياسيادة الرئيس حافظ الاسد قبل أن يقتل دمشق ٠

أطلقت صرختي لانقاذ ماتبقى من حضارة الشام وهوية الشام وروح الشام وأهل الشام ٠

واهتز ضمير الرئيس حافظ الاسد وأمر فوراً بمنع خروج أية أسرة دمشقية من بيتها المعرض للهدم والتنظيم في المدينة القديمة قبل أن تستلم مفتاح البيت الجديد في المدينة الجديدة ٠

ويشرفني أن أسجل في كتابي « يامال الشام » للتاريخ نص التوجيه الخاص الصادر عن رئيس الجمهورية بالحرف وقد التزمت به أمانة العاصمة والدوائر المختصة وعلى رأسها وزارة الادارة المحلية :

« صدر عن السيد رئيس الجمهورية حافظ الاسد توجيه خاص الى الجهات المعنية في الدولة ، يتضمن مايلي :

يحظر هدم ، منزل أي مواطن ، دخل في مخطط تنظيمي لمشروع عام الا بعد تأمين السكن اللائق له ٠ على أن يؤخذ بعين الاعتبار ، عدد أفراد العائلة ، ومكان المنزل الجديد » ٠

وطارت برقيات الفرح للرئيس من الاحياء الشعبية الاصيلة وأهلها الطيبين ، وتحولت هموم الشعب الى أفراح ٠

ودق باب بيت أهلي في حي السبكي أكثر من مرة ليسلم فيها موزع البريد لامي وأبي في غيابي برقيات الشكر من سكان الاحياء الشعبية المجهولين ، لابنة دمشق البارة ٠

ورن الهاتف في بيتنا أكثر من مرة ينقل الي أصواتا شعبية طيبة تلهج بالشكر وتدعو لي بالحظ وبالستر والصحة ، بكلمات عامية شامية عفوية محببة الى قلبي ، وهرت دموعي فرحا ، لانني قدمت جزءا صغيرا مما علي من ديون نحو مدينتي الشام ونحو أهل الشام في الاحياء الشعبية العتيقة ، فمسحت دموعهم وأسهمت في اعادة الطمأنينة الى قلوبهم ، والسكينة الى نفوسهم ٠

والشكر لاهل الشام الطيبين من الاعماق على ماغمروني به من متعة البكاء فرحا بهم وبافراحهم ٠

ونهر من المحبة ينبع من قلبي ويصب في بحيرة الاسد على مافعله وسوف يفعله من أجل دمشق وأهل دمشق ٠

ونهر من المحبة الاخوية العميقة لاول من شجع قلمي وأسلوبي الادبي منذ عام ١٩٦٣ ، ولاول من وافق على طبع كتابي « يامال الشام » عام ١٩٦٩ في مطابع الادارة السياسية ، ثم تفضل علي في مطلع عام ١٩٧٨ وكتب على طلبي :

« نعم مع الموافقة على اعادة الطبع في مطابع الجيش والقوات المسلحة ٠٠ » ٠

انه نهر من المحبة الاخوية الخالصة ينبع من قلبي ويصب في بحيرة « العماد مصطفى طلاس » نائب القائد العام للجيش والقوات المسلحة وزير الدفاع في الجيش العربي السوري ، الاخ الكبيروالرجل الدمث والعسكري المثقف والقلب الطيب والانسان الفنان ، ابن الرستن قرب حمص الجميلة ، الذي عشق دمشق وأحبها وسكن فيها منذ مطلع شبابه ، وتفوق على أهلها في حبه لها ودفاعه عن تراثها ، فخدمها وخدم تراثها وأهلها بعمق وعفوية وصدق وكرم وأصالة عربية بدوية عريضة المشاعر عرض الصحراء العربية ، بفضل لاينسى ، يسجل له بماء الذهب في سجلها الذهبي ٠

نهر من المحبة الاخوية الصادقة ينبع من قلبي للسيد العميد الركن ناصر الدين محمد ناصر مدير الادارة السياسية ، ابن مدينة حلب التاريخية العظيمة الجميلة ، الذي سكن دمشق وأحبها مدينة ، حبا متميزا يعادل حب أهل حلب للعاصمة دمشق ذات التراث والانهار والخضرة والرقة والجمال منذ فجر التاريخ ·

والشكر له من الاعماق على موافقته لطباعة « ياما الشام » في مطابع الادارة السياسية رغم ضغط العمل السياسي والعسكري والاعلامي والثقافي والفني ، وكبر حجم المسؤوليات ، والتزام المطابع بانتاج القطاعين العام والخاص من مجلات وصحف وكتب · والشكر له على كل ماغمرني به ، وبموضوعية كاملة ، من مساعدة معنوية وفنية كي يطلع الكتاب الذي يحمل روح التراث الشعبي الدمشقي ، والذي يطلق الدعوة للاجيال الحاضرة والمقبلة ، للحفاظ على الحضارة العربية للمدينة العربية ، وكي يخرج الكتاب للناس ثانية في قمة كماله ، وكي يسافر «ياما الشام» الى عشاقه وقرائه في سورية وفي العواصم العربية والعالمية ، وهو صورة أقرب الى الكمال ، تعبر عن مدى تطور فن الطباعة في وطننا الحبيب سورية العربية ·

نهر من المحبة الاخوية الكلية لأخي الكبير صلاح الدين الترجمان ، لاول من علمني عشق الحرف ، لاول من زرع في أرضي الخصبة الحمراء نبتة العلم والمعرفة ، وسار بي على درب الحياة الثقافية يؤهلني ويأخذ بيدي ماديا ومعنويا لنيل الشهادات العلمية العالية · يغذيني بالكتب الادبية العربية والاجنبية العالية ، ككتب طه حسين والمتنبي والمعري ومصطفى صادق الرافعي وفولتير وشكسبير وأندريه جيد ، ويأخذني من يدي وأنا طفلة صغيرة يتوقع لها مستقبلا مغايرا ، الى حفلات الموسيقى العالمية في نوادي دمشق ، والى المحاضرات العلمية والادبية كمحاضرات الاستاذ زكي الارسوزي ، والى معاهد اللغات الاجنبية في دمشق ، والى دور السينما لاحضر اعظم أفلام السينما العالمية في الاربعينات والمأخوذة عن أشهر روايات الادب العالمي ، كمرتفعات وذرينغ ، وكاري ، ولمن تقرع الاجراس ، وذهب مع الريح ، وصراع تحت الشمس ، وصورة جيني ، ولاتعرف بدهشة على أعظم ممثلي الاربعينات كشارلي شابلن وانغريد برغمان وجرير جارسون ، وفيفيان لي ، وجنيفر جونز ، وتيرون باور ، واستر وليامز ، وآفا غاردينر ، وكاري كوبر ، ولوريل وهاردي وجريغوري بيك ولورانس اوليفييه وريتا هايوارث وجلين فورد وبيتي ديفز وكاري غرانت وكلارك جيبل وفرنانديل وميشيل مورغان ، وموربن أوهارا ، وهيدي لامار ، وآلان لاد ، وستيوارت جرانجر ·

ولاتعلم منهم مبادىء الحب الانساني الروحية والفكرية العاليـة ·

فكبرت وأنا أحمل المعاني المضيئة الخلقية والروحية عن الحب والحياة والجمـال ·

وكبرت النبتة وغـدت شجرة تتغذى أوراقها من جذور الماضي الاصيل تمتص مستقبلها من نسغ الحضارة العريق للانسانية ، فيصعد الى عروقها والى وجدانها بلمسـة يـد ساحـرة لاخ متقـد الـذهن متأجـج الـروح متطور النظرة ، ثابت القيم ، لمسة يد على روح وعقل أخت صغيرة أعدت بذكاء خارق لقدر متميز مرتبط بالحرف المضيء في زمن كانت الفتيات فيه محجبات وبالملايا السود ·

انه نهر من المحبة الكلية لاخي المثالي العصامي وصديق عمـري الذي شجعني على اعادة طبع ياما ل الشام وملؤه الفخر والحماسة ·

انه حب من العمق لمن أصبح لي بعد أمي وأبي هو أمي وأبي ·

المحبة لعميد أسرتنا ومثلنا الاعلى أخي صلاح الدين الترجمان ، المدير لعدة بنوك ومصارف سابقا ، والممثل حاليـا للبنك الفرنسي ـ العـربي في الكويت والخليج العربي «فراب بانـك» ·

المحبة لاخي صلاح أبو « الهدى » الجميلة الغالية التي جعلتنـي « عمة» سعيدة · أخي الكبير معلمي الاول في الحياة ، والروح القوية الهادئة التي تدفعني كالريح الالهية نحو قدري ككاتبة ، وتطير بي الى مواطن العطاء الادبي الانساني الرفيع ·

أخي الانسان والشاب المثقف والمحب النقي المتفجرخلقا ونقاء وتواضعا وايمانـا باللـه ، وسعادة بالعطاء والعمل والمثل الدينية والاخلاقية والعلمية العربية ، الذي كان يعطي دائما وابدا ولا يطلب الا رضى اللـه والوالدين ، وكانت سهام في بيتنا من صنع صلاح ككل اخوتها وأخواتها · انه عمود أسرتنـا الرخامي وعميدهـا حاضرا ومستقبلا · وكتاب ياما ل الشـام منه واليه ··· والى جميع اخوتي وأخواتي وأولادهم · وكتاب ياما ل الشـام من أمي وأبي وأرفعه الى روح أمي وأبي في الجنـة ·

نهر من المحبة اللانهائية لاستاذتي الكبيرة في الفلسفة والحياة والمحبة، لصديقتي الكبيرة صديقة الروح والعقل ، لامي الروحية منذ أيام مقاعـد المدرسة ودروس المنطق وعلم النفس واللغة الانكليزية ، وحتى اليوم والى الغد ، السيدة جوليت عويشق الخوري ، استاذة الفلسفة باللغة الانكليزية في كلية الاداب في جامعة دمشق ، وزوجة رجل المال الراحل ووزير الماليـة

والاقتصاد السابق وعضو مجلس الشعب جورج الخوري • هي ابنة دمشق العريقة التي ولدت في حي باب توما القديم قدم دمشق ، النائم بسلام داخل سور دمشق ، الذي فتح على يد خالد بن الوليد • هي حفيدة اخوتنا المسيحيين الدمشقيين العرب وأبناء عمومتنا الذين فتحوا الابواب لابناء عمومتهم قادة الفتح العربي الاسلامي وأعطوهم مفاتيح دمشق بيد المحبة والفرح ، فرح العربي بالعربي •

هي بالنسبة لي العقل الام والنبع الحي الصافي الذي شربت منه وما زلت أشرب حتى الارتواء ، نسغ الشعور العربي الاصيل والكبرياء العظيم في الانتماء الى الارض العربية والقومية العربية واللسان العربي ، والمصير العربي الموحد ، بعيدا عن تقليد الغرب والغربيين • هي استاذتي وصديقتي الدمشقية العربية المثقفة الكبيرة التي عشقت دمشق الحضارة وسورية الحضارة عشقا صوفيا ، وأحبت وشجعت كل من عمل على تكريس التراث والشخصية العربية للانسان العربي وللمدن العربية ، وللاثار الحضارية في الارض العربية السورية عبر العصور •

المحبة لها أستاذتي التي تتغنى بكتابي كأنشودة عذبة كلما التقت عربيا أو أجنبيا ، تتباهى بكتاب « ياما الشام » وبطالبتها التي كبرت ودخلت دائرة العطاء الادبي •

نهر من المحبة الاخوية الغامرة لاستاذي الكبير واستاذ الجيل ، المثقف الحقيقي المتواضع بحر اللغة والفكر والادب وتيار الحس العربي المتدفق ، الاستاذ والمربي الكبير نخلة كلاس رئيس تحرير « المجلة العسكرية » العلمية الرصينة والاستاذ لمادة التاريخ في في الكلية العسكرية سابقا ، ابن مدينة حماه المتفجر كبرياء بانتمائه للعشائر العربية البدوية في بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي ، المتدفق اعتدادا باصالة الحرف العربي والمدن العربية •

العربي الذي اعتمد القرآن العربي الكريم حجة للغة العربية واللسان العربي ، الانسان الحموي المتيم عشقا بالشام عاصمة عربية الجوهر والشكل والقلب واللسان ، الواقف معي ومع من يعمل على تكريس الحضارة العربية وخلودها وانبعاثها •

ونهر من المحبة الاخوية الصافية الصادقة يصب في بحيرة الزميلين الصديقين الفنانين ، العقيد محمد سليم صهيوني والنقيب محمد شريح طيارة على كل ما قدماه من عناية فائقة وما بذلاه من جهد وصبر واشراف

على فن الطباعة الرفيع الذي حظي به كتاب « يا مال الشـام » حتى تفوق على نفسه في الطبعة الاولى · والشكر لهما من أعماق دمشق ·

ونهر من المحبة يصب في بحيرة كل عـامـل من أسرة عمال مطـابـع الادارة السياسية ، أصدقائي واخوتي العمال الذين أحبوا « ياما الشام » واحتضنوه وطبعوا حروفه وهم يبتسمون له بسعادة ومحبة وتقدير وفخر · الذين عانقوه ودللـوه وكأنـه ابنهم الوحيـد · وهو بالفعل ابنهم البـار الذي أخذ ملامحه الجميلة من قلوبهم البيضاء ، ابنهم الذي لاينسى لهـم الفضل وكرم النفس وصفاء السريرة والقدرة على تحمل التعب والسهـر ، والحرص على تجاوز الخطأ أصغر خطأ مطبعي · ومن اخلاصهم في الماضـي والحاضر أخـذ « يا مال الشـام » صيته وشهرته ، وحظه ونجاحـه ·

من القلب ينبع نهر من المحبة ليصب في بحر القراء الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم ، « الظرفاء » منهم خاصة ، الذين استعاروا الكتاب من أصدقائهم ولم يعيدوه · « اللصوص الاشراف » منهم الذين سرقوا كتابي « يـامـال الشام » من مكتبات أصحابهم وأقاربهم أثناء غيابهم لاعداد القهوة ، ثـم اعترفوا بعملية « السرقة القانونية » والوحيدة التي لايعاقب عليها القانون ، اللصوص الذين اضطروا للسرقة بسبب فقدان كتابهم المفضل من الاسواق، ثم أعلنوا استعدادهم للتعويض المـادي لاصحابه مـع الاصرار علـى رفض اعادته ·

الحب كل الحب للقراء الاعزاء الذين دفعوا عشرات الاضعاف ثمنـا لنسخة يتيمة في احدى المكتبـات ·

انهم كلهم في قلبي كالبلسم · ومن أجلهم أعيد طبع الكتاب ، ومـن أجل من لم يمل السؤال ومن لم يتعب في السؤال عـن « يامال الشـام » في المكتبات ، وفي بيتي ومكتبي رغم مرور تسع سنوات على نفاد الطبعـة الاولـى ·

هذا البحر من قرائي هو سعادتي الكلية ، لانـه يحب الشـام مثلـي وأكثر · ونهر من المحبة بحجم الفرات ودجلة والعاصي وبردى والنيـل والاردن والليطاني ، وبانياس ، ينبع من أعلى قمة في قلبي الابيض المغطى بالثلج والشمس ليصب في هـذا البحر العظيم ·

رشة مازهر

اذا كان كتابي « ياما ل الشام » الذي غمره الناس من أهل الشام وعشاق الشام ، بحب ماكنت احلم به ، كأسا منعشا من « مية الفيجة » البـــاردة الطيبة الصافيةالعذبة في ليلة صيف مقمرة من ليالي الشام الحارة ، تـــرد الروح الى الصدر ، فان ماكتبــه الصديق الــدكتور صباح قبــانــي ابـــن دمشق العريق عن كتابي « ياما ل الشام » هو « رشة المازهر » التي عطرت وتعطر الكأس بعطر زهر النارنج والليمون في بيوتنا الشامية العربية العتيقة المعتقة كــدن من النبيذ العربي في أقبية الكنائس العــربية القديمــة ٠

بيوتنا ٠٠٠ سقى الله أيامها ، بيوتنا العربية الدمشقية التي انهدمت أمس وماتزال تنهدم اليوم ٠

« قمقم المازهر » في يــد صباح قباني الدمشقي الفنان المصور الانسان الاديب الديبلوماســي ، يعطر أعمال الاصــدقاء الادبية والفنية بالمحبــة ٠ « يرشرش » المــازهر على الناس بسخاء كأنــه في « مولــد النبي » أو في « عرس شامي » ٠ قد عطر كتابي وعطرني بالمازهر ، ورد الروح الى صدري٠

« ومية الشام » هي اطيب ماء في العالم ، الا انني تعودت ان اشربها احيانا مع المازهر كأمي وخالتي وعمتي ٠ وهو تقليد دمشقي أحب أن يظل حيا في بيتي وبيوت أهل الشـــام ، وأتمنى لو يمتد عبر الدمشقيين القدامى من الدمشقيين المعاصرين الى الدمشقيين المقبلين ٠

لااذكر اني قدمت فنجان القهوة لضيوفي في صينية الا ومعه كأس الماء البارد ، وقمقم المازهر وفنجان قهوة آخر فيه ماء بلا بن وفيه فلة أو زنبقة أو زهرات ياسمين لو أتاني ضيوفي صيفا ، أو « وردة دمشقية » حمــراء بلون شمس العصر ، أو قرنفلة بيضاء أو بضع بنفسجات مع اوراقها الطريــة لو أتاني ضيوفي شتاء تحت المطر ٠ وكم يحتار ضيفي هل يشرب القهوة ؟ أم يشرب البنفسجة ؟ أم يشرب المازهر ؟ ام يشرب الشام !! ؟



الفنان عبد القادر النائب ـ أريحا ـ حلب

مؤلفة يا مال الشام سهام ترجمان

وخالة أمي ، « أم جعفر » أخت ستي « أم عزيزة » • كانت تصلي صلاة الصبح حاضر ، ثم تشرب قهوة الصبح فــي مشرقة بيتها مع «شقف» زريعتها المدللة ، وتجلس « لتقطف » على « فلاتها » مع طلوع الضو •

وأنا اشرب قهوتي مع فلة واحدة • وبين زمني وزمن خالتــي الف فلة وفلـــة •

في مشرقة خالتي وديارها الف تنكة فل وفي ديار بيتنا العربي العتيق ومشرقته الف تنكة فل وفي شرفة بيتنا الاسمنتي الحديث تنكة فل واحدة بقيت لي من « ريحة أمي » ، هي فلة أمي، أسقيها وأدللها وأخاف عليها •

وأحاول فــي هذا الزمن أن أعوض عن تنكات الفل التي كان يعتني بها أبي بيديه ، « ويقصقصها » ويربيها كما يربينا على العز والدلال ، والتي كانت تسقيها أمي الشاي البارد بلا سكر ، « والاجاز » تأتي به من عند « بـــرو العطار » وتطعمها من حبات قلبها كما تطعمنا وتسقينا ، أحاول اعادة الزمن الى الوراء ، بان أسقي فلة أمي بماء القلب ، بان ارش « دمعة المي » بالمازهر فترتد روحي الى صدري وأتذكر أني مازلت بالشام ، أعوض مافات بـــأن أنفخ في صدور الدمشقيين الشباب الــروح الدمشقية العظيمة التي تقدس وتحب الله والانسان والحياة والحب والارض والحيوان والنبات والمـــــاء والشمس والقمر والجبل والنهر •

لم اجد تشبيها لكلمات صباح قباني عن كتابي « ياما ل الشام »، أحلى من المازهر • حبي للشام ، ولكل من يحب الشام ، لاحدود له يعادل حبــي للانسان للانسانية للعالم للحياة •

واذا كان للمدن روح ، فانا أحس احساسا صوفيــا وفطريا حقيقيـــا عميقا بأني « روح الشام » منذ خمسة آلاف سنة مرت وحتى خمسة آلاف سنة آتية •

وكأني مأتيت الى هذه الدنيا الا لاكون دمشقية ، افهم دمشق واحبها واكتب عنها وارسمها وأحملها داخلي وأمشي ، وأرسم لوحات حارة الالوان عن حاراتها وعن اهلها وحياتها وماضيها •

واذا كان قدر المرأة أن تحب رجلا واحدا كاملا يسيطر علىخط حياتها ، فانا أعترف أمام التاريخ ، امام الكل ، بان عشقي الكبير هو عشقي «المدينة» وأية مدينة ؟ هي دمشق أقدم مدينة في التاريخ • مدينة لها سر الهي قدسي، لها سحر تاريخي روحاني صوفي حضاري عربي ، لها علاقة صميمية بخـط

اللانهاية النابع من الصحراء العربية وقبة السماء العربية ، بالقوس العربي بقباب الجوامع والكنائس ·

الشام تشد المؤمنين والمتصوفة ، لانها كما تؤكد العجائز المؤمنات من نسائها :

« الشام سرها مقدس والله حاميها » ، ولانها « شام شريف » كما يعتقد الحجاج المارون بها الى الاراضي المقدسة والى « القدس » والى « مكة المكرمة » لاداء فريضة الحج · ولانها المدينة الفاضلة كما يؤكد المهاجرون من سكانها اللاجئين اليها عبرالتاريخ، الذين اختاروها وطنا ثانيا لهم يضمهم بحنان وحب وكرم · فالشام قلب ما تعود الا أن يحب ويضم · ولانها المدينة التي مر بها ووصل اليها الانبياء والرسل والقديسون· جنوبها تماما عند « القدم » وصل النبي العربي محمد عليه السلام · وعلى طريقها على طريق «دمشق» وعلى الشارع المستقيم مشى «القديس بولس » ومرمن الباب الشرقي للمدينة لينشر الدين المسيحي في العالم · ولانها المدينة الجميلة ذات الطبيعة الاخاذة التي تشد السياح والشعراء والفنانين والعلماء والباحثين والمؤرخين والملوك وأبطال التاريخ ، يعبون من سحر « اللوحة » التي تتعانق وتلتحم فيها بيوت المدينة العربية القديمة واحياؤها وحاراتها واسواقها وجوامعها وكنائسها ببساتين الغوطة موطن «فصل الربيع» في الدنيا ، بنهر بردى بفروعه السبعة : بجبل قاسيون الاجرد ببادية الشام تحيط بالغوطة ، بالسماء الزرقاء تضم المدينة بفرح بصفاء بحنان ،بالشمس تبعث فيها دفء الحياة وحرارة الحب · دمشق الشام هي « الحب» · ان قدري كامرأة هو دمشق قلب سورية الحبيبة وقلب العروبة ، وعاصمة الابطال والحرية والياسمين ·

ان حبي لمدينتي قد سيطر على الازمنة الثلاثة في خط عمري · «فالشام» هي ماضي وحاضري ومستقبلي · وأما الزمن الرابع الذي يلي خط عمري ، فهو زمن متحد بالشام حتى درجة الديمومة والخلود · هو زمن «حي» سيتعشق الشام كازمنتي الثلاثة ، كما يتعشق « الصدف والعظم وعروق القصدير» خزانة أمي المتوجة بتاج عال كتب عليه بالخط العربي كلمة أناحبها هي كلمة «ياقاضي الحاجات» . كما تتعشق حبات الصدف الابهر كألماس جهاز عرس أمي « عزيزة » « وبيرو » ستي « أم عزيزة » وكما تتعشق الايات القرآنية الكريمة والاشعار العربية والحكم الشعبية ، الخشب «المحظوظ» المحفور المزخرف الملون في « كتابي وخراستين »حيطان « القصر » تلك الغرفة العالية التي كان ينام فيها « أبي فهمي » ، وكما يتعشق النحاس

عروق الفضـــة في «صدر ومنقل »ستي «أم فهمي» ٠ وكما تتعشق الاساور الذهبية وخواتم اللؤلؤ والماس والعقيق والزمرد والفيروز أصابع الصبايــا الشاميات وزنودهن ٠

الشام ، المدينة القديمة تتعشق عمري كما تتعشق «عروق الياسمينة» خشبات الدرابزين المسوس على درج بيتنا العالي الذي تخيم عليه داليـــة العنب الزيني ، وكما تتعشق أوراق « الخميسة » حيطان وسقوف وشبابيك وبيوت حارتنا ، وكمـــا تتعشق « حشيشة المـــي » وازهار « الاضاليا » « والمنوليـــا » ، وأشجار الاكيدنيا والليمون الحامض والكباد والليمون الحلو والنارنج ودوالي العنب الزيني والاسود ، تراب أحواض ديارات بيوت جيران العمر الطيبين الاعزاء الاحباء الاقرباء كالاهل وأكثر : بيت عمي « أبو ماجد » عبد العزيز الكيلارجي ، الطبلة بالطبلة ، والقلب على القلب ٠ وبيت الصباغ وبيت المرتضى وبيت عوض وبيت الليموني وبيت القني وبيت العشا وبيت الطرابزونلي وبيت ظريف افندي ، وبيت الدالاتية وبيت السقا أميني وبيت القحف وبيت الباش امام وبيت الديري وبيت النحاس وبيت فوزي صبري بك وبيت غلا الحليب وبيت عصاصة وبيت ظاظا ، وبيت الترك ، وبيوت كثيرة أذكرها أذكر أبوابها ، ولا أذكر عائلاتهـــا ٠

تبدأ بنزلة القره ماني من سوق ساروجة « مواجه» حارة « قولي » ٠

حارتنا ، حارة القره ماني لها قوس ٠ علـــى كتفها الايمن دكانـــة عمي « أبو راشد » البقال كامل الاحمدي واخيه مظهر الاحمدي ٠

حارتنا ، تنتهي بحمام القره ماني وبدكانة مجيد الفوال وسوق العتيق على « ايدك اليمين » وتنتهي من « نـاح » بيت المرتضى وبيت ظريف أفندي على ايدك الشمال بخان الزيت والقطران من « نـاح » بيت الدالاتية ٠ ومن خان الزيت « بتنفد » على سوق العتيق وسوق التبن والزرابلية وســـــوق الهال عند السكة ٠ وحارتنا « بتنفد » قبل خان الزيت على أيدك الشمال على سوق ساروجة عند حمام الخانجي وقصر العظم وطلعة سوق الهال وحارة السمانـــــة ٠

في حارة القره ماني ، في قلبها تماما ، وبين المفارق الثلاثة كان يقع المركز الستراتيجي لشحاد حارتنا الطيب العجوز الشـــهير « ابو دعاس » ، الـــذي كان يتنافس عليـــه مـــع الشحاد أبو عبـــدو ، والذي يتبادل فيـــه الشجون حول الحياة والزوجة والاولاد مع ابو انور بياع الترمس والبليلة أبو السلة ٠ وكان أبو دعاس يتسابق على احتلال « مصلبة » القره ماني مـــع

شحادة حارتنا وحارات الشام «المجدوبة » «أكرام» وأمها ٠ وأحيانــــا يتزاول من مرور الشحاد المجنون الذي يطلب الحسنة شعرا ، في يده عصفور من الشمع مزين بالورود الشمعية ، مغنيا :

« عصفوري ياعصفور » مارا تائهابالحارات طالعا نازلا من الترامو ايات المسافرة من المرجـة الى الشيخ محيى الدين في الصالحية والمهاجرين والعمارة وباب توما والقصاع والميدان ودوما ٠

ومازالت الشحادة « اكرام » تتفتل بملايتها السوداء المتسخة المرقعة في حارات دمشق الشعبية القديمة ، وفي شوارعها البورجوازية الحديثة حتى اليوم ، وما زلت أعطيها « حسنة من مال الله » وتدعو لي « بالرزقة » وأنا ابتسم لها بعين دامعة ، وارتفع سعر الحسنة من قرش سوري من خرجيتي الى ليرة سورية من راتبي ، بين زمنين يفصلهما ثلاثة وثلاثون عاما ، وبين حيين قديم شعبي اسمه «سوق ساروجة» وحديث أرستقراطي أسمـه «أبو رمانـــة » ٠

وعلى هذا المفرق في حارة القره ماني الذي جف قربه «السبيل» ، وكانت وما تزال تطل على الحارة « أخصاص » شبابيك « فرنكات » بيوت خمسة متجاورة بيت الترجمان وبيت الكيلارجي وبيت المرتضى وبيت عوض وبيت الصباغ ، تمتد وتختفي وراءها رؤوس البنات والصبايا والزوجات في هـذه البيوت ، ترى المارة وتسمع حواراتهم وترى مـــن يدق سقاطات الابواب النحاسية ، دون ان يميزها أحد وكأنها أشباح لكائنات شرقية حبيبة جميلة تدق لها القلوب ، وظـــلال لنساء محجبات وجنيات عربية عاشقة ، تجـن بعاشقها ويجن بها ٠

خط عمري من أوله الى مالانهاية يتعشق هذه المدينة العتيقة « الشام » كما تتعشق « الستاتي » قمريات ومندلونات قاعات وصاليات ومربعـات أهلياتي في حارات : البحصة والشالة وقولي والمفتي والورد والعبيد وبندق والسمانة « محل ماضوع القرد ابنه » ، والعمارة، ومادنة الشحم والشاغور وباب بريد والقنوات والبريدي والسويقة وعسقـلان وبـاب مصلى ومـز القصب ٠

تماما كما تتعشق « كشة الحمام » «أسطوح» حميماتي حارتنا ، وكمـا تتعشق المطر مزاريب اساطيحنا المطينة بالطين الاحمر والقش ، وكما تتعشق صغار قططنا المدللة « شامة » النوم والنفخ « والقراءة » في أعبابنا تحت اللحف في ليالي الشتاء الممطرة وتحت الدلف وكما تتعشق الخرمشـــة والنط واللعب بكراكرنا وبين ايدينا وبين زريعات أحواضنا ، والنـوم والكســل

والمطمطة والرضاعة على فروة جلد الخروف الابيض ، الممدودة على قواطعنا أو طراريحنا أو فوق سجادتنا أو بساطنا أو حصيرتنا ، أو كما تتعشق أكل « الشخت » في مطابخنا ، أو سرقة اللحم والسمك من مطابخ جيراننا ، عندما تكبر وتبدأ تقفز الطبلات الى بيوت الجيران ·

روحي تتعشق الشام كما تتعشق الدبابير والزلاقط عناقيد عنب دالية مشرقتنا ، وكما يتعشق الحطب النار المجنونة الهادرة داخل « الحربة » تلك الصوبا العزيزة التي تشوي « الكستنا » في الرماد تحت بابها المشقوق في عز كوانين في « أوضة » قعدتنا وسهرتنا ، وكما تتعشق روائح قلي « البيتنجان المقطوف المقلي بالزيت » أجواء بساتين « المزرعة » حول مياه « عين الكرش » الصافية ، على بابور الكاز وفي مقلاة بيتنا ونحن برفقة امنا وأبينا أيام الجمع وفي عطلة مدارسنا ·

الشام تتعشق عمري تماما كما تتعشق أمسيات الشام الغابرة وليالي الصيف الساحرة انغام أوتار آلة « العود » ، الآلة الموسيقية الدمشقية ألحان « البشارف » كبشرف « طاطيوس » وبشرف « حجاز كار كرد » وبشرف « عثمان بك » وبشرف « سماعي » ، وألحان الدولاب والتقاسيم والموال والاغاني ، المنتشرة كالسحر من عود « النحات » وريشة الملحن والموسيقي الدمشقي « صبحي سعيد » من ليوان بيتنا ·

الشام تتعشق عمري ، تتعشقه قبل ولادتي وعلى طول خط العمر وبعد الموت ·

الشام هي ربيعي وصيفي وخريفي وشتائي ·

والشام هي أمي وابي واختي واخي وزوجي وحبيبي وابني وابنتي وحفيدي وحفيدتي وجدي وجدتي وصديقي وصديقتي وجاري وجارتي ·

الشام هي كل أهل الشام ، كل الذين عاشوا فيها وماتوا فيها وكل الذين يعيشون فيها وكل الذين سيعيشون فيها ·

الشام هي اقربائي ، هي أخوالي وأعمامي وخالاتي وعماتي ·

الشام هي العائلات الشامية العريقة « المشرقية » التي انتمي اليها من أهل أبي : بيت الترجمان وبيت البصراوي وبيت السادات وبيت الحلبي وبيت شاهيني وبيت القطان وبيت الادلبي وبيت الشريف وبيت طالو آغا وبيت الصافي وبيت الطحان وبيت بركات وبيت المحتشم وبيت العابي وبيت الاستاذ وبيت الناظر وبيت جليلاتي ، وبيت شعبان وبيت جبري وبيت العجة وبيت الاسطواني وبيت عودة وبيت مراد ·

والشام هي العائلات الشامية « المغربية » الجزائرية الاصل التي أنتمي اليها من أهل أمي في حي الميدان وحي السويقة : بيت الحبال وبيت الينيوي الجزائري وبيت البهلول وبيت الشريف وبيت خليفاوي وبيت اليحياوي وبيت اليعقوبي وبيت ظبيان وبيت دبا وبيت الطويل وبيت الهاشمي وبيت المجد وبيت بركات وبيت جمعه وبيت ساريج وبيت الطيب المغربي وبيت الطيب المبارك وبيت عمار وبيت شيخ مشرقة ٠

دمشق الشام هي الاسر الدمشقية العريقة من جيراني وأهلي والعلائلات الدمشقية الكثيرة من المعارف والاقارب والاصدقاء ، فعائلات دمشق كلها تربط بينها صلة القرابة بسبب تزاوجها من بعضها اذكر منها : بيت القباني وبيت سكر وبيت جبري وبيت النوري وبيت المهايني وبيت حباب وبيت المحلجي وبيت الاشمر وبيت البيطار وبيت الميداني وبيت الطباع وبيت القوادري وبيت القوتلي وبيت البكري وبيت الزين وبيت الخرسا وبيت العابد وبيت اللحام وبيت القصاب وبيت دياب وبيت بقدونس وبيت الزهرة وبيت قشلان وبيت شغليل وبيت القضماني وبيت حمودة وبيت مراد وبيت حقي وبيت الادلبي وبيت الجلاد وبيت قطرية وبيت اكريبوز وبيت الحلبي وبيت الحمصي وبيت الحموي وبيت المرابط وبيت النحاس وبيت عربي كاتبي وبيت البني وبيت الطرابلسي وبيت القربي وبيت القلعي وبيت لوستان وبيت الشربجي وبيت الترك وبيت بوظو وبيت القطب وبيت ملص وبيت الخوري وبيت عويشق وبيت ملوك وبيت شامية وبيت الشماس وبيت ابو شعر وبيت سبع وبيت اسبر وبيت لويس وبيت الخباز وبيت قشيشو وبيت الشلبي وبيت فرح وبيت مالك وبيت قندلفت وبيت كساب وبيت العبسي وبيت مشاقة ٠

دمشق هي أهل الشام وأهلي ٠

ولدتني « امي عزيزة » أول مرة في حي « العمارة » في كانون أول ١٩٣٢ وكانت الدنيية « تلج » ٠ وولدتني « أمي الشام » تاني مرة في حي « السبكي » في ٥ حزيران ١٩٦٧ وكانت الدنية « حرب » ٠

وبين الولادة الاولى والثانية كانت الشام تولد داخلي وتتشكل ٠

وبين نقطتين ، وبين بيتين ، وبين زمنين ، ولد قدري ككاتبة من خلال مدينتي العربية القديمة ٠

وبين احياء دمشق العربية القديمة العتيقة الشرقية الطبع ، العمارة ، سوق ساروجه ، الميدان ، القنوات ، الشاغور ، القيمرية ، الصالحية ٠

المهاجرين ، باب توما ، الحميدية ، وبين أحيـاء دمشق الافرنجية الحديثة الغريبة الطبع ابو رمانـة ، السبكي ، المزرعة ، المالكي ، المزة الجديدة ، شارع بغداد ، التجارة ، تمت ولادة الحقيقة من التناقض • وتمتولادةكتاب «يامال الشام» من احساسي بالخطر ، ومن خوفي على «الشخصية العربية للشام » من تهديد العدو الاسرائيلي بالاحتلال ، ومن تهديد معول الحضارة المعاصر المزيف بالابادة والهدم •

تمت ولادة « الشام » الاصيلة من رحم الروح عندي وصرت أما لاكبـر بنت •

يكاد « قدري » يضيعني حيرة ، بين ان أكون بنتا للشام أو أما روحية للشـــام !!

بين أن أسكن الشام أو تسكنني الشام !! بين أن أكون جسدا بشريا روحه مدينة من البيوت العربية والبساتين والانهار والجبال ، او ان تكـون الشام « مدينة » بيوتها تارة من الطين والماء والخشب والقش واللـــون والحجر والرخام والزجاج الملون والزهر والشعر والشجر والحب ، وتارة من الاسمنت والحديد والالومنيوم والزفتوالبلاط وحب الـذات وحب المـال . مدينة قديمة ــ جديدة ، تستوطن صدر امرأة من لحمها ودمها ، امرأة من لحم ودم ، مدينة روحها أمرأة من نسائها •

مسؤولة انا عن الشام الاصيلة مسؤولية الفارس العربي عن الفرس العربية الاصيلة المنسوبة • ومن يحب يعرف معنى مسؤولية المحب امـــام الحبيب •

مامضى من عمري لها ، تلك الفرس العربية الاصيلة المنسوبة • ومـا تبقى من عمري لها • وان قدر لي أن احمل مسؤولية تسجيل كل كلمة قالتها الشام وكل حكمة ، من خلال حبي وأعجابي وقلميووهج الحضارة داخـلي ، فـأنـا عنـد قـدري •

وما اكتبه عن الشام لااكتبه أنا ، وانما تكتبه روحي ، الشام نفسها ، العصفورة التي بنت عشا لها في صدري ، فيه تغني وفيه تطعم صغارها وفيه تنام • القلم بيد أهلها الطيبين لابيدي ، الريشة بيد « معلميها» المجهولين في العمارة لابيدي •

لاشك في ان الله يحب الشام •

لاشك في ان الله يحبني •

لاشك في ان الشام تحبني كما أحبها وأكثر حتى تخصني بهذا الفيض الروحـــي ٠

والشام كمدينة لها شخصيتها المتميزة هي وتاريخها وأهلها وبيوتهـا وعاداتها وتقاليدها ، انما هي رمز للتراث العربي العام « لبلاد الشام » التي تمتد من سقي الفرات الى سقي النيل كما جاء في رأي العلامة المؤرخ الدمشقـي « محمد كرد علي » في « خطط الشام » ٠

وكان كتابي « ياما الشام » لوحة من الحب اودعتها كل الحب للوطن عبر المدينة دمشق ، وكل التقديس لحضارة بلاد الشام عبر حضارة الشام ٠ لوحة رسمتها بريشة غمستها في قلبي وعقلي وطفولتي وشبابي ، وماضـي وحاضري ، وعفويتي وفلسفتي ٠

في ربيع عام ١٩٦٩ صدرت الطبعة الاولى ٠
وفي خريف عام ١٩٧٨ تصدر الطبعة الثانية ٠
نفدت الطبعة الاولى من زمان ٠

واشتعل لهيب البحث عن « ياما الشام » واشتعل السؤال ، واشتعل الفرح في قلبي واشتعل سعر الورق في العالم ٠

وبكل فرح وبكل تواضع أقول : لشدة لهفة « عشاق الشام » على اقتناء « ياما الشام » كتابي « المحظوظ » ، كان لابد من طبعة ثانية سريعـــة تضم بعض الصور الجديدة وترد اللهفة وتسقي عطش الشوق ٠

وكنت خلال الاعوام التي مرت اخفي في الضلوع سرا أريد أن أكشف الستارة عنه عندماتكتمل بين يدي « القطع الجديدة الفولكلورية » عن الحياة الدمشقية الشعبية بلهجة أهل الشام العامية ، تكمل في الطبعة الثانية روح النصف الاول من الطبعة الاولى ، وهو النصف الذي كتبت فيه عن الشـــام بروح البيتالعربي الشامي المبني بطين الارض والمحبة ٠

الا ان نفـاد الطبعة الاولى مـن سنين ، ولهفة الناس على الكتاب ، قـد أجبراني على تأجيل نشر « القطع المثيرة الجديدة » حول أدق مافي حياة أهل الشام من نعومات وتفاصيل ، الى الطبعة الثالثة التي سابدأ بها مباشرة بعد صدور الطبعة الثانية باذن الله ٠

وسوف تكون الطبعة الثالثة وقفا على اللوحات الشامية بلهجة هي بين العامية والفصحى ، دون الخواطر الادبية الفكرية والفلسفية التي جاءتباللغة

العربية الفصيحة . تماما كما أراد صباح قباني وكل المعجبين من اصحاب الرسائل الغالية على قلبي والتي سأنشرها كلها في الطبعة الثالثة كوسام على صدر « يامال الشام » ، هذا الكتاب الذي أحبه الناس لانهم هم قد كتبوه. أحبوه لانهم يحبون أصالتهم وحضارتهم وتراثهم ومدينتهم وعاصمتهم ، لانهم يحبون كل مدينة وكل قرية عربية ذات نفس أصيل .

وكان عشق الفنان العربي السوري الكبير عبد القادر النائب ابن أريحا ــ حلب ، لفاتن الشام مدينة عربية حضارية الصورة والجوهر ، وكان اعجابه « بيامال الشام » ككتاب ، مبعث حظ كبير لي ولاسرتي الدمشقية .

فقد أحب فنان «البورتريه » الاول في سورية ، «وملك البورتريه » كما سماه « العماد مصطفى طلاس » نائب القائد العام للجيش والقوات المسلحة وزير الدفاع في الجمهورية العربية السورية، أحب عبدالقادر النائب أن يخلد صورتي ككاتبة شامية وكمؤلفة لكتاب « يامال الشام » وعاشقة للشام بلوحة زيتية يهديها لمن سوف يسأل عن الاديبة الشامية سهام ترجمان بعد مئتي سنة او ألف سنة . لاننا ــ يقول عبد القادر ــ كنا نتمنى في هذا العصر لو تركت لنا « ولادة » الشاعرة الاندلسية عاشقة الشاعر ابن زيدون وحبيبة ابن زيدون، لوحة فنية بريشة فناني عصرها، تخلد صورتها الحقيقية التي تغنى بملامحها الشاعر الاندلسي المحب . فقد عرفنا من شعره أنها كانت بيضاء ذات شعر أشقر وعينين سوداوين . أتصورك ياسهام «ولادة» معاصرة ولدت هذه المرة ونبتت في الشام نبع الاندلس . وكانت لوحتي . وبلغ حب الفنان وفهمه لشخصيتي أبي وأمي من خلالي وخلال ماقالاه لي في القطع الشامية ، مكانة تعادل حبه وفهه للشخصية الدمشقية ولدمشق مدينة وعاصمة نفخر بها ذات شخصية آسرة بين مدن الغرب والشرق .وخلد الفنان وجهي أبي وأمي بلوحتين من ألوان الباستيل الشفافة .

وهذا هو الحظ الذي دعت لي به « أمي عزيزة » « أم صلاح » عندما قالت لي :

« روحي ربي يآتيك بالحظ ياسهام » .

وهذا هو الرضى الذي كسبته من « أبي فهمي » «أبو صلاحين »عندما كان يقول لي :

« الله يرضى عليها هالحلوة » وكان اسمي عند أبي الحلوة .

وكم يملأني شعور الفخر وكم تجتاحني السعادة بهذا اللقاء بين قلمي المتواضع وريشة عبد القادر النائب العبقرية .

وكم ستكون روحي راضية بعد الموت وبعد مئات السنين ان يحكى عني ككاتبة شامية بأنها التقت في عصرها مجموعة من أعظم الاساتذة والاصدقاء والادباء والشعراء والفنانين والعلماء والموسيقيين والمطربين والموهوبين والاثرياء بالروح والاغنياء بالعطاء والمحبة وحب الشام مثل زوجي الشهيد النقيب فؤاد محفوظ العسكري المثقف ابن قرية دير ماما ـ مصياف ـ حماه ، وابن حمص الصديق المثقف أحمد اسكندر أحمد ، والشاعر نزار قباني ، والصديقة ابنة طرطوس نجاة مرقبي خدام ،والفنان عبد القادر النائب والموسيقي صلحي الوادي والفنان عفيف بهنسي والديبلوماسي صباح قباني والفنان الرسام الراحل أدهم اسماعيل والاديب الراحل صدقي اسماعيل والفنان الرسام نعيم اسماعيل والعلامة الاثري خالد معاذ والاديبة سلمى الحفار الكزبري والضابط المثقف اللواء غازي أبو عقل ، والضابط العاشق لدمشق اللواء عبد الغني ابراهيم ، وابن دمشق البار اللواء عبد الرحمن خليفاوي ، والعقيد البحري الراحل عدنان لوستان ، والمثقف جورج صدقني ، والمهندس وليد ملحس ، والمربي الكبير الاستاذ نخلة كلاس ، ورجل المال والاقتصاد الراحل جورج الخوري ، واستاذة الفلسفة جولييت عويشق الخوري ، واستاذ الفلسفة الدكتور بديع الكسم وزميل الدراسة الجامعية أحمد الخطيب ، والخياط الفنان علي صندوق ، والصائغ المبدع جورج ساركة ،وفنان الكاميرا الاول مروان مسلماني ،والاستاذ المترجم المثقف الدبلوماسي الراحل سامي الدروبي ، وعالم التراث والاثار الراحل عبد القادر عياش ، والشاعر محمد الحريري والدكتور الطبيب الراحل صبري القباني والطبيب الدكتور سليم حاصباني والمحامي نجاة قصاب حسن والصحفي نشأت التغلبي والاذاعي يحيى الشهابي والمذيعة عواطف الحفار اسماعيل والناقد سعيد الجزائري والمذيع الرسام مروان شاهين والممثلة منى واصف والممثل هاني الروماني والاديبة كوليت خوري والفنان خضر الشعار والروائي شكيب الجابري والشاعر سليمان العيسى والقاصة الشامية الفت أدلبي والفنان الرسام ناظم الجعفري والناقد محيي الدين صبحي والشاعرة نادية الغزي والفنان المؤلف والمخرج والممثل دريد لحام والناقد خلدون الشمعة وأبن دمشق برهان قصاب حسن والطبيبة الدكتورة ماجدة بركات ، والمذيع توفيق حسن وأستاذ الفلسفة الدكتور عبد الكريم اليافي ، والرائدة العربية الاولى الراحلة عادلة بيهم الجزائري واستاذ الفلسفة الراحل الدكتور جميل صليبا وأخي رجل المصارف صلاح الدين الترجمان والدبلوماسي عدنان عمران ، والوزيرة الاولى الدكتورة نجاح العطار ، وزميلات المدرسة

وصديقــات العمــر دلال قطرية واحســان محمودي وسعــاد غصن سلوم ، والشاعرة عزيزة هارون والصديقــة امتثال لوستان والصديقة نايفة نصر والفنان الياس زيات والقصصي زكريا تامر والاديب جمال الفرا والملحن عبد الفتاح سكر والروائي حنا مينه وصوت فايزة أحمد وصوت أسمهان وصوت فيــروز والشاعر بدوي الجبل والشاعر عمر أبو ريشة واستاذ الفلسفــــة انطون المقدسي ، والديبلوماسية سعاد عبد الله وصديقات العمل رجاءالشيخ عطيــة وماري صودير عكل وأمينــةحســيبي والــدكتــور يحيى النص وصهري التاجــر مصطفى الشريف وصهري المستشار في الطيران المــدني فاروق حمودة وأخي المهندس محمد علي الترجمان والروائي الــدكتور عبد الســلام العجيلي والشاعــر أبو سلمى والشاعــر شوقي بغدادي والقاص سعيد حورانية والطبيب الــدكتور محسن بلال والكاتب العسكــري بسام العسلي والــدكتور خلوصي الكــزبــري والشامي الاصيل مــأمون قضماني والصديقة أمل جزائري هواش ، والصحفي المذيع الكاتب عبد الهادي البكار والدكتور شاكر مصطفى وعالم الآثار الفنان شفيق الامام والكاتب الــدكتور حافظ الجمالي والقاص عــادل أبو شنب والشاعر ممــدوح عــدوان والاديبة قمــر كيلاني والاديب حسيب كيــالي والصحفي فــايــز الصائغ والشاعــر مروان ناصح والاديبــة غــادة السمــان ٠ هم بعض الدمشقيين وبعض مــن عشــق دمشــق وسكن فيهــا ٠ كل يحمل دمشــق علــى طريقته ويمشي ٠

يسعدني أن يكتب عني بعد ألف سنة بأنني مررت من دمشق معهم فــي فترة زمنية واحدة ٠ عرفتهم عن قرب تعلمت منهم كلهم سر الحياة وسر النجاح في الحياة وسر حب دمشق ٠

الذين أعرفهم في الحياة ولم اذكرهم ليسوا خارج الدائرة، هم معنا وكلهم في قلبي وعقلي ٠

كأزرار الياسمين ، نحن ، من مر في دمشق في عصر واحد ٠ خيط خفــي يضمنا في عقد على صدر الشام العاجي ، تفوح منه عطور الياسمين التي تملأ رئتي المدينة ، وأنا زر من أزرار ياسمين الشام لايعطي الا مع بقيـــة ازرار عريشة الياسمين التي تظلل دمشق عبر العصور ٠

وكم أشعر بالخجل والفخــر معا من مديح عشاق الشام ومعجبي كتاب « ياما ل الشام » عبر القلم كقلم صباح قباني وعبر الريشة كريشة كل فنان ساهم بلوحاته في « ياما ل الشام » ٠

فهذا الفيض من الحب يأتيني من المحبين والاصدقاء والقراء الذين أعرفهم والذين لاأعرفهـــم ، لانني سجلت في كتاب ببساطة وعفوية « قصة عشقــي

لمدينتي دمشق » ، هو النبع السحري الذي أشرب منه كأس السعادة الذهنية الابدية وماء الخلود ، وغدوت اختال في شوارع الحياة ، مزهوة بالنصر على الموت والعدم • أمنيتي الكبيرة أن اتحول الى اسطورة كالهة دمشقية معاصرة ستكتب لها الحياة الابدية ـ لشدة حبها للحياة ـ لانها أحبت مدينتها حبا أسطوريا حقيقيا صادقا ، فرصدها هذا الحب لقدرها كالهة تعطي ولاتأخذ ، كعشتار الهة الخصب ومنيرفا الهة الحكمة ، وفينوس الهة الجمال في الياذة هوميروس وأساطير ايبلا وماري وبابل وآشور وسومر واوغاريت •

لقد خلدت عشتار ومنيرفا وفينوس مفاهيم ومعاني وقيم الخصب والحكمة والجمال ، واتمنى ان يتحقق بقلمي مع بقية الاقلام التي سبقتني ، الخلود لقيم ومعاني « الشام المدينة » بعد خمسة آلاف سنـة •

يامن أحببتم الشام في كتابي « يامال الشام » اسمحوا لي أن أربط بين أعمال الفنانين صباح قباني وخالد معاذ وعبد القادر النائب ومروان مسلماني وقلمي بخيط من « القصب الذهبي » اشتريته من سوق العقادين الواقع بين سوق الحرير وسوق مدحت باشا في دمشق •

سأنشر الرسالة التي كتبها لي الدكتور صباح قباني المستشار في سفارة الجمهورية العربية السورية في جاكارتا اندونيسيا من اقصى الشرق الاقصى حيث منابع الشمس والضوء والصبح والحكمة ، رداعلى هديتي «يامال الشام» له ولزوجته صديقتي العزيزة وزميلة المدرسة الشاعرة مها نعماني عام ١٩٦٩ •

ونحن عام ١٩٧٨ •

ارسلت رسالة لسفير الجمهورية العربية السورية في واشنطن ـ الولايات المتحدة ، الدكتور صباح قباني ، اطلب فيها الاذن بنشر الرسالة في الطبعة الثانيـة •

وعبرت موافقة الدكتور صباح قباني المحيطات والقارات ، من أقصى الغرب ، حيث سرير الشمس ، وطارت وهدت على هاتفي دمشقية الطبع والاسلوب كستينية تهدل بمحبة وحنان وسعادة :

ـ ألو ياشام ••• احكوا امريكا على الخط !! وعرفت أنه صباح قباني قبل ان يتصل الدمشقي بالدمشقية والصوت بالصوت ، وقبل ان اتلقى موافقته الحارة وتهنئته باعادة طبع « يامال الشام » •

ـ ألو ياسهام مرحبا •• !! كيفك •• !؟

– ألو أهلين وسهلين ياصباح كيفك وكيف مها والبنات !! ؟ اشتقنا وعتبانين عليكن ؟

– ألو ٠٠ حق معك نحنا مقصرين ٠٠ مشتاقين للشام وللاهل ٠ مها بتسلم عليكي ٠ طلع الزهر بالغوطة ياسهام ! أسمعي ٠٠ أنا موافق على طبع الرسالة ٠ ايمتى رح ينتهي الطبع ! ؟ سهام ٠٠ دخيلك انتبهي للاخطاء المطبعية ! ؟

وابتسمت لان صباح لايدري المفاجأة ٠

صباح لايدري اني قررت نشر رسالته كوثيقة اعتز بها في الطبعة الثانية كما هي بطريقة التصوير ، فخط صباح ينساب على الاسطر بعذوبة كروحه المتألقة الفياضة المرحة ، كصوره الادبية ومعانيه العميقة ٠ والاخطاء المطبعية الوحيدة – ان وجدت – ستكون اخطاؤه هو في رسالته الغالية الي ٠ واتمنى ان تكون « خربشاته » في الرسالة هي اكبر خطأ في كتابي ومأحلى هذا الخطأ ٠ ومن يحتفظ برسالة تسع سنين لن يسمح بالخطأ أن يمسها ٠

الجديد الثالث هو الصورةالتي أحبأن يثبتني فيهاالى الأبد فيبساتين دمر والهامة بكاميراه الفنان المصور مروان مسلماني ، لشدة اعجابه «بعشقي» لبساتين الشام في الغوطة وفي المزرعة ودمر والهامة والربوة وقدسيا ووادي بردى والزبداني وبلودان والتل ومنين وعين ترما والجريد والحواكير بالمهاجرين ٠ هذا العشق الذي تجسد في وصفي لذكريات السيران والصيفية في دمر مع أهلي في قطعة « يرحم أهل أول » ، وفي دفاعي عن البساتين والشجر والزهر التي تتعرض في هذا الزمن للابادة ليحل محلها عمارات عالية من الاسمنت والحديد ٠

وكان حظي من كاميرا مروان مسلماني عظيما ٠ وكان الغلاف الاخير من الطبعة الثانية ٠

الجديد الرابع هو الغلاف الاول من كتاب يامال اشام ٠ انه لوحة « العربابة والعربجي والخيل والعيلة الشامية » ، والكل في نزهة صيف يمرون امام جامع « التكية السليمانية » وصدر الباز ، على طريق الربوة ودمر ، في العصر الذهبي للشام الوادعة الجميلة الخضراء النظيفة الطيبة ، وهي تحمل أهل الشام وزوار الشام للبساتين والغياض وضفاف الشادروان « وتخوت » نهر بردى ٠ كانت تحملهم « بالعربايات » على ايقاع حوافر الخيل ومواويل ليلى ياليل عيني ياعين ٠

الجديد الخامس في هذه الطبعة مجموعة من الصور الفوتوغرافيـة عن بيوت دمشق العربية ، ومجموعة من الصور التاريخية المخطوطة مأخوذة مـن مجموعة الدكتور يوسف سمارة الخاصة القيمة ومن مجموعة الفنان مروان مسلماني ، عن فنانين المان وانكليز رسموا دمشق بالريشة عندما زاروها منذ مئـة سنة ونيف ٠

القطعة الجديدة السادسة التي افخر واعتز بها فهي قطعة « السفر برلك » التي تلقيتها بكل تفاصيلها من فـم أبي وفـم أمي مؤلفي القطعة رحـم اللـه التراب الذي ضمهمـا ٠

قصة السفر برلك أخذتها بحرفيتهـا عن والدي فهمي بن مصطفى آغـا الترجمان عن اشتراكه في الحرب العامة الاولى ، وبلهجته الشامية المرحـة المحببة الـى قلبـي ٠

جلست على «القاطع» في غرفة أبي عام ١٩٧١ وكان مريضاً وطلبت منه ان يروي لي تفاصيل اشتراكه في حروب البلغار وشنق قلعة والسفر برلك ٠ وبدأت أكتب وأسجل ٠ هو يحكي وانا اكتب واكتب وأسجل بسرعة البرق كلماته حرفاً حرفاً ٠ وكلما يبست يدي وكلما نشف حلقه وأحس بالتعب ، كنا نتوقف وأسكب له كأساً من « الشاي الخمير » من ابريق الشاي الطيب الذي يحبه ابي ويصنعه باتقان بيديه ويحليه « بالسكر عمومي » ويغطيهبالبشكير حتى يختمر ٠ فقد كان الشاي من أختصاص أبي في بيتنـا ٠

وجلست الى جانب سرير أمي في غرفتها وهي مريضة عام ١٩٧٣ ،والقلم والدفتر بيدي وبدأت أسجل تفاصيل ذكرياتها عن حالة الشام وعائلات الشام أيام الجوع بالسفر برلك ، هي تحكي وانا اكتب واسجل كل كلمة بلهجتهـا العذبة المتفجرة بالحنان والامومـة والطيبـة ٠ وعندما تتعب اطلب منها ان تستريح واقدم لهـا كأسا من الشاي الذي كانت تحبه من يد أبي ٠ ثم أعود فاسجل المعلومات الموجعة المذهلة عن أيام قاسية لانعرف عنها شيئا وعاشتها في طفولتها وانحفرت فـي ذاكرتها ٠

حدثتني أمي عزيزة بنت الشيـخ علي قاسم البهلول الجـزائري عـن السفر برلك وتكامل حديثها وحديث ابي ٠

ومات ابيعام ١٩٧١ وماتت امي عام ١٩٧٣ ٠ وتعانقت ريشة عبدالقادر النائب وتلمي على واجب تخليد ابي وامي رمز كل أب وأم في الشام ٠

أنشر « السفر برلك » القطعة التي اعتز بها ، للمـرة الاولى ، وانا أرفع قلبي وعيني ويدي لسماء الشام ان تنزل الرحمة على تراب « ابي فهمي وامي عزيزة » في تربة الباب الصغير فـي حـي الميـــدان في الشـــام ٠

ومازلت اطلب رضى اللهوالوالدين من ابي واميوهما في القبر والجنة٠

فمن « الحياة الشعبية الذهبية » التي عشتهـا في ظل اسـرة عـربيـة دمشقية كريمة عريقة تمكنت ان أعرف « سر الشام » ، وتمكنت ان أصل الى سر الحياة وسرالحب وسر الخلود ٠

وأكبر الحب أن نحب أسرتنا وأهل حارتنـا وأهل وطننا أولا ٠ واعظم الحب ان نحب بيتنا وبيت جيراننا وبيوت حارتنا ومدينتنا ووطننا ٠

نحب كل الناس وكل المدن ، لو أحببنا أهلنـــا أولا ومدينتنا أولا ٠

سواء اكانت مدينتنا صغيرة ام كبيرة ،

سواء اكانت قريتنا قريبة ام نائية ،

سواء اكان حينا فقيرا أم غنيـــا ٠

وحب الانسانية كلها يبدأ من حبي الحقيقي لانساني انا اولا ، كما هو لاكما يجب أن يكون ، فليس للحب شروط ٠

وحبي الحقيقي لمـــدن الاخرين وقرى الاخرين يبدأ من حبي الحقيقي لمدينتي أولا ٠ ومن لايحب المكان الذي ولد فيه لن يعرف لذعة الحب الحقيقي لاي مكان٠ ومن لايحب مدينته لن يحب حب الاخرين لمدنهم ٠ وحبي لدمشق لاينفي حبي لمدن وقرى الاخرين ، وحبي للشام « المدينة » هو حبي لبلاد الشام من سقي الفـرات الى سقي النيل ٠ وحبي لابن الشـــام هو حبـــي للانسان العربي من المحيط للخليج ٠

اعتـــرف ٠ أنا مريضة بحب الانسان الدمشقي الشعبـــي الفقير الاصيل وبكل انسان أصيل فقير ٠ وأنا مريضة بعشق الشام مسقط رأسي ولاأحب أن أشفى ٠ ولن يبهرني الجديد اذا كان مزيفاوبلا هوية عربية ، ولن ينسيني وفائي للقديم وللعريق ٠ وكما يقول المثل الشامي « اللي مالو عتيق مالـــو جديد » والذي يلهث وراء الجديد مخلفا وراءه التاريخ رافضا الاستناد على أعمدة الحضارة يسقط ٠ وانا لا احب أن أسقط ٠ وليس من طبعي أنأسقط ٠ أنا طالعة أبدأ نحو الحضارة العربيـــة ٠ والحضارة العربية مـاض وحـاضر

ومستقبل • ولن تنسيني مدينة دمشق الجديدة الشام في المـزة ، الشام في أحيائها الشعبيــة والشام « داخل السور » ، ولن ينسيني شارع « أبورمانـة» مدينـة ماري ومدينة تدمر ومدينة أوغاريت ومدينة لاوذيسيا ومدينة بصرى ومدينة ايبلا ومدينة أفاميـا • مستحيل •

ولن تنسيني السيارة متعة الركوب بالعربة علـى ايقاع حوافر الخيل العربية الاصيلة •

الشام ، جزء من الحضارة السورية القديمة ، تسكن صدري كالروح ولن تفارقني الشام الا عندما تفارقني الروح •

والشـــام قطة بيضاء سمينة مدللة أسمها « شامة » تنام في عبي في الليل « وتقرأ وتنفخ وتكتب » •

واكتشفت عندما طار الكتاب وسافر كالريح الى العالم ، انني لست وحدي ، أنتم معي ، أنا أنتم ، وصورتي هي صورة الكـــل •

« ياما ل الشام » نبع صافي السريرة وكل واحد فيكم « نرسيس » يرى في مــرآة النبع ذاته الجميلـة ويحبها حتى درجةالفناء ويرمي نفسه في « نبع الشام » حتى لو كان يسكن آخر الارض •

« وثورة الحنين » التي اثارها ياما ل الشام في ضمائر أهل الشــام وعشاق الشام من العرب السوريين واخوتنا العرب في الوطـن العربي وفي المهجر والمغترب في مشارق الارض ومغاربها من استراليا حتى كندا وامريكا الشمالية وامريكا الجنوبية ، لهي ثورة تدل على خلود هذه المدينة اقـــدم مدينة في التاريخ ورمز المدينة العربية في الوطن العربي •

انهــا ثورة حنـــين الى المدينة العربية الاصيلـــة ، الى تقاليد البيت العربي العريق الى اخلاق الاسرة العربية العريقة في المدن والريف والصحراء من الارض العربيـــة •

ان اهتمام المستشرق ميشيل باربو البروفسور في المعهد الوطني للغات الشرقية في باريس ، بدراسة « ياما ل الشام » ، والاخذ عنه في دراساتـــــه ومقالاته ، وزيارته الخاصة لي في بيتي في دمشق عا م١٩٧٣ للسؤال عـــن شرح الامثال الشعبية الشامية الواردة في الكتاب وعن نداءات الباعة فـــي أسواق وحـــارات الشام ،

وان لهفة المستشرقين الاجانب وجامعات العالم وكل من يهتم بقضايا التراث والفولكلور العربي من الطلاب الجامعيين العرب والاجانب ومن اساتذة مادة التراث في العالم الغربي ،

وما عبر عنه من أعجاب وفرح حقيقي المواطن العربي السوري وابن دمشق جان كساب الاستاذ في معهد اللغات الشرقية التابع لجامعةالسوربون في باريس ، وانكبابه على الاستعانة بقطع الكتاب لتدريس « اللهجة الشامية » لطلاب المعهد المستشرقين ؛

وما لمسته من اعجاب المواطن العربي السوري التاجر الدمشقي المغترب في هيلسينكي ـ فنلندا ، عبد المجيد عرار ، ومحاولاته الجادة لمساعدةالمستشرق الفلندي الكبير البروفسور آرامز سالونين رئيس جمعية الصداقة العربية الفنلندية ، والبروفسور آرو ، على ايجاد طريقة سهلة لتدريس « اللهجة الشامية العامية » لطلاب جامعة هيلسينكي من عشاق اللغة العربية الفصحى، واللهجات العربية العامية لكل مدينة وقرية عربية ، وذلك بتسجيل القطع العامية من كتابي بصوته على شريط تسجيل ، ثم مساعدته للبروفسور آرو في تفسير الامثال العامية وشرحها للطلاب ،

كل هذا وغيره كثير كثير ، قد منحني القوة على متابعة الرحلة مع دمشق الشام اقدم مدينة في التاريخ ؛ على طريقتي الخاصة وبلهجة أهلي أهل مدينتي ٠

وأن أعاد «صقر قريش» الدمشقي الاموي «عبد الرحمن الداخل بن معاوية ، » أمجاد الشام والامويين في عمران الاندلس وحضارة الاندلس ،

فأنا أحس بأني امتداد له عبر التاريخ ٠ أموية أنا كعبد الرحمن الداخل تحاول اعادة بناء دمشق الجديدة على صورة دمشق القديمة لتوفر عنصر الديمومة للحضارة وللروح في هذه المدينة العظيمة ٠ تحاول أعادة رسم عمران الشام وتصويرها بالقلم وبالقلب للحفاظ على أسلوب العمارة الدمشقية العربية ، وعلى هوية الانسان العربي ، بعد أن كاد الحريق الكبير يأتي على ماتبقى من أصالتها وروحها ومعالم حضارتها ٠

□ □ □

جاكارتا ٣٠/٥/١٩٦٩

رسالة صباح قباني

العزيزة سهـام :

لاأزال أتساءل ٠٠ أيهما أحلى : الشام ؟ أم كتابك عن الشام ؟ ٠

وأكاد أظلم هذا الذي دفعته الى الناس حين أسميه كتابا ٠ انه بالاحرى قصيدة عذبة ، صلاة شفافة كتبتها في حب دمشق بقلمك الذكي الوفي ـ وما أقل الاوفيـاء لدمشق ٠

لاأدري لماذا تذكرني سطورك بقطعة من سجادة عجمية ثمينة كانت عند عم لي ٠ كان عمي هذا يقطن أيام الثورة السورية في زقاق سيدي عـامـود (مكان الحريقة الآن) ، وكان بيته آية في الفن الشامي العريق بزخارفـه وهندسته، وبما كان يغص به من تحف ، وزبادي صيني ، وسجاد عجمي ٠

وحين قصف الفرنسيون الحي وحدثت الحريقة الكبيرة ، أتت النار على بيته وراحت تلتهم كل مـا فيه بلمـح البصر ٠

وركض عمي مـع الراكضين ، تحت جنح الليل الذي اضاءتـه النيران ، لينجو بنفسه وبأسرته ٠ ولكن قبل أن يجتاز الباب ، توقف لحظة ، والتفت الى الـوراء ليلقي على البيت المحترق نظرة أخيرة ، نظرة أودعها كل مافي قلبه من حزن وأسى وحب وذكريات ٠ وفجأة طارت قطعـة ملتهبة الاطـراف مـن سجادة القاعة وسقطت الى جانبه ٠ فما كان منه الا أن أطبق عليهـا بكلتـا يديه دون أن يبالي بالنـار المشتعلة فيها ، وراح يخمد لهيبها بأصابعه ، ومن ثم ضمها الى صدره وانطلق بها وهو يحس وكأنه يضم كنوز الارض ٠

ومرت الايام ٠٠ وساءت حال عمي ٠ وقطن في بيت اسمنتي متواضع في ضاحية المزة ٠ الا أن قطعة السجاد الصغيرة المحترقة الجوانب ظل لهـا مركز الصدارة في منزله ٠ كانت رمزا حيا لبيته الذي ضاع ٠ كانت تتمثـل له فيها زخارف بيته العربي الجميل ، ودياره الرحبة ، وأحواض زهـره وياسمينه ، ونافورته الصادحة ٠٠ كانت هي بيته ٠

الفنان خالد معاذ ـ دمشق

كتابك يـاسهــام هـو قطعـة السجادة الثمينة التي انقذتها بأصابعك الجريئة من الحريق الكبير الذي ما انفك يلتهم دمشق ٠ أنقذتها لنا ــ لكـل الذين يعرفون كيف يحبون دمشق ، ولكنهم ماعرفوا ــ مـع الاسف ــ كيف يعبـرون عن هذا الحب ٠

في كتابك رأيت نفســي ، رأيت طفـولتي وصبـاي الاول في « مادنة الشحم » و « البزورية » و « معاوية » ٠ في كتابك سمعت صوت أبــي ، وعبارات أمي ، وتصايح أخوتي ، ونداءات أهل الحـارة ٠ وشممت روائـح الياسمين والمضعف والشب الظريف التي كـانت تمــلأ أرض ديارنا ٠

الجرأة هي أهم سمـات الكتاب في نظـري ٠

فالعامية الشامية التي صورت بها دمشق والدمشقيين لم تقف دونهـا اعتبارات كثيرة خطرت بذهنك حتما وانت تكتبين ٠ فلا بد أنك تصورت كيف سيتساءل المتسائلـون المتأدبون :

« حاملـة فلسفة وتكتب بـالعـاميـة ؟ »

« بنت مثقفة ويرد على قلمها عبارات نابية نقلتها كما هي من الحارات والاسواق والحمامـات » ؟ !

كـل هذا على ما أظن ورد الى خاطرك الا أنك حزمت أمرك ، وأسقطت كلمة « ياعيب الشوم » من الحسـاب ، ورحت تكتبين عن دمشق بعفويـة ، وبلغة عذبة منسابـة كانسياب المياه الصافية من فم سبـع نحاسي علـى بحرة دمشقية « تسبح فيها بطيخة وزهرات ياسمين » ٠

الا أن هذه الجرأة وهذه العفوية أفتقدتهما في القسم الثاني من الكتاب الذي بدأ بيوميات فتـاة دمشقية ٠ لماذا هـي يوميـات « فتـاة » وليست يومياتـك أنـت ؟ هنـا بدات « ياعيـب الشـوم » تطـل برأسهـا وتقف كالسلك الشائك بينك وبين الذين يقرؤونك ٠

عن دمشق : كتبت بروح البيت الشامي الرحب المفتوح ٠
عن نفسك : كتبت بروح المنزل الاسمنتي الحديث ، حيث كل ما فيه مغلق ، مغلق ، فلا نسمة تلعب ، ولا ياسمينة تضحك ، ولا نافورة تصـدح ٠

الحواريات العاطفية الفلسفية بينها وبينه في آخر الكتـاب عميقـة لاشك ، ذكية لا شك ، الا انها ليست من « مال الشـام » ٠ فهي يمكـن ان تجري بين أي شاب وفتاة في أي بلـد في هـذا العالم ٠

خفقات قلب الفتاة الشامية لم نسمعها على حقيقتها بعد · كيف تحب ؟ كيف يتسلل الحب الى قلبها بحياء وحذر ؟ كيف تقول لمـن تحب « أحبك » دون أن تقـولهـــا لـــه ؟

كل هذا لم تسجله أية كاتبة سوريـة بصراحـة وعفويـة وانفتـاح · فالكاتبات المخضرمات عندنا كتبن بلغة الرجال ، ولم يكتبن بلغتهن ولذلـك حجبت الكليشات الرجالية والعبارات الانشائية المكرورة عن أعيننا عواطفهن الحقيقية ، ولم نحس بحرارتها ولا بزخمهـا ولا بنكهتهـا ·· الخاصـة ·

أما الكاتبات المحدثات فاستعرن عواطف البطلات الغربيات في الرواية الفرنسية والانكليزية والامريكية ، وألبسنها أردية شرقية · فبقيت هـذه العواطف بين بين ، « لاشرقية هي ولا غربية » · وبقينا نحن في مكاننا لم نكتشف شيئا ولم نعرف شيئا ، وظلت عواطف الفتاة الشامية سراء مخبوءا تحت حجر كبير ، ولا من تـرفـع الحجر ·

ملاحظتي هذه لا تنقص شيئا من روعة كتابك ولا من عـذوبتـه · انه يذوب حلاوة كمشمشة حموية من غوطـة دمشق ·

مهـا تشارك في ارسال الشكر على هديتك القيمة وفـي التعبير عـن عن اعجابها البالـغ ·

ولـــك منـــا أصـدق المحبـــة والـــــود ·

صبـاح قبـانـي



صورة رسالة صباح قباني

بيروت ١٩٦٩/٥/٣٠

العزيزة سلمى :

لا أزال أتساءل — أيهما أحلى : الشام ؟ أم كتابك عن الشام ؟

ولا أظلم هذا الذي دفعته إلى الناس حين أسميه كتاباً . إنه بالأحرى قصيدة عذبة ، صلاة أمانة كتبتها في حب دمشق تعلمك الذكي الوفي — وما أقل الأوفياء لدمشق .

لا أدري لماذا ذكّرتني سطورك بقطعة من سجادة عجمية عتيقة كانت عمتي تملكها . كان عمي هذا يسكن أيام الثورة السورية في زقاق سيدي عامود (أو منطقة الحريقة الآن) ؟ وكان بيته آية في الفن الدمشقي العريق زخارفه وهندسته وما كان يعبق به من عطر وشذا ورياحين وحب الحمى .

وهي تصف الفرنسيين الحمي وحدث الحريقة

الكبيرة، أتت النار على بيته، وراحت تلتهم كل ما فيه بلمح البصر
وركض عمي مع الآخرين تحت جنح الليل الذي أضاءته النيران،
لينجو بنفسه وبأسرته. ولكن قبل أن يجتاز الباب، توقف
لحظة، والتفت إلى الوراء ليلقي على البيت المحترق نظرة
أخيرة — نظرة أودعها كل ما في قلبه من حزن وأسى وحب
وذكريات. وفجأة لمحت قطعة ملتهبة الأطراف من
ستارة القاعة وسقطت إلى جانبه. فما كان منه إلا
أن أخذها بكلتا يديه دون أن يبالي بالنار المشتعلة
فيها، وراح يطفئها بأصابعه. ومن ثم ضمها إلى
صدره وانطلق بها وهو يحس وكأنه يضم كنوز الأرض

ومرت الأيام، وساءت حال عمي، وقطن في
بيت أسمنتي متواضع في ضاحية المزة. إلا أن
قطعة الستار الصغيرة المحترقة الجوانب ظلت لا
مركز الصدارة في منزله. كانت رمزاً حياً لبيته
الذي ضاع كانت تمثل له كل ماضي بيته

العرب الكبير ، ودياره الرحبة ، وأحواضه زهره وياسمينه ، ونافورته

الصادحة . كانت هي بيته .

كتابك يا هشام هو قطعة السجادة الثمينة التي أنقذتها

بأصابعك الحريرية من "الحريق" الكبير الذي ما انفك يلتهم

دمشق . أنقذتها لنا — لكل الذين يعرفون كيف يحبون

دمشق ، ولكنهم ما عرفوا — مع الأسف — كيف يعبرون

عن هذا الحب

في كتابك رأيت نفسي ، رأيت طفولتي وصباي الأول

في "مأذنة الشحم" و"الدقاقين" و"البزورية" و"العادلية" . في

كتابك سمعت صوت أبي ، ودعوات أمي ، وصياح

إخوتي ، ونداءات أهل الحارة ، وشممت روائح

الياسمين والعصفر والشاي الطري التي كانت تملأ

أرض ديارنا .

المرأة – هي أهم سمات الكتاب في نظري. فالعامية الشامية

التي صورت بها دمشق والدمشقيين لم تقف دون اعتبارات كثيرة

خطرت بذهنك حتماً وأنت تكتبين. فلابد أنك تصورت كيف

سيتساءل البعض أولئك المتأدبون: "حاملة فلسفة وتكتب

بالعامية؟" – "بنت مثقفة وترد على قلمها عبارات

نابية تتلقفها هي من الحارات والأسواق والحمامات؟"

كل هذا على ما أظن ورد إلى خاطرك، إلا أنك

حزمت أمرك، وأسقطت كلمة "يا عيب الشوم" من

الحساب، ورحت تكتبين عن دمشق بعفوية،

ولغة عذبة منسابة كانسياب المياه الصافية

من فم سبع نحاسي على بحرة دمشقية "تسبح فيها

بطيخة وزهرات ياسمين".

إلا أن هذه المرأة وهذه العفوية افتقدتها

في القسم الثاني من الكتاب الذي يبدأ بيوميات

فتاة دمشقية . لماذا هي يوميات "فتاة" وليست يومياتك

أنت ؟ هنا بدأت "يا عبد السلام" تطل برأسها وتقف

فاصلاً شائكاً بينك وبين الذين يقرؤونك .

عن دمشق : كتبت بروح البيت الشامي الرحب المفتوح .

عن نفسك : كتبت بروح المنزل الاسمنتي الحديث حيث كل

ما فيه مغلق . مغلق ، فلا نسمة تلعب ، ولا ياسمينة تضحك ،

ولا نافورة تقهقه .

الحوارات العاطفية الفلسفية بينك وبينه في آخر الكتاب

عميقة لا شك ، ذكية لا شك ، إلا أنها ليست

من "عالم الشام" . فهي ممكن أن تجري بين أي شاب

وفتاة في أي بلد في هذا العالم .

خفقات قلب الفتاة الشامية لم نشعر على حقيقتها

بعد . كيف تحب ؟ كيف يشتعل الحب داخل

قلبها بحياء وحذر ؟ كيف تقول لمن تحب

"أحبك" دون أن تقولها ؟

كل هذا لم تسجله أية كاتبة سورية بصراحة

بحرية وانفتاح . فالكاتبات المحافظات عندنا كتبن
بلغة الرجال ولم يكتبن بلغتهن . ولذلك جاءت الكتابات
الرجالية والعبارات الانثوية المكررة من أحسن عواطفهن
الحقيقية ولم تمس تجاربهن ولا أزماتهن ولا تجاربهن الخاصة .
أما الكاتبات المحدثات فاستعرن عواطف البطلات الغربيات
في الرواية الفرنسية والانكليزية والأمريكية وألبسن
أزياء شرقية ، فبقيت هذه العواطف بين بين -
"لا شرقية ولا غربية" . وبقينا نحن في مكاننا لم
نكتشف شيئاً ولم نعرف شيئاً ، وظلت عواطف
الفتاة الشرقية مخبوءة تحت حجب كثيرة ، ولا
من أديبة ... الكبار .
ملاحظتي هذه لا تنقص شيئاً من روعة كتابك ولا
من نموذجيته . إنه نموذج حلاوة كتابة عربية
من مخيلة دمشق . الشكر على هديتك القيمة
مع شكرك في ارسال البلاغ .
وفي القلب من أجل أصدق المحبة والود
ولك منا

[signature]

[illegible]

يا مال الشام

يا مال الشـــام يا الله يا مالي   طال المطـــال يا حلوة تعـــالي
طال المطـــال واجيتي عالبـــال   ما يبلى الخـــال عالخد العـــالي

❋ ❋ ❋

طـــال المطـــال طـــال وطول   الحلوة بتمشي تمشي وتتحول
يا ربـــي يرجـــع زمـــن الاول   يوم يا لطيف ما كان على بالي

❋ ❋ ❋

طال المطـــــال وعيوني بتبكي   وقلبي ملان مـــا بقدر بحـــكي
يا ربـــي يكـــون حبيبي ملكي   يوم يا لطيف ما كان على بالي

❋ ❋ ❋

طال المطـــال ومـــا شفناهم   يوم الاسود يوم الودعنـــاهم
يـــا ربـــي تجمعنـــي معـــاهم   يوم يا لطيف ما كان على بالي

❋ ❋ ❋

اغنية دمشقية اصيلة قديمة الفها ولحنهـــا الفنان الدمشقي الاصيل ابو خليل القباني ...

رحل الفنان العظيم ... وما زال وسيظل لحن يا مال الشـــام خالدا خلود دمشق .



يا مال الشام
Fin

أنا رجعية

كلما كبرنا .. كلما افتقدنا الطفولة وملاعب الطفولة . وكلما سرت في شوارع دمشق الحديثة ، كلما اشتد بي الحنين الى حارات دمشق القديمة . وعندما تقفز طفولتي الى شعوري ، بيدها كرة صغيرة وفي رجلها قبقاب ملون صغير ، وانا في طريقي الى حي عتيق ينام فيه بيتنا العتيق ، او الى سوق قديمة قديمة تفوح منها رائحة الشام المدينة المعتقة ، اكتشف بان التصاقي بكل ما هو قديم أشد بكثير من تعلقي بما هو حديث . واكتشف بان الحقيقة الوحيدة الجوهرية في نفسي هي الحقيقة التي ترافق طفولتنا ، وكاني بالطفولة تعي ما يدور حولها وتلتصق به كصورة من صور الاصالة لا تريدها ان تتغير . وهذه العودة الى الماضي تؤكد لي ان الطفولة الواعية الصافية ترفض سلفا كل ما سيأتي به الغد .

انني أحن الى الماضي ، الى صفائي ، الى الطفلة التي كانت طفلتين ، طفلة تلعب وطفلة تراقب من تلعب .

اراها الآن جيدا تلك الطفلة التي احبت الماضي واختزنته من اجلي جوهرة صافية خالية من كل تزييف كحجر عقيق ثمين احتفظت به أمي عن جدتي وجدتها وجدة جدتها كرقية ضد مفاجآت الحياة المقبلة .

طفلة تحب اللعب والنط على الحبل مع بنات الحارة في حي سوقساروجة على أرض حجرية بين جدران مهترئة وابواب خشبية قصيرة مزينة بالمسامير ، وقرب اكوام من قشر البطيخ والزبالة في الصيف ، وعلى طبقات من الطين وفي برك من ماء المطر في الشتاء ، في حارة ضيقة جدا جدا بيوتها من شدة القرب تكاد تقبل بعضها بعضا ، جدرانها من شدة الحب تلتصق ببعضها .. وخلف نوافذها واخصاصها الخشبية العالية تختفي عيون الحريم الفضولية الساحرة .

وترفض تلك الطفلة ، الصبية الآن ، رغم قناعتها العقلية بقانون



الفنان ناظم الجعفري — دمشق

التطور، ترفض الابنية الجديدة العالية المصفوفة كعلب الكرتون، والشوارع المريضة الاسفلتية الملساء ، والفيلات الانيقة المتباعدة ، والجيران الذين يمرون دون كلمة « صباح الخير » .

أنا . . . أنا ابنة دمشق العتيقة التي تنام بخجل وهدوء وبقناعة هناك في حضن الغوطة تحت عين جبل قاسيون الذي كان يحمل في قمتهوفي صدره وفي سفحه ما يبعث على الايمان والرهبة : كرسي الداية ، قبة السيار ، الاربعين « أهل الكهف » ، قبر الشيخ محي الدين بن عربي . وطار « كرسي الداية » بمدفع فرنسي ، ولا يزال أهل الكهف في الاربعين يغطون في نوم عميق ، ونسيت قبة السيار عن « حواكير الصبارة » وزرعت البنايات بدلا عن الصبارة . ووصلت الشوارع الحديثة حتى مزار الشيخ بن عربي ، وعلى رأس الجبل الاجرد ارتفعت مكان كرسي الداية محطة التلفزيون العربي السوري ، وعلى عامود التلفزيون العالي ضوء احمر يغمز لنا بعينه الحمراء في الليل .

انا واحدة بين ابناء دمشق الذين زرعوا بخطواتهم منذ الصغر على ارض أحيائها الحجرية « الغرزة » النافرة كأرض من البيض القاسي ، وعلى دروب اسواقها وغوطتها وبساتينها ، خريطة فرح التصاق الانسان بأرضه بأسواق بلده ، بسوق الحميدية واسواقه الصغيرة : الخجا والحريقة والعصرونية والحرير والقيشاني والسلاح والمسكية والخياطين وباب بريد، بسوق مدحت باشا واسواقه الصغيرة المتفرعة: الصوف والقطنوالنسوان والبزورية . بسوق العتيق واسواقه الصغيرة : خان البطيخ وخان الزيت وعلي باشا وطلعة جوزة الحدبا وسوقساروجة وسوق الهال .

طفولتي متعلقة بأحياء الشام العتيقة ، بالميدان ، بالشاغور والقيمرية والقنوات وسوقساروجة والعمارة وباب توما والقصاع والشيخمحيي الدين والمهاجرين . . . وبحارات الشـــام . . قولي . . الورد . . الشالة . . السمانة . . ستي زيتونة . . العقيبة . . بوابة الآس . . السبع طوالع . . النوفرة . . بحرة الدفاقة . . المناخلية . . باب سريجة . . .

ولا زلت حتى الآن احن الى بيتنا في حي سوقساروجة الذي كـانوا يسمونه « استنبول الصغيرة » لشدة عراقته وجماله واصالته . في هـذا الحي العريق خلقت. حملتني امي في حارة « قولي » وولدتني في « العمارة » وارضعتني في « المناخ » وسكنا عدة بيوت آخرها بيتنا العزيز في حـارة القره ماني . واهلنا يسكنون حارة « الورد » وحارة « الشالة » وحـارة

« البحصة » وحارة « السمانة » وحارة « العقيبة » وفي « مز القصب » وفي « داوراغا » وفي « مادنة الشحم » .

لم يكن في بيتنا حمام كغالبية بيوت الشام القديمة . لهـذا تمتعت بطفولتي بحمامات دمشق الشهيرة .

وكانت زيارة حمام السوق الاسبوعية متعة كاملة لي ولاخوتي لا تقل عن متعتنا في « سيران » . وكم وكم تزحلقنا على ركبنا على بلاط الحمـام الواسع الذي تغطيه رغوة الصـابون وتيارات الصابون التي لا تنقطع ، وضحكاتنا البريئـة تتردد في مقاصير الحمام وتتصـاعد مع البخار الذي يعشعش في الحمام كالضباب ، وترجع قباب الحمام المنورة « بنور الله » الداخل الينا من « القماري » الزجاجية الكثيرة ، صدى تلك الضحكات فما يزيدنا رجع الصـدى الا اصرارا على الضحك والعبث ، لقد كان حمـام القره ماني مسرحا دائما لافراحنا وملعبا رائعا من ملاعب طفولتنا . ولن انسى ابدا حمام « الورد » وحمام « الجوزة » وحمام « فتحي » وحمـام « الخانجي » وحمام « ملكة » في الدرويشية اجمل حمامات دمشق . حرمت منه لانه كان مخصصا للرجال فتفرجت عليه من بابه عندما كنت طفلـة وذهبت لانادي لابي لاقول له كلمة . . .!! وفتحت باب الحمام ، حمام ملكة بحذر وطالعتني صورة مدهشة تصعق النفس لشدة سحرها ، وطبعت الصورة في ذهني ، وهدمت من الدرويشية .

كنا قبل الحمام نستعد للرحلة المغرية بفرح عظيم . نذهب الى الحمام ببقجة الملابس النظيفة وبقجة « غراض » الحمام : الطاسة ، كيس الحمام الحلبي ، الصابون الغار الحلبي ، الليفة ، الترابة الحلبية الحمراء المطيبة ، الديرة النـاعمة ، المشط الخشب ، مشط « سن السـمك الابيض » ، الحجر الاسود الخفان الناعم الذي ينظف الكعب ، القباقيب . كما نحمـل بقجة المناشف النظيفة والفوط الخمرية المقصبة المقلمة ، والشرشف الابيض النظيف الذي نفرده تحتنا على مصاطب الحمام ونجلس عليه عند طلوعنا من الحمام لارتداء ملابسنا التي كانت تحرسها الناطورة . هذا عدا ما تأخذه لنا امنا في بقجة خاصة من انواع المآكل الطيبة نتنـاولها بشهية بالغة في الحمام كالبرتقال في الشـتاء وعرايس الزيت والزعتر والزيتون الاسـود والمخلـل « اللفت » . وكانت أطيب اكلة نأخذهـا معنا المجدرة بالزيت . وفي الصيف كان أبي يرسل لنا البطيخ الاحمر وسطل العرقسوس البـارد الـذي ينعش القلب في جو الحمام الملتهب . وكانت البـلانة تساعد امي بتغسيل رؤوسـنا وتفريكنا مقابل قروش معـدودة ، وتدخل المعلمـة اكثر من مرة لتسـأل عن راحتنـا « وتونس » زبونـاتها بكلمات

ترحيبية،والاجسام البضة البيضاء تلتف حولها فوط الحمام ، وترتمي نهاية كل فوطة على كتف صاحبتها الايسر ، فتزيد هذه الاجسام جمالا على جمال، وكأنها تماثيل من المرمر الابيض لفت بفوط خمرية مقلمة بخيوط القصب الذهبية . وجو الحمام يبعث على البهجة . فيهذه المقصورة عروس،وعلى ذلك الجرن عجوز « تفض » الحنة عن رأسها فتسيل على ارض الحمـــام ساقية سوداء مقرفة كنا نتحاشاها بقفزات سريعة تشبه قفزاتنا عن ساقية صغيرة في بستان ، وعلى « بيت النار » الحامي وسط الحمام الذي تطـــل عليه ابواب المقاصير بشكل دائري تجلس بصبر نافد « نفسا » قد اكملت الاسبوعين وجاءت « لحمام الفسخ » فدهن جسمها كله بلون اصفر غريب تنبعث منه رائحة نفاذة ، وزغاريد تنطلق من مقصورة العروس ، وخناقة حامية بين عدة نسوة على جرن واحد كادت تنتهي بالضرب بالطاسات ، وجرن مجاور تجلس عليه زبونة واحدة مع اولادها تتمتع بمياهه بلا مشاكل مع الناس لانها اخذته « جرن حمـــاية » ودفعت فيه مبلغا عاليا ، وطفل « يولول » ويبكي في حضن امه بعد ان دخلت رغوة الصابون في عينيـــه ، وسيدة « تسكب » على رأسها عدة طاسات اخيرة ثم تتوضأ ، وأم «تعرض» على طفلها عند البلوعة عله يتعلم وتقول له : ١١١ح ... ١١١١ح ...!! فمع تكرار المحاولة سوف « يعلم » ويقلـــع عن عادته في ان يعملهـــا في « حفاضاته » . وفي ذهنها تعد له مؤامرة جديدة لتفطمه عن « بزه » وسوف تدهن حلمة ثديها بالصبر او بالبن ليقرف من ثدي امه ويبدأ بتناول الطعام، والى جانبها على جرن قريب ام تسكب على رأس آخر طفل من اطفـــالها عدة طاسات علامة الانتهاء من الحمام وتقول له : « ايديك عشرة ورجليك عشرة وعلى قلبك عافية ونشرة » . وامراة بدينة تقف فجأة لتلحق بابنتهـــا الهاربة وتضربها وتشدها من شعرها وتعيدها الى الجرن ، وقد نسيت فوطتها بسبب عامل السرعة والغضب فسترت عورتها بالطاسة . وحامل تسير متثاقلة ، يظهر ان هذا هو « شهرها » !! ، وام لعشرة اولاد نفـــدت المياه الباردة على جرنها فأخذت تصرخ « بارد .. بارد .. بارد » !! وبلانة تركض حافية نحوها بسطل ماء بارد تحمله بيدين سوداوتين من اثر صبغة الحنة ، قادمة به من بحرة البراني النظيفة ، وصبية تدق رأس كرنب على طرف بلاط الحمام « فتفلعه » نصفين ، وفتاتان ترش كل منهما الاخرى بالماء

البارد . وأم تقول لابنها : تعا تقبرني بقيانلك دورين لسه ما ساويتلك الا تلت تمام . وعندما يغسل الراس « اول تم وتاني تم وتالت تم » فهذا هو الدور.ولا بد لكي يصبح الراس نظيفامنثلاثة ادوار يأخذ الطفل بينهافترات لعب واستراحة . وفي مقصورة مقابلة دق على قفا الطاسـات وتصفيق مبلول « ورقص وخلع على ابو جنب » . وصرخاتحادة منعدة نساء بسبب دخولزبونة جديدة الى الحماموعها عدة اولاد وبينهم « طفل » بل « صبي » في العاشرة يطلبن مغادرته حمام النسوان :

— ما بيصير يفوت عالحمام .. قد « الشنتير » مو صغير منوب .

— يا اختي والله صغير ..!!

— لا مو صغير . هادا صغير . طـلاع يا ولد احسن ما نولول نلم رجال الحارة ..

— والله ما طبق السبعة ..!!

— المسخ .. لأ عم يرضع .. روحي جوزيه ..!!

— لأ تروح تجيب ابوه احسن ..!!

— طلاع ولاك ... طلاع لبرة ...

— مالي طالع ...!!

وتحتدم المشاجرة وترتفع الى درجة السباب بين ام الصبي وزبونة لسانها سليط :

— طلاع عم قلك ...! ولي عليك شو « جئر » !!!

— مالي طالع .

— ورصاص اللي يخلع رقبتك والله ما تفوت لكسرك ...

— احسني ارفعي « مكسورتك » عليه ، ما فشرتي شو مقطوع ما في حدا وراه ..؟!

— اي بدي العن ابوك على ابو اللي فوتك عالحمام طلاع لبرة «ولا»!!

— يا عيب الشوم عليكي شو نورية ما بتستحي !!

— واحدة متلك نورية .. الواه الواه عليكي انت شو آدمية ياللي بتجيبي معك رجال على حمام النسوان !!

— والله والله مـــا تفوتي انت وياه قدم لحتـــى ساوي جلدك وجلد ابنك دربكات .

— لك شوهاد يابنتي انتي وياها .. اخزو الشيطان .. طلاع يا ولد لبرة . طالعيه الله يرضى عليكي رح تطفشيلي زبوناتي ، ابعتيه مع ابوه قبل الضهر ، صار شب ما شا الله ويخزي العين .

— امشي لك ابني امشي ، حتى « المعلمة » اجت مع الرزيلة ، اي والله ما بقينا ندوس ها لحمام بعمرنا .

— أنا رزيلة .. اي الله معك دربن يسد ما يرد .

— يو العين تطرقك انت و « هالمنطق » .

— ان شا الله قامتك وعشرة من حارتك .

— يوه يوه تقبروني على هالمرا . بتعرفي ، انتي الواحدة احسن شي ما ترد عليكي خليكي عم تعوي مثل الكلبة ، امشي لك ابني يبعتلا حمى هزتلي بدني .

— يو الحمى تاخدك ...!!

— لك حاجة بقى افرطوها ، يي شو قلبكن حي وروحكن طويلة .
يا الله يا جماعة يا الله كل مين على جرنو ، تفضلي معي لبرة والله أنا ما بريد زعلك بس يا أختي صعبة ، النسوان « بالزلط » وابنك كبير تقبريني بيفهم كل شي ، ما بجوز وانتي ما بتريديها. تعا حبيبي روح هلأ انت عالبيت وبكرة بتجي مع ابوك لحمام الرجال انت صرت شب رح يطلعلك شوارب ، وانت والله ما بتروحي زعلانة والحمام على حسابك والله ما بخليكي الا رضيانة، فوتي انت وهالصغار عالحمام وان شا الله حمام الهنا سلف ..!!

ويخرج الصبي وينتهي المشهد العنيف .

شيء واحد كان يخيفني في حمام السوق : الصراصير الحمر الكبيرة التي تنتشر على جدران وسقف وبحيرة الوسطاني الجدارية وحول « بلاليعها » . اما المنظر الذي كان يصعقني ويجعلني أهرب « لعند امي » فهو منظر المرأة التي تعلق « دود العلق » على ثدييها ورجليها فيمتص دماءها ويتدلى من جسمها سمينا متخما ، تماما كما يعلق الرجال العلق قرب آذانهم بعد ان يشتروا العلق من « الحلاق » طبيب المدينة المنقرض الذي كان يجمعها في قطرميز كبير زجاجي . واسأل امي :

ــ لماذا تعلق الدود على بزازها يا أمي ؟

ــ يا أمي يمكن معها « بلغمية » شو بدنا فيها الله يعينها ، انت وينك هربانة ! تعي لهون لحتى غسلك راسك بدنا نروح حاجتكن لعب !! اندهي لاخواتك وتعو قوام .

ــ يا امي الله يخليكي بس شوية .. عم نتزحلق على ركبنا على بلاط الحمام محل ما في صابون كتير !!

ــ يا الله حاجة الله يرضى عليكن تمست الدنيـة !! واعود لانادي اخواتي وابتعد عن « ام العلق » في طريقي والتصق بالجدار .. يا لطيف .. كم هو منظر مرعب ومهما كان منظر كاسات الهوا التي تتعمشق بلحم الظهر لشفاء السعلة ، ومنظر الاوراق الصغيرة تشتعل داخلها وتكاد تحرق الظهر بنارها ، فان منظر « العلق » لا يعادله منظر .

كنا كل يوم خميس عندما تنتهي مدرستنا ونشعر بالفرح لان عطلتنا من المدرسة ستمتد الخميس بعد الظهر ويوم الجمعة كله ، نبدأ بالاستعداد لرحلة الحمام بعد الغداء يحدونا الامل بقضاء فترة حلوة نتزحلق فيها على الصابون وننفخ بالونات الصابون في سقف الحمام ونتراشق بالماء البارد ونلعب مع بقية الاولاد ، وفي زحمة هذه الاحلام المغرية نتساهل في حمل الاثقال ويحمل كل منا « بقجة » سواء أكانت كبيرة أم صغيرة .

اما « المشكلة الخالدة » فهي التي تبدأ ملامحها بعد نهاية كل حمام . من سيحمل بقجة « الملابس الوسخة » وكم تشاجرت مع اخواتي لحظة الطلعة من الحمام بينما امي تحاسب المعلمة التي تتربع على الطراحة عند مصطبة المعلمة وراء باب الحمام تستقبل القادمات بكلمة اهلا وسهلا وتودع الرائحات بكلمة حمام الهنا ، وتعد الرؤوس الكبيرة والصغيرة وتقرر « الوفا » الاجرة التي تتناسب مع عدد افراد الاسرة ومع كون الام زبونة لهذا الحمام ام انها ضيفة عابرة . وكانت مشاجرتنا تنتهي بامر من امي بان تحمل كل واحدة منا بقجة الملابس الوسخة فترة من الزمن ولمسافة من الطريق على ان تأخذها منها الاخرى لمسافة جديدة الى ان نصل الى البيت ونحن نلهث من التعب والاعياء . ورأسنا على فرشاتنا، النعاس يكاد يقتلنا. المهم اننا وصلنا الى بيتنا .

بيتنا ... لا زلت احن ومهما كبرت الى بيتنا . بيت عربي واسع هرم ، لا تزال حتى الآنتنام وتصحو في صحنه ليمونة وكبادة ونارنجة ودالية وتينة وياسمينة كبيرة يهر منها الياسمين كالثلج ، وبحرة يتدفق منها ماء بردى وعين الفيجة وتسبح فيها بطيخة وزهرات ياسمين .

وفي بيتنا احواض ورد وارطاسيا وهرجاية وهوا ونفنوفة وخبيزة وسمكة وعطرة وشمشيرة وزدابية وياسمينة عراتلية . بيت تقفز اليه من اساطيح الجيران قطط الشام السمينة الحلوة المدللة اللا مبالية ، بيت دمشقي تلعب بين ارجائه ذكرى صور اولاد قطتنا العزيزة الحلوة «شامة» الزيتونية : « عنتر » الاشقر و « فلة » البيضاء كالقطن و « زيتون » المنقط بالابيض والاسود والذي طلعت على خده شامة كأمه ، و « عطرة » الرمادية العفريتة « اللعيبة » التي تقرأ في الليل ، و « عبدان » الاسود الذي يجلب الحظ والذي اكله الهارون قبل ان يكبر ، وقد سألت جدتي ام أمي يومها وكانت زائرة عندنا ، ودموعي لا تنقطع على « قطي » عبدان الصغير الذي اكله الهارون ليلا دون ان ندري ثم هرب الى اساطيح الجيران من « طبلة » بيتنا :

— لماذا يأكل الهارون قطنا الصغير يا ستي ..! الم تقولي يا تيتي انه ابوه !! فكيف يأكل الاب ابنه ؟..

فأجابتني جدتي الطيبة رحمها الله برصانة اقنعتني :

— لانه لا يريد ان يتربى اولاده على « سفر » الناس !!

من على « اسطوح » بيتنا كم طير اخي الصغير الحبيب طيارات ورق ملونة مربوطة بخيط طويل وجعلها بمهارته وبمساعدة الهواء تحوم حول البيوت فيركض الاولاد الصغار في ديارات الجيران ومشارقهم لرؤيتها وهي تحلق عاليا .

اما نحن البنات فكنا نربط بخيط قصير زيزا ملونا جميلا من رجله ونطيره في « المشرقة » ونلعب به في مشرقتنا تحت دالية العنب او عين الشمس . الزيز لطيف وجميل وله صوت جميل ... اما الدبور والزلقطة فهما الد اعدائنا عندما نحاول ان نتعربش على السلالم الى دالية بيتنا في المشرقة لنقطف عنقود عنب حلو بلدي لا زالت طعمته حتى الآن تحت اسناني . وقرصة الدبور والزلقطة لم يكن لها دواء في بيتنا الا سن الثوم .

اما باقي حيوانات وحشرات بيتنا ... فأنا اخاف حتى من ذكرها . في بيتنا ظهرت الحية والعقرب والعرتيلة وام اربع واربعين والحردون والجردون وابو بريص والحرباية والفارة والبزاقة والنملة والصرصور الذي اكرهه اكثر من الحية . ومن كثرة « الحيايا » فيبيتنا العربيالجميل .. خفنا .. فهربنا الى بيت حديث لا تخرج الحيات من جدرانه ، ولكن جيرانه لا يسلمون على بعضهم . هناك في ذلك البيت تكمن حقيقتي ولن اتخلى عنها في سبيل شارع انيق نظيف مترف في دمشق الجديدة وبيت يرتفع عن سطح دمشق بعشرات الامتار . انني ملتصقة ببيت دمشقي ارضه ملاصقة لارض الشام الحبيبة ، وادفع اليوم ثمن الهواء العالي ، ادفعه شوقا وحنينا الى بيتنا هناك .. بيتنا الذي تتحرك بين جدرانه الحيات وتطير فوق عريشته وداليته الدبابير والزلاقط والنحلات . يظهر انني أنمو نحو الطفولة .. نحو الماضي !!

بيتنا العتيق لن أنساه ..

وحارتنا القديمة ..

تعيش بضميري لؤلؤا ومرجانا ، اغنية شعبية غنيتها مع بنات الجيران من رفيقاتي ، وكنا نمسك بايدي بعضنا بعضا ونرقص في حلقة ونغني امام باب بيتنا كما كانت تغني أمهاتنا وجداتنا أمام أبواب بيوتهن :

يا ستي عرجا عرجا
يا مفتاح الطبنجا
خبيتو ورا الصندوق
اجا خيي سرقو
لبسني من حلقو
حلقو شقلي بقلي
حلقو طير عقلي
يا بنت الملوكي
جايين يخطبوكي
على شقفة طينة
بتعمر مدينـــة
مدينة مدينة مدينة
وشو جابك لحارتنا
حارتنا لولو ومرجان
حارتكن قمل وصيبان

ونغني اغنية ثانية ولا نشبع :

علبـــابا علبـــابا
والجـــامع توابا
عطونا عروستنا
ما منعطيكن ياها
الا بالف وميـــة
يا كعكة ويا تمرية
كعك الشام غالي
تسلم دقن خالي
خالي بالبريـــة
عم ياكل تمرية

قلتلو طعميني
قاللي لعشية
اجيت عشية
ضربني بالططرية

ونلف وندور ونغني ونغني :

يا ستي وستيتينا
جوات البساتينا
في رمانة حامضة
تقطف وتطعمينا
حلفنا ما مناكل
حتى يجي البابا
والبابا عند العسكر
جايبلي طبق سكر
دوبو واسقونا
وتغدو والحقونا
على حمام البارد
الله يضرك يا ضرة
متل ما ضرتينا
شفت عمي من بعيد
حاكاني بالتركي
خلا عويناتي تبكي

من خص شباك بيتنا كنت أمد راسي لارى مصدر ضجة الاولاد في الحارة . انهم يركضون حول « ضبضبت » ويصيحون ضبضبت ... ضبضبت ... أنا لا اعرف اسمه الحقيقي ... لانه لم يعرف بين الناس الا بهذا الاسم الذي يعني ان السماء قد اكفهرت واقترب البرق والرعد والمطر ، ووصول « ضبضبت » معناه وصول الغضب اعوذ بالله .

و « ضبضبت » رجل معتوه يحب بطنه . يسير في الازقة ويسأل كل من يمر امامه « ايمتى يا سيدنا » ويعني بسؤاله : متى يموت عندكم ميت

لنأتي ونأكل عندكم ..؟! ويتشاءم منه أهل الشام ولكنهم يضحكون . وعند « ضبضبت » ذاكرة عجيبة فهو يحفظ اسماء آخر اموات المدينة وعناوين بيوتهم ويسجل عنده ... اربعين كل ميت وسنويته وخميسه والايام الثلاثة .

اما في الشتاء المثلج ... فان احلى ما احبه في الثلج « السويق » وهي الاكلة المفضلة عند نزول الثلج . والسويق هو الثلج مع عصير البرتقال او الثلج مع الدبس . وضحكنا مرة حتى غشينا على نكتة احد الاقرباء : في يوم ثلجي غطى فيه الثلج كل دمشق وارتفع حتى المتر ارسل لنا قالبا من « الكاتوه » الكبير كهدية !! والتفت الاسرة حول الكاتو وكل طفل يحمل صحنه وملعقته وينتظر ، وبدأ ابي يقسم لنا القالب .. وكانت المفاجأة تحت الكريمة قالبا من الثلج !!

ويقولون في دمشق لا تأكل الثلج اول سقوطه . انها حكمة شعبية تقول : « اول مرة سم وتاني مرة دم وتالت مرة كول ولا تنهم »

ويسقط الثلج .. وتقول لنا امي : كل سنة وانتو سالمين تقبروني ان شا الله سنة بيضا . ونركض الى باب الزقاق بالقباقيب ويتزحلق احدنا .. ونضحك عليه .. ولكننا نبدأ بالمسير على الثلج الهش بحذر خشية السقوط والشماتة ، لنتفرج على الجوقة التي تغني للثلج بين الحارات وفي الاسواق وتجمع المال :

يا الله المطر يا الله الغيث
والسنة بيضا يا بيضا
وان شا الله بيضا يا بيضا
الله يرزقو
آمين ...
الله يعطيه ...
آمين ...
الله يستر على حريمو ...
آمين ...
والسنة بيضا يا بيضا
وان شا الله بيضا يا بيضا

ويكون واحد من الاولاد « البابا حسن » كما يقول ابي قد شلح ملابسه عاريا وظل « بخلقة ربو » ودهن جسمه بالدبس ولصق عليه كله القطن الابيض فيظهر كالجني الابيض او الدب الابيض او انسان الثلج ، ويسير مسحوبا من رقبته بحبل يردد السنة بيضا يا بيضا ، ويردد معه باقي أفراد الجوقة الفقراء .. وان شا الله بيضا يا بيضا ..

على راس كل واحد منهم وظهره قبعة كبيرة واقية من الثلج هي عبارة عن كيس من الجنفيص الكبير يلبس على شكل « كابيشون » «الترانشكوت» معطف المطر . ويفرح الناس بالجوقة ويرحبون بها ويتفاعلون باغنيتها ويدفعون لها . ولا تتحرك من مكانها امام اي دكان في السوق قبل ان يدفع لها صاحب الدكان ضريبة البرد والثلج والدعاء . وطبعا يأخذ رجل الثلج العاري الذي تعرض للبرد اكثر من رفاقه ، نصف الارباح . ونغلق الباب ونصعد الى المشرقة لنصنع من الثلج المتراكم رجلا كبيرا من الثلج ونزينه بطربوش ونحمله « بصطون » أبي ، عصاه المعقوفة التي كان ينساها مع الطربوش عند اكثر من بيت وحلاق . فأقلع عن لبس الطربوش وحمل البصطون بسبب مشاكل الضياع هذه ، ولكنه ظل في الشتاء ينسى « الشمسية » ويبقى طويلا قبل ان يتذكر اين نسيها !!

ولا يمكن ان يمر انسان تحت نافذتنا دون ان يأكل « طابة » من الثلج من شبابيك واساطيح الجيران ولن انسى كيف حاول الجنود السنغال الفرنسيون في سنة ثلجية ان يقلدوا ابناء الشام بلعب الثلج فأخذوا يضعون الحجارة داخل كرات الثلج ويضربون بها الناس في الشوارع وكأن لعب الاستعمار كرة ثلجية بيضاء داخلها حجر اسود .

الشتاء في الشام دنيا غنية عميقة الابعاد تلتقي فيها فلسفة الانسان بحكمة الطبيعة .

يقولون عندما تنزل « المطرة » و « حب العزيز » في مدينتي :

— الله يبعت الخير . ويغني الاولاد في الحارة هذه الاغنية اللطيفة :

يا مطرة زخي زخي على قرعة بنت اختي ، بنت اختي جابت صبي سمتو عبد النبي ، حطتو بالكانونة طلع عرق ليمونة ، حطتو بالطنجرة طلع صحن مجدرة .

وفي شهر ايلول :

— ايلول دنبو مبلول

وفي شهري تشرين الاول وتشرين الثاني :

ـ ما بين تشرين وتشرين صيف تاني .
الدهبيات بتشارين .

ـ بعاق الجدي ولا سواد العنقود

وفي شهري كانون الاول وكانون الثاني :

ـ اذا غاب عنك العنب والتين عليك بميـــة كوانين . ويقولون عن كانون الاول كانون الاجرد ، وعن كانون الثاني كانون الاصم عود ببيتك وانطم .

وفي شهر شباط :

ـ شباط ما على كلامو رباط بشبط وبلبط وريحة الصيف فيه .
المستأرضات فنوا قوم عاد .

وعن شهر آذار :

ـ خبي فحماتك الكبار لعمك آدار .

وعن شهر نيسان :

ـ مطرة نيسان بتحيي قلب الانسان .

عقارب نيسان .

وفي شهر مايس :

ـ ما دام النصراني صايم البرد قايم .

وفي شهر حزيران :

ـ قزة وسنبلة ومشمشة .

ـ حزيران طباخ المشمش .

وفي شهر تموز :

ـ بتموز بتغلي المية بالكوز .

وعن شهر آب :

ـ آب اللهاب . اذا اجا آب الصيف عاب .

ويضم الشتاء في مدينتي اربعـــة « سعودات » تعبر عنها الكلمـــة الشعبية :

ـــ سعد الدابح ما بيخلي كلب نابح .

ـــ سعد بلع السما بتمطر والارض بتبلع .

ـــ سعد السعود بتدب المية بالعود وبيدفا كل مبرود .

ـــ سعد الخبايا بتفتل فيه الصبايا .

تبدأ « الشتوية » في دمشق « بالمربعانية » وفي نهاية « الخمسينية » نهاية التسعين يوما اشهر الشتاء الثلاثة يطل الربيع وتحتفل الشام « بنيروز » ببساتين الشام والغوطة .

وتتفتح ازرار الربيع على الارض وعلى الاغصان وفي العيون والقلوب والشفاه . زهر اصفر وابيض وشقشقيق احمر بين الحشيش الاخضر . وزهر تفاح ونجاص ومشمش على اشجار الغوطة ينادي السيرنجية من اهل الشام بعطر لا يقاوم واغراء لا يرد وتميل الشام نحو الغوطة بقدها المياس وتسيل كقطعة من الثلج اذابتها حرارة الشمس ووهج الحب والزهر . وان ضاع منك انسان في الربيع فستجده في الغوطة حتما ، ولا يمكن ان تنزل اسرة من غوطة دمشق الا ومعها « عرق زهر » علامة الربيع الضاحك يطل من نوافذ السيارات يحيي المدينة المرحة المقبلة نحو الصيف، تماما كما يفعل « انسان الثلج » الصغير عندما يركب على مقدمة كل سيارة في الشتاء ، عند طريق عودتها من نزهة محببة الى الدمشقيين في سهول الصحراء والزبداني وقرب جبال وادي بردى والزبداني وبلودان وابو زاد المغطاة بالثلوج كالقشدة تغطي صحن الكنافة المدلوقة .

فانسان الثلج الصغير هو ايضا علامة نزول الثلج في مصايف« المدينة المرحة الصاحية » عندما يحل عليها الشتاء .

اف . . . يا لطيف شو « شوب » . . !!

ويبدأ الصيف . . . وينتشر « الشوب » ونهرب الى البساتين .

ومن بيتنا كنا ننطلق ايام الصيف الحارة الى اقرب البساتين الىحينا.

ونفتح الباب ونخرج مع « خروفنا » لنقوم بسيران في بستان المزرعة عند طرف « عين الكرش » التي تنبع منها مياه رائعة عذبة باردة . ونفرد البساط على حشيش البستان ثم نفرد عدة السيران من الشنطة الجلدية البنية التي خصصها ابي للسيارين ، وتبدأ امي وقريباتنا بقلي البيتنجان والكوسا على المقلاية والببور فتنتشر رائحة البيتنجان المقلي بالزيت ،

وتعطر المكان روائح الفتوش والسلطات والكبة النية والبطيخ الاحمر الذي يقسمه ابي حزوز حزوز لنا وتبقى « اللبة » لــه وللضيوف ، بينما تحتفظ امي بالبزر الاسود لتحمصه لنا لايام الشتاء وسهراته الطويلة .

لم تكن المزرعة وعين الكرش وحدهما مسرحا لنزهاتنا . فكل يوم جمعة تقريبا كنا نقضيه في مكان ، فنعزم الاهل ونخرج طفات كبيرة الـى صدر الباز او الشادروان او الربوة او دمر والهامة على ضفاف بردى ننتشر ونتغلغل بين حور وصفصاف النهر ونعيش احلى ايام العمر ونلعب ونركب المراجيح المعلقة على الاشجار ونقطف الجوز ونكسره بالاحجار وناكله .. ثم ننسى ونفرك اعيننا فنصاب بالرمد ... لا يهم .. ومن شجرة تين الـى شجرة رمان كالجراد ... ونصعد الى جبال دمر ... ونهبط الى « قناية المزة » ... ونسبح الى ان نقتل الحر وشهوة الاطفال للسباحة والمـاء البارد في صيف حار ..

آه .. ليت الزمان يعود .. ونعود اطفالا .. ونسمع الكبار من اهلنا يقولون لبعضهم بعضا عند نهاية السيران :

ــ ان شا الله « القمرة » الجاية منطلع سيران سوا .

في بيتنا العتيق في سوقساروجة عرفت تقاليد الشام الشعبية في شهر رمضان المبارك وعيد الفطر السعيد . ولا طفل في حارتنا يفطر .. ولحظة انتظار مدفع الافطار هي لحظة كثيفة متعددة الصور ، واحلى صورها لقاء افراد الاسرة قبل المغرب بلحظات حول مائدة الافطار العامرة بالمـآكل والخشافات والقمر الدين والنقوع والشوربا . اما في السوق فان الصحون تكاد تتطـاير فوق الرؤوس من شدة « الزحمـة والعجقة » عند الفوال « مجيد » وعند حمصاني راس الحارة لصـنع التسقية بالزيت والتسقية بالسمنة وصحن « المسبحة » . والخباز يدفع بالارغفة السـاخنة للايدي المتلهفة ، وعلى الفيجة يتقاتل الاولاد من يعبيء سطله وحقه قبل غـيره ، وصغيرة تعود الى البيت سعيدة وبيدها « طبق الجرادق » يا للي الهوا رماك يا ناعم رغيف رمضان الشفاف المرشوش والمزوق بخيط من الدبس لتكون له طعمة لذيذة وهو يقرط تحت الاسـنان . واب عجوز يعود الى بيته من دكانه وفي يده الخبزات وعدد من ارغفة « المعروك » خبز رمضان ، وفي اليد الاخرى محرمة فيها « شويـة فواكي » .. وتحت طربوشـه « محرمة » بيضاء مبلولة .

ويضرب المدفع وتشتعل انوار المـآذن ويؤذن « المغرب » ويصرخ

الاولاد في السوق وفي الحارة : هيه .. هيه .. هيه .. وتركض القباقيب الصغيرة نحو البيوت وتغلق الابواب وتسكب الطناجر في صحون ، وتطفأ البوابير ، ويخيم على المدينة سكون كامل وتنقطع الطرقات .

وقبل ان يطل رمضان باسبوع يخرج « الشوام » الى البساتين لوداع ايام الاكل والسيارين بتكريزة رمضان قبل ان يحل رمضان . وفي رمضان لا بد ان يصلي الناس صلاة العشاء و « التراويح » في الاموي .

ويظل « ابو طبلة » مسحر رمضان عندما يمر على السحور يغني وينقر على طبلته وعلى الابواب لايقاظ ابو محمد وابو ياسين وابو عزات ، وعندما يدق على الابواب بعد مدفع الافطار لجمع الطعام لاولاده والفقراء من أقاربه ومعارفه ، يظل ابو طبلة حلم اطفال حارتنا يلتفون حوله لسماع أغنية خاصة يغنيها لهم قرب العشاء :

شرم برم حالي غلبان
عالضراير والربة
وربوا على قلبي دبلة
ومن جورهن بعت الطبلة
وصرت داير غلبان
الله بلاني بالقرعة
وسنانها سنان الضبعة
حبلت وجابتلي سبعة
تلت قطاط واربع فيران
شرم برم حالي غلبان
اخدت وحدة من جسرين
ما بتاكل غير جوز وتين
قالو لي روح يا مسكين
بكرة بتصفى بلا نسوان
شرم برم حالي غلبان

ويسير ابو طبلة في طريقه ... والاولاد يلحقونه في الحارة ويغنون :

ابو طبلة مرتو حبلة شو جابت ما جابت شي
جابت جردون عم يمشي ....

ومسحر رمضان في دمشق في الليل وعند السحور لوحة دينية تبعث على اليقظة براحة وايمان :

يا نايم وحد الله .. يا نايم ذكور الله ...

اوموا على سحوركن .. اجا النبي يزوركن ...

يا صايم وحد الله .. يا صايم اذكر الله ...

يا صايم قوم وحد الله ..وصلي على النبي العدنان ...

يا مؤمنين ياللي تحبو الله والنبي ...

قوموا اعبدوا الله وصلوا على النبي ...

شهر فضيل عند الله .. شهر عبادة ومحبة وغفران ...

يا سامعين الصوت الله الكبر والصلاة على النبي ...

يا نايم وحد الله .. يا نايم أذكر الله ...

* * *

يا نايم وحد الله .. يا نايم اذكر الله ...

نيال اللي تعبد ربو وصام .. طار رمضان متل الطير ...

يا رب اغفر للمؤمنين .. يا رب انصر الاسلام والمسلمين ...

يا للي فاتك الصوم والصلاة .. قوم جدد عهدك مع الله والنبي...

يا نايم وحد الله ...

* * *

نزلت دموعي على خدودي كبيضة الحمام ..

يا شهرنا اودعتنا هذا عليك السلام ..

* * *

وتأتي وقفة عيد الفطر بعد طول انتظار وامل ونسمع مدافع وقفة العيد وتقول امي : يي ثبتوها . يا اولادي كل سنة وانتو سالمين .. « روحوا بوسوا ايدين ابوكن » ونركض نقبل ايادي امنا وابينا ، نقبل اليد ونضعها على راسنا ونعايد عليهما ونبدأ بترديد اغنيتنا المعهودة : « شعل ضو انطفا ضو قال المدفع بو بو بو ... » ثم نصعد الى النوم المبكر نغرق في احلامنا . ويطول الليل .. والحذاء الجديد والثوب الجديد والشريطة

الجديدة على مخدة كل طفل تنتظر الصباح واطلالة العيد بنوم قلق متقطع ، نحلم بالعيدية من الاهل والاقارب ، والحرية والالعاب المغرية والمـــآكل الطيبـــة ، وعندما نعود مع فجر العيد مع أمي وابي من زيارة الاموات في البرية بعد تأدية واجب شكل اغصان الآس والورد على شواهد قبورهم ، نقف في شارع النصر مع النـــــاس وقرب « تم سوق الحميــدية » لنتفرج على السلاملك .

وعند العودة الى البيت تدخل امنا العزيزة الى المطبخ لتطبخ لنـــا الفخدة والرز والملوخية اكلة اليوم الاول التقليدية في بيتنـــا ، ويبدأ ابي باستقبال الرجال من المعايدين :

اهلا وسهلا .. كل عام وانتم بخير .

احياكم الله لامثاله .

كل سنة وانتو سالمين .

ان شا الله العيد الجاية بعرفات .

وتوزع القهوة على الضيوف ، امي تنقر باب المطبخ وابي « يسناول » منها صينية فناجين القهوة « لانها ما بتطلع قدام الرجال الغرب » . ثم ينقر باب المطبخ من الداخل .. ويتناول منها صينية فيها صحون « الغريبة » و « البرازق » و « المعمول » بالجوز والفستق و « الكرابيج » والنـــاطف والسكاكر والسيجارات . ويذهب ابي ليرد المعايدات ، وتـــأخذ امي من الضيوف الرجال كروت المعايدة من ورا الباب . ونحن الاطفال نطير احرارا في عالم مسحور لا أحد يسألنا الى اين ؟؟ لا احد يرافقنا للمراقبة ..!! نفتح الباب ونخرج بلا اذن نركب عربة الاحلام الوردية « الكراجة » التي يقودها حمار او انسان لا فرق ، غربة « العتال » في الاصل وقد زينت في العيــد بالاوراق الملونة ، وصار لها مقعدان يصطف عليهمــا الاولاد ويتمسكون بخشباتها ، وتقفز بنا طائرة « روحة رجعة » حتى « السبع بحرات » بس في شارع بغداد ، ثم تعود الى سوقساروجة والاغنية التي تلازمنا وتلازم العربة في كل عيد ، اغنية « يا اولاد محارب جوجو » هي النغمة المحببـــة لنا في كل رحلة نقوم بها مقابل قرش .

صاحب « الكراجة » يقول ونحن نردد وراءه :

يا اولاد محارب جوجو . شدو القوالب جوجو . قوالب صيني جوجو . شكل الفليني جوجو . علي ما مات جوجو . خلف بنات جوجو . بنـــاتو

بيض جوجو . شكل العفاريت جوجو . بناتو سود جوجو . شكل القرود جوجو . يا اولاد محارب جوجو .. يا اولاد محارب جوجو » .

اغنية كأغنية الشيطان نرددها كالببغاء وراء الرجل ، ليس لها من معنى الا انها أغنية العيد في دمشق . ومن لا يركب « العرباية » ويغني يا ولاد محارب فهو طفل لم يعيد حتما .

ويطلب الاطفال من صاحب « العرباية » ان يسرع ويغرونه باعـــادة الكرة بكلمات لطيفة :

« قويها منجدد .. قويها منجدد .... »

ويسرع الرجل ... ونجدد ولا ننزل من العربة الا بصعوبة بالغة .

وننزل من العربة لنركب المراجيح ونشتري اللعب من الدكاكين التـــي استطالت حتى تجاوزت الارصفة ونأكل على الكراسي القش « الواطية » الفول النابت مع الملـــح والكمون ، والمخلـــل والشرك وليلة الله والملبن و « الملوا » وكنت افضله « على فلفل » وكانت له عدة انواع « على عسل » و « على ليمون » و « على قرفة » . ونذهب الى « الحريقة » فنركب الجمال وندخل الى الخيام المنصوبة لنتفرج على « الضبع » وعلى ام راس مقطوع وهي تتكلم !! وعلى ايدين ورجلين !!

وتمر ايام عيد الفطر الثلاثة ... ونأبى ان نقبل بفراق العيد ولا بد ان نودعه في اليوم الرابع في « جحش » العيد والدموع تكاد تفضحنا اسفا على هذا « العيد الصغير » . وفي عيد الاضحى المبارك تذبح « الخرفان » ولكن فرحتنا بالعيد يشوبها شيء من الحزن على خروفنا الصـــديق الذي عشنا معه اكثر من شهر في بيت واحد واطعمنـــاه الحشيش وكنسنا لـــه اوساخه واخذناه عدة مشاوير ... وربطنـــاه من درابزين الـــدرج ... وصعدنا به الى المشرقة ... ثم صحونا لنجده مذبوحا ... وقالوا لنـــا ذبحناه وسنأكله ... ونفرق منـــه على الفقراء !! ومن يومهـــا وأنا اكره اللحم ... ولي في طنجرة الكوسا المحشي كوسايات في راس كل « كوساية محشية » قشة تدل على انها محشوة « رز بلا لحمة » لمن لا تحب اللحمة ، ويضحكون على « السفرة » : انها لا تأكل الا كوساية « ام آمنة » !! ولا اضحك .. لقد ذبحوا يوما صديقي الخاروف الطيب !!

ويمر العيد الكبير .. وتشتعل دمشق بالزينات اســـتعدادا لعودة الحجاج من مكة المكرمة ، « وتقطع » النســـاء ملابس جديدة من سوق الحميدية لمباركة الحجي ، وتزين الابواب والحارة كلها بالسجاد وورق الكينا

والصفصاف والورق الملون والانوار ، وترسل الهدايا الى بيت الحجي من المعارف والاقارب اكياس طحين ورز وسكر وتنكات سمن وزيت ، ويـــذبح خروف عند عودة الحجي وبين قدميه وافر هاربة من منظر نافورة الدم الى بيتنا واغلق الباب . وتوزع زوجة الحجي الهدايا : « مســابح ومراوح ومكاحل » وعدة تمرات وكؤوسا من ميـــة زمزم . والشبان عند البـــاب يرددون :

— حجاج مكة وردت علينا .

والنساء يستقبلن الحجي الذي يرتدي « الابيض » بالزلاغيط :

اوها اهلا وسهلا يا ضيوف
اوها ومشكلين بالسيوف
اوها لو عرفناكن ايمتى جايين
اوها لحضرنالكن الخاروف
لي لي لي ليش

اوها يا مرحبا واهلا بعينك هالكحلا
اوها يا نخلة طويلة سدت باب المعلا
لي لي لي ليش

اوها مشمش مشامش تمشينا على حارتكن
اوها والقلب ينقط دمي طول غيبتكن
اوها وان اجا المبشر يبشرني بسلامتكن
اوها لاعطيه روحي وفرق من هديتكن

كم من الصور الشعبية الحية وكم من اللوحات الفنيـــة لاحت لي من خص نافذة « فرنكة » بيتنا ، البارز الى الامام في حارتنا البسيطة المتواضعة هي عندي اغلى من اللؤلؤ والماس .

وتعود بي الذكريات فالتقي بطفلة صغيرة نشيطة جريئة كالصبي ، تحمل السلة القش وتركض لتشتري لامها الفواكه من دكان « ابو مستو » واللبن والقشدة والسكر والشاي والجبنة والاريشة والحـــلاوة والدبس والسمن والزيت من بقال سوقساروجة الشهير « ابو راشـــد » والخبز التنوري من تنور « ابو علي » في سوق العتيق والفول المدمس من دكـــان « مجيد » الفوال قرب حمام القره ماني في سوق العتيق والخضار من دكان

« صلاح » الخضري واللحم من عند « ابو امين » في « طلعة » سوق الهال والخبز المرقد والمشروح من فرن « ابو صلاح » مواجه جامع الورد . امـــا كيس حطب « القباقيب » الناشفة فقد كنت اذهب لاشتريه وادفع ثمنـــه كالكبار ثم يحمله لي الحمال من « منشرة » جوزة الحدبا . وكيس الفحم كنت اشتريه كما يوصيني ابي من الفحام الذي لا اعرف اسمه والذي يبيع الفحم والدق قرب حمام القره ماني قرب بائع اللبن والحليب « هاشم » . واما البابونج وبزر القطونة وبزر الكتان والزهورات وشربة زيت الخروع « أف » ، والمراهم فقد كنت اشتريها كما توصيني امي من عند «بروالعطار» في سوق العتيق . وابريق الماء التنك وتنكة الزيت وسطل العرقسوس فقد كنت الحمها عند السمكري بسوق العتيق . اما البيض والدجاج والسلل والمقشات والمكانس والقفف فقد كنت اعرف كيف انقيها من عنـــد احسن البائعين في سوق التبن .

التبن ..!! من التبن والطين .. صنعت بيوت الشام .. وقبل ان يطل الشتاء ويأتي ايلول بذنبه المبلول كنت اشم رائحة الطين .. يتكوم في الحارات .. تحمله الاقدام والايدي الى الاساطيح تعيد ترميمها بطينـــة جديدة « على وش الشتي » حتى لا تدلف السقوف على « اوض النوم » فنضطر الى وضع الطناجر والاطباق تحت الدلف الى جانب فرشات النوم.. وصوت الدلف .. نقطة وراء نقطة يؤرق ليلتنا .

واغمض عيني استعيد اللوحة .. الصوت والصورة والرائحة معا : « الطيان يشمر عن ساقيه الملوثتين بالطين الاحمر الذي عجنه بقدميـــه ، يحمل من الحارة الى البيت قفة الطين على رأسه يدخل بها من الباب صائحا منبها نساء البيت ليأخذن له طريق :

ــ يا الله ... طيانة ..!! » .

شكرا لاهلي لانهم منحوني دون ان يدروا تجربة ثمينة . شكرا لابي لانه من سوقساروجة ، وشكرا لامي لانها من الميدان . شكرا لاني عشت احلى ايامي في تلك الاحياء الشامية العريقة .

الشام .....!!

الشام عندي ... بيت عربي وديار مفتوحة .. وبحرة مـــاء دفاقة بسبعين نحاسيين يخدق منهما الماء البارد ، وامراة جميلة تشطف الديار في يدها سطل ومقشة . قبقابها يرن على البلاط الحجري واساورها الذهبية الرفيعة تخشخش في معصمها .. وضحكتها تجرح القلب .. بياضها بياض

الفل ، وعيناها بلون العسل ، تعبيء سطلها من البحرة وتسفحه على الارض وتشطفها بالمقشة ... بينما رفيقتها تعبيء سطلا ثانيا من النهر وترش الزريعة وتسقي الاحواض ، وتغسل الشجر . ورائحة البيتنجان المقلي بالزيت تعبق في البيت وفي بيوت الجيران .. وسيدة ماهرة تدق الكبة في جرن الكبة ، وسلفتها تدق في الليوان الرطب على العود تتحرك الاساور الذهبية الناعمة في يديها مع حركات العزف بريشة الطائر على اوتار العود. وحماتها تقشر الثوم « بالفي » وبنت حماها تدق على يد البير في المطبخ تملأ واعة كبيرة بالماء للجلي ، وضرة حماتها « تتعمشق » الدالية على سلم وتقطف ورق العنب الطري تحضره لطبخة « يبرق » في اليوم التالي ، وولد ملعون يدق على الباب ويهرب ، وصوت خرير المياه في النهر المسافر عبر البيوت يبعث على الراحة ، و «ستيتية» «تبقبق» بسعادة في المندلونوتقول كما تفهم لغتها النسوة العجائز كوكو كوكو وحدو ربكو .. كوكو..كوكو.. ... الله .. الله .. وتتذكر كنة زعلها مع حماتها فتقول لسلفتها من قلب مجروح : انا متل « ستيتية » ما حدا حط علي الا بلاه الله بالعمى .. ايه الله ينتقم منها عم تعلم جوزي علي ..!! وبنت تكسر بفردة قبقابها على حجر الدرج الاسود بزر المشمش الذي جمعته من مائدة الامس ، وعدة اولاد يلعبون الطميمة في الديار الكبيرة ، وصبية متفتحة كزر ورد في هذا البيت تقطف ازرار الياسمين وتصنع منها بالابرة والخيط عقدا لصدرها فقد يحضر « الخطابين » اليوم !! ولا تنسى ان تشك عرق ياسمين اخضر بالازرار وتشكل رأس امها ، ورجل ينادي في دكانه على بضاعته ثم يعد « الغلة » وهو يحلم بان يسكر « الغلق » ويعود الى بيته الرطب في نهار حار بيده سطل عرقسوس بارد وفي الاخرى بطيخة ، وثائر يختفي خلف جذع شجرة من اشجار الغوطة في يده بندقية ستصطاد مستعمرا فرنسيا ، وشيخ في الجامع الاموي يصلي ويدعو الله ان ينصر الاسلام والمسلمين،ونسوة بالملايا السود الحبر يملأن سوق الحرير والقيشاني « والقطع والدرع » شغلهن الشاغل ... المتعصبات منهن بالملايا الزم السود والبيض ، «والمتموضات» بالمانطو الاسود وفوقه على الرأس الفوقانية والمنديل بطاقين . ورجل يصيح من الشارع عربجي ... ورا .. ورا ..!! وكرباج يحاول الوصول من مقدمة العربية الى ظهر صبي معلق خلف عربية خيل .. يترك حصانيها وسخهما في الشارع فيبعث رائحة كريهة ، ووقع حوافر حصانين مسافرين بمشوار شمة هوا للربوة وغداء في دمر . وآذان الظهر من مأذنة قريبة ، وصغار وصغيرات بالصداري السود يتفتحون كأزرار الفل في الشوارع ، ولحظة انصراف الاولاد من المدارس لفرصة الظهر . وترين يطنطن ..

وكمساري يزمر .. وبردى يجري .. وستارة مخملية تهبط فجأة .. تؤكد لي ان دمشق كانت تعيش خلفها بسعادة لا مثيل لها دون ان تدري .
وتختفي دمشق العتيقة في الظل ...

انني اتساءل .. كيف لا يخاف الناس على دمشق الاصـيلة ؟ كيف يهربون منها الى العلب الكرتونية الجـديدة !! كيف يسمحون لتلك العلب المزيفة بغزو ماضينا العريق وصورة اصالتنا .

اتمنى لو اضم احياء الشام العتيقة واسواقها وحماماتها واهلها الى صدري ، أضغط عليها بين ذراعي لامنع عنها زحف المدنية المزيفة ، ولاحميها من مخالب وحش التقليد السطحي كأم حنون تخاف على طفلتها من طوفان سـاحق .

لا بأس .. كنت طفلتك يا دمشـق .. واصـبحت طفلتي المدللـة الاثيرة .. انني احبك يا شآم .. احبك اكثر من اي شيء في العالم مع انني لم أر العالم بعد .

انت يا دمشق فوق كل احتمال .

شآم ما المجد

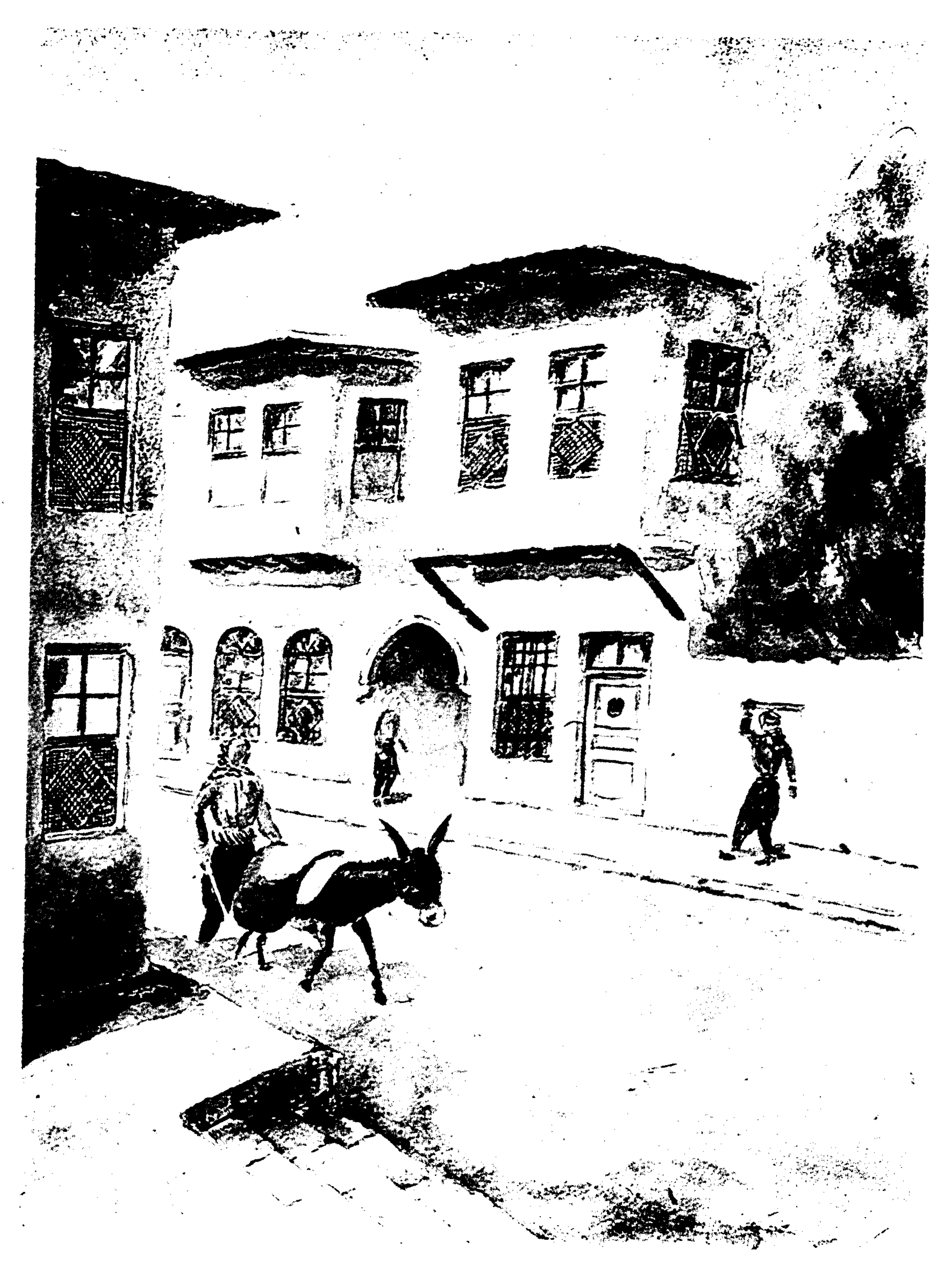
اسابيع وأسابيع وانا اقف في مكاني استجمع قوتي اتحفز بوجه احمر كالشوندر ، لاقفز جدار الصمت العالي قفزة لها معنى جديد يسجل لي رقما عاليا بين ارقام المتسابقين المتحمسين . وأخاف خوف الفأرة البيضاء من عين الحكم الثاقبة ان تلحظ لمسة من طرف اصبع من أصابعي لخشبة حاجز الصمت او من سقطة كاملة ترميني مكسورة الساق والقلم تحت الحاجز وتحت عين الحكم الحيادي .

خائفة من صمت الحكم والحكم هو امين المجلس الاعلى لرعـــــاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والنقطة الرابحة في الســـباق هي الشام .. والمتسابقون هم اصحاب الراي والفكر والقلم الذين هبوا لتلبية نداء المجلس من أجل انقاذ دمشق « العتيقة » التي تفوح من حاراتها الضيقة رائحة الزمن ، ويتفجر من كوى اسواقها عطر التاريخ .

وادى بنا الحوار الى فريقين ، فريق يحب الشام « ككل » ينام داخل الاسوار على بعضــــه كرأس ام على رأس رضيعها ، كحدب الاهـــل على بعضهم في دار شامية عتيقة .

وفريق بهرته دمشق الصبية ببيوتها النظيفة وشوارعها الاسفلتيـــة العريضة ونوافذها العالية وشرفاتها الانيقة ، فراح يتقزز قرفا من منظر المدينة « الجدة » ويطالب بموتها حالا باسم الجمال والنظافة والصحة وعلم الهندسة وانسانية القرن العشرين !! ومستقبل النسل الفقير الذي يتكدس في ازقتها مع قشر البطيخ واكوام الزبالة ، منتظرا بصبر نافد حركة مساواة سريعة سريعة مع اطفال شارع ابي رمانة العظيم!!! أمل الاطفال والشباب والشيوخ !!

ولكل فريق وجهة نظره في الدفاع والهجوم ، عرضها في لقاءات قصيرة وفي مجالات مختلفة ، وظلت دمشق تنتظر مصيرها بين كفتي ميزان دقيق ،



الفنان خالد معاذ ـ دمشق

رجحت فيه اخيرا كفة الذين ينادون « بدمشق » داخل الاسوار « ككل » . تبقى البيوت والاسواق القديمة والاماكن الاثرية والحوانيت والخانات والحارات الضيقة المسدودة والمفتوحة ودكاكين الاغباني والبروكار والنحاس المزخرف والخشب المصدف والجلود المدبوغة ، ولم يوافق اي انسان مسؤول او فنان او مواطن دمشقي او عاشق للشام القديمة على فكرة الهدم السخيفة ، ومن يريد ان يخطط ويبني للاجيال الجديدة فليتفضل الصحراء امامه .

لا .. لن نهدم بيتا عتيقا من الطين والخشب لرفع بناء شاهق من اربعة طوابق من الشمنتو والحديد تطل نوافذه على جيران الحي الآمنين ، كعين شاب جريء وقح لا يرعى حرمة للتاريخ العربي العريق الذي ترك لنا بيوتا عربية عالية الجدران مفتوحة القلب ، لها لقاء لا ينتهي مع السماء الزرقاء مع الطمأنينة مع الله . ولن نسمح بقطع شجرة من اشجار بيوت دمشق مقابل اناء من الزهر يزين شرفة حديثة .

لا .. لا نريد نحن ابناء دمشق ونحن من يحب دمشق ان ترتفع فوق دمشقنا عيون جريئة تكشف ، باسم العلم ، سترها وسر غموضهاوسحرها الخاص بها بين مدن العالم ، سحر يدفع الشهقات الى صدور اصحاب الرؤوس الشقر والعيون الزرق ، الناس الغرباء الذين يبحثون في ارضنا عن مفتاح العودة الى الاصالة الانسانية المكتنزة بعبير الروح لا المادة !! المادة التي قدمت لهم على طبق العلم « القطار السريع » و « السندويتش » و « دور اللقطاء » ، ونفتهم باسم الكهرباء والذرة عن الانسان والاسرة والجامع والكنيسة ، عن البيت الذي تعشش في جدرانه الطينية المطرزة بخيوط القش اللامعة وفي سقوفه التعبة العاجزة عن احتمال قطرات المطر العنيدة ، نفتهم عن المعاني الحقيقية للانسان .

نفتهم عن هذا كله فلجأوا الينا لا ليرتدوا بسخط عن نسخة مشوهة مقلدة لحضاراتهم ومدنياتهم الحديثة ، بل لتسكن نفوسهم في ظل سقف سوق الحميدية الرطب في الصيف الحار ، الناشف في الشتاء المبلول ، او لترتاح

في كنف جدران « الاموي » التي تعربشت على احجارها التاريخيـــة حول الجامع اسواق القوافين والقباقبية والصاغة والمسكية والنوفرة ، او لتهدأ مخاوفهم تحت شجرة كباد او عريشة بنفشى او دالية عنب زيني تخيم على باحة من باحات قصر العظم او اي بيت من بيوت الشام لم يتحول بعد الى متحف يزوره السواح لان اهله رفضوا مغادرته الى دمشق الجديدة وظلوا متمسكين به كتمسك الانسان بروحه .

جاء الغرباء الينا ويجيئون ليسكنوا الى جوار اعمال التاريخ الاسلامي والعربي ولتهدأ نفوسهم التي يدوي فيها صدى انطلاق صاروخ الفضاء ، في ظل مدينتنا المترفة بالفن العربي الانساني السمح . ولا أفهم لماذا لا نرتاح نحن اليها ، ولا نعاني تجربتهم في ظل حضارتنا المتمثل في صورة اقدم مدينة في التاريخ !! مع اننا ندرك خطر تجربتهم مع منجزات مدنيتهم الحديثة لو داهمنا فجأة ، وأكون متفائلة جدا ان لم أقل انه قد داهمنا على البعد وبدأ يكتسح شعور جيلنا الطـــالع المتعلق برؤوس خنـــافس الانكليز وارداف شقراوات الامريكان .

لماذا لا نرفع العصا في وجه من لم تحفر التجربةالانسانية في نفسهآبارا ارتوازية تفجر ذهبا يحمي « الحقيقة » في هذه المدينة من ان تموت الآن او بعد عشرين او مئة سنة !؟

دمشق القديمة قد تنهار بعد عشرين سنة بفعل خطوات ثمانين الف نسمة تمر عليها اليوم .

فلماذا لا نستمع الى صوت المهندس العربي الشاب الفنان الذيوقف بيننا فجأة ليعلن رايه بصراحة وقوة في وجه « ايكوشار » المهندس الفرنسي الذي خطط ويخطط لدمشق حديثا !! لنسمع صوت المهندس العربيالذي لم تخدعه مظـــاهر البناء الحديثة في الغرب فوقف يقول « لا » باسم كـــل انسان عربي .

لا .. دمشق القديمة يجب ان تبقى كما هي صورة لقوميتناوانسانيتنا وتاريخنا ، طبعا بعد ان نمر بريشة الفنان منا وقلم المسؤول فينا علىالشام

داخل الاسوار والابواب التاريخية لدمشق ، فنسقط عليها النور والعلم والصحة والسعادة . وما الذي نخسر ان ظلت « دمشقنا » نظيفة متجددة لا تفنى يعمل على حفظها من يد المستقبل المجهول ، الراي العام ونخبة من الاخصائيين الذين لم يسقطوا من حسابهم ضرورة توفر اسباب المدنيــة الحديثة الاساسية التي تكفل لسكان الشام العتيقة الشرط الانساني .

لقد تبنى امين المجلس الاعلى فكرة المهندس العربي للوقوف في وجــه كل مخطط يقدمه لنا « ايكوشار » الفرنسي او اي مهندس اجنبي لتخطيط دمشق او حلب او حمص او حماه او اللاذقية او السويداء او دير الزور او الرقة او درعا ، يهدف الى شق الشوارع في قلوبنا ورفع علب الكرتون فوق رؤوسنا .

ودعا نخبة من الدمشقيين ومحبي دمشق ليقرروا بانفسهم مصــير مدينتهم ، لان تقرير مصير مدينة قضية اكبر من ان يبت فيها انسان واحد أو اثنان أو عشرة ، انها مسؤوليتنا جميعا امام التاريخ المقبل والاجيــال القادمة التي ستطوينا . فلنذهب ولنترك لها ما تركه لنا الاجداد ، ولن نحرم احفادنا من مدينة التاريخ المعجون بالخشب والطــين والمادهب والعرق الاخضر والروح والفن العربي ، لنقدم لهم بديلا عنها مدينة تشق صدرها طولا وعرضا شوارع « آباء الرمانات » !!!

انا مع دمشق القديمة بكل قوتي ، واؤمن بان كل من تحدث باسم الفريق الآخر وباسم نظافة حارتنا القديمة لانقاذها من الجرذان والــذباب ورائحة الزبالة قد أخطأ عندما رفع اصـــبع « اللا » لانه دخل في التفاصيل الصغيرة التي هي من واجبات البلدية ، ونسي ان يستعمل فكره للدفاع عن القضية التي لا تعني دمشق وحدها ولا عددا من سكان دمشق ، بــل تراثا عربيا كاملا..

وهذا هو عيب من عيوبنا نحن العرب ، نسرع بالقاء « اللا » النقدية من خلال تجربتنـــا الفردية وننسى اربــــاح القضية .. ننسى دمشق .. ننسى التراث .

وأرجو لجنة تخطيط دمشق ، واسأل المهندسين العرب والاجانب ان يترفقوا بدمشقنا العزيزة ، وان يتركوا مأذنة الجـــامع الاموي الحلوة « مأذنة العروس » مطلة كالعروس على سوق « المسكية » الذي اشترينا منه كتبنا العلمية ودفاترنا واقلامنا الملونة والواحنا الحجرية ، ومطلة على سوق « القباقبية » الذي لبسنا منه بفرح عظيم قبقابنا الخشبي الرخيص ذا السير المقصب الملون والمسامير الذهبية ، هذا القبقاب الذي دفعنـــا صوته الرنان العذب على ارض حارتنا المعتمة في ليل الشام الماضي ، بـــلا خوف ، ونحن في طريقنا لنملأ من « فيجة » الحارة « حق الماء » البارد ، دفعنا وحملنا كي نصل الى نقطة « الوسط » في درب الحياةالعربيةالجديدة، حيث اصبحنا ندرك ونحن في شرفة منزلنا الانيق العالي في دمشق الجـــديدة والتي اغرت آباءنا بالرحيل عن دمشق القديمة ، ان القوة الدافعة للانسان الحقيقي فينا قد تفجرت هناك في تلك المدينة ، وفي بيت سقفه اعمدة خشبية مسوسة ، وسطحه الطيني المهترىء يدلف في الشتاء على فراشـــنا ونحن صغار نيام في فراش يلتصق فيه وجه طفل منا برجلي اخيه في ليلـــة باردة ممطرة من ليالي دمشق .

وستثبت الايام المقبلة نحونا ، لمن يقول اهدموا بان مدينتنا العتيقة « الباقية » سوف تقدم ثروة بشرية لا تتخلف عنا .

نعم انا بنت الشام العتيقة .

ترى كيف كنت أكون لو لم أعش هناك !! من يدري ربما كنت ارقص الهالي غالي في مربع دمشقي او في كهف مخملي حديث جدا جـــدا تحت الارض ، ويصـــبح على كل من يريد ان يتعرف الي ان يرفـــع « الغرة » الخنفشـــائية عن جبيني ، الســـتارة المزيفة التي تخفي الوجـــه الحقيقي الضائع .

وتحية مني باسم الشام الى المجلس الاعلى والى الفريق الذي رفع صوته بقوة وصدق ليضع الراي العام امام مسؤوليته .

انني متفائلة .. وسنترك الشـــام كما استلمناها وافضل لاحفـــاد

أحفادنا . وعندما سيمر احدهم في حارة ضيقة مسقوفة بالبيوت المتعانقة، لتستقبله من فوق جدران بيت من البيوت الشامية رائحة زهر الليمون والياسمين والليلك ، فسوف ينتشي بسحر العطر مرددا : الله .. الله .. وسوف يبتسم مترحما على من عمر هذه البيوت المفتوحة القلب لله وللانسان وعلى كل من حافظ على الشام وسقى بيوتها وحاراتها واشجارها وازهارها واناسها بمياه الديمومة والحب والمجد .

وتغني فيروز ويعزف الرحبانيان وينشد سعيد عقل ويسقط القلم من يدي ويركع قلبي للفن العظيم يغني لدمشق ويخلد دمشق :

قرأت مجدك في قلبي وفي الكتب

شـــآم ما المجد انت المجد لم يغب

ويلخص شوقي مجد دمشق فيقول في بيت من الشعر معلق في سقف سوق الحميدية ..

وعز الشرق اوله دمشق .

* * *

سمية وهند وكلثوم

يا لطيف ....

حريقة .. حريقة .. حريقة ...!!!

وتلتفت دمشق بأسى بالغ نحو اللهب الاحمر الذي يهدد ما تبقى من بيوت المنطقة ، وتنهار حتى النهاية جدران جامع « دك الباب » العتيق في طريق الصالحية .

ويلتفت مع دمشق قلبي الطفل ، ويقفز بي كأرنب مذعورة نحو المكان الذي حدده لي عن بعد عمود الدخان الاسود المخيف .

وعندما تفتح الطريق المبلولة بخراطيم سيارات الاطفائية للمارة ، امر معهم والخوف يملأ قلبي مما قد ارى ، ينصحني بالعودة . فانا ، وليس من يعلم ، املك ثروة ضخمة قرب الجامع واخاف ان تكون السنة النار الغبية الحاقدة قد تناولتها . لا .. لم تكن غبية الشرهة ، وكأنها قد ترفقت بي وبالاجيال التي رافقتني في رحلتي الطويلة لاقتناء هذه الثروة .

الناس يتدافعون يبكون ، وانا ابتسم للوحة الرخامية الصغيرة المعلقة فوق باب خشبي عتيق يصعد اليه الانسان بثلاث درجات ويدخل منه الى جنتي .

تبتسم لي اللوحة تبتسم لي « الكلمة الباقية » « زبيدة » .

بقيت اذن ثرية رغم كارثة المصلين المؤمنين باحتراق الجامع ، ورغم كارثة السكان الآمنين بانهيار بيوتهم وتشردهم .

بقيت لي « زبيدة » بقيت لي « طفولتي » ولم تحترق .

ـــ يا لطيف ... شوفوا .. غبرة .. غبرة ..!!



الفنان نعيم اسماعيل ـــ انطاكية



ـ أين ..؟

ـ في المنطقة المحترقة .

ـ قرب زبيدة .

واسير هذه المرة بخطوات عجوز بلا عكاز ، يرافقني صوت خطواتي وانا طفلة صغيرة ، ارتدي صدريتي المدرسية السوداء وياقتي البيضاء المنشاة وشريطة عريضة حمراء تهتز في منتصف راسي كعرف الديك ، جيب صدريتي منفوخ بالزعبوب ، تحت ابطي حقيبتي الجلدية البنية التي تحول لونها الاصلي ، بفعل انتقالها من اختي الى اخي الي ، الى لون بني باهت .

وصلت ، الحمد لله . لا .. لم يصل الهدم في المنطقة المحترقة الى « زبيدة » بعد . ولم تتحول جدرانها الى غبار ثائر يعمي عيون المارة .

ولكن « الحادث » قد منح المهندس قوة خارقة لتنفيذ مخططه الكبير لتجميل دمشق . وستتحول هذه الاطلال كلها الى ساحة من اجمل ساحات دمشق تصل اهم شوارع المدينة ببعضها . فيرى ابن آخر بيت مطل على بساتين شارع « ابي رمانة » بنت آخر بيت مطل على بساتين « المزرعة الجديدة » . وعندما يطل ابن حي « المهاجرين » من شرفته فسيرى الصبية الجميلة المطلة من شرفة بيتها في شارع « بغداد » ويبتسم .

ولكن .. مالي وهذه الساحة الفسيحة !! وهل نسيتني لجنة تخطيط المدينة ، وهل تجاهلت حياة اجيال بكاملها حيكت « نصف » حياتها الاولى في « زبيدة » !!

واخضع للاخبار الجديدة الصادقة : لا بد من الهدم حتى نتمكن من البناء . ستدخل « زبيدة » في مخطط الهدم .

وانا ... لماذا يهدمون « قصري الذهبي » ولماذا ينزلون بالمعاول على راس طفولتي السعيدة بلا رحمة !!

عشت في مدرسة « زبيدة » الابتدائية للاناث خمس سنوات وتخرجت منها عام ١٩٤٥ عشرون عاما وثلاثة اعوام وما زلت اذكر ادق تفاصيل حياتي فيها وكأنها تمر بي الآن .

زبيدة عندي .. باب خشبي كبير بردفتين ، الى جانبه باب حديدي

كبير له ثقوب كثيرة صغيرة كنا نختفي خلفه ، نحن البنات الصغيرات ، نراقب منه بفرح صبيان المظاهرة الثائرة ضد فرنسا ، القادمين لتحريض بنات مدرستنا على الاضراب ، باب عجوز عجوز أظنه لم يفتح منذ كنت انا تلميذة في زبيدة .

وان وقفت أتذكر ... أجد نفسي اذكر باحة شتوية يصعد منها درج معتم الى الطابق الاعلى حيث درست الصف الاول والصف الثاني والصف الرابع . اما الثالث والخامس فقد درستهما على مقاعد الغرف الداخلية المطلة على باحة هذا البيت العربي الكبير الذي تحول الى مدرسة للبنات الصغيرات .

كان مطبخ المدرسة يواجه غرفة « المديرة » وفي هذا المطبخ الواسع البسيط الرطب عرفت معنى الاشتراكية للمرة الاولى في حياتي. كنت اشترك مع رفيقاتي في الطعام. فأطعم هيفاء زيتونا اسود « فريك » وبيضامسلوقا، وتطعمني من طبقات « صفرطاسها » الاصفر النحاسي ، كبة لبنية وملوخية ودجاجا . كانت هيفاء الوحيدة المدللة على امها ، وكنت واحدة من خمسة اخوة واخوات . كنت أحب هيفاء وما زلت . وظلت هيفاء رفيقتي في الدراسة من الصف الاول الابتدائي حتى تخرجنا من كلية الآداب قسم الفلسفة معا . ان هيفاء جمال الآن مفتشة كبيرة وناجحة في وزارة التربية .

وتعود بي الذكريات ، واجد نفسي في باحة المدرسة الصيفية ، قرب حنفيات ماء الشرب والوضوء . وهنا الى يمين الباحة كنا نلعب لعبة « نط الحبل » وهناك الى اليسار قرب نوافذ صفي « الثالث » يعيش في مخيلتي الركن الذي كنا نتسابق على حجزه مع الصباح الباكر الباكر لنحور على أرضه بالطباشير مربعات نلعب فيها لعبة « الحجر » .

وكم ضحكت وضحكت مع اختي الصغيرة في سرنا ، عندما كان أبي يقف بنا حائرا امام « البزم » بائع احذية الاطفال الشهير في سوق الحميدية، عاجزا عن رد الجواب وتفسير الظاهرة للبائع الطيب الماهر الذي كان ينظر مع ابي الى الاحذية في اقدامنا متسائلا والدهشة تلازمه :

— اريد أن أعرف كيف اهترأ بوز الحذاء من الامام بهذه السرعة ، والله يا اخي اعطيتك احذية من احسن « جلد ممتاز » !!؟ ثم كيف يمكن ان يهترأ بوز الحذاء خلال اسبوع واحد !!؟ ولماذا الرجل اليمنى فقط !! وينظر ابي معه الى بوز كل فردة من احذيتنا وقد تحولت الى لون ابيض ، ويحرك يده متعجبا ، « ويصفن » ابي والبائع طويلا .. ولا تفسير !!

الحجر يا ابي .. الحجر .. آه لو كنت تدري يومها لقتلتنا شر قتلة!!
اننا ندفع الحجر ببوز الحذاء اليميني لنكسب بيتا جديدا ضد رفيقاتنا .

وهذه الابواب والنوافذ ، كم امسكت بخشبها بلهفة حتى « لا اموت » عندما تحاول احداهن اللحاق بي ولمسي في لعبة « عيش » !!! ونمل لعبة عيش ونلعب لعبة « الطميمة » ونتغلغل داخل المخابيء السرية ولكن جرس الدرس يحرمنا من متابعة اللعبة .

ولكن .. أين رفيقاتي العزيزات !!؟ اين سمية حبال وأين كلثوم نوري وهند حكيم وسعاد حافظ وهيفاء جمال !!؟ ضيعتني عنهن دروب الحياة .

لن انسى ابدا كم شدتني « كلثوم » العزيزة كي « اخاوي » « سمية » العزيزة، وكم شدت « هند » « سمية » كي تخاويني.وعند منتصف الطريق، النقطة المحددة للصلح ، كانت كبرياء الطفل فينا تشتد وتشتد معها الرغبة في المقاومة كما تشتد معها الرغبة في التنازل ، وأخاف وتخاف سمية حتما ، ان تمل كلثوم وهند هذه الكبرياء المشدودة كوتر ، فتقع كلتانا في ناحية ، فنقترب ونتصافح « واخاويها » بلمس اصبع السبابة في يدي اليمنى باصبع السبابة في يدها اليمنى ، ويزول الخصام الذي بدأ بلمس خنصري الايمن لخنصرها الايمن تتبع تلك الحركة كلمة « خاصيتك » تعلن فيها كل منا موقف الخصام والقطيعة .

وفي مدرستي « زبيدة » عرفت الظلم للمرة الاولى في حياتي ، كان دور المعلمة « حياة خانم » بقرع جرس الفرص بين ساعات الدروس ذلك اليوم. وحياة خانم معلمة صعبة شديدة البأس خلقت والعصا بيدها . ويشاء سوء حظي ان أنال الدرجة الاولى في الامتحان الاول للصف الثاني ، فتناديني معلمتي المحبوبة الدمثة الفاضلة امام الصف كله وتعلن تعييني « عريفة » للصف بدلا من التلميذة « باكزة » العريفة السابقة الظالمة الزنجية الطويلة الغبيـة .

وفي الباحة وبعد قرع الجرس وانتظام الصفوف تنتقم باكزة لنفسها فتحاول اخراج قدمها عن مستوى اقدام تلميذات الصف الثاني المهذبات المطيعات ، رغم تهديدي بالمسطرة للرجل المتمردة على خط النظام الذي صنعته انا من اقدام التلميذات باتقان بالغ والذي ستلاحظه باعجاب « حياة خانم » في جولتها التفتيشية . وعندما تفشل انذاراتي واقول لها بصوت مسموع امام صفوف المدرسة الصامتة .

— حياة خانم .. باكزة تخرج رجلها عن الصف !!

وتحدث مفاجأة ...

وتشدني « حياة خانم » من شعري الى وسط الباحة لتتسنى رؤيتي لكل تلميذات المدرسة ولاكون عبرة للجميع ولكل من تسول لها نفسها التطاول على معلماتها المحترمات . وتبدأ بشتمي قائلة :

— يا قليلة الادب .. هل أنا رفيقتك ..!! هــل انا زميلتك ..!! سأربيك واعلمك اداب السلوك ! انتظري هنا الى جانب الحيط لتري مــا سأفعله بك بعد ان تمر الصفوف وتتفرج عليك !! ستكون عقوبتك شديدة ، سأعلق على رأسك رأس حمار من الورق ، ستديرين وجهك الى « الحيط » وترفعين رجلا واحدة ويداك الى الاعلى ..!!

ولما مرت الايام على دموعي ونفسي الطيبة المظلومة الحائرة التـــي تجهل سر هذه العقوبة ، عرفت من مديرتي الطيبة التيكانتتحبنيوتقدرني، ان ذنبي كان لتلفظي باسمها « حياة خانم » وكان علي ان اناديها « معلمـــة خانم » . ودافعت عني مديرتي ، والكلمة الاخيرة طبعا لها ، ولم تتفرج علي المدرسة لمدة اسبوع وانا اركب رأس حمار باذنين واقفتين !!

وان نسيت .. فهل انسى بعدهذه السنين فضل مديرتي المحترمـــة الغالية « سنية قباني » صاحبة اجمل وجه واطيب قلب وأوسع صدر، وهل انسى معلماتي العزيزات القديرات ماري سبع واديبة شاكوش وعزيزة كيلاني والفت غزي ووصال مولوي ، والمرحومة رئيفة ناشد !؟ وهل انسى وجه الحجي العجوز الطيب ذي اللحية البيضاء الذي يحرس الباب ، وهل انسى حنان « محافظتي » الطيبة « ام راشد » !؟

لا .. لا .. ابدا لن انسى تعبهن وعطفهن وفضلهن . لن انسى اول كلمة شكرا سمعتها طفلة « صغيرة » من معلمتها « الكبيرة » عندما اعدت للمخبر خريطة العالم واستلمتها مني معلمتي المسؤولة عن المخبر . ولن انسى كيف حرمت مديرتي القديرة الجميلة الورعة التقية التي لا تقطع صلاة ولا صوم ، على المعلمات ضرب التلميذات ، وكيف عاقبت بشدة المعلمـــة الظالمة « ثريا خانم » التـــي ضربت كفي اختي الصغيرتين بالعصـــا حتى ادمتهما. ولن انسى كيف سقطت على ارض المدرسة في الشتاء عندما تراكم الثلج على البلاط وتحول الى جليد فالتوى اصبع يدي وظل يحمل بعـــــد خمس وعشرين سنة ذكرى الالم وذكرى السقوط .

لن انسى وجوه بائع الزعبوب وبائع البوظة دامر وبائع البوشـــار والقضامة والبزر وبائع الدفتر والسفينة واللوح والمسطرة والقلموالريشة.

ولن انسى وقوفي مع رفيقاتي دقائق طويلة متمردة تحت « مزراب » المدرسة في يوم ممطر من ايام دمشق المطرة السخية الماضية !!

هل انسى ..!؟ ومن ينسى ..!؟

أين سمية وهند وكلثوم وهيفاء وسعاد . اسرعن يا رفيقاتي البعيدات الكبيرات الي ، اسرعن بقلب طفلة مثلي لا تنسى ، لكي نقف معا عند باب مدرستنا الحبيبة « زبيدة » ونفتح ايدينا الصغيرة الكبيرة، كل واحدة تمسك بيد رفيقتها نصنع جدارا من الوفاء والمحبة نمنع المعاول من هدم ملاعب طفولتنا ومهد عقولنا ، اسرعن يا رفيقاتي الي ، كي نمسك بخشب بـــاب المدرسة العتيق ، لنلعب مع من يحاول لمسنا او لمس باب مدرستنا لعبة « عيش » .



وأتمتع بأمي

استولت أمي في الفترة الاخيرة على مشاعري وأفكاري واهتمامتي ، وإن كانت في البداية هي الارض والتربة الحمراء الخصبة في نفسي ، وكل ما على السطح من نباتات واغصان وازهار واشواك يستمد حياته من وجود أمي في كياني . بل هي لحمة نسيجي وسداه ، وكل ما عليه من زخرفة وتطريز انما هو الطبيعة الثانية .

أمي .. شيء كبير كبير في حياتي .

كلما عدت من العمل مرهقة الفكر متعبة العضلات النفسية التي تكافح يوما كاملا من أجل حياتنا في الغد ، اجدها عند الباب تستقبلني بكلمات فرحة مشرقة مزغردة تعبر عن فرح الام الدائم بعودة اولادها اليها طال الغياب أو قصر . والاهلا والسهلا من أمي عند الباب لا أحلى ولا أصدق ولا أشهى .

دائما .. ومهما تأخرت ، يكون لهيب الطعام متصاعدا في انتظاري .. ودائما عند الصباح أعود الى اليقظة مع انسياب الصوت الحنون من شق الباب ، الصوت الذي أحبه ولا أريده ان يتغير .

جاءت اختي مرة .. وفتحت الباب بشدة وصرخت بكلمات نشيطة استمدت قوتها من مطلع الشمس وزقزقة العصافير وزعيق الباصات وتهديد عقارب الساعة مع شيء كثير من التأنيب والضجر والسرعة :

ـ يا الله .. تأخر الوقت .. قومي .. هذه المرة سأتركك ولن أعود ثانية .

وأحسست بالانزعاج والالم . كانت اعماقي التي لا تنام تنتظر بلهفة



الفنان عبد القادر النائب ـ أريحا ـ حلب **والدتي عزيزة بنت الشيخ علي قاسم البهلول الجزائري**

صوت امي الحبيب الـــذي يتسلل الى منـــامي يؤكد لي اســتمرار طفولتي المدللة .

ــ يا الله يا ماما .. يا الله يا بنتي الله يرضى عليك .. قومي يــا امي .. حتى لا تتأخري . .حضرت لك الفطور والشاي .. غسلي وجهك والحقيني لنتحدث لقد اشتقت اليك .

غيابي عن امي اثناء نومي في الليل يجعلها تشتاق الي .. وكأنهـــا تتمنى ان تظل معنا وتلغي ساعات الليل من حياتها وحياة اولادها لتمد في عمر لقائها بهم وتضاعفه .

ولقائي بأمي قليل قليل وكثيف كثيف . انا اتمتع بأمي لا كما يتمتــع الناس . أنا اراقبها بشدة .. أنظر في عينيها .. في شعرها .. في ثوبهــا العتيق الذي تفوح منه رائحة المطبخ .. في ابتسامتها الطيبة .. في آمالها الظاهرة والخفية .. في مشيتها .. في نومها .. وهي لا تشعر بي .. لا تعرف انني اغرف من جمالها الالهي ، واختزن صورا لها لا تنتهي ..

اتمتع بها وهي تداعب أخي وتقبله من رقبته الخلفية وتسأل عن صحة اخي الثاني وتنتظر بلهفة وفرح وقلق من يقرأ لها آخر رسالة وصلت منه ..

أتمتع بها وهي ترد على الهاتف بصوت متردد مبحوح ناعم ، اتمتع بها وهي تشوي اللحم وتقلي الخضار ، وتجلي الصحون والملاعق وتذوب تعبا وراء آلة الغسيل وتنشر الغسيل وتلملمه عن الحبال .

أمد يدي لاساعدها فترفض بشدة وبأغلظ الايمان فأحترم ايمان أمي المتدينة المتعصبة لاسلامها واسكت وأبتعد عن ميدان عملها . أمي تتعب.. وأنفاسها تلهث ، ولكنها لا تشكو من عملها اليومي المرهق من أجلنا .. من أجل أسرتها التي كبر أطفالها وما زالوا أطفالا كبارا يلتصقون بالبيت باحضان الام التي تضم البيت كله .

عنــدما اقترب من امي .. لاهمس في اذنها اسرار البنت لامهــا .. اشعر بانها سعيدة .. تسمعني وتحبني وتقف الى جانب آرائي ومواقفي ، تراني أجمل فتاة في الوجود . وعندما اضحك من هذا الراي وتلك المجاملة واذكرها بالمثل الشامي العامي الذي يدين عين الام على ابنها : يا أمي المثل يقول : القرد بعين صاحبو غزال !! تضحك معي من المثل ولكنها لا تسحب كلمتها . وينمو الغرور السعيد في قلبي .

قالت لي مرة :

ــ أخاف على يديك ... « والله ما رح خليكي تجلي الصحون » . وانظر انا الى يديها المتعبتين المعروقتين الخشنتين في اللحظة نفسها .. وابتسم من سخرية الايام .. ولا انسى ان ترف يدي يشرب من شقاء يديها .

وترد بحنان غامر :

ــ انا لا ادللك .. بل أوفرك لايامك المقبلة .

ــ ولكنك يا أمي تتعبين وأخاف عليك !

ــ لن أتوقف عن العمل من أجلكم الا عندما اقع .

وتوقفت عن الحوار معها حتى لا أبكي بصوت عال .

وخرجت من فمي كلمات تالية لا علاقة لها بنا ، ثم عدت الى غرفتي والى نفسي . لقد أكتشفت سر سعادة أمي وسعادة الامهات كل الامهات من خلالها ، وعرفت لماذا تثور في وجهي عندما أدخل الى مطبخها .

امي سعيدة لانها تعاني ارهاقا شديدا من أجل اسرتها .. لانها تزحف رغم تقدمها في السن لتقدم لنا شيئا عظيما قد يراه الناس واجبا يوميا عاديا يتجسد في طبق « كبة لبنية » او في قميص مغسول ومكوي ، او في بلاط ممسوح ، وأراه انا حادثا عظيما تصنعه الام وهي لا تريد مقابلا له الا فرحة حقيقية في وجوهنا وكلماتنا . همها الاول ان تقدم لنا خدماتها .

أحسست بثورة أمي الداخلية على ما يسلبه الآخرون منها في اكثر من مناسبة . ماذا يبقى لها لو أخذت انا منها عملية طهي الطعام مثلا !؟ وقررت أن أظل طفلتها التي تنقر على طبقها الفارغ بالملعقة الصغيرة بلا توقف ، اعلانا مصرا عن الجوع لطبق من يد أمي الماهرة . فكيف احرمها في هذه السن من شيء تقدمه للحياة بعد ان منحت الحياة رجالا علمتهم كيف يسلكون طريق الحياة بمحبة وشرف ؟

لن أفعل .. وقلبي يتلفت حولها يخاف عليها، يتمنى لو يتوقف ليمنحها من دقاته الشابة مزيداً من قوة الحياة .

امي .. تبحث في النهار عن المتاعب .. لا تهدأ لحظة واحدة ، فلو كان العمل في بيتها منتهيا لخلقت اعمالا جديدة . هي دائما في شغل .. كالعامل

الذي يتسلق جدران العمارة الجديدة المقابلة مع صياح الديك لا ينزل منها الا مع آذان المغرب .

امي دائما في مكان الضحية .. ونحن دائما مثقلون بالديون . وأمي تتمتع بذكاء فطري يلفت النظر رغم توقفها من سنين بعيدة عن القراءة . لها حس مرهف ونفس شفافة وعاطفة متفجرة ، ودماء جزائرية مغربية تتدفق حيوية وثورة وتمردا . ذكاؤها الانثوي مشحون بالمرح والحب والفهم معا . انها سائرة على خط الحياة النامي ، انسانة غنية مثقلة بتقاليد الماضي وابتكارات الحاضر ، تتمسك بالامس وتساير اليوم وتتوقع الغد .

بالعين تفهمك .. وبالقلب تضمك .. وبالتضحية تأسرك .. دائما ابكي عندما اسمع فيروز تغني مقطعا من اغنيتها « لا تعتب علي » يقول :

حلفتني امي ما حاكي حدا

قالتلي يا أمي اياك العدا

أنت مش حدا

ولا أنت العدا

أنت اللي في عيني

رابية من الزهر

واختنق بالدمع في كل مرة تغني فيها فايزة احمد مقطعا من اغنيتها للام يقول :

ست الحبايب يا حبيبة

يا اغلى من روحي ودمي

يا حنينة وكلك طيبة

يا ربي يخليك يا أمي

ثرت مرة في وجه امي لانها وضعت على مكتبي اشياء لا تخص غرفتي. وبعد حوار شديد من طرفي وضعيف من طرفها ، أغلقت الباب في وجهها بشدة ولجأت الى سريري ارتجف من الغضب « والالم » الذي يهددني بوصوله الكامل !!

وفي سريري نمت .. حاولت أن انام .. واخفقت المحاولة . ندمت وتألمت لان امي لم تفعل شيئا سيئا ضدي . وتمنيت لو أعود اليها لاقبلها

في شعرها ووجها وعينيها ويديها وقدميها واقول لها بحب لا مثيل له : امي .. لا اقصد .. انا مريضة .. الالم يضنيني واكتم الآه حتى لا ازعجك .. هذا كل شيء . ولكنها سبقتني .. مدت راسها بعد دقائق من الباب بحنان غامر وذكاء نادر وقالت لي بصوت يبتسم ويعطف ويضم :

— تقبريني ... جبلك كاسة شاي سخن واللا بدك كاسة « نعنع » .. سخن !!؟

وان كنت انسى فلا انسى الحكاية اللطيفة التي كانت تحكيها امي لي ولاخوتي الصغار قبل ان ننام لكي ننام . فلا تزيدنا الحكاية الا يقظة ورغبة في السهر والاستماع الى مزيد من الاغاني والحكايا . وكانت حكاية امي اسلوبا للتخلص من الحاحنا وليست حكاية حقيقية ، وهي حكاية كل ام شامية لاولادها :

« احكي لك حكاية وبنتي رايحة جاية على بلاط الحمام والحمام فيه حرباية والحرباية بالاسطوح والاسطوح بدو سلم والسلم عند النجار والنجار بدو بيضة والبيضة بطيز الجاجة والجاجة بدها قمحة والقمحة بالطاحون والطاحون مسكرة والميات مقطعة ، رحت لعند خالتي ام حسين عطتني تفاحتين أكلت تفاحة وخبيت تفاحة اجت عمتي السراقة سرقتها وطلعت تركض هية تركض وأنا اركض طبسنا بخراها خراها تمر وحنة يا ربي تموت الكنة لاعمل عزاها رنة واطلع لفوق المنبر وقول الله اكبر » .

وعندما ترفض اختي أن تنام كانت امي تهلل لها حتى تنام بسريرها الذي تهزه امي بيدها مرة وتشده « بالحبلة » مرات ، مرددة الاغنية الحلوة التي لا أنساها :

اوللا يا اولاني
يا ربي لا تنساني
من فضلك يا رحماني

*

اوللا يا اولاني
راح الحج وخلاني
خلاني بالبرية
ستي زينب ورقية
ورقية نزلت عالشام

شي لله ياشيخ رسلان
يا حامي البر والشام

*

اوللا يا اوليتي
وسقالله يومن جيتي
كانت امك فرحانة
وبشرو البابا فيكي

*

اوللا حدبو ندبو
اوللا قط صغير
اوللا قطشو دنبو

*

نام يا ابني نام
لادبح لك طير الحمام
يا حمام لا تصدق
عم كذب على ابني حتى ينام

*

هزو لميمونة وما كانت تنام
ومدللة وجعنونة وما كانت تنام

*

اوللا يا ماما اوللا
نام يا ابني نام
والله عين الله ما نامت
واحبابنا بالسفر يا ابني
وقلوبنا والله اشتاقت

*

اوللا يا ماما اوللا
يا ستي ويا بنتي
غاب القمر فين كنتي

غاب القمر ونجومو
ما يضوي علي غير انت

*

اوللا يا ماما اوللا
يا سكان البرية
ستي زينب ورقية
ستي زينب حملة حملة
ستي زينب يا أم الشملة

*

اوللا يا ماما اوللا
يا ستي ويا ست الكل
من نقدك بربط وبحل
ومن نقدك بكسي العريان
ومن نقدك بطعمي الجوعان

*

ناموا يا غنم ناموا
وان شاء الله ما بتنضاموا

*

اوللا يا اولاني
يا ربي لا تنساني
من فضلك يا رحماني

*

وكم لاعبتنا امي لعبتنا المفضلة ، نحن الثلاثة ، اختي واخي الصغير وانا وكم ضحكنا وفرحنا بلعبتنا الحلوة « طيمشة منيمشة » ، وكنا نجلس على ركبنا امام امي ونمد ايدينا الصغيرة على ركبنا وننتظر امي حتى تمس باناملها بالدور يد كل واحد فينا وتقول :

« طيمشة منيمشة بعتتني ستي عيشة لاشتري بصل وقع الكوز انكسر حلفت معلمتي لتعلقني بالشجر والشجر نقوط فلوس خبي ايدك يا منيحة يا عروس ام الحلقة والدبوس » .

وعندما كانت تمس كلمة الدبوس يد احدنا كان عليه ان يخفي هـذه اليد وراء ظهره . وهكذا تستمر اللعبة الى ان تبقى بين الايدي الصـغيرة الممدودة يد واحدة ، فتكمل امي اللعبة وتغني « طيمشة منيمشة » وتلمس بيدها يد ابنها وانفه . . . ونقلب على ظهورنا من شدة الضحك وامي تضحك معنا ، وضحكتها الصـبية لا تزال تمـلأ سمعي حتى اليوم . ومن احلى مداعبات وحكايات امي اللطيفة المسـلية ، حكاية واغنية يا باح يا باح يا عرق التفاح اجا العصفور ليتوضا لقالو ابريق فضة . . هي كمشتو . . وهي دبحتو . . وهي طبختو . . وهي اكلتو . . وهي قالت وين حصتي. .!؟ بالطاقة . . دبليلي وين بنام !! ببعبوطك بدي نام . . .!! وتكركرنا امنـا عند رقبتنا . . . ونضحك ونضحك . . . ونطالب ثانية بلعبة واغنية يا باح . . يا باح التي تلامس فيها يد امنا يد واحدنا . . وتعدد اصابعه واحـدة واحدة . . كل اصبع لها دور . . هـي كمشت العصفور وهي دبحتو . . واخيرا تلامس اصابع امي زند طفلها الابيض الحساس الصغير حتى تصل لرقبته وتكركره .

ما احلى امي وما أطيبها .

قالت لي امي مرة وانا احرك لها اللبن على النار بالكبجاية :

ــ يا امي انتبهي . . حركي اللبن منيح حتى ما يفرط . .

ــ يا امي علميني شلون بتطبخي « الكبة اللبنية » !؟

ــ انا بغسل « البرغل » تمين وبصفي المي وبخليه غمرو مي باردة وبرشلو شوية ملح وبتركو لحتى ينفش . وبفركو بايدي وبفرك معو اللحمة الهبرة المدقوقة مع ملح وفلفل وكمشتين طحين يا أما شوية نشا . وبدقهن كلهن بجرن الكبة يا أما بحطهن دور بالماكينة ، وبكون محضرة على جنب حشوة الكبة : دهنة مدقوقة مع الجوز والبصلة والملح والفلفل وبحشي فيها الكبب الصغيرة . وبكون نقعت الرز بمي سخنة وملح نص ساعة ، بعدين بصول الرز بمي باردة وبسقطو بطنجرة عم تغلي فيها شوية ملح . ومتـى ما شفتي الرزة نبتت مو دابت يعني طريت طراوة بتنزليه على الارض .

بحرك اللبن علبارد مع بيضة ونشا وشوية مي وبرفعو علنار حتـى يقلب ، وايدك لازم ما تنقام منو لانو اذا دشرتيه وقلتي بيغلي لحالو بيفرط اذا ما حركتيه بالكبجـاية ، وقت بيغلي وبيقلب منحط فوقو الرزات ، واذا صاروا الرزات متل الجبولة بحركهن بالمي البـاردة وبسكبهن فوق اللبن

وبحركهن شوي شوي حتى ما يعلقو لبين ما يغلي اللبن . متى مـــا غلى بتسقطي الكبة وبتحطي الكفكير بالسفل ومنحركو حتى ما يلزق الرز بالسفل ومنحركهن شوي شوي . ولبن الكبة اللبنية مـــا بيتغطى لا هو ولا اكلة « شيخ المحشي » ولا اكلة « الشاكرية » خلوها ببالكن يا بناتي . بتكوني نقعتي الطرخون اليابس وبتعصريه من المي ، ووقتن بكون اخضر بتغسليه وبتحطيه فوق اللبن والكبة حتى يغلي اربع خمس غلوات ، بتطالعي كباية بصحن وبتدقي عليها اذا طبطبت بتكون استوت . وانتبهي اذا غليتي الاكلة كتير كتير بتفرط الكبة . انت بدك يكون الك عيار بتمك اذا لقيتيها مريقـــة بتنوصي الببور وبتكتي فوق اللبن نشا مع مي شوية شوية وبتحركيه مـــع اللبن شوية شوية حتى ما يخرز يا اما بتنزلي الطنجرة وبتحركيه لانو اهون وما بعود بخرز لانو اذا خرز اللبن ما بتعود بتتاكل ومالو تدبيرة .

بتنزلي الكبة علأرض وبتحمي معلقة سمنة حتى تطلع دخنتها وما تنزع لك طعمة الاكل وبتسكبيها فوق اللبنية .

بتجيبي الكفكير وبتسكبي الكبب قبل الكل بزبادي يا اما بطنجرة يا اما بصينية ، بعدين بتحركي الرز واللبن وبتسكبيهن فوق الكبب .

يا بنتي اكلة الكبة اللبنية الها كمالة ، الكبة بالصينية والكبة المقلية بالزيت والكبة المشوية عالفحم والبابا غنوج والبيتنجان المقلي والسلطة .

الكبة بالصينية هينة . بتدهني الصينية بالسمنة وبترقي الكبة قراص قراص وبتمدي اول وش عالصينية وبتعصري اللحمة والصنوبر والبصل والجوز من السمنة وبترشي هالحشوة على وش الصينيةوبتكبسي بايدك عليه بعدين بتمدي الوش التاني من الكبة . وبتدوبي نتفة نشا وبترشيهن عالوش حتى تركزي الصينية تمـــــام بعدين بتكبسيها بايدك حتى تلزق وبتملسيها . رشي عالوش شوية عصفر وملسيهن بايدك المبلولة وقطعي الصينية تقطيعة البقلاوة ، وبعد ما بتشويها بالفرن حتى يحمر الوش بتبخي الوش بالمي وبتغطيها وبتحمي السمنة وبتحطيها فوقها .

مشان الشوربا تبع اكلة الكبة . بتحطي العدس والبصل ومعلقـــة سمنة وشوية ملح ، وبتعبي نص الطنجرة البريستو مي . بتتركيها ربع ساعة بعد التصفير بتنزليها وبتحطيها تحت المي الباردة ، بتصفي ياللي بالطنجرة بمصفاية ناعمة وبتدوبي كمشة طحين بشوية مي وبتحركيها معها . وبترشي فوقها فليفلة حمرا حلوة وحـــدة وعصفر وملح وفلفل وسمنة من سمنـــة

حشوة الكبـــة بالصينية . وآخر شي بتحمي شوية سمنة وبتطشيهن فوق الشوربا .

بعدين بترقي الكبة وبتاخدي اللحمة والصنوبر والجوز والبصـل وبتحشيهن بقلب القراص وبتساويهن كبب كبار هيك اصولهن . وبتحمي الزيت لتطلع دخنتو وبتنوصي النار حتى ما تتلدوع الكبب وبتقليهن حتـى يحمرو .

والمشوية لك بنتي ما بدها شي بترقي القرص وبتحطي بقلبو الدهنـة المدقوقة مع الجوز والبصلة والملح والفلفل وبتحطي معهـا حبات الرمان الحامض . وبتساوي قرص تاني على كفك متل القبة وبتطبقيه فوق القرص الاولاني المسطح وبتلزقي القرصين سوا وبتملسي طراف قرص الكبـة وبتشوي القراص يا اما بالفرن متل ما بيعملوا هالايام يا اما على منصب فوق منقل فيه نار فحم متل ما كنا نشويهن من زمان وشو كانوا يطلعوا طيبين .

قلت لامي :

ـ يا أمي بدي اتعلم منك كمان « البابا غنوج » و « الفتوش » .

ـ يي ما في أهين منهن . البابا غنوج اكلة طيبة كتير مع الكبة . وكبة بلا « بابا غنوج » يعني مو كبة . بتشوي البيتنجان عالنار بايدك بيتنجانة بيتنجانة . بعدين بتحطي البيتنجانات المشويين بالمي الباردة رأسا وبتقيمي القشرة المحروقة وسط المي حتى يضل لون البيتنجان ابيض متـل الفلة . وبتدقي البيتنجانات بالهاون وبتحطي معهن رشة ملح الليمون وتوم وزيت وبقدونس مفروم .

مشان الفتوش بتكسري الخبز اليابس وبتبليه بالمي وبتصفيه بالمصفاية . بعدين بتحطي فوق الخبزات خيار مقطع وبندورة مفرومة وفليفلة وبقلـة وزيتون اسود ونعنع اخضر وبترشي نعنع يابس وبصلة مفرومة وتوم وخل وزيت بلدي . خلص هي هية الشغلة اي والله ما في اطيب منو .

ـ يا امي الله يخليكي ... بدي اتعلم منك كمان أكلة الكوسا المحشي واليبرق والمكدوس والحبوب ..!

ـ انا بتشرين اول بجيب البيتنجان البلدي حجمو وسط لا كبير ولا صغير يعني شي عشرة كيلو بيتنجان .

بحط ملات المعجن الكبير مي وبحط البيتنجان وهية المي باردة وبرفعو علنار وبغطيه وبجللو داير مع لفت بشاشية يا اما ببشكير عتيق حتى يحبس عليه البخار ويغلي. بترفعي الغطا وبتدسي البيتنجانة ومتى ما صارت طرية مو منوب تدوب يعني وسط ولا مجلدة قاسية ، بتنقليه كله بالكفكير راسا للمي الباردة بتكوني محضرتيها بواعة كبيرة . برد بحط الوجبة التـــانية للبيتنجان بنفس المي الغليانة واذا نقصت بزيدها مي باردة .

بتسكبي علبيتنجانات اللي انسلقوا مي مرتين تلاتة اربعةلحتىيبردو . وهنة بوسط المي بتقيمي الدناديش من راس البيتنجانـــة وبتخلي راسها مدور . بتحضري صحن الملح . وبتبدي بتمسكي كل بيتنجانة وبتحفريها من نصها باصبعتك وبتحشيها ملح . وبتبدي تصفي البيتنجانات بالسلة وبين كل طبقة وطبقة ملح يعني كمشة ملح مشان تتصفى ميتو ويمسك بالملح ما بعود بدوب . متى ما انتلت السلة بتحطي على وشها شاشية وفوقهـــا صحن وفوق الصحن ايد هاون تقيلة وبتحطي تحت السلة طنجرة وكل شوي شقي عليها وكبي منها المي.وبتخليها لتاني يوم.تاني يوم بتفردي البيتنجانات بلكن واسع . بتكوني محضرة التتبيلة . جوز مدقوق مع فليفلة حمرا حدة طرية وفليفلة حلوة وملح قليل وتوم مدقوق ، وبتحشي البيتنجانات بالتتبيلة وبتمسحيهن بشاشية نضيفة مبلولة بالمي . وبتصفي البيتنجانات بالقطرميز وكل اربع صفوف بترشي شوية ملح لتاني يوم حتى ينزل منو المي . وعشية بتحطي لهن زيت زيتون بلدي غمرهن . انتبهي لازم تحطي تحت القطرميز واعة لمدة عشر تيام وكل يوم بتشقي عليه واذا شـــفتي انو الزيت علي بتنقصي من الزيتات والزيت بيعلا لانو البيتنجان بيكبر بينفش ، وبتضلي عم تشقي علمكدوس جمعتين تلاتة بجوز ينقص الزيت بقوموا بعفنو ما فيها خصارة تناوقي تنويقة . وهيك بكون خلص ما بقى بدو شي ودوقي وشوفي ما اطيبو وكل سنة وانت سالمة .

ــ يسلم تمك يا امي . . هلأ بدي اتعلم طبخة « المحشي » .

ــ علمتني ياه الله يرحمها « ام جودت » . قالتلي مرة وكنت لساتني صغيرة عروس وما بعرف اطبخ : قالتلي احشي الكوساية وهية واقفة ولا تخضيها وخلي شوية عند راسها فاضي بتطلع فرجة . ايه الله يرحمهـــا والله كان طبخها طيب. والله يابنتي الطبخ « نفس » وفي ناس كتير ما بتحسني تحطي اكلهن بتمك لانهن مالهن نفس عالطبخ .

شوفي يا بنتي اكلة المحشي بالشام منساويها بالصيف بتـكون الخضرة تازة وكتيرة . بتجيبي مشان طبخة كبيرة اذا كان عندك عزيمة عشر كوسايات وعشر يقطينات وعشر بيتنجانات وعشر فليفـلات كبار حلوين وحدين .

وقت بدك تحفري اليقطين بتحطي بالمحفرة ملح حتى ينحفر معك قوام وبعد ما بتحفري اليقطينة من الطرفين بتقشريها بالسكين . بعدين بتحفري البيتنجان والكوسا والفليفلة . والفليفلاية بتحزي راسها بطرف السكين وبتكبسي غطاها لجوة وبعدين بتسحبيه لبرة وبتقيمي منها البزر وبتحشيها بحشوة المحشي وبتغطي راسها بغطاهـا . ولحتى تحضري المرقة لازم تعصري شي كيلوين بندورة حمرا وتحطيلهن شوية ملح وملح الليمون وهنة باردين . ولحتى تحضري الحشوة بتجيبي كيلو ونص لحمة مفرومة ودهنة مفرومة وكيلو رز وملح وفلفل وعصفر وشوية كمون خشن وصنوبر .

بتنقعي الرز بمي سخنة مع شوية ملح وبتصوليه بمي باردة . بعدين بتخلطي الرز مع اللحمة والدهنة والعصفر والملح والفلفل والكمون وبتبدي بتحشي الكوساية وهية واقفة وبتخليها ناقصة عقـدة اصبعة ، وبتعملي نفس الشي مع البيتنجان واليقطين والفليفلة ومتى ما غلت المرقة عالنـار بتركزي ملحها وبتسقطي فيها الكوسـايات واليقطينـات والبيتنجانـات والفليفلايات وهية عم تغلي . ووقت بيستوي المحشي بتحطي فوق المرقة نعنع يابس وتوم .

اي والله مهما قالولي ما في اطيب من اكل الشام واكلة المحشي لا تاكليها غير ببيت شامي ولا تنسي من أكـلات المحشي اليبرق والسلق واليخنا واليلانجي بالزيت .

ـ دخلك يا امي شو تغيرت الدنية ما عاد حدا طبخ من اكلات الشتي خبيصة بالدبس والجوز ولا حبوب بدبس وحبوب بسكر والله بتذكر بصغري كنت امشي « بسوقساروجة » واللا « بسوق العتيق » و « بجوزة الحدبا » و « بباب الجابية » و « بالعمارة » وكل عشر دكاكين كنت لاقي بياع حاطط قدامو حلة حبوب والناس عم تاكل عندو . يا حين هديك الايـام . يا امي طبخيلنا حبوب والله جايه على بالي اكلة حبوب ..!!

ـ على عينـي تقبريني ... اسمو هـلأ وقت الدبس والله بدي اطبخلكن بكرة لونين حبوب بدبس وحبوب بسكر ، انا ما بحبو الا بدبس .

ولك بنتي الحبوب هين ولازم تتعلميه بكرة بموت وحتى ما تشتهيه من ايد حدا رح علمك ياه .

بجيب القمح المقشر وحمص وفاصولية حب وفول يابس . بعد مــا بنقيهن وبغسلهن بنقعهن بمية سخنة كل شي لحالو مدة ١٥ ساعة قبــل بليلة. بفز على بكرة قبل الكل بسلق القمح لحالو والحمص لحالو والفاصولية الحب لحالها والفول بفقشو وبقسم كل فولة نصين وبسلقهن . ومتى مــا استووا بوضب طنجرة كبيرة بحط فيها الحبوب مع بعضها مع مية السلق . وبخليهن يغلو سوا ومتى ما ختروا ، بكون محضرة كيلو دبس ومدوبتو بمي باردة علنار شوي شوي متى مــا داب الدبس بكتو فوق الحبوب وبتركو لحتى يغلي مقدار ربع ساعة حتى يتشرب الحبوب الحلو منيح متى ما لقيتو ختر بنزلو وبسكبو بزبادي حتى يبرد وبرش فوق كل زبدية شمر ويانسون وجوز مبشور . هادا حبوب الدبس . وحبوب السكر بتحليه بالسكر عواض الدبس وبترشي عليه نقطة مازهر، وبتسكبيه بالزبادي بعد ما بيغلي وبيختر وبتخليه هيك حتى يبرد بتزوقي وش الزبادي بالقلوبات المقشة الجوز واللوز والبندق والفستق الحلبي والصنوبر والرمان الحلو وجوز الهند المبشور .

— طيب يا امي شو هنة اكلات الشام كمان .

— الحراق اصبعو . الطباخ روحو . يهودي مسافر ، شلباطو ، ستي ازبقي ، اكلة فتة المقادم ، والحفاتي والقشة . اللحمة المشويـــة والمعاليق . مقلى بالفول . الرز بالفول . الفولية باللحمة . بيتنجان مقلي . منزلة باحمر . يقطين بطحينة . مفركة بكوسا . مفركة ببيض . مفركة بفول . مكمور . مفركة بيتنجان. مفركة بطاطا . بسماشكات ورز. ومنزلة الزهرة . فتة مكدوس . ورشتاية . الكنافة البصمة . والكنافة المدلوقة . والقطايف عصافيري . والقطايف المقلية بالسمنة « مطبقـــات » . حليب بالوظة . وهيلطية . برك بلحمة . برك بجبنة . فتة بسماشكات . لبنيـــة بالقشطة . حبوب بدبس . حبوب بسكر . رز بحليب . زنكل . عوامة . بوراني . ومتبل بيتنجان . تسقية حمص بالسمنة . تسقية حمص بالزيت . مسبحة . فول مدمس . كمي باللحمة . زنود البنـــات . منزلة باسود . سمك مقلي وسمك مشوي وطرطور . سلطة خيار باللبن . سلطة بالخل. الفتوش . البابا غنوج . والكبب بانواعها : اللبنية والمشمشية والصينية والمقلية والمشوية والنية والكبة حميص . والجدي بزيت والشـــاكرية ، والمحاشي ، وشيخ المحشي باللبن والليالانجي بالزيت . واللحمة المقمعة ،

واللحمة المدللة ، وداوود باشا وعساكرو ، ولحمة مقرطة ، ولحمة بخل ، وفخدة ورز وهي منبطخها بالعيد .

والاسلام بالشام يا بنتي بيطبخوا « بعاشورا » ويوم « راس السنة الهجرية » « ابيض » حتى تكون السنة كلها بيضا ، متل اللبنية وشيخ المحشي والشاكرية والرز بحليب والحبوب بحليب والقشطة ، وبيعملوا بشهر رجب « ليلة الله » وبشعبان « غريبة » وبرمضان « برازق » . والمسيحية بالشام الهن اكلات طيبة بعيادهن . بيطبخوا « بعيد الميلاد » جاج وبسماشكات وكبيبة مسلوقة بالشوربا ومحاشي. و « براس السنة » بيطبخوا متلنا ابيض حتى تصير السنة بيضا لبنية ورز بحليب والماسية وقشطة . وبعيد « الغطاس » بيعملوا خبيصة بدبس وجوز وبخوت يعني برك بلحمة وأريشة . وبعيد « سبت العازار » بيعملوا « حريرة » بالوظة رز ونشا على وشها دبس وجوز ويانسون . وبيعملوا بعيد البربارة « سليقة » وقطايف . وحلو وزفر « بالكرايز » وباحد « الشعانين » بياكلوا سمك . لكان يا بنتي الاكل بالشام الو اصول . ويمكن اكل الشام أطيب أكل بالدنية . معليشي منتعب بالاكل بس مناكل اكلة طيبة نضيفة على درسنا . نعمة .. الله يديمها ولا يزولها .

تركت امي في المطبخ وعدت الى غرفتي أكتب :

امي دنيا لا اول لها ولا آخر

امي سماء خضراء ترتع فيها الغزلان

وامي ارض زرقاء تعبق بها الغيوم

وامي محيطات كبيرة تلعب فيها الاسماك الملونة

امي الماضي والحاضر والمستقبل .

امي الزمن .

امي دم الحياة في عروقي

ولن اطلب من الله الا امي

نعمة .. الله يديمها فوق رأسي .

أوها يا عريس لا تعبس

وصلتنا « التساكر » بطاقات الدعوة من « ناح » اهــل العريس . عزيمة رجال .

بطاقتان . وطرت من الفرح لان امي اختارتني هذه المرة لتأخذني معها الى العرس .

وكويت « الروب » الساتان الازرق المكشكش والشريطة الزرقــاء لازين بها شعري . وكنت حاضرة قبل موعد العرس بثلاث ساعات .

وارتدت امي الصبية الجميلة من « تفصيلات » عرسها الانيقــة « التفصيلة » المخملية السوداء السواريه وهي من خياطة خياطتها الشهيرة « فهمية خانم » وزينت صدرها بمية الماس عريضة ، وتدلى من اذنيها زوج حلق طويل من الماس الحقيقي النادر وهو هدية من « ستي » ام امي لامي. وشكلت راسها بوردة طبيعية حمراء وحلت معصـــمها بسوار من ازرار الياسمين الطبيعية ، وكانت قد « تغندرت » وجملت وجهها وصدرهاورقبتها وظهرها وزنديها « بالسليماني » ، وكحلت عينيها بالكحل الاسود الفــاحم وطلت خديها وشفتيها بحمرة خفيفة .

ووقفت انظر الى امي بحب واعجاب وفرح . امي جميلة .. لا ارى اجمل من امي .

وعندما دق ابي « سقاطة » الباب دقات سريعة قوية معروفة يطلب منا فيها ان نفتح بسرعة ونمشي لانه احضر لنا « عرباية » من ســـاحة « المرجة » ، رمت امي على ظهرها المعطف الاسود وغطت راسها ووجهها بالمنديل الاسود السميك وامسكت بيدي وسرنا خلف ابي الى « العربية » السوداء التي تنتظرنا في رأس الحارة لتقلنا الى بيت العرس .

ومن فرط سعادتي وفرحتي كدت اقبل العربجي ابو « الطربوش » الخمري وحصانيه العزيزين الاسود والابيض . يا لسعادتي سأرى العروس لن احول عيني عن العروس .

ووقفت « العرباية » في راس الحارة الضيقة ، ونزلنا منها ومشينا على الاقدام حتى باب العرس الذي التم حوله اولاد الحارة . وكان الحجي المسن يجلس على كرسي من القش « ينطر » الباب ويأمر الاولاد بالابتعاد عندما وصلت اليه قبلنا بلحظات « طفة » نسوان من المدعوات مع اولادهن الرضع . واخذ العجوز يناقش ويجادل النسوة ويصر على منع من لا تحمل « تسكرة » من الدخول ، وكانت احداهن تحلف وتؤكد له انها من « ناح » بيت العروس ولا يجوز له ان يمنعها من الدخول ...!! والا فانها ستحرد وتعزف عن حضور العرس ويكون هو السبب ..!!

ووصلنا ... امي وانا ... تسبقنا بطاقتان ... وفتح لنا الطريق وهو يرحب بنا ، ودخلنا بلا مشاكل مع ناطور الباب . ورفعت امي منديلها عن وجهها ولعلعت زغاريد بيت اهل العريس تستقبلنا ضيوفا اعزاء في اول الدهليز الذي يشتعل بحبل طويل من الكهرباء . وبعد تبادل التهاني والقبل اخذت احداهن منديل امي ومعطفها ودخلن بها الى الديار مهللات مرحبات الى الصدر الى احسن صف من صفوف كراسي الخيزران والى احسن كرسي في الجهة اليسارية من الليوان حيث تجلس « مداعي » بيت العريس، لان « مداعي » بيت العروس يجلسن عادة الى يمين الليوان وفي صدر الديار تكريما وتقديرا وواجبا .. هكذا الاصول .

اما العروس فلها الصدارة الاولى في الليوان .

كانت جالسة على « الاسكي » العالي المزين بالسجاد والورود والانوار ولوحات كبيرة مضيئة مكتوبة بخط جميل : « الله » « محمد » « ما شاء الله » . « عين الحسود تبلى بالعمى » .

وغير بعيد عن الاسكي كان ينتصب بكبرياء « سبت » العروس مغطى بقماش من « الشيفون » الزهري الذي يخفي تحته طبقات من الملبس والسكاكر والشوكولاته على شكل ليرات ذهبية ، ولعب من السكر الملونة وآلات موسيقية حلوة الطعم . انه ينتظر بصمت حتى يصل العريس ويفتحه ويشعل انواره ويطعم العروس « ملبسة » ثم يقذفان معا حبات الملبس والسكاكر على المدعوات ، لتصاب بالعدوى كل من لم تتزوج بعد .

وجلست مبهورة الانفاس .. امي تسلم على جاراتها في المقـاعد الخلفية وتتبادل التحيات والسؤال عن الصحة والاحوال عن بعد مـع قريباتنا ، كما تتبادل التعليقات مع جارة ظريفـة خفيفة الدم حول جمال العروس « وغندرتها » وتطلق النكات المرحة مع هذه المجموعة وتلك ، وترن الضحكات النسائية العذبة الرقيقة مع رنين الاساور الذهبية الناعمة في اجواء الديار العربية المفتوحة على السماء الصافية ذات النجوم الفضية وتعشعش هذه الضحكات في اشجار الليمون والنارنج والكبـاد والليلك وعرائش الياسمين ودوالي العنب . وسيدة تطلب كأس ماء بارد وثانيـة تنادي من شباك « الفرنكة » في الفوقاني من البيت ، على من لها طفلملفوف « بقنداقة » حريرية مطرزة بازرق ان تصعد لترضع ابنها لانه يكاد يطق من البكاء وقد يوقظ بقية الاطفال !!! وثالثة تصرخ بحدة في وجه جارتها الامامية لانها عادت بكرسيها الخيزران الـى الخلف فجأة فداست رجل الـكرسي طرف تفصيلتها السوارية « التول » فمزقتها ..!! والعروس تجفف بطرف منديلها الابيض المطرز ، العرق عن وجهها من شدة وهج حرارة الكهرباء واللوكسات حتى لا يسيل الكريم « وتنتزع » غندرتها، وام العريس تستقبل مع بناتها « طفات جديدة » عند الدهليز « بالزلاغيط » والاهـلا والسهلا ، وعجوز لها وجه « منور » تراقب الصبايا بسرور وهن يتفتلن في ارضالديار وحول البحرة بسعادة وتتمتم بكلمات متواصلة ترافق حركات اصـابعها وهي تدفع حبات المسبحة الصغيرة الناعمة في يدها البيضاء النظيفة .. حبة وراء حبة . واطراف سطوح البيت المطلة على ارض الديار تنبيء رغم العتمة بوجوه الجارات غير المدعوات وقد اختفت خلف الاغطية البيضـاء على الرؤوس . وانا شاخصة بعينين ثابتتين في وجه العروس اجمـل انسانة في الدنيا كلها ..!!

اذن هذه هي العروس ..!! يا الهي كم هي باهرة ..!! فكم قـالت لي امي « يا عروس » عندما كنت اقضيلها « غرضا » والبي طلبهابسرعة!! وكم كافأت اخي الصغير بكلمة « الله يرضى عليك يا عريس » عندما كـان يملأ لها « حق الماء » من « فيجة » الحارة ..!!

اذن فالعريس والعروس هما ذروة المجد الانساني .. وآخر الطريق الطويـل .. والمثل الاعلـى عند الناس الذين تزوجوا والـذين لم يتزوجوا بعد ..!!

العروس حلم البنات الصغيرات ، والعريس حلم الصبيان الصغار ، ويكبر الصغار ويتحقق الحلم .

العروس باحساسي الطفولي مخلوقة فذة خارقة للطبيعة .. ملاك باجنحة لا تطير .. ليست كالناس جميعا .. شيء أعلى .. هي مركز العالم ونقطة النهاية .. طير ابيض جميل وسط مجموعة من الغربان السود . العرس في قلبي وبصيرتي وعيني هو « العروس » فقط وكل ما عداها في الظل ..

ربما كنت أراها باهرة لشدة ما يلتمع على رأسها وفي صدرها وعنقها وأذنيها ويديها من قطع الماس الحقيقي القديم ، وما يزينها من ورود وقرنفل وياسمين .

وكنت رغم صغر سني احس بالحقيقة الخفية واحلل الامور ويتلاشى انبهاري للحظة او لحظات ثم اعود مبهورة . الماس ليس لها .. عيرة !!

نعم يا عروس .. كنت اقول لها بقلبي ، انا اعرف من ستي وامي ان أكثر عرايس الشام يستعرن الماس من العائلات الدمشقية التي تملك قطع الماس النادرة القديمة !! ثم يعاد الماس الى اصحابه بعد انتهاء مناسبة الفرح !! وانا لن اصدق ان هذا الماس كله لك او لامك ، لانني لن اصدق ان هذه الثروة من الماس ملك لامرأة واحدة !! وكأن العروس تقرأ ما بنفسي فتعدل « الموطيف » الماسي في صدرها . وتذكرت « ام حسني » السيدة الطيبة التي تسكن في حي الميدان عند آخر الخط . وشرد ذهني . عند آخر محطة يقف بنا « الترين » بعد رحلة طويلة ممتعة من ساحة المرجة حتى « ميدان فوقاني » . وأركب مع ستي أم أمي في الترين بسعادة بالغة اجلس حتما الى جانب النافذة اتفرج على باب الجابية والسنانية وجنازة متجهة الى تربة باب الصغير وشواهد القبور الرخامية ترتفع فوق دك التربة الى يسار الترين ، ثم يقف الترين عند جامع الشيخ حسن ، ويستمر في رحلته عبر حي الميدان ، الى السويقة فالنحاتين حيث حواصل الخشب والرخام ودكاكين « معلمين » الصدف والموزاييك ، وجهاز عروس يحمله « العتالة » على كراجة : كراسي وكنبايات صدف وخزانة صدف ببابين وبيرو صدف وطرابيزات وقشوة ومرآة « وقبقاب العروس » وكلها من الصدف . ويقف الترين عند باب مصلى والشيخ عثمان ومحمصة القضامة والبزر والمسلخ، ثم يسير بنا الترين مارا بالمجتهد سيدي صهيب حمام فتحي بوايك القمح ،

القرشي الجزماتية آخر الخط ... فأنط انا من المقعد الخشبي قبل ان يقف الترين واصرخ بصوت عال : هاوس .. هاوس .. هاوس عمو .. مع انه كان « سيهاوس » بصورة طبيعية فنحن عند آخر الخط . وننزل ويحول سائق الترين « السنكة » وتشتعل شرارة كهربـــائية وارتعب ، ويزمر الكمساري « بزميرته » الرفيعة ، ويعود الترين الى المرجة . انــه رجل عظيم قادر على قيادة الترين من الطرفين !! لكن الحمد لله اللي ما طلــع المفتش لانو ستي ما قطعتلي ورقة ...!!

واسير وانا انظر الى الخلف .. وستي تسحبني وانا مشدودة الى الترين، الى نغمات جرس « الترين » اللطيفة يعزفها قائد « الترين » برجله بضربات خفيفة محببـــة ينبه بها الناس بان « الترام » قادم . وتشــدني ستي الله يرحمها :

ــ امشي لك تيتي وصلنا .. هادا بيت خالتك ام حسني .. ما بقى غير فشختين !!! انظر الى راس العروس المشع واتذكر وجه « ام حسني » السيدة العجوز التي تملك « مجمعا » من الماس الحقيقي يأخذ العقل وهي تعيره بكامله لكل من تطلبه « عيرة » لابنتها في ليلة عرسها. وكانت امحسني تدعى الى العرس فتسلم القطع لاهل العروس ليلة العرس في بيتهــا ثم تستلمها عند الفجر بعد نهاية العرس وتعود الى بيتها . وكان « مجمــع » ام حسني على ما أذكر يضم قطعا نادرة تزين الراس والعنق والصـــدر والاذنين واليدين والزند والاصابع . وللقطع اسماء حلوة كأشكالها : زنابق طيور ، مشط للراس ، مية الماس للصدر ، مشط بايداعشر نجمة ، دالية ؛ بروش الماس ، عرق لولو ودهب ، فلة ، شمسية ، غزال رقاص رهــاج ، خاتم زيتونة ، اسوارة حية ، ابرة والابرة قطعة ثمينة تشك في صدر الثوب اوراقها خضر . حلق طوال ، حلق بحربة ، حلق بريشة . حلق خرس مدور متل الفلة ، اساور لولو والماس ودهب رفاع .

لا بد ان يقدم العريس لعروسه قطعة مجوهرات ثمينة امام الناس وهي تجلس على الاسكي عدا ما سوف يقدمه ابو العريس وام العريس وقريبات العريس ، ولا بد انهم قد علموا العروس ان تقول لعريسها عندما تنفرد به في مخدعها :

ــ لن اكلمك حتى تعطيني حق شعري !!

وسوف تطالبه بثمن شعرها الطويل الجميل بطريقة مغرية لطيفة كما علموها :

فتاح جزدانك وعطيني حق شعري

ويا ريش دردر على ضهري

وأنا صبية باول جهلي

والليل طويل على مهلك ومهلي

ولا بد ان يقدم لها العريس حق شعرها بالليرات الذهبية . اما صبحة العرس فقد سمعت انهم علموها ان تقول لعريسها :

يسعد صباحك ياللي صبحتني انا اليوم
لشلحك البدلة الرسمية ولبسك قميص النوم

وأنا رغم صغر سني كنت « كالخلد » أعرف كل عادات الكبار ، والاصول ان يقدم العريس صبحة العرس لعروسه — وهي تختلف حسب ذوق العريس — واكثر الاحيان تكون : مناشف ثمينة ، فوطة حمام قصب ، بقجة « تقيلة » مطرزة بالصرما ، طاسة حمام ، شحاطة ، قبقاب، بودرة وحمرة .

والعروس تقدم لعريسها صبحة العرس : جوز جرابات ، جزدان ، محارم ، شقفة جوخة ، بيجاما ، روب دي شامبر ، منطوفلة .

كل هذه الصور الجميلة لم تذهب الخوف من نفسي على هذه العروس الجميلة فانا اعرف ان العادة ان يقوم العريس بحركة عنيفة تثبت قوته ورجولته وبأسه حتى تخشاه العروس وتحترمه من الليلة الاولى .

وتتأكد مخاوفي ، وتهمس مدعوة باذن جارتها كلاما يدق قلبي له ، فقد سمعته بحرفيته :

— مسكينة . . هلأ اول ما بيجي العريس وبيطلع مع العروس لمخدع النوم ، واول ما تحكم عينو على عينها بدو يلطشها كف حتى تاخدلو « روزة » ويكون فايز عليها .

— والله ما بتعرفي حسب شطارتها ، اذا اجا وطلع عالاسكي وسبقتو ودعستلو على رجلو قبل ما يدعسلها على رجلها « بتكبسو » من اول ليلة .

— تقبريني ، العروس صغيرة وعاقلة ما رح يطلع بأيدها، والعريس عسر يمكن يضبعها من ليلة الدخلة .

— لا تخافي امها شاطرة يمكن علمتها كل شي ، اي والله انـــا عزموني على « حمام الليل » وعلى « ليلة النقش والحنة » وعلمناها شو تقول للعريس انا وبنات خالتها وبنات احمـــــا اختها درية ، ورح تكون قدو وقدود .

— يوه .. شو علمتوها .. بالله تحكيلي لبين ما يجي العريس ، يو الاريشة ليش ما عزموني عالحمـــــام . احكيلي ان شا الله انبسطوا بالحمـــام ..!!

— يي شو انبسطنا والله كنا منشتهيكي ، والله أهلها عملولها حمام مدلل . هادا يا ستي قبل الحمام عزموني على ليلة الحنة واتحنوا العروس والصبايا قدامي .

— دخلك والله أنا ما بعرف شلون بتصير الحنة ، انا وقت عرسي ما تحنيت ..

— بعرف تقبريني هية عادة قديمة وبطلت هالايام وما عاد حدا تحنا الا القليل القليل . اي والله انا قبل عرسي بليلتين تحنيت حنة شي ظريف كتير . وبتذكر ستي أم امي شلون قعدت تنقشني وتعلمني شو قولللعريس اذا سألني شي سؤال .

قبل كل شي جابت ستي شمعة عسلية ولبانة وسيختهن سوا علىنار المنقل وصارت تغط القشة بالشمعة العسلية واللبانة وترسم على ايدي وزنودي ورد ومثلثات ودويرات وحجب و٣ تفـــاحات والغزال الملتفت ، وتعلمني على كل رسمة شو قول للعريس اذا سألني : شو اسمو هادا ؟ وبتذكر علمتني على نقش الزنود هالكلمة :

— نقشك شميلة وعليه الميلة

يا فرحة عريسك مبارح والليلة.

وقالتلي اذا سألك شو معنى هالتلت زهرات قوليلو :

— وقعنا بالحب تلاتتنا انا واختي وجارتنا .

— عانقني لعانقك وان ما عانقتني بخانقك .

— عرق زداب وقلبي عليك داب .

— مخدة ابن العم .

— عبيد عبيد كلم سيدك خوابي النيل بتريدك .

— قاعد قبالي وقاعدة مقابيلو ويا شبه الاموي اذا شعلت قناديلو وطول الليل بغنيلي وبغنيلو .

ايه الله يرحمها ويرحم « الطراب » اللي ضمها .

بعدين يا ستي جابت ستي الحنة الحمرا وجبلتها بالمي البـــاردة وعجنتها وصارت تدهنلي ايدي وتلف الاصــــابيع اصبعة اي واصبعة لأ بشرطوطة ولفت الباهم وحدو . وتاني يوم الصبح قامتلي الحنة وقلعتلي الشمعة وغسلت أيدي وبعدين اجت دهنتلي اضافيري وايدي « بالغشوش والزرنيخ والدبس » ولفتلي ايدي بورق التين شي ربع ساعة بدك تقولي ، قال حتى يصير النقش اسود غامق ويبين بياض الايدين والزنود ، والله كان شي حلو وبياخد العقل .

سقا الله ذكرتيني بليلة عرسي يا حسرتي كنا غفـــل وبتذكر شلون علمتني امي قول للعريس اول كلمة ليلة العرس وشو تعذبت حتى حفظتها :

قشر السمك التزم
اصل لزومي معك
طقت قلوب الاعادي
لما نظروني معك
تفنى عضامي ولا تفنى المحبة معك .

وبتذكر علمتني قول لعريسي :

بدوب جسمي كل ما بتجو على بالي
كما يدوب الحصى بروس الجبال
اسألوا المبتلي لا تسألوا الخالي
اسألوا الثريا والسبع نجمات
يا نجمة الصبح تنبيكن على حالي

— اي ما حكيتيلي علحمام ؟

— جابيتك بالحكي تقبريني . هادا يا ستي اهـــل العروس اخدوا الحمام من بابو . وعزموا المحبين والاهل واللازم اللازم . انا بعرسي اخدنا

جرنين تلاتة حماية وحطينا على باب المقصورة فوطة من خوفنا على حالنا من عيون الناس . ووقتها ساوينا كبة نية ، اخدنا اللحمة المدقوقة وكل « اواتيل » الكبة بصلتها وفلفلها وملحها والبرغل والسلطة وكلو حضرناه بالحمام . وبعتلنا ابي سطل عرقسوس وعشر بطيخات حطيناهن ببحرة الحمام بالبراني بالمي الباردة . والله والله صرنا نغني ونرقص وندق على ضهر الطاسة . وانا لاني العروس قعدت على جرن « الاسطه » بتعرفي انت انو جرن « الاسطه » ما بيقعد عليه غير زبوناتها . والله غسلتلي راسي « الاسطه » ودللتنا « معلمة الحمام » دلال ودلال ، وما في غير « هالبلانة » عم تزق مية باردة لانو ايامنا ما كان في « زنبوعة » مي باردة فوق الجرن ، ما في الا « زنبوعة » مي سخنة . وبتعرفي كنا اهلية بمحلية وانبسطنا بسط وبسط . وبعد الدخلة رحنا مع بيت اهل العريس على حمام الغمرة وبتذكر كان « الوفا » و « الصابون » والاكل على بيت اهل العريس . يي سقا الله شو زلغطولي بهالحمام زلاغيط وزلاغيط :

اوها ام العريس الله يعطيكي
اوها والسعادة بتواتيكي
اوها وعقبال فرحتك بالكمالة
اوها ومنجي منكافيكي
لي لي لي ليش



اوها ام العريس انا جوعانة
اوها وبدي صفيحة مأمرة
اوها وان شا الله بتضلي سالمة
اوها وديارك معمرة
لي لي لي ليش

ـــ دخلك وان شا الله كان حمام عروستنا ظريف ..؟

ـــ يي اي والله . دق عود ورقص وصوات حلوة وضيافة راتبة صفيحة وفواكي وليمونادة وهالصبايا عم تتفتل بالحمام بالفوط القصب وانفردت مناشف شي جخ كتير وبعد الحمام انصفت الصبايا علمصاطب ولبسوا لبس حلو كتير وكانت العروس بيناتهن عم تضوي وعملولها تفتيلة حوالين البحرة ، وما خلوا حدا يدفع ابدا ، حرام والله الجماعة تكلفوا . اي تسلملي العروس حلوة قمر مصور وصغيرة بيلبقلها الله يبيض بختها .

ـ دخلك ان شا الله مـا يكونوا نسيو يعطوها خميرة عجينـة حتى تلزقها علباب قبل ما تفوت لبيت حماها حتى الله يركن بالها ويبيض سعدها!!
اي والله والله انا ليلة عرسي اجت واحدة بتقربنا « حبيلة وليدة » وناولتني « الخميرة » على ورقة خضرا حتى الزقها على باب بيت العريس قبل مـا ادعس قدم حتى تكون جوازة الدهر وكل ايامي خضرا . ورشولي ملـح من العين ، اي والله والله قبل ما يحاكيني كلمة عريسي وقتن طلعنا علـى مخدعي ، مد ديل بدلتي البيضا الطويل وصلى عليه ، ومن يومها والله حياتنا متل السمن والعسل .

ـ شوفي شوفي مدري مين اجا ..!!

والتفت انا مع المراتين لارى من الذي حضر فقطع الحديث المتـع وحرمني من تفاصيل كثيرة ..!!

فوج جديد من المدعوات مع اطفالهن الرضع ومع كل واحدة « بقجة » ملابس كبيرة . وصعدن الدرج راسا الى الفوقاني وبعضهن دخـل الى قاعـات البيت المخصصة في الطابق الاول لارتـداء الاثواب « السواريه » الملفوفة في البقج المطرزة بالصرما والقصب .

دخلت المدعوات الى القاعات بالملايا السود كالاشباح وخرجن منها بعد فترة كالحوريات « بالتفصيلات » الملونة « السواريه » المقصبة بعروق الذهب او الفضة والمزينة بالورود وقطع المجوهرات الثمينة . وكـانت « التفصيلة » الاكثر اناقة على جسم صاحبتها البض وقوامها الفـارع وبياضها الناصع تسرق اهتمام المدعوات بالعروس وجمالها وثوبها الابيض. وطبعا لاسم الخياطة اهمية بالغة تلك الايام . فهذه تخيط عند بيت « فركوح » وتلك لا يقبل « اسبر دادا » بتفصيلتها اقل من مئة ليرة ذهب وثالثة لا تخيط الا عند « مدام روز » بالقيمرية .

والذي كان يدعو الى دهشتي وانبهاري ان كل صبية ومدعوة كانت تغير ليلة العرس اكثر من ثلاث او اربع تفصيلات غاية في الذوق والفن ، تصعد بثوب وتنزل بثوب تختال كالطـاووس تلفت الانظار وتثير كلمـات الاعجاب « ان شا الله ما يعدم » وتبعث البهجة في النفوس التي تحيي زوجها عن بعد « ان شا الله بيتهنا » .

اما العرائس الجديدات والتي لم يمر على زواجهن اكثر من سنة فانهن يرتدين في البدء التفصيلات « السواريه » البيضاء ويتشكلن بالورد الابيض كالعروس تماما ويتفتلن في العرس كالملائكة .

وايقظتني من احلامي العذبة وعالمي الملون بالوان الثياب الجميلة في ليلة العرس يد سيدة طيبة هي يد أم العريس وهي تدفع الى حضني الصغير بصرة سكاكر وموالح ، منديل ابيض فيه بزر وقضـــامة وملضمينا وفستق ولوز وبندق وملبس وراحة وقرص فستق على سكر . صرة لكل مدعوة حتى تتسلى في « الليلية » التي سوف تمتد حتى مطلع الفجر . لامي صرة ولـــي صرة . وحلفت امي بان صرة واحدة تكفي لنا نحن الاثنتين ، وتضايقت ، الا ان ام العريس ، والحمد لله ، حلفت الا ان تعطيني صرة خاصة . كم هو شيء عظيم ان يأخذ الانسان « الطفل » صرة كاملة له وحده !! آه . . . انها ليلة من ليالي العمر السعيدة .

لاحظت ان صدر العروس الحلوة يعلو ويهبط كثيرا ، ولم أفهم سر هذه الظاهرة . . !!

حاولت ان اسأل امي . . ولكنني خفت ان تغضب لانها اشترطت علي الهدوء التام في العرس وقلة الحركة وعدم الــكلام حتى تأخذني معها مرة ثانية . وبلعت السؤال مع انه كان يشغلني كثيرا ، ما بال العروس هـــل هي خائفة . . .؟ ولماذا . .؟ وهل يمكن للانسان ان يخاف في هذه السهرة وهذا البيت الذي اراه قطعة من الجنة !؟ وتيبست في مكاني مع ان رغبتي الحقيقية كانت ان اثب طائرة في الهواء لاحط كالطير الى جانب العروس او عند قدميها كما تفعل الصغيرات في العرس امام عيني وانا احترق غيرة . العروس خجلة لا ترفع عينيها الى المدعوات اللواتي يحدقن بها طيلـــــة الوقت . . وكرسي العريس الى جانبها ينتظر وصول صاحبه .

وسمعت همسة مثيرة ادارت الرؤوس بالطرب سلفا . قيل ان بيت العريس قد أحضروا لعرس ابنهم جوقة طرب ولم يعرف احد بعد من ستكون المطربة . وقالت لهن امي ضاحكة : يمكن بنات مكنو !! مع ان بنات مكنو جوقة نسائية قديمة سمعتها امي في طفولتها . وردت عليها جارة لها ترد النكتة : لأ يمكن « رمزية البقة » يا اما « بدرية نمل بدني » يا اما « جميلة واخلع » . وقالت لها امي وهي تكاد تغشى من الضحك:كل شي الا « نظمية الخنة» دخلك بتطالع الروح دق عودها ظريف لاكن يا اختي لبين ما تدقلها شي دقة بتطفق القلب ما بتدق الا حتى تتعشى وحتى تقدميلها باكيتسيجارة واذا حبت بايدك خاتم وما عطيتيها ياه بتحرد وبتبطـــــل تدق يي تقبروني ما بحسن عليها . وردت ثالثة قائلة : ان شا الله تجي ام حلمي مع انوكبرت، لاني بحب منها لبس الرجالي وغنية « يا حلالي ويا مالي يا ربعي تردو علي » وغنية « جربوني بحيك وبغزل » ، وان شا الله ما يعدم عليهـــا الشروال

والميتان والشال والحطة والعقال والشوارب العيرة .. وهمست سيدة رابعة في اذن جاراتها المرحات : يو لا والله انا ما بحب صوت ام حلمي ان شا الله يجيبو « مكية السمرة » يا اما « ناجية كلشن » يا اما « فهمية قاعاتي » يا اما « بدرية النقرة » ! وان شا الله يجيبو واحدة معها جوق دقاقة عود وقانون وكمنجة ودربكة ودف وفقيشات حتى ننبسط .

اخبار مغرية ... وطار النوم من عيني . ولكن صبايا العرس لا بد وان يرقصن رقصة التفتيلة مع العروس ويدرن بالعروس حول البحرة الرخامية الكبيرة التي « يطف » منها الماء ، وينساب من نافورتها بنغم رتيب يوحي بالسعادة .

العروس في الوسط وعدد من الصبايا يفوق العشر يسير خطوة واحدة على نغمة واحدة .

وانطلقت اغاني « التفتيلة » ترن في اجواء العرس والعروس بين الصبايا بالبستهن « السواريه » الملونة ، تمشي خطوات متعثرة خجول لا ترفع عينيها عن الارض ، وتبدأ الاغنية الاولى للتفتيلة بكلمات غامضة تعبر عن الفرح بنغم هادىء : هيها .. هيها .. هيها ...

وكأن هذه الكلمة الغامضة « هيها » تشير الى العروس التي تمسك بيديها الصبايا قائلات :

« هذه هي عروستنا » او « ها هي العروس » .

وتكرر مجموعة الصبايا وهن يتمايلن يمينا ويسارا في حركة ناعمة واحدة :

هيها .. هيها .. هيها ...
هيها يا ست ويا بنت
كم مية قبض بيك
وتعذبنا لحتى رضي خيك
ويجعلك ان شا الله مبروكة
علينا وتتهني بعمرك
لي لي لي ليش

*

هيها يا ست ويا بنت
قيمي هالغطا وارميه
حرقة ابو اللي حيكو
واللي سعالك فيه
ان كان بيت ابوكي
بسمار اقلعيه وخديه
لي لي لي ليش

❋

هيها قومي اطلعي عالقصر العالي
وبحياة أبوكي هالغالي
حلفت وقالت ما بطلع
الا بجوق المغاني
لي لي لي ليش

واغنية حلوة ثانية لعروس الشام :

اسم الله اسم الله يا زينة
يا ورد جوة الجنينة
زهر القرنفل يا عروسة
والورد خيم علينا



قومي العبي بحبل اللولو
وافردي شعرك على طولو
خليهن يحكو ويقولو
آه يا حلاوة يا عسلية



قومي العبي بعرق الالماس
واللولو حارس هالبزاز
الله يجيرك من كلام الناس
آه يا حلاوة يا شامية



قومي العبي بقميصك
كل العزبان على كيسك
الله يخلي عريسك
آه يا حلاوة يا عسلية

وتتابع الصبايا رقصة التفتيلة ولا يتعبن :

عالدلالي عالدلالي
هالنقلة نقلة غزالي
لبست بدلة وشلحت بدلة
وتحت البدلة شي ضوالي

*

عالدلالي عالدلالي
هالنقلة نقلة غزالي
لبست شلحة وشلحت شلحة
وتحت الشلحة شي ضوالي

*

عالدلالي عالدلالي
هالنقلة نقلة غزالي
لبست لولو وشلحت لولو
وتحت اللولو شي ضوالي

واغنية ثالثة للعروس :

عالنايمة عالنايمة
لا تجعزوا هالنايمة
عالنايمة ومرحرحة
والخصر زي المروحة
عالنايمة ومحناية
وتعيشي عمرك مهناية
عالنايمة نومك نوم
ويا حبيبة قلبي دوم

ولولا هالصلاة والصوم

لكنت بعبك نايمة

عالنايمة عالنايمة

لا تجعزوا هالنايمة

لا بد من « التفتيلة » في كل عرس ، لا بد ان ترقص العروس حتى « يفتل » حظها ويرقص طيلة حياتها الزوجية .

واعيدت العروس الى كرسيها الفخم في « الاسكي » العالي والدقائق تمر عليها ساعات ، او ان الساعات تمر دقائق لست ادري ، فالعريس مخلوق غامض جميل ومخيف محبوب ومرهوب ..!!

الكرسي الخالي الى جانبها ينادي صاحبه ، وهي تنتظر بشوق ولهفة ورهبة وصول الانسان الذي اختاروه لها والذي ستراه الليلة وتكلمه لاول مرة .

ونسمع من بعيد هرج ومرج واصوات رجال واطلاق رصاص في رأس الحارة .. يظهر ان « عراضة » العريس قد وصلت من التلبيسة ، والشبان يسيرون في الحي حول العريس يرددون في الليل السعيد الذي طار فيه النوم من عيون الجيران :

« صلوا على محمد ونير واغضير وعادنا وبيض الله وشو .. صلوا على محمد ونير واغضير .... »

وترد النسوة في العرس على الرجال « بالزلاغيط » عند الدهليز ، ووراء باب البيت تستقبل العريس امه واخواته وعماته وخالاته وقريباته كلهن .

ويجتاز العريس عتبة الباب ثم يمر بالدهليز ويطل على ارض الديار بطوله الفارع واناقته البالغة وطقمه الاسود وطربوشه الخمري وابتسامته الخفية تحت شاربيه الكثيفين . وترتفع ايدي المدعوات بالاغطية والمناديل واطراف الاثواب السواريه لتغطي الرؤوس والصدور والزنود العارية .

وتهمس ام العريس في اذن ابنها العريس :

— تقبرني بلا هالطربوش ، قيمو والله بلا طربوش احلى ما عاد حدا حط طرابيش !!

ـ لا ما رح قيمو ، شــو نقام الشرف مــن راسنا حتى نشـــلح الطربوش !!؟؟

ويمشي خطوتين ....

وتحدث في العرس مفاجأة !!

وتنقلب الضحكات الى دموع سخية تهر على الخـدود ، وتتحول الزغاريد الى حوار حاد بين اهل العروس واهل العريس .

ويتوقف قلبي عن الخفقان .. واقف علـى الكرسي الخيزران لارى بسهولة ما يجري هناك عند آخر البيت ولاطلع على تفاصيل الخلافولاسمع ما يدور من حوار بين جبهتين :

العروس بكل جمالها الاخاذ وعظمتها واقفـــة على الاسكي ترتجف وتنتظر ..!! والى جانبها تقف اخواتها المتزوجـــات وعمتها الكبيرة .. فأمها ميتة .

وعند اول الديار يقف العريس بكل وقاره وصمته تمسك بمرفقيـه امه واخته الكبيرة تقسمان بالايمان المغلظة « بالعظيم بالقسيم » ان العريس لن يتحرك خطوة الى الامام حتى تأتي العروس اليه ..!!

ومن الجهة الثانية تقسم اخت العروس الكبيرة والدمعة تكاد تخنقها ان اختها لن تنزل من مكانها ولن تتقدم خطوة الى ان يأتي العريس اليهـا ويسلم عليها ..!!

وترتفع الاصوات من هنا ومن هناك .. لا العريس يتكلم ولا العروس تتكلم ولكل منهما محام يتكلم باسمه بلا تفويض . ويحتد الحوار ويتـأزم الموقف ويرفض كل طرف ان يتنازل عن كلمته ويؤكد تمسكه بموقفـه حتى النهاية ..!!

ويكاد العرس ان يتحول الى مأتم ، ويكاد الغنـــاء ان يتحول الـى دموع ، وتكاد الزغاريد ان تتحول الى شتائم .

وبحكمة الله تقف بين النساء سيدة مسنة فاضلة ترتدي ثوبا ازرق وتتلفع بغطاء حريري ابيض وبيدها مسبحة وتعلن بهدوء الحل الوسط :

تحضر العروس الى عريسها حتى منتصف الديار ويحضر العريس الى عروسه حتى منتصف الديار ويتصافحان ثم يأخذها من يدها ويصعدان الى الاسكي معا .

ولقي الراي الحكيم صدى طيبا عند الطرفين ، ونزلت العروس عن الاسكي ، واختها تمسح عن خديها دموعا قاهرة ، ووصلت الى نقطة الوسط وصافحت العريس وعاد بها الى عرشها المتوهج بالانوار المتلألئة والازهار النضرة الفواحة وعلق في عنقها مية الماس ثمينة وسط تصفيق المدعوات وزغاريد الصبايا ، ثم شكل على صدر ثوبها الابيض قرنفلةحمراء قطفتها له اخته من باقة زهر تزين الاسكي فقطفت احداهن للعروس زهرة زنبق ابيض وقدمتها للعروس فأخذتها العروس وشكلتها في عروة ياقة بدلة العريس وسط رياح التصفيق الحاد العاصف ، ثم فتح العريس ستارة « سبت » الملبس الزهرية الشفافة واطعم العروس من الملبس واكل معها ملبسة وبدآ ينثران الملبس على المدعوات وقطع السكر الملونة وليرات الذهب المعبأة بالشوكولاته والآلات الموسيقية التي صنعت من السكر واخذت انا منها ليرة ذهب شوكولاته « وعود وكمنجة على سكر » .

وازداد الضغط حول العروس والعريس وهجمت الصبايا نحو الليوان في مجموعتين على رأس كل مجموعة سيدة تتقن الزغاريد ، وكانت المجموعة تبدأ الزغرودة بكلمة « اوها » وتقول السيدة الماهرة الوصفة ، وتنهي الصبايا زغرودتها بكلمة « لي لي لي ليش » :

اوها يا عريس لا تعبس
اوها فريد البقجة والبس
اوها شواربك عروق الريحان
اوها وسوالفها عروق النرجس
لي لي لي ليش



اوها ببيتنا رمانة
اوها حامضة ولفانة
اوها حلفنا ما منقطعها
اوها ليدخل عريسنا بالسلامة
لي لي لي ليش



اوها سعيد يا واحد
اوها محمد ياتنين

اوها واللي ما بيصلي عالنبي
اوها يعدم العينتين
لي لي لي ليش

❋

اوها عاللعلعي عاللعلعي
اوها يا صبايا تجمعي
اوها يا ليل طول طول
اوها ويا شمس لا تطلعي
لي لي لي ليش

❋

اوها حصنتك بياسين
اوها ويا زهر البساتين
اوها يا مصحف صغير
اوها على روس السلاطين
لي لي لي ليش

❋

اوها شو هالنهار اللايق
اوها وفرحتلنا الخلايق
اوها وطقت قلوب الاعادي
اوها ولمن حقت الحقايق
لي لي لي ليش

❋

اوها ديارنا كبيرة
اوها ودرج الحمام فيها
اوها وام العريس فرحانة
اوها والله ربي يهنيها
لي لي لي ليش



اوها يا عريس ريتو مبارك
اوها يا عريس السبع بركات
اوها وان شا الله لما يجيك الصبي
اوها وبتكمل الفرحات
لي لي لي ليش

*

اوها جبينك بيلمع
اوها ادانك بتسمع
اوها ما منطلع من هون
اوها لتطعمينا ما ها لمجمع
لي لي لي ليش

*

اوها رفاع راسك واقشعها
اوها قبل ما تفرد مجمعها
اوها وان كان لك صاحبة اهجرا
اوها وباب القهوة لا تعبرا
لي لي لي ليش

*

اوها يا جماعة كلكن
اوها وما نسينا فضلكن
اوها واليوم عنا
اوها وان شا الله بكرة عندكن
لي لي لي ليش

*

اوها العريس يا واحد
اوها اخوه يا تنين
اوها يا خرزة زرقا
اوها ترد عنهن العين
لي لي لي ليش

ووسط « الزلاغيط » التي ضجت بها الحارة ، صعد العروسان درج البيت الى « مخدع » النوم واشتغلت « الوتوتة » بين النسوان .

وهمست واحدة في اذن جارتها مازحة:

— يا ريتني « برغشة » لاتخبى بشعر العروس واسمع شو عم يقوللها العريس ..!!

— اي والله عروس حلوة .. ان شا الله بيتهنا .

شوفي..شوفي شلون عم يشدو الجلايل علشبابيك حتى ما نشوف شي !! هاها هاها ...

وبغياب نجمي العرس عن الانظار صفا الجو للمدعوات وبدأ « دوزان » العود بعد ان حلفت ام العريس على احدى المدعوات الا ان تعزف لهن ليتمتعن بعزفها المنفرد ولترقص ولتغني على عزفها صبايا العرس ريثما تحضر المغنية وجوقتها ، فعزفت لهن رقصة « ستي » وشدت اخوات العريس اكثر من مدعوة شابة لحلبة الرقص ، فهذه تتمنع وتلك تتدلل ولكن لا بد ان ترقص كل واحدة في نهاية المحاولة .

وطلب من ام الصوت الحلو في العرس ان تغني لهن « يا مال الشام » و « ميجانا وعتابا » و « ليالي » ويا طيرة طيري يا حمامة فأطربت وانتزعت الآه من الحناجر :

يا طيرة طيري يا حمامة — وانزلي بدمر والهامة
هاتي لي من حبي علامة — هالاسمر ابو الخال
يكفى عذابي — وشرع الله
أنا على ديني — جننتيني
على ديني العشق — حرام والله

*

علي وطيري يا حمامة — وانزلي بدمر والهامة
هاتي لي من حبي علامة — سيجارة وبصة نار
يكفى عذابي — وشرع الله
أنا على ديني — جننتيني
على ديني العشق — حرام والله

*

يا طـيرة علي واقليلـي
ايش ما حكو تعي اقليلي
يـكفى عـذابي
انـا على ديني
على ديني العشق

وانـزلي ببيت محبينـي
واحكيلي عللي صـار
وشـرع الله
جننـتيـنـي
حـرام والله

*

يا طيرة طـيري ستيتية
هاتي لي منهن حنيـة
يـكفى عـذابي
انـا على ديني
على ديني العشق

وانزلي ببيت الاهليـة
تطفـي بقلبي النـار
وشـرع الله
جننـتيـنـي
حـرام والله

*

نزلت دموعي على كتفي
قربـي علي وانحـدفي
يـكفى عـذابي
انـا على ديني
على ديني العشق

من يوم فراقك يـا ولفي
يا حلوة يا ام الخـال
وشـرع الله
جننـتيـنـي
حـرام والله

*

نزلت دموعي محترقـة
يا ماما ما اصعب الفرقة
يـكفى عـذابي
انـا على ديني
على ديني العشق

وانا الهوبانة بالسرقـة
على الفرقة ومالي ضيان
وشـرع الله
جننـتيـنـي
حـرام والله

*

نزلت دموعـي وانا باكي
وانـا لربي شـاكي

واحترت بأمري لمين حاكي
من حر الشوق والنـار

يـــكفى عـــــذابي　　　وشـــــــرع الله
انـــــا على ديني　　　جننـــــتيــنـــــي
على ديني العشق　　　حـــــــرام والله

وانتهت الاغنية ترافقها الآهات وحاولت المدعوة ان تترك العود الا ان الف يمين والف عظيم قد الحا عليها من اجل اغنية يا حنينة فغنتها راضية . واهتزت ريشة العود وانطلق الصوت الحلو .

يا حنينة ويا حنينة ويا حنينة
شو هالزمان اللي انقلب من بعد الهوى

✻

ويا رايحة عالدرس وبايدها المسبحة
وجاية من الدرس هويانة مسوسحة
ودخلك يا يامو وشو هالمصلحة
وحبي وعشقي لعينك انا
ستي انا وعيني انا وحياتي انا
والله لاضمك ضمك ضم اللولو بعنقي انا
يا حنينة ويا حنينة ويا حنينة

✻

يا حنينة يا امة الاسلام حبيبتي فينها
ويا جناح الطير هدب عينيها
ويا سعد مين شمها وضمها
زاد بعمرو عشرين سنة
يا حنينة ويا حنينة ويا حنينة

✻

مساكين اهل الهوى شو تيتمو
بعد ما كانوا كواكب عتمو
عطيتهن سر للحبايب ما كتمو
يا حسرتي مين عاد يكتم سرنا



يا حنينة ويا حنينة ويا حنينة

شو هالزمان اللي انقلب من بعد الهوى

ثم وقفت الصبية المرحة الذكية الحلوة « ام سامي » لتعدد بعض الاقوال الغزلية القديمة وترقص رقصتها المشهورة المضحكة التي تقوم على تقليد المدعوات : « يورم خديجة بلمام » تبدأ ام سامي الاغنية بصورة طبيعية لا تبعث على الضحك يورم خديجة بلمام . . . يورم خديجة بلمام . . جملة تركية تدل على ان خديجة ضائعة منها وتبحث عنها وتقترب من كل واحدة في الليلية وتسألها : شفتيلي خديجة ؟ وترد عليها احداهن دون إن تدري ما ينتظرها ، بلهجة طبيعية : لا والله ما شفتا . . وتقلدها ام ساميبالصوت وحركات الوجه واليدين : لا والله ما شفتا !!! يورم خديجة بلمام . . يورم خديجة بلمام . . . ويأتي دور الثانية والثالثة والرابعة : شفتيلي خديجة ؟ وتأتي الاجابات هذه المرة مختصرة ومرسومة خوفا من التقليد :

— لا يا عيني ما شفتا . . .

— لا والله . .

— مبارح شفتا . . .

— لأ . .

— لأ . .

— الله يجمعك فيها . . ما كنتي انتي وياها اولت مبارح . . ؟؟

وتقلدها امسامي :

— الله يجمعك فيها . . ما كنتي انتي وياها اولت مبارح . . ؟؟

وتضج السهرة بالضحك . . لا فائدة ام سامي تقلد كل سيدة مهما كانت ذكية ولكل واحدة حركة مضحكة حتما .

ويحلفن على ام سامي الا ان تغني اغنيتها « الظريفة » وهي واقفة ترقص . وتسأل : انو غنية بدكن ؟!! على عيني وراسي !! وتتعالى الاصوات : بدنا غنية « الف ألوف » . . . ويدق العود ويشتد التصفيق مع مطلع الاغنية الغزلية الغريبة وتبدأ الجوقة :

الف الوف والفتا

وال ب بالمعنى بينتا

وال ت تنيتا وتلتا

والـ ث ثبتنا عالغالي
ايام انقلبت ليالي

*

حرف الالف الف المحبوب لحضيني
والـ ب انبليت بحبك يا ضيا عيني
درت العرب والعجم والترك يا زيني
شاهدتهم ما حليلي غيرك بعينية

*

والـ ت توتا عالاله صورك يا زين
والـ ث ثابت بحبي ما ينشف دمع العين
دمعن سليتو ودمعن سال عالخدين
راقب الهك وشوف الذي جرى بية

*

والـ ج جسمي انضنى من الشوق والهجران
والـ ح حلو المباسم سبا لبنات الشام
انا لصير شبه العنيسي واسرح مع الغزلان
لاجل ريم الفلا راخي الحسينية

*

والـ خ خليت عقلي شال من راسي
والـ د دوبت جسمي ليش يا قاسي
لو كنت تعلم بالصد والهجران يا ناسي
ما كنت ذوقت جسمي لوعة الكية

*

والـ ر رمحك الرديني قدك الميال
والـ ز زعلان ليش ريت الزعل ما كان
انا سهران لاجل محبوبي وليلي طال
ونومي شرد يا حلو ما عاد يحضر لعينية

*

والـ س سرك لغيرك قط ما بسمح
ان ردتني عبد للخدمة انا بطلع
وان ردتني محبوب للعشرة والكيفية

❋

والـ ش شعرك لديلك آه من ميلك
والـ ص صدك صبغ لوني كما ليلك
اظن يا بدري ما اجينا على ميلك
بالوعد يا كمون بسقيك بالمية

❋

والـ ض ضحكك صبغ لوني بدقاتك
والـ ط طيب جروحاتي بدياتك
آه يا حلو من بوسة من شفيفاتك
ما عاد ينزل بقلبي شربة المية

❋

والـ ظ ظبي شرد عني يا حلو مين ردو
والـ ع عفت الاهل والاوطان لاجلو
حاطط « سليمي » شاماتو على خدو
هو تربايـة كفي ما هو صيد برية

❋

والـ غ غضبان يا محبوب صالحنا
والـ ف فريد البهاء يا محبوب سامحنا
واقعد على زادنا وبالله مالحنا
لتصير بيننا عشرة للحشر مطوية

❋

والـ ق جسمك قد جسمي قد
والـ ك كف الجفا ما عدت اطيق الصد
اوعدتني يا حلو تجي نهار الحد
كم مضى حد بحد بحدين بمية



وال ن نوحو على ما صار بحالي
وال هـ هادا جزا مين يعشق الغالي
انا بحبكم ضاع عقلي وراح رسمالي
لا شي حصلي ولا شي طلع بايدية

*

وال و وحياة راسك ما بقالي حال
وال ل الف لا تكلفني الى قيل وقال
ان كنت عاقل اتبع درجة العقال
لا تعشق شب فتي ليصفي لك النية

*

وال ي يا ربي يا رحمان يا غافر الزلات
صلي وسلم على من جاء بالآيات
واغفر ذنوبي لان الكل مزحيات
من نظم فكري صنفت الالفية

*

الف الوف والفتا
وال ب بالمعنى بينتا
وال ت تنيتا وتلتا
وال ث ثبتا عالغالي
ايام انقلبت ليالي

ثم وقع الاختيار على صبية سمراء طويلة نحيفة « مجذبة » فوقفت تحت الحاج « ام سامي » الظريفة المرحة التي انتهى دورها ، لتغني اغنيتها الشامية المشهورة اللطيفة التي تبعث على الضحك لما يرافقها من حركات مثيرة ناعمة ومضحكة . ودق العود ، وشذ احد الاوتار وخرج النغم نشازا « فدوزنته » صاحبة العود وعاد اللحن سليما ، وبدات الصبايا بالعد والوصف وراء الصبية السمراء ، فكل الصبايا كورس جاهز ذكي سريع الحفظ ، وعاونت الدربكة العود وقالت السمراء :

يا قضامة مغبرة ويا قضامة ناعمة
شوف عيني شوف
شوف روحي شوف
شوف حركاتي شو ناعمة

❊

جبلي الحمرة بالورقة
قلتلو شفايفي ما بتلقا
قاللي تعي يا رشقة
وحمرني وانا نايمة

❊

جبلي البودرة بالورقة
قلتلو خدودي ما بتلقا
قاللي تعي يا رشقة
وبودرني وانا نايمة

❊

جبلي الشلحة بالورقة
قلتلو جسمي ما بيلقا
وقاللي تعي يا رشقة
ولبسني وانا نايمة

❊

جبلي السوتيان بالورقة
قلتلو صدري ما بيلقا
وقاللي تعي يا رشقة
وزررلي وانا نايمة

❊

وفجأة انقطع جو التصفيق والضحك والرقص والغناء بسبب دقات شديدة على الباب .. وركضت صبية نحو نساء العرس تقول ان الرجال يريدون العريس ليأخذوه لسهرة التلبيسة فترة صغيرة!!وصعدت عدة نساء

« لمخدع » العريس والعروس ونزل العريس بعد مدة ليرافق الشباب وكأن قوة قاهرة قد اقتلعتـــــه من جذوره . ودخلت على العروس بعد خروج العريس « الماشطة » السيدة المختصة التي تعتني بثياب العروس وشعرها وزينتها وتكون مسؤولة عن جمالها طيلة ليلة العرس ، ولا يجوز لاحد ان يرى العروس وهي « تتفرع » وتشلح وتلبس الا «الماشطة» رغم كل فضول العيون على الباب . ونزلت العروس بثوب « سواريه » مخملي اسود اللون يكشف صدره الواسع عن بياض بدنها تزينه وردة سوداء مقصبة ، ولـــه « شاحط » ذيل طويل انيق ، واكمام طويلة مشقوقة شقا طولانيا تنفتح عن بياض زنديها ، وتثبت عند المعصم بازرار ناعمة .

وسارت نحو كرسيها على الاسكي كالملكة .

وتقول « ست ختيارة » : حوطتها بالله ...

ومن اجل خاطر العروس وقفت صبيتان ، شقراء وسمراء تتبادلان الاتهامات معا امام العروس والمدعوات بمرافقة العود والدربكة عن طريق اغنية لطيفة تمدح فيها كل واحدة منهما نفسها ولونها وتذم الاخرى وتبدآن الاغنية معا بهذا المطلع :

تعي علفي تعي علفي
انا عايز اشوفك لحظة
وما بتحني شوي .

*

السمراء : والسمرة قالت الله واكبر
كل الزكاوة نزلت علأسمر
روحي يا بيضة يا شوربة العسكر
كل اللي يحبوكي مرجوعن الي

*

الشقراء : والبيضة قالت انا رز بحليب
كل ما برد كل ما لو بيطيب
روحي يا سمرة يا عود القضيب
كل اللي يحبوكي مرجوعن الي

*

السمراء : والسمرة قالت انا اصلي عربية
كل ما تلفتت في الي تحية
روحي يا بيضة يا اجنبية
كل اللي يحبوكي مرجوعن الي

*

الشقراء : والبيضة قالت انا عيوني كبار
مكحلين من الله وشعراتي طوال
روحي يا سمرة يا شعرك شعر الجوار
تلت ساعات بالحمام ما بينبل بالمي

*

السمراء : والسمرة قالت انا لوني بلون البن
يا شراب الامرا معجونة بالفن
روحي يا بيضة يا مكنسة الجن
على ايش حبوكي على لونك هالني

*

السمراء والشقراء : تعي علفي تعي علفي
انا عايز اشوفك لحظة
وما بتحني شوي

وعندما انتهت الاغنية لاحظت ان العروس تضحك قليـــلا وتداري ضحكتها وكأن شيئا من خجلها قد ذهب ، واتتها الشجاعة على الابتســام فظهرت بابتسامتها اجمل بكثير من قبل .

وبنزلة العروس كانت جوقة المغاني قد وصلت . وغنت المغنية عدة اغاني دمشقية قديمة اذكر منها اغنية يا سمك يا بني وتقول كلمات الاغنية :

يا ســـمك يابني   خصـــمو يجننـــي
تلعب بالميـــة   لعبك يعجبنـــي

آه يا سمك يا بني

صـــيادك شاطر بيــاعك مــاهر
تجبر بالخـــاطر يا جميل واصلني

آه يا سمك يا بني

يا ســـمك ياندا يــا لون الفضـــة
والعمر اتمضـــى وانت مخــاصمني

آه يا سمك يا بني

يا ســمك يا احمر يــــا لون العنبر
تمشــي وتتمختر مشــيو يجننــي

آه يا سمك يا بني

ثم انطلقت المغنية بموال ويا ليل يا عين فشق صوتها القوي العـــالي ليل دمشق الربيعي الساحر ثم غنت :

يا برق سلم عليهن وقلهن يرضو
ليلي ليلي يا عيني
واستعجلوا بالجواب آه عشاقكم مرضو
ليلي ليلي يا عيني



وحياة عيونك انا تايب لوجه الله
عن المعاصي وعن الحب لا والله
هاتوا المصاحف لنحلف نحلف بكلام الله
والتم يحلف والقلب يقول لا والله



انفتح الهوى خمنت غايبي جاني
ركضت فرحان وضحكان
استلقيت الباب بحضاني
آه تاري الهوى غرار
حبيبي ما جاني

وعصف الطرب بالرؤوس وطلبت المـدعوات المزيد المزيد من الطرب ولم تبخل عليهن المطربة بشيء وغنت لاحدى العرائس المدعوات وكانت على ما يبدو حاملا باشهرها الاولى وتتوحم .

وهذه المرة لم تتوحم على اكلة بل على اغنية ، ولبت المغنية رغبتهـا وغنت لها اغنية « الحلوة بتتوحم عالعنب » .

على بياعينو هالعنب
حلوة بتتوحم عالعنب
جبلي وجبلي يا ماما جبلي
حلق الالماس ريتو يلبقلي
خود الماسك وجبلي العنب

*

على بياعينو هالعنب
حلوة بتتوحم عالعنب
جبلي وجبلي يا ماما جبلي
حلق اللولو ريتو يلبقلي
خدو بيعو وجبلي العنب

*

على بياعينو هالعنب
حلوة بتتوحم عالعنب
جبلي وجبلي يا ماما جبلي
الطوق الدهب ريتو يلبقلي
خدو بيعو وجبلي العنب



وصعدت العروس الى مخدعها بعد ان عـاد العريس من سهرة الرجال . وبقيت عنده فترة ثم نزلت ترتدي ثوبا ازرق بلون السماء ، وكانت تحلي شعرها بحبال من اللؤلؤ ، واقتربت منها الصبايا يهمسن في اذنهـا اسرارا تبعث على الحياء والابتسام كما يبدو ، وانا ارى العريس وهو يرفع طرف الستارة خفية ولا تظهر الا عينه ، ليتفرج على العروس وهذه البهجة التي اضفاها نزولها الى العرس .

ولاحت لي من بعيد صواني « البوظة بالفستق » تكاد تتطاير فوق الرؤوس ، وفرحت جدا « عرس بلا بوظة وبلا ملبس يعني مو عرس » . كانت المختصة بالاعراس « فوتيكا » هي المسؤولة عن تقـــديم ضيافة « الايمع » للمدعوات ومن واجبها ان تغرق للكبير والصغير ، وويل لها ان نسيت صفا من المدعوات او مدعوة فان أهــــل العرس لن يتخلصوا من « الحكي والتعييب » بعد انتهاء العرس .

وصعدت العروس الى عريسها لتأكل معه « كاسة الايمع » ثم عادت الينا ترتدي ثوبا ورديا زهري اللون ، وذهب ما تبقى من عقلي بسحرها . وفي كل مرة كانت تصعد لتغير ثوبها وتنزل الينا كانت تزداد بهــاء والقا . واذكر انها صعدت مرة ولم تنزل .. وسمعت ان « داية » بيت اهــــل العروس معزومة وموجودة في العرس ، ولم افهم سر حضور الداية مع ان احدا لا يطلق ولا يعاني آلام الولادة !!!

واطفئت الانوار في مخدع العروس والعريس. وارتفعت « الزلاغيط » من « الديار » فجأة ، ثم عادت جوقة المغاني للعزف والغناء والرقص .. وكأن العرس لا يريد ان ينتهي ، وعادت المغنية تمسك بالعود وتغني وتطلع بهذا الموال قبل اغنيتها الحلوة بتميل بتميل هالسمرة :

دخلت باب الجنينة
رد علي البلبل
والياسمين اشتكى
والورد قال اعبر
يا سجرة المنتهى
شو حملك قرنفل
قالتلو قلبي داب
عالحبايب ما بقى يصبر



بتميل بتميل هالسمرة
وعينها على ميل هالسمرة
روحي السمرة عيوني السمرة
حياتي السمرة بضو القمرة
شعلت قنديل



انا البنفسج انا البنفسج انا المصبوغ بالنيلي
على الشب اللي قاعد مقابيلي
كسرتني يا حلو كسر الفناجيلي
وانبليت بعشرتك الله يهنيني
بتميل بتميل هالسمرة ...
وعينها على ميل هالسمرة ...

وهمست جارتي العجوز باذن جارتها قائلة :

ـــ قرب الصبح يطلع .. ان شا الله ما تكون العروس نسيت شو علمتها تقول للعريس عند وش الصبح ..!!

ـــ دخلك شو علمتيها ..؟

ـــ علمتها تقول لعريسها كلام حلو كتير :

يسعد صباحك يا كتلة افرنجية
يا قش عنبر يا خلقة الهية
لو قدمولي بدالك من الف لمية
انا ما بهوى بدالك ولا الي بحدا نية

*

ليمون ليمون انت احلى من الليمون
محبتك بقلبي يا جوهر المكنون
وان هويت بدالي عالي لما دون
بكون خصمك النبي جوات الحرم مدفون

*

مرقت على ساقية شط غالب شط
لقيت سناسل دهب بايدي بتنحط
وحياة مين علم الغزلان الامز والنط
لعبوا بعقلي متل ما بيلعب هالقلم بهالخط

« ادن الصبح » ... وانسحبت السيدات للفوقاني لتأدية صلاة الصبح .

و « جهجه الضو » .. وبدأت العصافير تزقزق على شجر الليمون والنارنج المزهر واغصان زهرة المانوليا التي تعطر الصباح برائحة الجنة . وبدأت المدعوات بالحركة لتبديل الثياب ولبس الملايا السود والمناديل السوداء الكثيفة « وضب » ملابس السهرة في البقج وايقاظ الاطفال وحمل الرضع استعدادا للعودة الى منازلهن مع الفجر . وفوجئت المدعوات بان اطفالهن جميعا بلا استثناء قد « بللوا » فرشات النوم . وخجلت كل واحدة من طفلها امام اصحاب البيت ، ولم يكتشفن حتى اليوم ان احدى الصغيرات قد افاقت في الليل فاكتشفت انها « عملتها » دون ان تدري ، وحتى لا تقتلها امها في الصباح اخذت ابريق الماء وبللت « حفاضات » الاطفال كلهم ، وضاعت جريمتها وسط جرائم المجموع ، وليس احد افضل من احد .

شقشق الضو .. وخف الضغط وودعت الكراسي الخيزران الفراشات الملونة . وفضح نور الصباح قشور البزر الاسود والابيض والفستق والماء المسفوح على الارض والملبس المكسر بين الكراسي . انتهت الليلية ..

ووقفت ام العريس واخواته وعماته وخالاته وبنات خالته عند الدهليز لوداع الضيوف . وقد حلفت ام العريس على بعض المدعوات من اهل العروس ومن أهل العريس يعني اللازم اللازم لتناول طعام الفطور وكانت صواني « البفاجة » والحلويات والحليب السحلب الساخن والكعك التازة قد وصلت كلها مع طلعة النسوان من الباب ، من عند ابو حرب احسن بفجاتي بالشام .

وشددت ام العريس الدعوة واعتذرت امي بشدة بسبب اضطرارها للعودة الى اخوتي الصغار ، ودعي جميع من في العرس لحضور مباركة العروس « بالخمسة » بعيون الشيطان « وبالستة » . ووعدتها امي بالحضور يا اما يوم الخمسة يا اما يوم الستة ...

وقبلت الجميع وودعتهن بحرارة وصدق قائلة الجملة التقليدية :

— مبارك ما عملتو ان شا الله جوازة الدهر وعقبال البكاري .

— اصحي ما تجي عالمباركة.

— بجي تقبريني والله بتشرف .

— يو ميت اهلين وسهلين .

— بهالقامة وبهالعين .

— سلميلي عالافندي وبوسيلي الصغار .

ـــ يي الله يسلمك .

ـــ خاطركن .

ـــ مع السلامة .

وسرت نسمة الفجر الباردة في اوصالي . . . وكنت اتمسك بيد امي اجرجر قدمي من شدة النعاس والتعب .

اما أهل الحارة فأظن انهم قد افاقوا على اصوات النسوة المرحات العائدات من العرس وحدهن بلا رجال في زمن تخاف فيه المراة من سطوة الرجل وحكم الرجل . سرت مع امي ومجموعة من المدعوات في حارات دمشق الآمنة ، المناديل شبه مرفوعة عن الوجوه الجميلة لان الحارات لا تزال « فاضية » والرجال المتعصبون لم يخرجوا الى دكاكينهم واعمالهم بعد ، والصباح الجميل يطل على دمشق السعيدة .

ليلة لن انساها . . . سقا الله . . !!

عدنا الى البيت وفي جعبتنا الف صورة وصورة . . . وكان ابي في انتظارنا . . وصل مع اخي قبلنا بقليل . وكانا « معزومين » على التلبيسة التي استمرت فيها السهرة مع المطربين « لوش الصبح » . وحكى ابي لامي ولنا ما جرى في التلبيسة وابريق الشاي الساخن يدور من كأس الى كأس . . والنوم عصفور وطار من العيون .

جرت التلبيسة ببيت عم العريس . طبعا لم يحضر ابو العروس ولا اخوتها ولا احد من اقربائها « فهذه هي الاصول » .

بعد الظهر ذهب العريس مع بعض اصدقائه الى حمام السوق . وحول السابعة مساء ذهب مع اصدقائه واقاربه واولاد عمه لبيت التلبيسة . . وقد قدم له عمه التلبيسة « نقوط » وبيت عم العريس في الحارة بيت كبير . وقد دعا العم لتلبيسة ابن اخيه خمسمائة « زلمة » . المدعوون جلسوا على الكراسي الخيزران في الديار العربية الواسعة ، اما العريس فقد دخل رأسا من الباب الى القاعة الكبيرة في بيت عمه وكانت تعج بشباب الحارة واولاد عم العريس الشباب . اما « الكبارية » « المقدرين » من الاقارب والضيوف فقد جلسوا في صدر الليوان وقريبا منهم جلس « الموالدية » المنشدون المدعوون لقراءة « مولد النبي » . العريس صغير عمره عشرون سنة . ونطت امي فقالت لابي : اي والله العروس صغيرة عمرها خمستعاشر سنة وحلوة .

وعاد ابي يكمل الرواية اللطيفة :

دخل العريس للقاعة ليرتدي ملابسه وكانت « بقجة » ملابسه بيضاء ومطرزة وفتحها الشباب وكان كل ما فيها جديد وقبل ان يخلع العريس ملابسه ليرتدي ملابس العرس بدأ الشباب العراضة ، ووقف هو يستعد لارتداء ملابسه تختلط ابتسامة السعادة عنده بعرق الخجل وسط عراضة الشبان :

صلوا على محمد ونير واغضير وعادنا وهيه وما شا الله .

وارتفع صوت مجموعة ثانية :

شنكليلة شنكليلة
من هالليلة صارلو عيلة

*

عريس الزين يتهنا
يطلب علينا ويتمنا
عريس الزين يا غالي
افدي بالروح والمال

*

صلوا على محمد ونير واغضير وعادنا وهيه وما شا الله .

*

لتفرعلو لتفرعلو
بالقميص والطاقية

*

سعيد ياخد سعدية
عريسنا ما ياخذ الا الصبية
عريسنا ما ياخد الا النشمية
ميدان وشاغور واحد
اللهم صلي على خير البرية

*

واخذ اصحابه واصدقاؤه يداعبونه ويشكونه بالدبابيس وهو يذوب من الخجل ولا يحتج . وتقدم الحلاق فمشط له شعره وعطره بالكولونيا واصبح مستعدا للخروج امام الضيوف .

وخرج العريس للديار وقبل ايادي والده واعمامه الكبار ووضعوا له كرسيا جانب والده وعمه ، واستمر « الموالدية » في قراءة مولد النبي ، بينما الشبان يقدمون القهوة المرة والماء مع المازهر ويدور صبي صغير يرش المازهر من القمقم الفضي عل كأس من يريد مازهر.

وعندما جلس العريس بين الناس بدأ اولاد عمه بتوزيع كاسات البوظة بالفستق ، وكان بعضهم في المطبخ يعبيء الكاسات بالبوظة من « طرنبة » الايمع « اللي جابوها من عند بكداش بالحميدية » .

الحقيقة اولاد عمه شباب يرفعون الرأس ما شا الله له اربعة عموم ولكل عم عشرة شباب والله كانوا زينة التلبيسة . وبعد البوظة وزعوا « صرر الملبس » « بسبت »قش واسع ، كل ضيف اخذ صرة .

وعندما قارب الليل ان ينتصف اخذوا العريس لبيت العرس ، لبيت « ابو العريس » الذي يشع بالاضواء والجميلات والزغاريد وعروس العمر ، « لانو العريس بدو يسكن مع اهلو » وضعوا العريس بالنص امسكه ابوه من يد وشقيقه الاكبر من يد . واحاط بهم الاقارب اعمامه واولاد اعمامه واصدقاؤه وشباب الحارة . وبايديهم « اللوكسات » يتقدمهم رجل يطلق العيارات النارية في الليل الهاديء ورجلان يلعبان لعبة السيف والترس واحد الشبان يردد وتردد معه العراضة :

صلوا على محمد ونير واغضير وعادنا وهيه وما شا الله .

يا سباع البر حومي
اشربي ولا تلومي
اشربي من بير زمزم
يا سلام ويا سلام
يا سلام اضرب سلام
عللي مظلل بالغمام
الغمامة غمتو وما لمتو
غمتو عالشيخ رسلان
شيخ رسلان ياشيخ رسلان
يا حامي البر والشام

وفتحت نوافذ عالية وارتفعت اخصاص خشبية وامتدت رؤوس كثيرة تتفرج على العريس والعراضة .

وصلت العراضة امام بيت العريس وبدات تردد :

صلوا على محمد ونير واغضير وعادنا وهيه وما شاالله . وكانت راية وراية العريس بيض الله وشو ....

عريس الزين يتهنا
يطلب علينا ويتمنا
عريس الزين يا غالي
افديه بالروح والمـــال

*

خفي رجلك يا بنية
والعزبان هجمت علي
يا أهل العدية
هيه هيه
صلوا على خير البرية
هيه هيه
راية ابو العروس
وراية سعيد ومحمد وعبده
وبيض الله وشن

وزغردت النسوة من الدهليز :

اوها سعيد يا واجد
اوها محمد يا تنين
اوها واللي ما بيصلي عالنبي
اوها يعدم العينتين
لي لي لي ليش

ورددت العراضة على الباب :

مكحولة العين ونير واغضير وعادنا وهيه وما شا الله .

ودخل العريس بين النسوة مع ابيه ، وعادت العراضة لبيت التلبيسة وظلت السهرة معقودة حتى الصباح ، وبعد ان ظل العريس مع عروســه

في العرس ساعة عاد للتلبيسة وجلس قليلا مع المدعوين من الشبان الذين قضوا السهرة بين طرب ونكات وتسلية بينما انصرف الكبار في السن ، ثم انسحب العريس عائدا الى عروسه .

وقد سمع ابي من أحدهم في التلبيسة ان والد العروس « وقت فصل النقد » طلب من والد العريس « نقد » مهرا مقدما مئة ليرة ذهب انكليزية لا رشادية ولا عثملية . فرد والد العريس : حاضر .. بس اللي بدو يطلب مية ليرة بدو يدفع مقابيلها مية ليرة .

فرد والد العروس :

ــ تكرم عينك مية وليرة .

واتفقوا على ان يكون «المتأخر» نصف القيمة . وقبض اهل العروس قبل الكتاب « وطالعوا » بالنقد كنبايات صدف مطعم وسجادة وفرشـات ولحف . ومرت ستة اشهر بعد ان كتبوا « الكتاب » حتى حددوا موعـد العرس وطبعوا « الكروت » .

واضافت امي على معلومات ابي قائلة لابي :

ــ هادا يا سيدي اهـل العريس شي اكابر كتير . وداروا كتـير وخطبوا كتير وما خللوا بيت ما دقوا بابو وما كانت بنت تعجبهن ، هي سمرة وهي نحيفة وهي طويلة كتير وهي قصيرة تعبوا كتير حتى لقولو « طلبو » .

ــ ليش شو كان « طلب » العريس ..!!

ــ بدو العروس بيضا شقرا « مكبسة » لا نحيفة ولاسمينة . هيك لحتى شافوا هالبنت واجوا وصفولو ياها لابنهن قـامت عجبتو وقاللهن اخطبولي ياها وما شافها لليلة العرس لانو اهلها متعصبين كتير .

وام العريس ست بتفهم متأنة مرتبة شي راكز تمام وكل كناينهـا حلوين . ووقتن كانت تدور تخطب كانت تعرف من زيارة واحـدة اذا كان اهل البنت راتبين والا لأ . كانت من كتر نضافتها وقتن تفوت لبيت حـدا تقلب السجادة يا اما الحصيرة بدون ما حدا يشوفها لحتى تعرف اذا كانوا الجماعة نضاف واللا وسخين . واذا لقت فردة قبقاب هون وفردة قبقـاب هون وفردة شحاطة هون اذا فاتت لبيت حدا على غفلة ، ما كانت ترجـع لبيتهن ابدا لانو البنت بدها تطلع متل امها « شرمة » وكانت تطلب كاسة مي من البنت واذا جابتها بلا صحن ومالها منشـفة ومبلولة كانت تقول هالبنت « شرمة ورشلة » ما بخطبها لابني ، وكانت وقت تفوت على بيت

وتجي البنت لتسلم عالخطابين كانت أم العريس تبوسها لتشـم اذا كان الها ريحة تم ، وتعانقها لتشوف اذا كان الها ريحة عرق بشعة . وعزمت ناس كتير على حمام السوق لحتى تشوف البنات بالحمام علـى طبيعتهن وترجع توصف لابنها جسم البنت . بعدين شافت هالبنت وصار النصيب . طبعا اول زيارة ما شربوا قهوة وقالوا لاخت العروس ما منشرب قهوة حتى ناخد نصيبنا . ووقتن شافوها اول مرة ما قـالوا هنة من بيت مين لحتى يعتمدوا عالعروس . بعدين قالوا نحنا بيت فلان . ولما سألوا عن أهـل البنت وعرفوهن « اوادم » راحوا تاني مرة ، وقالت مرة عطوهن صورة العريس واسمو وقالولهن : هي عنواننا اسألوا عنا وعن ابننا وايمتا بتريدو لنجي ناخد الجواب ؟ وبعد كام يوم رجعوا اخدوا الجواب بالموافقة وصارت الخطبة وعملوا جمع رجال وفصلوا النقد واختلفوا بالاول « مكفاية » واللا « بكلف » بعدين قالوا لأ « مكفاية » بالمية ليرة دهب على قبقابهـا . ويوم انكتب الكتاب ببيت ابو العروس حضروا الاهل بس وما عزموا حدا غريب. وقدمولها أهل العريس اسوارة وخاتم الماس وروب مع « كلفو » . لاكن والله بهالعرس صار شي ظريف كتير وحطوا ما فتح ورزق لنشـوف بكرة بالمباركة شو رح يعملوا !؟

فسألها أبي :

— ليش ايمتى المباركة .

— بالخمسة وبالستة .

— هي مباركة النسوان ؟

— اي .

— ويوم « السبوع » .

— يوم السبعة رح يساووا عزيمة اكل لابوها ولعمومها وخوالهـا واخواتها واصهرتها وولاد عمومها وولاد خوالها .

— انا معزوم . . !!!

— لأ . بكرة بيعزمك صهرك متى ما جوزت بنتك ان شا الله بحياتك يا ابن عمي .

— الله يحفظك وانت سالمة .

ومرت الايام . . . وفي ليلة من الليالي لبست امي ملابسها بسرعـة واخذتني من يدي . . . والنوم يكاد يقتلني . . . الى اين يا امي . . ؟

وكانت مفاجأة ... وقفنا امام بيت العرس الذي عشت فيه ليلة من ليالي الف ليلة وليلة ... ماذا عرس جديد ..!!

وسمعت اصواتا جارحة تشق الليل ، ونسوة كثيرات مرتبكات في الديار يرحن جيئة وذهابا ، وبخشوع وصمت ورهبة دخلنا الى غرفة الانسانة التي تصرخ وتستغيث في « المربع » الذي نطلع اليه من العتبة على دف عال ، وقد فرشت أرضه بحصيرة كبيرة وفوقها سجادة كبيرة وحول الجدران اصطفت كراسي طقم الصدف والخزانة الصدفية الكبيرة المطعمة بالصدف المصري وعروق الفضة . وقد جلست « داير ما دور » « المربع » سيدات عديدات مسنات وصبايا . وعلى ارض الغرفة في الوسط فرشتان واحدة فوق الاخرى وعليهما تتلوى « العروس الجميلة » سابقا من آلام الولادة وقد اصبح شكلها مرعبا وباعثا على البكاء . والتصقت بظهر الكرسي قرب الخزانة كأن احدا صفعني في احلى احلامي .

والمسنات يسبحن بالمسابح ويقرأن الآيات القرآنية ويبسملن ويطلقن الدعوات : يا ربي تفك عسيرها وتخلصها بالسلامة .

وقالت واحدة للاخرى بهدوء :

— « بكرية » وما بصير ما تتعذب .

— مسكينة تعسر معها الطلق كتير .

— يي الله يقيمها بالسلامة .

— مسكين جوزها راح بالليل جاب الداية وحمللها الفانوس « وكرسي الداية » .

والطلق يشتد .. طلقة حامية وطلقة باردة ، والصرخات تشتد وتشق سكون الليل . وانا « الطفلة المرعوبة » اتمسك بيد الكرسي وابكي وحدي والداية تروح وتجيء وترفع شرشفا عن ساقي العروس ، ثم ترخيه ووجهها لا يزال متجهما .

وهمست واحدة باذن الاخرى :

— خليها تتعذب احسن ما يقولوا ما حبلت ، بكرة بتلد وبتقوم بالسلامة وبتنسى كل وجعها .

وزوجها المسكين كما لاحظته من وراء ستارة نافذة المربع يروح ويجيء في ارض الديار لا يدري ما يفعل مرة يسخن للنسوة في المطبخ الماء .. ومرة

يناولهن قنينة الزيت والملح والليمون ، ويرفض بشدة رجاء والدته ان يذهب خارج البيت حتى تنتهي الولادة فيبعثون خلفه ويبشرونه !! وفجأة وقفت الحامل ببطنها المنفوخة وسارت حول الفراش العالي تمسك بخاصرتيها وتلف وتدور وتصرخ وتلفظ كلمات نابيـــة كأنها خارجة من انسانة مجنونـــة غير مهذبة :

ـــ « ولي » على قامة الجواز واللي بيتجوزوا ، والله بعمري ما بقيت احبل .. بعمري ما بقيت عيدها . يلعن ابـــو الجواز .. يلعن ابوكن رح موت .. دخيلك يا ربـــي .. لك ببوس ايديكن خلصـــوني . دخيـــل رجليكن انا ..

وأعادتها الداية الى فراشها وهي تقول لها :

ـــ الله يرضى عليكي طولي بالك هلأ بتقومي بالسلامة قولي يا الله واكبسي وعيني ولدك وصلي عالنبي .. هانت .. ما بقى الا القليل . لك بنتي ليش ما رضيتي تقعدي على كرسي الداية مو كان اهين لك ؟!

ـــ ما بدي .. ما حبيتو .. خليني اولد على فرشتي آخ ياربي ... اجت اجت اجت ... آه دخيلكن .. دخيلكن ... اخ يا امي ... وينك يا امي ...

وعند الفجر وبعد آذان الصـــبح ولدت بالسلامة امام جميـــع « المدعوات » لحضور الطلق من اهلها واهل زوجها واللي ما بينعزم عالطلق بيعتب كتير وما بعود بيدوس بيتهن . وكأن الطلق وليلـــة الولادة سهرة لطيفة يجب ان تحضرها كل العمات والخالات وبنات العمات وبنات الخالات والسلايف وبنات الاحما والضراير ..!! وزال العبوس .. ولاحت ابتسامة على وجه الداية وقالت :

.. اللهم صلي عالنبي الهاشمي العربي كامل مكمل « صبي » ..!!

وابتسمت « العروس » المسكينة لاول مرة منذ اربع وعشرين ساعة فقد بدأ معها الطلق من صباح اليوم السابق . وقطعت الداية حبل السرة وربطته بخيط ، وظلت قلقة لا تتكلم حتى نزل « الخلاص » لان الخلاص اذا « لطش » يا لطيف بموت النفسا !! وظل الهدوء مخيما حتى نزل الخلاص وتدفق وراءه نهر من الدم وكاد يغشى علي !!!

ولعلعت الزغاريد وبشروا العريس بصبي : مبارك ما اجاك يا ابو « محمد سمير » ، وقلبت ام العريس الحماية وجهها لانها كانت تريد ان

نسمي الصبي عبد الغني « على اسم جدو » ولكن الكنة كانت تفضل اسم « سمير » لانه اسم جديد وحلو ووعدها زوجها بتلبية رغبتها . وهكـــذا انكسرت كلمة امه . . . !!!

والتفتت الداية الى الطفل تنظفه وتقطر له بكل عين نقطـــة ليمون وترش على جسمه لا ادري مساحيق محضرة على « القشوة » طرابيزة المولود وهي طاولة من الصدف فيها عدة بيوت لادوات المولود والولادة : الآس الناعم والملح والكمون والقطن والمقص والخيط لربط السرة .
وافاق الجيران على الزغاريد ، يظهر ان كنة بيت الجيران قد ولــدت وجابت « صبي » !!!

وبدات الحركة في المطبخ وتفرغت بعض الصبايا من الكناين وبنـــات الاحما لتحضير سفرة الخلاص « للضيوف » اللواتي سهرن الليل بطوله . وانتقلن للمربع الثاني لتناول طعام الفطور وقد مد على صـــينية مستديرة كبيرة من النحاس المزخرف المطعم موضوعة على كرسي من القش منخفض وجلست النسوة حول الصينية التي اصطفت فيها صحون الجبنة البيضاء المغلية والجبنة بالزيت وطابات اللبنـــة بالزيت والزعتر والزيت والزيتون الاخضر والاسود والمكلس ومربيات المشمش البلدي والخوخ والجـــانرك والبيتنجان والكباد والكرز والقشطة والعسل والمكدوس والاريشة والجبنة الضرف والحلاوة والدبس والطحينة والحليب والشـــاي والخبز التنوري والشعيبيات والفواكي .

تم تحضير كل شيء ولم يبق الا الحليب . ودخلت احدى الكناين الى المطبخ ونظرت الى « الكانونة » وشهقت وصرخت في وجه سلفتها :

ــ يي يي يي طف الحليب وما شفتي ، وين عقلك . . هلأ وقت تحكي مع الجارة وتتركيني لحالي والضيوف عم يستنو . . يا لطيف شو قلبك بارد!؟

وكانت « الكنة » الثالثة في هذا البيت هي المسؤولة عن تحضـــير الشاي وكاسات الشاي وغلي الحليب . ولكنها نسيت كل شيء عنـــدما سمعت صوتا يناديها من وراء الجدار فركعت على ركبتيها قرب النهر الذاهب من مطبخهن الى مطبخ بيت الجيران وخفضت راسها حتى كادت تلمس سطح النهر واخذت تعطي صوتها للجارة التي نادتها من فوهة فوق النهر اسفل الجدار تسألها وتصيح عليها :

ــ صباح الخير يا جيراننا ، شـــو هالزلاغيط عندكن شـــو ولدت عروستكن . . !!؟

ـ صباح الخيرات يا جارتنا .. اي والله ولدت .

ـ « قمحة » واللا « شعيرة » ..!!؟

ـ لا والله « قمحة » ..

ـ يي والله فرحتلها اللي جابت « صبي » مبارك ما اجاكن .

ـ الله يبارك فيكي عبال عندك ...

ـ والقايلة .. شو عم تعملوا .. بدكن معاونة ..!!

ـ يعينك بالعافية والله عم نحضر صفرة الخلاص تفضلي فطري معنا بحياة الله !!

ـ يي ان شا الله صحتين وهنا والف عافية والله جوزي لسه ما راح على شغلو ما بحسن اجي حتى يروح من غير شر .

ـ خدي خدي مني جارتنا .

ـ شو بدي آخد تقبريني ..!!؟

ـ اشتهيتلك هالبردقانـــة وهالتفاحة رح ابعتلك ياهن بالنهر ... خدي .. وصلوا ..؟

ـ يو .. يسلمو هالايدين .. يي .. وصلوا وصـــلوا . العمر .. هلأ خاطرك تشكلي آسي جوزي عم يندهلي ..!!

الحليب والشاي يسكب في الكاسات ... بينمـــا زغاريد الفرح بكلماتهـــا « الموجهة » تنطلق من ارض الديـــار من قريبات العروس « ام الصبي » لتؤكد ان خلافا حادا او شبه شجار خفي كان قد وقع بين اهل العروس واهل العريس ، بسبب ما كانت تسمعه العروس من بنات حماها وسلايفها في البيت من « تسميع وتلطيش » من انها لم تحبل بعد او انها لن تحبل ، او انها لا تحبل « عاقرة » ، بينما تمدح كل سلفة تغار من العروس الجديدة بنفسها ، لانها حبيلة وليدة وقد انجبت خمســـة اطفال « وهلأ حبلة » !! لا فائدة .. هذه هي نتيجة « السكنة » مع بيت الاحما . حماية وعم وبنات احما وسلايف كلهن ببيت واحد ، كل ابن يسكن مـــع زوجته واولاده في غرفة فلا بد ان تقع « الغيرة » ويحصل « الناقردي » . لقد دخلت العروس الصغيرة الحلوة « ام الحظ » الـــى البيت لتثير مكامن الغيرة في القلوب . ويظهر ان ام العريس التي كانت تخشى ان تموت قبل ان تفرح بولد لابنها الصغير ، هي التي كانت وراء الهمسات . وسمع انها

تريد ان تخطب لابنها ان لم تحبل زوجته وكم وكم رمت كلمات تمدح بقية « الكناين » اللواتي حملن من ليلة الدخلة ، بينما عروسة ابنها « الآخراني » لم تحمل بعد مضي اكثر من شهر . وكم قال الابن لامه :

— يا يامو عيب تحكي هالحكي وانا رجال ما بتجوز غير مرة واحدة وبحياتي ما بعمل متل عمي اللي اتجوز اربع نسوان حتى صار بيتو من الضراير جحيم ، طولي بالك بكرة بتحبل والله بيبعتلنا صبيان وبنات ، لساتها صغيرة يا امي ...

— ابدا ... هي ما بتحبل ...... وانا ما بخليلك ياها والسما زرقا ..!!

— يا امي الله يخليكي ... ما بدي مشاكل مرتي بحبها وعاجبتني!!

حديث جرى بين الابن وامه منذ تسعة اشهر ، وجاءت الزغاريد لترد الكيد والشماتة والمؤامرات ، وجاءت ولادة الصبي ، ولم تمر سنة بعد على العرس ، لتخرس همسات الشك بقدرة العروس على الحمل :

اوها ولدت وقامت
اوها على فراشها نامت
اوها الك الحمد يا ربي
اوها اللي ما شمت فينا شامت
لي لي لي ليش

*

اوها صلوا على محمد ووقتو وساعتو
واللي ما بيصلي على محمد تطق مرارتو
لي لي لي ليش

*

اوها مبارك والسبع بركات
اوها بتستاهلي يا داية شورة حرايرية
وزيارة محمد والكعبة المجلية
لي لي لي ليش

*

اوها طبخنا لبنية وحشيناها شراطيط
اوها والناس بتنقط بالدهب
اوها ونحنا منقط بالزلاغيط
لي لي لي ليش

*

أوها ياما دبكو برجليهن
اوها يا ما تغامزوا بعينيهن
اوها وقالو فلانة ما بتحبل
اوها حبلت وقلعت عينيهن
لي لي لي ليش

*

اوها يا ما قعدو مجنبي
اوها ويا ما حرقو قلبي
اوها قالو فلانة ما بتحبل
اوها حبلت ونصرني ربي
لي لي لي ليش

*

اوها يا ما لعبوا بالصقاق
اوها يا ما لعبوا بالكعاب
اوها وقالو فلانة ما بتحبل
اوها حبلت ونصرها رب الخلاق
لي لي لي ليش

*

ودار الخبر بين الاهل والمحبين « انو فلانة جابت صبي » ، ودعيت النسوة للمباركة يوم الخمسة والستة . وذهبت مع امي .بيت العرس نفسه ولكن العروس هذه المرة غير موجودة . البيت « يطف ويدلق » بالنساء والصبايا يرتدين احلى الازياء ويتشكلن بالزهور بسبب مجيء الصبي « وقومتها بالسلامة » . والمباركة بالقاعة اللي فيها جهاز العروس الصدف . ومع دق العود والرقص كانت الصبايا من قريبات العريس والعروس واخواته واخواتها يوزعن فناجين « الكراوية » الكبيرة بسبب ولادتها في الشتاء . ولو كانت « الدنية » صيف لوزعوا شراب التوت الشامي او شراب التمر هندي او البوظة بالفستق . وكان شراب الكراوية

المغلي محلى بجوز الهند واللوز والجوز المبشور والفستق الحلبي والصنوبر والبندق ، سبع قلوبات وكانت كراوية « مدللة كتير » .

وعندما تنتهي مجموعة من المدعوات من تناول الضيافة كانت تذهب لغرفة « النفسا » لتبارك لها وتنقط المولود بقطعة ذهبية ، وتكون اما ليرة ذهب او « مخمسة » او نصف ليرة معلقة بشريطة وشكالة ، فتعلقها بقنداقة الطفل النائم الى جانب امه . واذا كان المولود ذكرا كان النقوط مصحفا ذهبيا وان كانت بنتا كان النقوط قطعة ذهبية رقيقة كتبت عليها جملة « ما شا الله » تعلق في صدر المولودة « بسنسال دهب » .

وكانت اكثر الهدايا ليرات ومصاحفا . والنفسا جالسة في فراشها وقد اشرق وجهها بالعافية والسعادة والنصر ولبست ثوب عرسها الابيض الذي علقت اطرافه على الجدار بشكل دائري فاصبحت « النفسا » داخله كالوردة ، وقد ارتدت ثوب عرسها حتى يراها « اللي ما شافها بعرسها » ووضعت على كتفها حورانية من الفرو الابيض . وزينت شعرها وصدرها بالماس واللؤلؤ ووردة قرنفلية حمراء وجملت وجهها بالالوان الساحرة التي اعادت لي شيئا من ذكرى جمالها ليلة عرسها .

وكل واحدة تتقدم منها تقبل الطفل وتنقطه وتقبل امه وتقول لها :

— مبارك ما اجاكي .

— الله يبارك فيكي .

وتخرج طفة نساء لتدخل « طفة » جديدة .

وعند باب غرفة النوم كانت توزع قطع الشوكولاته والملبس والراحة .

وبعد اسبوعين من المباركة اقاموا حفلة طهور الصبي وعزموا الرجال والنساء على الطهور واثناء حضور « المطهر » اخذ الرجال ينشدون عند العصر :

صلوا على محمد ونير واغضير وعادنا ..

وظلت احتفالات الطهور سبعة ايام بلياليها ونبحوا خاروفا واقاموا ليلية غنت فيها فهمية بنت الحصري ، وظلت السهرة قائمة للفجر .

وكانت فكرة طهور الصبي وعمره عدة ايام هي فكرة الاب ، لانه

رفض ان يتعذب ابنه كما تعذب هو يوم طهوره وهو في السابعة من عمره ، ولبسوه الثوب الحرير الابيض الطويل « للارض » ووضعوا على راسه

الطربوش المزين باللؤلؤ والماس والورد حتى يفرح بنفسه وينسى لحظة الالم ، ولكنه احس بالالم رغم صرخات الرجال المفاجأة حوله مرددة :

صلوا على محمد ونير واغضير وعادنا هيه وما شا الله ..

وان نسي الاب الشاب شيئا فلن ينسى ابدا كيف ضحكوا على عقله واقاموا له مهرجانا فخما والبسوه ثوبا حريريا فضفاضا وزينوا راسه بطربوش محلى بالماس واللؤلؤ والورود واركبوه حصانا سارت امامه صفوف رفاقه من طلاب « الكتاب » تردد نشيدة : سلام سلام سلام سلام . وسار الموكب في سوق الحميدية والسنجقدار والمرجة وعاد به الى الدار حيث أكل مع المدعوين ورفاقه من تلاميذ الكتاب الحلويات ثم ادخلوه الى غرفة خاصة والتم حوله الرجال وامسكه « المطهر » بقوة وطهره . فصرخ وبكى ولم تشغله جملة « نير واغضير » عن آلامه . وظل بعدها يسير اياما واياما في الحارة وهو يرفع ثوبه الطويل بيده من الامام وطربوشه الثقيل فوق رأسه يعلن « للرايح والجاية » انه « مطهر » الصلاة عالنبي .

ولكن هذه المظاهر البراقة كلها لم تخدعه ولم تخفف شيئا من اوجاعه عندما كان يريد ان يبول . وانقذت ذكرى الالم ابنه الصغير من ذكرى مماثلة .

ومر اسبوعان على الولادة وبدأت استعدادات الرحلة للحمام . لا بد من « حمام الفسخ » للنفسا بعد اسبوعين . ودعينا الى حمام الفسخ . وكان على « النفسا » ان تثبت في هذا الحمام قوة ارادتها وتتحمل حرارة الجلوس فوق « بيت النار » الذي لا تجرؤ قدم حافية على لمسه او المسير عليه لحظة واحدة . احجار سود حامية كالحديد المحمى مدت عليها منشفة لتجلس عليها « النفسا ». ودهنت احدى السيدات من القريبات جسم النفسا كله « بالشداد » لتعود الى قوتها وصحتها . والشداد منيح كتير لانو فيه بيض والبيض جبار .. وخليط الشداد من بياض البيض والدبس والزنجبيل يدهن به جسم النفساء كله .

كما جلست « النفسا » على خليط صفار البيض والكمون ليشد عروقها وجسمها وترجع كانها بنت . وكلما تحملت الحرارة كلما عادت الى جسمها اسباب الصحة والقوة لتعود الى خدمة بيتها وزوجها وابنها وبيت حماها . فقد كان لها دور كبقية الكناين وستكون مسؤولة في احد ايام الاسبوع عن شطف الديار والمشرقة والدرج وسقي الزريعة والجلي والطبخ ..

كنت اراقبها بدهشة ... كيف يمكنها ان تجلس على بيت النار الذي كنا نخاف منه نحن الاطفال ! ونجرب قدما ثم نقفز الى الطرف الثـاني من « خط النار » والقدم المحروقة تلهب دموعنا . يا حرام الله يساعدها !!

وبعـد أن انتهت من هـذه الجلسة الحامية اللامعقولة ، جـاءت « الاسطة » لتغسلها بنفسها . فغسلت لها شعرها وسرحته وضفرتـه ضفيرتين . وفركت لها جسمها وليفتها بالليفة والصابون وساعدتها بحمام طفلها واخذتها للوسطاني ولبست لها طفلها وقدمته لها لترضعه من الثدي النظيف .. ورضع الطفل والعرق يكده من جو الحمام الخانق بينما امـه الجميلة الذي يتفجر وجهها بحمرة الصحة والنظافة وحرارة بخار حمام السوق ، تبتسم في وجهه باشراقة لن انساها طيلة عمري .

وفي الوسطاني مدت سفرة الاكل والتم حولها اهـل النفسا وبيت حماها .. وقشر الكرنب والبرتقال يتناثر هنا وهناك بين ارجل الداخـلات والخارجات بين البراني والجواني ، وقلبت الصـبايا طاسات الحمام ، وتألفت فجـأة فرقة موسيقية غنائية تبعث في الحمام جو المرح والطرب ترافقها الزغاريد المرحة التي تؤكد النصر :

اوها ولدت وقامت

اوها وعلى فراشها نامت

اوها الك الحمد يا ربي

اوها اللي ما شمت فينا شامت

لي لي لي ليش

وتبدأ احداهن الرقص على ايقاع النقر على ظهر الطاسات والتصفيق والضحكات العذبة تملأ الافواه وتثير فضول زبونات الحمام .

ولم يكد يبلغ عمر الصبي سنة ، حتى دق باب بيتنا ففتحته لاجد صبيا صغيرا يحمل « زبدية صيني » كبيرة مغطاة . تناولتها منه وقلت ما هذا ؟ قال:

— هدول من بيت فلان بسلمو عليكن وبقولولكن ان شا الله صحتين وهنا وعبال عند ولاد ولادكن .

فتحت امي الغطاء عن الزبدية فوجدت منظرا مبهجـا ، وابتسمت وقالت بفرح : يو يسلملي طلعو سنانو الله يخليلهن ياه . تعو يا ولاد كلو « سليقة » بالظاهر طلعو سنان « محمد سمير » . وهجمت مع اخواتي على صحن السليقة ، القمح المسلوق المزين بالسكر والرمان والجوز والفستق. وطارت الزبدية .

ومر يومان وسكبت امي للجماعة بنفس الزبدية من طبخة « الحبوب بالسكر » التي طبختها لنا وارسلتها لهم مع اخي الصغير . وهـــذه هي العادة عند سكان دمشق لايمكن ان يعود الصحن لاصحابه فارغا .

وحلاوة السليقة تحت « طعمة سناني » بدات افكر !! كم هي سعيدة مدينتي !! كم هي مرفهة ومدللة مدينتي .. الافراح لا تنتهي . اليس كذلك يا امي ..؟؟ سؤال كبير واكبر من سني !!؟

وتنهدت امي التي كانت تدق على البير لتخرج الماء وقالت لي وهي تاخذ سطل الماء لتسقي حوض الزريعة :

ـ ايه يا بنتي ... انتو شو شفتو . والله مرقت عالشـــام ايام سودا متل الفحمة وقديش يا حسرتي راحت شباب وعـــالم ايام الثورة بالشام وبالغوطة . والله كنا نشتهي لقمة الخبز وقضينا كتير من الحكم التركي وبحيـــاتي ما بنسى شلون علق جمـــال باشا السفاح الشهـــدا الثوار « بالمرجة » ، وصارت كل الناس تبكي عليهن بالدموع . لكان انتي محسبة انو كل ايامنا كانت عراس وزلاغيط وفرح واكل طيب !! من وقت وعينـــا عالدنية وصوت الرصاص بادانّنا !!

ومرت ايام ... وذهبت الى المدرسة ... وعلى طريقي الى المدرسة كنت ارى « السنغال الفرنساويين » المرعبين الذين جاءت بهم فرنسا الى دمشق ليقتلونا ... صفرطاسي في يد وشنطتي في يد .. التصق بالجدار امشي بعيدا عن عين السنغالي الذي « توصيني » امي منه .

وتمر ايام وايام ... ونزور بيت « العروس » التي لم تعد تبتسم ... لقد التحق زوجها بالثوار ضد فرنسا . انها تبكي وتصلي ليل نهار ان يعيـــد اليها زوجها صاحب بيتها ابو ولادها .. وان ينصرو على « عدوينو » . كل مهمتها الآن ان تتغطى « بالملاية السودا » وتمشي مع بنت حماها بـــين الحارات تخبي تحت ملايتها سلة الاكل لجوزهـــا الهربان ولرفقاتو الثوار ضد فرانسا . وتحت الاكل بالسلة القش كانت تهرب « الصلاح » وتمرق قدام الحارس الفرنساوي السنغالي من غير ما يشك فيها انو عما تهرب بواريد ورصاص ، وما كان يخطر على بالو انو النسوان عم تهرب الثوار من فوق الاساطيح ، وعما تهرب الاسلحة وتوصلها تحت الملايـــا وتحت صحون الطباخ روحو والتين لعند الثوار .

واحتفلت الشام « بالعرس الكبير » عام ١٩٤٥ .

واخذتني امي واخذت بقية اخواتي للعرس . الدعوة عـــامة لكل الشعب وحفلة العرس في ساحة « المرجة » .

المشاعل تنير دمشق كلها . « المعازيم » يركبون العربايات والسيارات الكبيرة والصغيرة واساطيح البلدية و « المنزل » والفنادق والارصفةواعمدة الكهرباء وحديقة المرجة وعامود الخط الحديدي الحجازي ودرابزين نهـر بردى وكل الممرات والمفارق المؤدية الى السنجقدار وزقاق رامي والسرايا والبحصة وسوق العتيق . وجبل قاسيون تاج من الماس يشع على راس العروس . والعروس السعيدة الباهرة اسمها « الشام » .

وامتد « عرس الحرية » في ساحة الشهداء الليل بطوله . الشام كلها كلها كانت معزومة على ليلية « الجلاء » التي احياها حتى الفجر جوق من المغاني والآلاتية لمع بينهم رفيق شكري وســلوى مدحت وسري طنبورجي وسلامة الاغواني ومـاري جبران وعدنان راضي وســعاد محمد ونجيب السراج وفتاة دمشق ومحمد محسن وتحسين جبري ومصطفى هـــلال وصبحي سعيد وفايز الاسطواني وتيسير عقيل وزكي محمد ومحمد النحاس ويحيى النحاس ومحي الدين الزعيم ومحمد العاقل .

وامتد عرس « الاستقلال » في سورية حتى الفجر .

• • •

اكيدنيا يا حلوة

كان ابي ولا يزال يناديني في بيتنا وامام الضيوف : يا حلوة !! ولم اكن حلوة ، والكلمة اكبر مني « كشروال » رجل على طفل .

كانت هذه الكلمة في طفولتي تغسل نفسي كزخات مطرة نيسان على زر ورد . انا الحلوة : وماذا عن جمال اختي الصغيرة الذي يؤكد انها الحلوة . كنت الزنجية في البيت وكانت الشقراء . وجدوني في كيس الفحم، كما يمزحون امام الضيوف ، ووجدوها في علبة اللبن .

لماذا « الحلوة » اذن . . !!

لانني كنت الصغيرة « الذكية » التي تتميز بذاكرة عجيبة تعرف مكان قبقاب الاب الضائع ومكان المقص المجهول ، والتي تملك قدرة خاصة على تغطية فوضى البيت باعادة الاشياء المفقودة الى يد الاب الصارم المرتب .

وكانت يد ابي تمتد الى يدي الصغيرة تلتقط المقص فتنهي هذه الحركة مني شبح مشكلة وزوبعة شجار ، وتؤكد انني البنت « الحلوة » في البيت. ويكافئني ابي : ما في منها هالحلوة !!

وهكذا استطاع ابي بتسميته وتدليله لي ، قلب مفاهيم الحلاوة في نفسي . فصدقت اني حلوة لذكائي وذاكرتي رغم اني اقل اخوتي واخواتي حلاوة ، وتحول اسمي في افواه اهل البيت وفي اذني ، الى صورة من صور الحلاوة تجسد في يوم من الايام بفاكهة من احلى واشهى فواكه الشام .

يذكرون في بيتنا هذه الحكاية الطريفة عني : كان ابي يحملني على يديه ويمر بي من سوق « العتيق » ، لا يتجاوز عمري السنتين . وينادي احد بائعي فاكهة المشمش الهندي « الاكيدنيا » على بضاعته المصفوفة بالسحارة بعناية : يا حلوة . . يا حلوة . . اكيدنيا يا حلوة . . !!

وتجيبه الطفلة :

— نعم . . . نعم . . . نعم . . .!!

البائع ينادي يا حلوة ... وانا اصرخ ... نعم ... ويضحك ابي الشاب ويشدني اليه ويحاول اسكاتي : اسكتي فضحتينا ..!! فالرجل لا يناديك ..

ولكنه يا ابي كان يناديني ...!!

وضمن حكايات ابي ونوادره وذكرياته الضاحكة تقفز هذه الحكاية عني .. وتذهب دهشة الضيوف وسط امواج الضحك .

وتضحك الصبية « في » الآن على « الطفلة الذاكرة » الصغيرة الذكية .. واشعر بان بيني وبين « الاكيدنيا » حكاية لطيفة منحتني مع الايام شعورا بالحلاوة والمرح تستحق عليه ان تكون عنوانا لهذه القطعة الحلوة التي اعتز بها ، فهي ليست من تأليفي .. انها من تأليف مدينتي الحبيبة .. الشام ..

وكلما نادى بائع الاكيدنيا : يا حلوة .. ابتسم . وكثيرا ما انزل الى سوق العتيق او الى سوق الهال امر بين الباعة والناس والعربات والحمير اسبح في بحر من نداءات باعة الشام . واستيقظ احيانا على مناداة احد الباعة على بضاعته وهو يسوق حماره وينتقل بها بين احياء دمشق الحديثة، فانسى انني هنا ، واتصور انني في بيتنا القديم في حارتنا القديمة هناك .

واشعر بالثورة تغلي في .. عندما اطل من الشرفة لانادي البائع وأسأله عن السعر فلا اجده !! انا متأكدة انه كان ينادي !! عندما وصلني نداؤه كان تحت بيتنا ولما مددت برأسي لاناديه ، كان قد بلغ آخر الشارع . ما الفائدة .. يا للخسارة .. انه يركب دراجة احتراما للقوانين التي تحرم مرور الحمير في الشوارع الانيقة !!

وفي مدينة دمشق الجديدة النموذجية .. في منطقة « الفيلات » في « المزة » ، ذهبت لارى مبهورة الانفاس الى الاناقة والثراء والجمال والهدوء. وبين « الفيلات » الساحرة الملونة التي تتعربش على جدرانها الملونة اغصان النباتات والورود وآيات الترف ، لفت نظري بناء ابيض كبير كبير فخم حوله حدائق غناء ، يقوم وسطها كباخرة ، يتمدد على الحشيش الاخضر كقط كبير ابيض مدلل على سجادة مخملية خضراء .

— ما هذا البناء ؟

— انه سوق كبيرة على الطراز الحديث لمنطقة الفيلات ، وطار عقلي.



الفنان الياس زيات ــ دمشق



تخيلت عندما ينتهي بناء السوق ، ويسكنه اصحاب البقاليات كيف يمكن ان تكون عملية الشراء الحديثة .

تحضر السيدة بنفسها، ومعها شنطة خضار من النايلون الملون المفرغ . تدخل من باب المبنى الفخم . هدوء مطبق . الهمس هو لغة الانسان الراقي . تأخذ السيدة بيدها عربة معدنية صغيرة فارغة لها عدة طبقات . تمر بين ممرات السوق . تختار ما هي بحاجة اليه من علب اللحم والخضار والفواكه والسمن والجبن والزبدة والصابون والقهوة والسكر والشاي والمربيات . الثقة مطلقة في هذا المكان الراقي . لا احد يسرق . لا احد « يفاصل » لا قطعة بندورة اكبر من قطعة،لا تفاحة ناضجة ولا تفاحة « معاينة » لا تنكة سمن ولا تنكة جبن ولا علبة قشطة ولا « قدرة لبن » ولا ضرف « اريشة ». على كل علبة سعر ثابت يوفر وقت المفاصلة بين الشارية « الانيقة » والبائع « الجنتلمان » . الآنسة التي تحصي القطع في نهاية المطاف وتكتب الفاتورة كالخرساء . الموظفة التي تتقن العزف على الآلة الحاسبة كالخرساء ايضا . « الكيس » الرجل الواقف وراء الصندوق يتناول الفاتورة بوجوم . لا حوار في هذا المكان . راحة تامة للجميع !!

هل نحن في دمشق ام في لندن ؟؟ هل نحن في الشام ام في موسكو ؟؟ هل نحن في « سوق الهال » ام في « سلفريدجز » ام في « جوم » ؟

اذن لن يمر الحمار تحت نافذتنا !! ولن نسمع صوت البائع لن نسمع صوت الماضي يمتد عبر الحاضر الى المستقبل . فنحن نقطع الدرب باسلاك مكهربة على ما صنعه الاموات .

لن يمر الحمار تحت نافذتنا .. ولن تمتد رؤوس النساء الملفحة بالاغطية البيضاء من الابواب والشبابيك « لتفاصل » البائع الذي ينادي على البندورة والبطاطا والبصل والفول .

لن يأتي البائع الينا . علينا ان نذهب اليه .

سينتهي البائع الجوال وسينتهي حماره الصابر تحت حمله الثقيل . وسينتهي حتى الحوار الممتع بين صوت امرأة تشتري وصوت رجل يبيع يفصل بينهما باب خشبي شبه مفتوح .

المرأة : بقديش بعت يا اخي ..؟

البائع : عالذمة بعشر قروش .

المرأة : يوه .. لا والله .. بقرشين !!

البائع : شو بقرشين يا اختي شو عما نبيعك فجل .

المرأة : يالله بيمشي الحال !!
البائع : لا والله الفرق كبير .. خدي من غيري اختي .. حاق حاق!
المرأة : ليش طبعك عسر .. اي نحنا زبوناتك !!
البائع : على عيني وراسي لو بتوفي خديهن بلا حقهن
المرأة : تسلم يا اخي .. بس ...
البائع : يا اختي بدنا نتسبب مشينا ..
المرأة : هلأ شو قلتلي ..!!
البائع : استغفر الله على هالنهار ... بسبعة يا أختي ..!!
المرأة : لأ ما اتفقنا .. ما بقى بدي (تحاول اغلاق الباب) .
البائع : آخر كلام بخمسة ..
المرأة : لا والله .. كتير بخمسة ...
البائع : اختي .. وينك .. باربعة .. والله برسمالو
المرأة : بتلاتة .. ان عجبك زنلي نص رطل .
البائع : والله ما بيوفي بهالسعر .
المرأة : هلأ زين وما منختلف .
البائع : شو حكينا باربعة !!
المرأة : بتلاتة ..!!
البائع : ما بيوفي الله وكيلك ...

وينهق الحمار بينما الرجل يضع في كفة الميزان زنة نصف رطل حديد، ويضع في الاخرى حبات البندورة ، ويحاول الرجل أن ينادي على « البندورة الحمرا الريانة » الا ان الحمار لا يريد ان يتوقف ، فيشتد غيظ البائع ويصرخ في الحمار :

— لك خراس .. هلأ يا انا عم نادي وبيع يا اما انت ..!! تفضل خود طربوشي واشتغل محلي ..!!

ويعود البائع للمراة الشامية :

— شو امرتي يا اختي ؟
— متل ما قلتلك .
— استعنت عليكي بالله . يا الله هاتي واعة .. استفتاحة مباركة .

وتمد يدها بالطنجرة ترن فيها ثلاثة قروش ، والرجل ينادي :

— بندورة ريانة .. حمرا وريانة هالبندورة .

ويمتد رأس امراة ثانية من نافذة مقابلة :

— بقديش بعت يا اخي ..!!؟؟

وابتسم للذكرى .. ويتنافس الباعة في راسي وتضـــج اصواتهم ونداءاتهم على بضائعهم ، واغوص في الكرسي الاسفنجي الاحمر«المودرن» واغمض عيني اتخيل نفسي جالسة على القاطع في ليوان بيتنا ، او علـى كرسي من الصدف في قاعة بيتنا الكبيرة الرطبـة ، استمع من بعيد الـى سيمفونية شعبية يشترك في تاليفها وتلحينها واداائها ابناء الشعب الطيبون من الباعة الفقراء في اسواق الشام وحاراتها وازقتها وانصت ، ويبدأ العزف ويبدأ الغناء :

العنب	:	— يا حينو ودعو .. ما بقي بهالكرم غير الحطب والورق ..
العنب الزيني	:	— زيني مدري برمقلي يا عنب ..
العنب الدوماني	:	— الزيني الماس والاحمر دباس ..
العنب الحلواني	:	— حلواني ديراني يا عنب ..
العنب الديراني	:	— ديراني مدري حلواني هالعنب..
العنب الاسود	:	— طلعوا العبيد علينا بالليل يـا اسود ..
العنب البلدي	:	— بلدي بيتنا هالعنب ..
التفـــاح	:	— نيرباني يا جناني ..
التفاح الاحمر	:	— يا مال ازمير ..
		— مال ازمير فتح باب البحر علينـا يا رايق كول وانعيش قلبك مـن هالتفاح ..
		— مدري كولـدن مدري سـتاركن هالتفاح ..
التفاح السكارجي	:	— بخر الشورة يا رايق ..
		— زبداني هالتفاح ..
التفاح السكري	:	— شغل الزبداني يا تفاح ..
الزعبوب	:	— من هالعجوة يا زعبوب تمر محنا يا زعبوب البزر بن يا زعبوب ..
حب الآس	:	— حبلاس كل ما حلي غلي طـاب اكلو ..

المــوز	:	ـ بابو المية الوقية يا موز .. ـ كول ابو نقطة ..
اليوسف افندي	:	ـ شغل طرابلس هـالافندي راس الملك .. ـ يا افندي أكل الوزر ..
البرتقــال	:	ـ القشرة ناعمة هاليافاوي .. ـ شغل عكا وصور هالبردقان .. ـ قشر مالو هاليافاوي ..
البرتقال المغربي	:	ـ سكري مغربي هالبردقان ..
برتقال ابو صرة	:	ـ ابو صرة هالبردقان ..
الكريفون	:	ـ كل حبة بابرة هالكريفون ..
الليمون الحامض	:	ـ بلدي بيتنا هالليمون ، انا حوشتو من عند بديعة خانم ..
الليمون الحلو	:	ـ ابيض هالليمون الحلو شـغل الجناين ..
الــدراق	:	ـ طاب يا غتمي هالدراقن نصـب الملوك ..
الدراق الزهري	:	ـ دشروا البقلاوة واجو علشانو طاب يا زهري ..
الاجــاص	:	ـ يا رايق هادا عتماني هالنجاص .. ـ يـا رايق هادا مسـتكاوي هالنجاص .. ـ يـا رايق ابو زبلـة مافي منو هالنجاص، كول وانعيش قلبك ..
السفرجل	:	ـ بلديـات ايمن أكل دعالي يـا سفرجل بلديات .. ـ بلديات الله يحييك ياللي اصـلك طيب داوي العليل .. ـ يا رايق لا بالاوان .. ـ يا رايق كول وانعيش قلبك مـن هالسفرجل .. ـ شغل الزبداني واشرفاني ..
المشمش الهندي	:	ـ اكيدنيا يا حلوة ..

« الاكيدنيا » — من عالي الدنيا هالاكيدنيا ..
— يا حلوة ليكة هي الاصـــلية يا حلوة ..

المشمش البلدي : — بكرة بطعميك فريكو يا بلدي ..
— ماورد يا بلدي كبب ..

المشمش الحموي : — حموي بيلبقلك الدلال ..
— ما بيلبقلك غير محـــارم الروز يا حموي ..

المشمش العجمي : — عجمي مال العجم ..

التوت الشامي : — روق دمك يا شامي ..
— بروق الـــدم وبيزول الهـم يا يا شامي ..

التـــين : — ابيض مـــن بياض الياسمـــين هالتين ..
— شغل مضـــايا يا تين لاكن بالاكل شهوة ..
— بعل يا تين عسل ياتين ..
— دق الحديد بيرجع يا تين شريحة..

الصـــبار : — هية مزاوية يا حلوة ..
— بـــاردة وعالنده شـغل المزة هالصبارة ..

الـــكرز : — شغل استنبول هالكرز ..
— مال حمانا هالكرز ..

القضب : — تعا مص مص هالقصب مص ..

الرمـــان : — يا ملاشة تعا ملشو حلوهالرمان يا ماوردي ..
— حلو هالرمان يا ماوردي للمفطوم دوا يا حلو ..

البطيخ الاحمر : — يا اخضر عالمكسر ..

البطيخ الاصفر : — عالحلاوة الشمام يا عسل ..

الكرمنتينـــا : — كرمنتينا عوامة ..
— يا كرمنتينا بلا بزر ..

جوز الهند :
— خدلك جوزة من هالهند ..
— عوض وحمل يا مال الهند ..

الجـــانرك :
— يا مال الربوة الجانرك ..
— والله ولا وحدة من الربوة يا مال الربوة ..

العوجـــة :
— هية هليون يا عوجة ..
— ما بتحمل سنانك ياعوجة قلبة خيار يا عوجة ..

العقابيـــة :
— مال الشام يا عقابية ..

التمـــر :
— بيداريا يا تمر مال بغداد ..

العجوة :
— مال المدينة العجوة يا تمر ..

الزبيب :
— اشلميش يا زبيب ..

الجـــوز :
— قلبو ابيض يا جوز ..

الكستنـــاء :
— يا مال الروم جديدة ..
— يا مال وارنا جديدة هالكستنا ..
— مو طيب المخ الا بالحمض لاوي ، جديدة هالكستنا ..

البنـــدورة :
— حمرا ريانة ..

الباذنجـــان :
— اسود بلدي يا ريان ..
— يا ريان يا هبر اسود ..

الفاصولياء :
— بلا نسر هالفاصولية ..
— بلودانية يا فاصولية ..
— عيشة خانم كول ويبس ..
— مالطية حرير ..
— هليون يا فاصولية هليون ..

الكوســا :
— موز يا كوسا ..
— تحت اليبرق يا كوسا ..
— للابلمة يا كوسا ..

الســبانخ :
— ادن الجدي يا سبانخ ..

البـــامية :
— كول ويبس يا عيار ..
— مال استنبول هالبامية ..

الملوخيـــة	:	ـ مقطوفة يا ملوخية طروات .. ـ للمونة هالملوخية ..
البطاطا	:	ـ هية للمونة يا بطاطا .. ـ مال زحلة يا بطاطا ..
البطاطا البيضاء	:	ـ يبرودية يا بطاطا ..
البطاطا السوداء	:	ـ هية كمي يا بطاطا ..
الفـــول	:	ـ العشرة بورقة يا فوالة ..
الفول النابت	:	ـ استوى وطلعت ايدو هالنابت.. ـ طلعت ايدو هالنابت يا شباب ..
اليخنـــى	:	ـ يخنى واطبخ والجارية بتنفخ ..
النعنـــع	:	ـ عازتو عازة بالبيت يا نعنع ..
اللفت	:	ـ يا كباس هاللفت.. ابيض وناهي يا لفت ..
الفليفلة	:	ـ للكبيس هية الفليفلة .. ـ خيار مكبس يا فليفلـــــة عبـــي القطرميز .. ـ حلوة وحدة يا فليفلة ..
الخبيزة	:	ـ خبيزة طرية .. خبيزة طرية ..
البـــابونج	:	ـ عالبابونج عالبابونج ..
الانكنـــار	:	ـ ارضي شوكي الانكنار ..
عكوب الجبل	:	ـ ابيض وبايض يا عكوب الجبل..
الــكماة	:	ـ سمرة بنت العرب ..
البراصـــيا	:	ـ عالبراصيا عالبراصيا ..
اليقطـــين	:	ـ هادا للمحشي اليقطين ..
البزاليا	:	ـ بزاليا جديدة وخضرا ..
الجـــزر	:	ـ يا حلاوتو دبس بقلبو .. ـ خيار الشتي مال القابون يـــــا حلاوتو ..
البصـــل	:	ـ يا عيار البصل مال الحتيتة .. ـ يا مال حزرمة البصل ..
الثـــوم	:	ـ ببلاش الردي يا توم .. ـ يبرودي يا توم كسواني ياتوم .. ـ ولا عازة الجارة يا توم ..
الفجـــل	:	ـ الفجل فجالة يا الله عليهن ..

الخيـــار :
- اصابيع بدرية يا خيار ..
- ما بليتو جاري بلو..طري وجديد هالخيار ..
- ازرق نيلي يا خيار جديد ..
- اصابيع البوبو يا خيار ..
- من كفر سوسة والعين محروسة يا خيار ..
- العتيق مرمر يا خيار ..

السلق :
- طري وجديد يا سلق ..

البقلـــة :
- كول ويبس البقلة طراوات ..

الزهرة :
- تبيلو تبيلو .. تبلو باللبن يـــا زهرة ..

القثـــاء :
- على ضو القمر مادة يا قتة ..
- يا قتة باردة .

الخس :
- الله الدايم .. يا مال اللوان يـــا خس العشرة الكبار ..

الطرخون :
- ابن الزنى يا خاين ..

الشوندر المسلوق :
- يا سليقة الشوندر ..
- بردان تعا صوبي ..
- يا بردان يالله دوا للسعلة ..
- طاب واستوى هالعسل ..
- **استوت العسلية يا وليد ..**

الحبوب المطبوخة :
- عســـــل بشهدو هــــالحبوب هالعسل ..

حورصنين :
- حورصنين يا نفع ..

شراب عرق السوس :
- هلأ عبينا وعالنبي صلينا .. تعا دوق هالعسل ..
- كركب روي كركب روي عالطويلة والقصيرة ..

الذرة المسلوقة :
- هية بيضـــا هالدرة يا وليد تـــازة وريانة ..

قضــــامة :
- قطرميزات مكسرة يا قضامة .. قشر رمان يا قضامة ..

مـــلابس :
- اواعي عتق للبيع ..

الجبن الابيض :
- عكاوي وافراوي هالجبن ياعيار ..

الجبن القشقوان	:	ـ مال ازمير يا قشقوان مـــدري بلغارية ..
الحليب	:	ـ حلييوهب .. حلييوهب ..
الحليب المطبوخ	:	ـ سحلب وحليب سخن ..
الزيتــون	:	ـ اسود هالزيتون.. مكلس الزيتون حبلاسي هالزيتون .. كول وزيت من هالزيتــون .. اخضر مفقش هالزيتون .. جلط الزيتــون .. استنبولي الزيتون ..
		ـ هادا للمونة الزيتون ..
الــزيت	:	ـ الزيت بلدي هالزيت ..
خبز رمضان	:	ـ بالسمنة والسكر يا معروك ..
		ـ بالسمنة والحليب يا معروك ..
		ـ هادا للصايمين يا صايم ..
		ـ معروك.. معروك.. معروك ..
كعك رمضان	:	ـ ياللي الهوا رماك يا ناعم ..
الكعك بالدبس	:	ـ يا كريم .. تمـــاري وكعك .. تماري وكعك ..
الحطب للمدافىء	:	ـ اوعى الحطب..اوعى الحطب..
المقشـــات	:	ـ بيتيـــات هالمقشات شـــغل كفرسوسة ..
الترمس	:	ـ ترمس .. ترمس .. ترمس ..
الحمص المسلوق	:	ـ بليلة .. بليلة .. بندق ..
السكاكر	:	ـ حلي سنونك يا ولد ..
البوشار	:	ـ عبيها للجيبة بوشار ..
البوظـــة	:	ـ على باكر يا شباب اكل البوظة على باكر الصيت النا وبطل شاكر ..
مصلح البوابير	:	ـ مصلح بابور الكاز ..

هل يمكن لهذا التراث الشعبي ان يموت ..!! لا والله لن يموت ، ولن تتوقف هذه السيمفونية عن العزف لانها سيمفونية اصـــيلة كأصالة شعبنا وبلدنا .

وسيظل الباعة في دمشق ينادون اكيدنيا يا حلوة ولو صعد الى الفضاء الرائد العربي السوري الاول ..!!

أبـــوبـــة

كنت أول طلعتي .. أهتم بالمظاهر .. يهمني ان نظهر امام النـــاس باكثر مما نحن . أعلق أهمية كبيرة على الاصل واعتز بكــل ما يثبت ماضي العائلة العريق ، واتمسك بشجرة العائلةوبأفرادها « الاغوات » السالفين، واتباهى بمراكز رجالها « البكوات » و « الافندية » الحاضرين ..!!

أبي .. دخل الحرب أكثر من مرة . حرب البلغار ، حرب شنق قلعة، حرب السفر برلك ، حرب الثورة العربية الاولى في الحجاز ، عمل كضابط في الجيش التركي في قمم الجبال التركية المغطاة بالثلج والصقيع ، وســـار على قدميه تسعين يوما في الرمال المحرقة في صحراء التيه ..

ولما انتهت الحروب ، وعـــاد أبي موظفا مدنيـــا ظللت اتمسك بفكرة نضاله العسكري والثوري واقول لمن يسألني : أبي كان ضابطا !!

وعمي رحمه الله ، يقولون لي انه كان ايضا ضابطا في اليمن وهـــذا أمر يدعو للفخر ايضا !!

وابن عمنا دكتور كبير يرفع الرأس ...!!

كنت رغم حالة اسرتي المالية المتواضعة جــدا ، أعيش ، كالعرب ، على أمجاد الاسرة الماضـــية وعلى التفاخر بالاوقاف التي وقفها الاجــداد للاحفاد ، وبالماضي المزدهر الغابر الذي كانت تباهي به العمات ، وبنات العمات ، وبنات خالة أبي من عجائز الاسرة امام الشبانوالصغار فيجلسات العائلة وسهراتها . بهذا الماضي كنت أكافح أمام الناس الغرباء ، الحاضر الذي لا يحمل الا اطـــلال « شجرة الاسرة » التي تبدأ باسم الآغـــا الجـــد الاول .

وأبي الشخصية الظريفة في الاسرة الكبيرة ، والذي يباهي بنفســـه وبابناء عمومته بين مزح وجد ، بانهم « بيت السبع وزر » ، قد خذلني أحد الايام أنا الطفلة الطالعة نحو المراهقة والشباب بحس مزدوج يختلط فيـــه الالم من الفقر ، بالعنفوان والشعور القوي بالانتماء الى اصل عريق .



الفنان وليد عزت ــ دمشق



كنا في سهرة في بيتنا ، وعندنا ضيوف غرباء من طبقة اعلى من طبقتنا واكثر جاها . كانت زيارتهم لنا مدعاة فخر وسرور . ولا ندري امي واخوتي وأنا الا وابي قد هرب من رقابة عيوننا وبدأ يتكلم ويتكلم ويحكي لهم بلهجته اللطيفة واسلوبه الشيق المرح حكاية خاصة جدا عن طفولته التعيسة ، هكذا مرة واحدة وبلا مبرر . وللمرة الاولى اسمع الحكاية مع الناس الغرباء وكأنني واحدة منهم والدهشة تلف صمتي .

ونظر كل منا في وجه الآخر بغيظ خفي ، امي واخوتي وانا ، واخذنا نطلق الضحكات المفتعلة امام الضيوف نشجع بها المواقف المضحكة في الحكاية المخزية ، ونحن في داخلنا نفور من شدة الخجل والغضب ، ونفرك ايدينا بعصبية ونغمز ابي تارة ، وننظر في وجهه بلهفة تارة اخرى نستجدي منه التفاتة الى عيوننا القلقة عله يفهم قصدنا ويغير الموضوع ..!! من قال ذلك ..!! والله لم يحس بنا ابدا ، او هو تعمد تجاهلنا . كان يتابع رواية الحكاية والضيوف يخيم عليهم الصمت المريب !!

قال لهم أبي بالحرف الواحد فجأة وبلا مقدمات وبلا مناسبة وبلا مبرر بلهجته العامية الشامية البسيطة :

« كنت صغير عمري شي ست سبع سنين . مات ابي وتجوزت امي . الي خالة كانت تحبنا كتير كانت كل يوم تجي تاخدني من عند امي للكتاب بالبلطجية عند باب الجابية . أي نعم . يوم من الايام هربت من الكتاب ولعبت مع ولاد الحارة بالصقاق طول النهار ووقتن سألتني امي ليش رجعت قلتلها صرفنا الشيخ . ما تاريلك الشيخ بعت ورا امي وسألها ليش ما اجا الولد اليوم على الكتاب !! بعتت امي خبر لخالتي وقالتلا لازم تاخديه لعند الشيخ حتى يطعميه « فلقة » .

اجت على بكرة خالتي اخدتني لعند الشيخ قالتلو هادا كان هربان ولازم تعملو فلقة ولازم تبيتو الليلة هون وتدهن ادانو بالدبس مشان تاكل أدانو الفيران . والمكتب كان متل مدرسة كبيرة وبطرفو في « ولي » . وأنا سمعت هالكلام قمت خفت . قلت الليلة بدي بات هون والفيران تاكل اداني؟ يا لطيف !! قعدت طول النهار فكر بالهريبة . اجا لبالي بال . قلت لحالي يا ولد قول للشيخ بدك تطلع لبرة . اجيت للشيخ قلتلو بدي روح عالدستور قال طيب : تعا يا ولد تعا يا محمد تعا يا أحمد ، تنين قدي بمرتين بعتهن حراس معي . قمت انا استحقيتها قلت بدو يبيتني صحيح . الخلاصةطلعت من الكتاب ووراي تنين طوال من ولاد الكتاب . قعدت قدام الحيط قرفصت مشان طير مي وقفوا واحد من هون وواحد من هون . انا عم فكر شلون

بدي اهرب منهن اجا لبالي بال اكمش كمشتين طراب ، بايدي هي كمشة وبايدي هي كمشة من قــدام الحيط . وفزيت بعجلــة ضربت بهادا بوشو الطرابات وبهادا بوشو الطرابات وانعمت عيونهن وما عادوا يشوفوني ، ويا ايدكم هربت . فكرت ان رحت عالبيت قدامي قتلة وبدي ارجع عالكتاب وكمان بدي بات بالكتاب وتاكل اداني الفيران . شو بدي اعمل فكرت في الي اخ بدوما باش شاويش رديف . قاللي عقلي هروب لعندو يا ولد . شمعت الخيط ودكيت صرمايتي وقلت يا ايدكم على طريق دوما .

وانا ماشي بهالطريق صح لي طنبرجي ولك وين رايح يا ولد !؟ قلتلو على دوما . قال أنا من دوما . قلتلو رايح لعند أخي وكلهن بيعرفوا أخي باش شاويش ، قال لكان طلاع معي لوصلك . ركبت معو بالطنبر حتــى وصلنا لدوما . وصلنا لدوما دوغري لبيت اخي دقيت الباب دقيت دقيت ما حدا رد ما شوف الا الجارة طلعت قال شو بتريد يا ولد قلتلها بيت اخي هون ، قال أخوك نزل عالشام مو هون عشية بيجي . دشرت وصرت دور بسوق دوما وانا ميت من جوعي ولد جوعان وصارت الدنية بعد الضهر أي لوين بدي روح بدي اشحد عيب ما بصير صرت دور بصقاقات دوما . لقيت باب مفتوح وواحدة مرا قاعدة ورا التنور متل « الفداوي » قاعدة عم ترق هالخبز بهالتنور وريحتو طالعة تازة . لك شو بدى قلها شحديني عيب !! مشيت لقدام شوية رديت من جوعي وريحة الخبز رجعت . رجعت وقفت علباب وانا مخجول شلون بدي قلها شحديني بعدين من جوعي يعني بــكل خضوع قلتلها خالتي يا خالتي عطيني شقفة خبزة . ما تاريلك هالملعونــة واحدة زعرة دوما وفزت حملت محراك التنور ولحقتني يــا ملعون يا كافر هربان من البلد وجاية تشحد عنا لحقتني تقتلني قمت أنا ركدت لآخر الصقاق ما حصلتني . ورجعت وهي عم تسبني وتبهدلني . انا من جوعي وريحــة الخبز وقفت متل القطاط من بعيد عما اتناوق على هداك الباب واذ ما شفت الا هالمرا طلعت وفاتت لتاني بيت مشقيتها . انا شفتها اغتنمت الفرصــة وركدت متل الطير ودوغري علــى بيت التنور . تطلعت لقيت دستة خبز وعكمت عشر خمستاعشر رغيف وحطيتهن تحت باطي واجيت بدي اطلع قمت سمعت زقزقة باب تاريها طلعت من هداك البيت وجاي على بيتها. انا من خوفي ما عدت اقدر اطلع خفت تكمشني . ما دوبي الا اهرب للمربــع ياللي بصدر البيت اي وين بدي روح ! تطلعت لقيت بالمربع كندوش ومشقيتو كتبية . كندوش كبير خشب قريب للسقف تبع قمح . تعربشت علكتبيــة وفتحت باب الكندوش من فوق ولقيت فيــه قيمة نصو قمح لحشت حالي فوقو وكنيت . هديك فاتت لقت الخبزات ناقصين عشر خمستاعشر رغيف: والله لالعن ابوه والله لادبحو . صارت تسب وتبهدل وحملت محراك التنور

وطبقت الباب قفلتو ولحقتني بصقاق دوما فكرهـــا انها تكمشني وتضربني تكسرني وهي عم تسب وتبهدل وتقول سرق الخبزات هالحرامي . أنا كنيت وسط الكندوش سمعان لاكن مالي غضران اتنفس .

انا ما عدت سألت عن عياطها من جوعي بديت آكل خبز . هي فاتت علبيت : والله ما شوفو لادبحو !! النتيجـــة خلصت الخبز وطبقت البـــاب وفاتت علمربع بس مو فهمانة انو انا وسط الكندوش . في بخش صـــغير بالكندوش انـــا عم اتناوق عليهـــا منو . شلحت ولبست روب مبقع احمر ومعطتوشها بالحمرة وتغندرت وتكحلت وانصمدت على هالطراحة.صارت الدنية العشي وانا قاعد وكانن وهديك قعدة .

واذ الباب يطرق ، فزت فتحت الباب وصارت تأهـــل وتسهـــل .. أهلين وسهلين .. اهلين وسهلين .. وصل للمربع ، طول سجرة وشوارب تخان أعوذ بالله بخوف ، قلت هادا جوزا الظاهر . ما شوف الا طالـــع من جيبة شروالو قنينة عرق من هون وقنينة من هون. طالعهن وحطهن بالارض فزت وضبت صفرة وحطت مخلل وزيتون وقضامة وبزر ، صفرة مازة ، بدو يسكر الزلمة . قعد يشرب وضلوا قاعدين بيطلع ساعتين وهنه عما يتغمو على بعضهن وهوة عما يسكر قام دق الباب .فزت بجعزة قالتلو اجا جوزي. هداك التاش : وين بدي روح ؟ قالتلو مالك الا تطلع على هالكتبية وتنزل بهالكندوش . انا لما سمعت تخرطت المصارين تبعي ورحت قعدت بقرنـــة الكندوش متل حكاية اذا كنت قطة والخبزات تحتباطي عابطهنما دشرتهن، هداك طلع تعربش على الكتبية وبووو ... نزلك على هالكندوش . هداك لمن شافني ما بقى يعرف هوه أنا عفريت جني مينو أنا شو جابني للكندوش ! والرخر استلم قرنة من الكندوش وقعـــد يطلع فيي وأنا عما طلع فيه نحنا التنين خايفين من بعضنا وخايفين نحكي .

هديك لملمت الغراض قوام ولملمت الصفرة ولبســـت اواعي البيت وراحت فتحت الباب . هداك قاللها ولك ليش لهالق لفتحتي ! قالتلو كنت نايمة عالطوطاية عم بستناك نعست نمت .

الخلاصة هداك الرخر قعد طالع قنينة من جيبتو وقعد يشرب التاني حطتلو صفرة بس هديك وشها مقلوب خايفة ، ونحنا بالكندوش مخرطة مصارينا لانو جوزها مصلح ومعو بـــارودة وعلى جنبو فرد وخنجر الرخر شقي الضيعة ملعون .

الخلاصة وهوة عم يشرب ما بعرف انا صدف معي شرقتوبدياسعل .. هه .. اعمل هيك اني اغضر ضبط حالي عبث . سعلت . انا سعلت

من هون وهداك فز على حيلو وقاللها ولك مين في هون ؟ هديك ما غضرت تعطي جواب . . هادا طويل حط ايدو براس الكندوش وسحبو وقلبو على الارض وانو ينزل القمح كلو . انا صار القمح عند رقبتي . هداك فز على حيلو قاللو ولك شو عم تعمل هون يا ترس ! آه يــا بنت الكلب . وقاللوا امشي قدامي لشوف . قفل المربع وقفل باب الصقاقواخدو وراح ما منعرف لوين . غاب بيطلع ربع ساعة ورجع فتح وفات قاللها يا بنت الكلب لكــان بغيبتي عم تدبري زبونات مو هيك ! اجا لعندي سحب الخنجر قاللي يــا بتحكيلي شو جابك وشو جاب هالزلمة لهون ومنين اجيتو انتو التنين يا اما بدبحك وسحب الخنجر علي وبيطلع طول الخنجر نص ضراع اعوذ بالله . انا من خوفي ومن شوفتي للزلمة وكنت لما اسمع بالسكران بنص الطريق وانا ببيتنا نايم بالفرشة كنت خبي وشي . وانــــا من رعبتي صرت ولول بالمقلوب وانا عم اصرخ بالمقلوب والسكران وبايدو الخنجر فوق راسي ، ما شوف الا امي عم تقوللي باسم الله حولك وحواليك يــا ابني . تاري كل هالشغلة صارت معي بالمنام . فزيت لقيت حالي بالفرشة » .

وانفجر الضيوف بالضحك للمفاجــأة اللطيفة ، وضحكنا وتنفسنــا الصعداء . لقد كانت النهاية تبرئة لماضي ابي . ويضيف ابي بعد انيستيقظ من ضحكاته التي تصل به الى حد الاغماء لانه ورط الناس بحكاية لا اصل لها مدة ساعة من الزمان :

يقول ابي :

— هذه الحكاية حفظتها وانا طفل صغير في العاشرة من عمري عن الحكواتي الشهير الظريف « ابو علي انبوبة » وكان يروي حكاياته المضحكة في قهوة « مصلبة العمارة » من سبعين سنة ، وكان في الاربعين من عمره .

قصصه كلها كذب في كذب ، وكلها عن ظهر قلبه ، يدخل من قصــة ويخرج من قصة .

وابو علي الحكواتي رجل مضحك بدرجة متناهية . قصير من الرجال وله ذقن . وعندما يصعد الى تخته العالي في « القهوة » ويلتم حوله الناس بعد العشاء ، كان يبدأ حكاياته المضحكة وينط ويحرك يديه ، و« المصاطب » في « القهوة » مشكوكة بالناس شك على الداير الداير . واللي واقفين اكثر من القاعدين على الكراسي القش « الواطية » المصفوفة . ولا ابالغ اذا قلت انو اكثر من ميتين شخص كانوا يسمعوا الحــكواتي كل ليلة على ضو الكازات « نمرو ٤٠ » .

كان ابي يحكي حكاياته اللطيفة ويغرق في ضحكة حقيقية تصل به حتى درجة الدموع والشهيق ، ولا اشك بانها لا تنفصل عن ضحكته الاولى لدى سماعه الحكاية الطريفة الاولى عن الحكواتي انبوبة لاول مرة في حياته .

كم يحب الانسان الماضي ويحن اليه فيشده معه أينما سار على ارضية الزمن فيلغي بتمسكه بالذكرى ، حقيقة مرة كبيرة اسمها « الشيخوخة » .

يقول أبي :

— اضحكوا .. فرحوا قلوبكم يا اولادي بالضحك فهو سر العمر الطويل الرضي . لا تكربوا حالكم بالهم .. فالهم كالدرج العالي منشار العمر ..

● ● ●

يرحم أهل أول

منذ عشرين سنة . . .

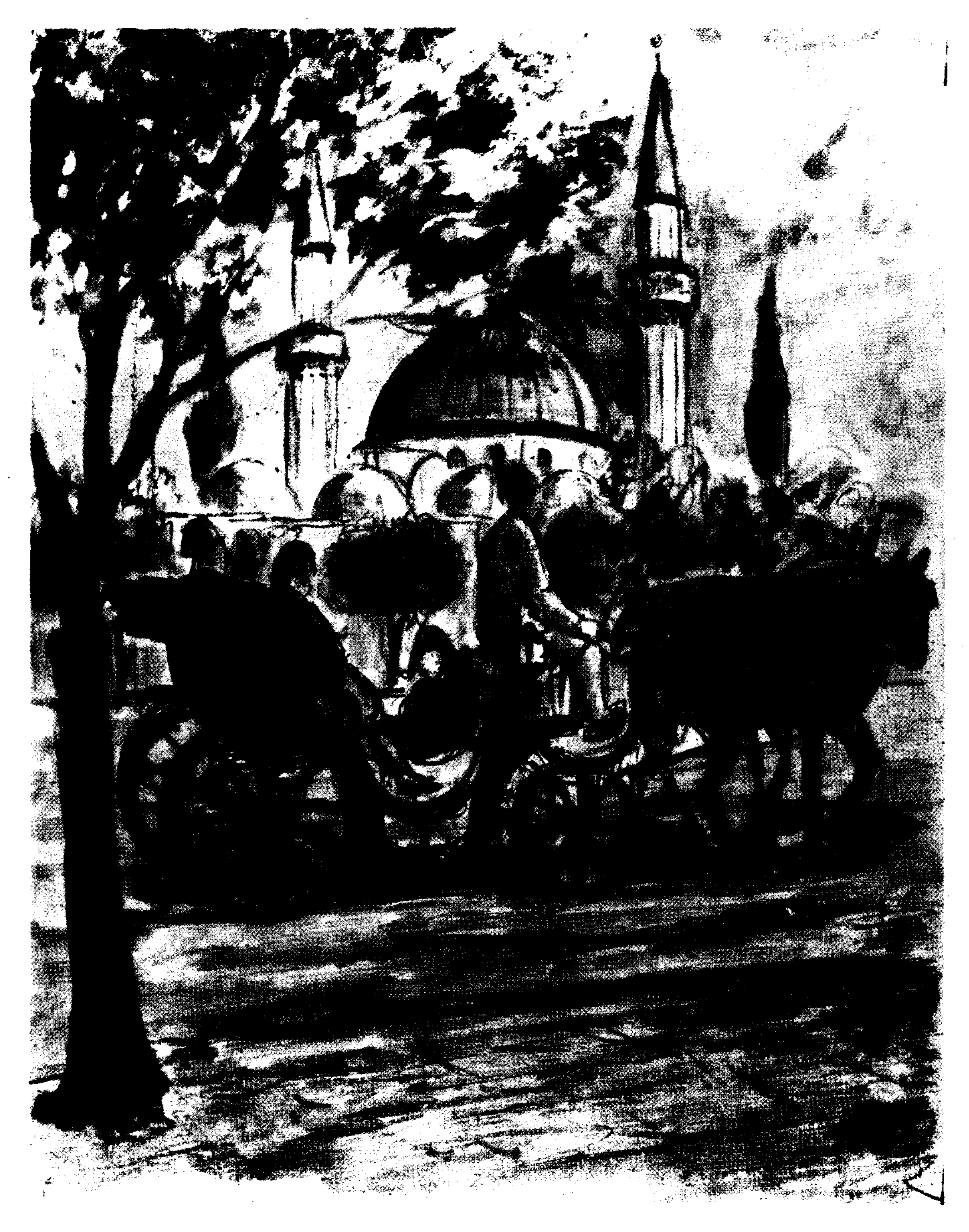
كان المطر يهطل فوق دمشق بغزارة والمزاريب تبلل ثياب المارة وتهدر في الحارات « نازلة » من جدران البيوت وسطوحها بلا وعي .

لتنزل المطر . لا فائدة السهرة عندنا ولن يتخلف احد . ابي قد اشترى كل شيء ، الكنافة والقشدة والقطايف من « باب الجابية » ، والفواكه والموالح من سوق « العتيق » وسوق « علي باشا »، وامي مشغولة باعداد صينية الكنافة « المدلوقة » بالقشدة ، تفرك خصل الكنافة بالسمن الحموي على النار ، وابي يؤدي وظيفته بصف القطايف « العصافيري » في جاط كبير ودهنها بالقشطة « الايمع عرب » ، وتعليقاته المرحة لا تكاد تنتهي وتصل بامي حتى الضجر الحقيقي ، وطوال فترة التحضير لم تنزل من فمه عبارات الادعاء بالشطارة والمهارة والتفوق على امي : انا حضرت كل شيء . . لم يبق عليك الا ان تغلي « القطر » للعصافيري !!

على المدفأة « الحطب » كانت تحمر صينية الكنافة البصمة وتشوى عند باب المدفأة وعلى « الصفوة » الساخنة حبات الكستناء وعلى طرف « المنقل » النحاسي وبين الجمر الاحمر والرماد الحار تستكين « ركوة » القهوة ، وعند طرف الغرفة وعلى « الكتبية » تصطف بعناية صحون البرتقال واليوسف افندي والبزر والقضامة واللوز والبندق وفستق العبيد والفستق الحلبي والزبيب والجوز والتين اليابس .

ليست وليمة كما يبدو . . انها مآكل خفيفة لتسلية السهرة والساهرين في ليلة « جمعة » ممطرة باردة طويلة من شتاء الشام . ونحن الاطفال في سرور غامض ، نخدم تحت أيدي أمنا وأبينا بلا ملل ولا كسل ، فالسهرة الليلة عندنا وسوف نلعب حتى نشبع مع رفاقنا ورفيقاتنا من بنات واولاد عماتنا واعمامنا القادمين مع اهلهم حتما . لا طفل يبقى في البيت حتى الرضيع يحضر السهرة .

منذ عشرين سنة اخترق أبي التقاليد ، وعود العائلة كلها بمرحه ومنطقه العملي في الحياة وذهنه المتفتح ، ان تكون اللقاءات والسهرات



الفنان خالد معاذ ــ دمشق

والزيارات والسيارين في الغوطة وفي بساتين دمر وعلى ضفاف بردى . لقاءات مختلطة ، النساء مع الرجال مع الاطفال . وممنوع بامر ابي جلسة النساء وحدهن والرجال وحدهم بين الاقرباء . « الاستقبال » استقبال النسوان الشهري ممنوع بين النساء و « المقهى » ممنوع بين الرجال . وكل منهم كان يقتنع ويطيع وينفذ ويسمح لزوجته ان تظهر سافرة في السهرة . اما في الطريق فلا بد ان « ترخي » على وجهها المنديل الاسود طاقين .

ومع انني كنت صغيرة .. لا زلت اذكر بالتفاصيل الصغيرة مصيف العائلة في « دمر » كل سنة واكثر من اربعين خمسين « نفس » يستأجرون بيوت الفلاحين في دمر ويقضون الصيفية بين حور وصفصاف نهر بردى يمرحون بين البساتين المثمرة بالرمان والجوز وتختلط اصوات ضحكاتهم السعيدة برائحة شوي اللحم وقلي « الزنكل » وطبخ الرز بالفول ودق الكبة النية وصنع السلطة والتبولة ونغم العود وقرقعة زهر الطاولة وكركبة الاركيلة وصياح الاولاد وهم يسبحون في مياه بردى وضحكات النسوة وشماتة الصبايا بالمغلوبين في لعبة « البرجيس » على البسط المفروشة على الارض الترابية الرطبة التي يتراكض فيها النمل ، وتتسلق اشجارها مرة حرباية ومرة حردون ومرة قطة . ووسط هذا الجو اللطيف يكاد طفل جميل اشقر ازرق العينين ان يغرق ولا ينقذه الا صراخ ابن خاله الجميل الصغير الاشقر الذي ولد معه في سنة واحدة ، ويحملونه من النهر ، ثم يتغير الموقف المرعب الذي هز الاسرة ، ولا بد ان يأكل الطفل « قتلة » قوية بسبب عصيان الاوامر والسباحة في مكان « غميق » من النهر . وتعود النسوة والرجال الى دق طاولة جديد على « شرط » جديد ، وبكاء الطفل شبه الغريق ما يزال يتعالى ، وطفلة جميلة في مثل عمره بيضاء بشعر خرنوبي وعينين بنيتين تضحك قرب الشجرة شماتة بابن ابن عمتها ، فلماذا لم يأخذوها معهم لتسبح في نهر بردى !؟ ولماذا لايسمح بالسباحة الا للصبيان فقط !! ويزداد بكاء الطفل !! وتصرخ امه :

« والله اذا بدك تضل عم تبكي لحتى قوم كسرك !! »

ويرمي ابوه الظريف المرح الزهر بكل هدوء ويقول لزوجته «برطابة»:

ـــ طولي بالك يا مرا .. ولد صغير .. شو جبنا .. دوشيش ..!!

ويركض طفل عفريت نحو اهله هربا من البستاني ابو احمد الذي يلحقه ويحاول الامساك به ليضربه بقضيب رمان لانه يسرق « القرعون » ويخبص « بالفصة » ويضرب الخاروف بالحجار ، ويركب حمار البستاني بلا اذن ويصعد به نحو سكة قطار الزبداني ...!!

ومجموعة من الصبيان يقفزون فوق السياج وينطون فوق « الدك » بشكل سري لركوب مراجيح قهوة « قصر شمعايا » بلا مقابل .

وشاب يلحق بصبية يخيفها بحية يكمشها من رأسها بعد ان وجدها في جبل « دمر » تكاد خواصره تطق من الضحك عليها وهي تهرب مذعورة كالفـــأر ..

وتصل « عربايات » جديدة للبستان تحمل زوارا من الاهل معزومين على « الرز بالفول » والسلطة باللبن والكبة النية ، من الشام ، لتنـــاول الغداء في دمر عند عائلتنا الكبيرة . وام تحلف من بعيد على ابنتها الصغيرة الف يمين والف عظيم اذا بتحاكي الصبيان حتى تساويها « شقفتين » !! وبعض الصبايا « يخوضن » بالنهر ويغسلن ارجلهن البضة الجميلة بالمياه الباردة العذبة ، وتصرخ احدى الفتيات :

« راحت البطيخة .. راحت البطيخـــة ... الحقوهـــا يااولاد .. لاقولها يا اولاد ... »

ويكاد البطيخ الاحمر والعنب البلدي ان يتثلج في مياه النهر انتظارا واستعدادا للغداء ، ويسترق شاب نظرة الى حبيبة قلبه ويخفي حبـــه بالضلوع خوفا من امها وابيها . وانا هل كنت العب .. أم انتظر الطعام.. أم اسجل هذه اللوحات الرائعة للمستقبل .. لست ادري ..!!

ورغم صغري .. ما زلت اذكر سهرة من السهرات الشتوية اللطيفة التي لن تتكرر ، وتبتل عيني بالدمع اسفا عليها وعلى ما مضى من ايام الخير والبساطة والفرح والطمأنينة .

دق باب بيتنا .. ونحن في الطابق الثاني . وركضت تحت المطر الى « المشرقة » وامسكت بطرف الحبل المربوط « بدرابزين » المشرقة وشددته ففتح الباب ودخل الضيوف الى الديار المبلولة ، واستقبلتهم من فوق عبارات الترحيب من امي : يو ميت اهلا وميت سهلا ميت اهلا وميت سهلا، اتفضلوا اطلعوا لفوق .

وصف الضيوف « الشماسي » في « الليوان » الصيفي الذي نستعمله في الشتاء لصف « الحطب » ، وصعدوا الدرج الحجري المكشوف الينـــا والكلمات تتناثر بينهم وبين امي وابي « على هالليلة شو مطرة يخزي العين » على طول الطريق بين الديار والدرج والمشرقة والداور . خلعوا احذيتهم في «الداور» لانها كانت ملوثة بالطين ودخلوا على السجادة بجواربهم . ولست

ادري الآن كيف كانت « الفرنكة » تلك الغرفة المتواضعة في بيتنا تستوعب هؤلاء الساهرين كلهم !!

وبدات السهرة ، بعد تبادل قبل المجاملة بين النساء وعبارات الاطمئنان عن الصحة والاحوال ، بلعبة « البرجيس » على ارض السجادة والكل فريقان ، احدهما ضد الآخر . كل فريق « يزرك » للفريق العدو بعبارات الشماتة وتثبيط الهمة والشعور بالتفوق . ويتعالى الصراخ عندما ترمي احداهن « الودع » فتأتي « بدست » و « دستين وتلاتة » وعندما تستعد لترمي الدست الرابع تبدأ المشاغبات من الفريق الآخر بكلمة : « دودو . . . دودو . . . دودو . . . » ولكنها تأتي « ببنج » وفريقها يكاد ينط من الفرح ، بينما يسقط الفريق الخاسر في هوة اليأس .

وقد يكون الشرط « سهرة » او « سيران » ولا بد من تنفيذ الشرط . ثم يقترحون لعبة « السلطة » وهي لعبة عائلية مرحة . ويأخذ كل منهم اسما : انا البندورة . وانا البقدونس ، وانا الزيت . وانا البصل . وانا التوم . وانا النعنع . وانا الليمون . وانا الملح . وانا الخيار ، وانا الخس.

وتبدأ اللعبة يبدأها أحدهم : نريد ان نصنع سلطة لكن بندورة « في» زيت « مافي » . وبسرعة يرد الزيت : زيت « في » ملح « مافي » . ويرد الملح : ملح « في » ليمون « مافي » وينسى « الليمون » نفسه ، ويخرج « الليمون » من اللعبة ويقدم للمشرف على اللعبة قطعة تخصه ساعة او خاتما او علبة دخان او سوارا او فردة حلق . ويتحول الرابح الاخير في اللعبة الذي لا ينسى اسمه الى حاكم يأمر فيطاع . ويسأله حامل اشياء الساهرين وهو يمسك بقطعة من القطع بيده في الخفاء تحت منديل : بماذا تأمر صاحب هذا « الغرض » ؟ ويأمره ان يتحول الى « مكتبة » فورا . ويضج الساهرون بالضحك . وعلى يديه وركبتيه يمشي المحكوم حتى منتصف الغرفة ، ويتقدم منه اثنان من « السهيرة » المرحين ويبدأ كل منهما بمحاسبة الآخر على ظهر المكتبة ، ظهر الرجل الذي تحول الى مكتب . وينفتح بينهما حساب تجاري عقيم ، ويرتفع الجدال الى شجار ويحتدم الخلاف ويخبط احدهما بشدة على المكتب محتجا ، فيثور الآخر ويجيبه بضربات اشد ، والمكتب المسكين يتحمل هذا الحساب بصبر نافد مضحك .

ولن انسى كيف تحولت احداهن الى علاقة ملابس واحذية ، وكيف حكت ثانية حكاية مضحكة ، وآخر كان عليه ان يرقص ، وثالثة عليها ان تغني ولو كان صوتها بشعا . ويصيح احدهم « متألسا » عليها :

« يا عيني صوتها مذكور بالقرآن » . ورابع عليه ان يؤذن كالديك ، وخامس عليه ان يقلد الدجاجة ويبيض عشرين بيضة . . كاك كاك كاك !!

وتستوي الكنافة والدجاجة ما زالت تبيض وتبعث الدموع الى العيون من شدة الضحك ، وتمد سفرة « الضيافة » وتمتد السهرة وتأخذ لعبة « جمل ماشي علمماشي اجيت لكشو خطف شاشي » دورها بين الصبايا والشبان . ويلعب الرجال دق طاولة زهر ، ثم تمسك احدى النساء « العود » وترفع عجوز « الدبكة » الى حضنها وترتدي صبية « الفقيشات » باصابعها وتهتز النفوس طربا على « رقصة ستي » والتصفيق الايقاعي يزيد من حلاوة الرقصة . وينتهي الرقص وتغني صبية كالبلبل اغنية « يا مال الشام » فيسيل الطرب في العروق كالشهد وتلمع عيون الشبان وتحمر على الصبية ..

وتحلو السهرة ويحلو السمر ... والمطرة نازلة بشدة واحدى العجائز تقول والمسبحة في يدها :

— الله يبعت الخير .

— الله يعيننا عالرجعة يا عمتي ...

ويأبى احد الشبان الخبثاء الا ان يفتح سيرة « القائمة » متسائلا عن آخر الاخبار ؟!

وللعائلة الكبيرة « قائمة » تصف فيها اسماء الاكبر سنا فالاصغر . والاكبر هو الاقرب والمرشح عن جدارة للرحيل « للباب الصغير » !! يعني للآخرة !!

ولكن الاخبار الاخيرة تؤكد ان تعديلا جذريا يجب ان يجري على القائمة . فالمسن العجوز الاطرش « ابو خليل » المشهور بنزول جواربه على « الصباط » ، لا زال حيا يرزق رغم التسعين وقد سبقه لباب الصغير ابو عبدو مع انه في سن اولاده .

وهنا يقفز « ابو رفيق » الشايب ويرجوهم بحرارة يختلط فيها المزح بالجد ان يطمنوه عن دوره في القائمة . ويتلاعب الشبان « بالنتيجة » ، وتبدو على وجه « ابو رفيق » علامات الخوف والذعر ويقهقه الشبان وتنثني الصبايا من « كتر » الضحك . فابو رفيق رجل يخاف الموت ويتمسك بالحياة كتمسكه بوليمة عامرة بالماكل الشامية الشهية .

وفي كل سهرة يزورون بدوره في القائمة ليرصدوا حركات وجهه ومخاوفه من « الموت » .

ويضحك الكبار : ابو عدنان وام عدنان وابو صلاح وام انور وام فؤاد وابو محمود وابو حسن وام حسن ... ولكن ابو رفيق لا يضحك !!

ويدق الباب .. في الليل وتحت المطر .. « شحادة » تطلب حسنة ، وينزل احدهم ويعطيها ما فيه النصيب ويغلق الباب ، ويعود بسرعة الى السهرة الدافئة . ويدق الباب ثانيـــة .. وتعود الشـــحادة تطلب حسنة لاطفالها الايتام ، ويعودون لاعطائها من طعام السهرة ، ولكنها للمرة الثالثة تدق « سقاطة » الباب بشدة وبعنف والحاح . وهنا تحدث مشادة بـــين الشحادة اللحوح المحجبة بالاسود وبين احد اولاد عمتي الذي نزل اكثر من مرة تحت المطر من اجلها ، .. واصحاب البيت وضيوف البيت ينتظرون ، ثم تحدث المفاجأة .. وترفع الشحادة عن وجهها الحجاب البالي الاسود وتدفع الباب وتدخل مقهقهة ضاحكة وسط دهشة الجميع . لقد كانت فطمة ابنة ابنة خالة ابي .. انها دائما الصبية الذكية الحلوة المرحة بأساليبهـــا المبتكرة في كل سهرة ، ويلتهب الضحك .. ودخان مدفأة السهرة يعبيء المشرقة وينطلق من بوري « الصوبا » ناشرا رائحة حطب مبلول يشتعل ، وتمتد السهرة الناجحة تتحدى مزاريب المطر ، والعتمة الموحشة في حارات الشام الضيقة على طريق العودة واقدام الصغار النيام تنجر على الارض الحجرية الموحلة جرا .

وكثيرا ما يتوسط الحلقة في سهراتنا احد الكبار المتقدمين في السن والقدر ويمسك بيده « المعرقة » ويعلن رغبته بفتح باب الامثال . وكل من تخونه الذاكرة ويتأخر بذكر مثل من الامثال الشعبية الشامية سيأكل ضربة قوية بالمعرقة التي لا ترحم .

ويبدأ عادة كما يلي :

يقول : متل ساير

يجيبه آخر : ما متلك ..؟

يقول : بيضة اليوم ولا جاجة بكرا .

يبدأ بنفسه ثم ينتقل الدور الى افراد الحلقـــة في السهرة ، كل يلقي بمثله بسرعة تحميه من عقاب المعرقة . وكنت الاحظ ان الامثال الشـــامية الدقيقة التي تخص حياة المراة والحياة الاجتماعيـــة كانت من اختصـــاص الجدات ، وان حفظها وروايتها في مكانها المناسب في الحديث فن تتقنـــه المراة الشامية اتقانا معجزا .

وبين نساء السهرة تبدأ ام انور بمثل يعتبر من احلى وادق الامثال الشامية العامية :

● رايحين جايين مفاتيح القاعة ضايعين .

- هين فلوسك ولا تهين نفوسك .
- قال يامآمنة بالرجال مثل المية بالغربال .
- لو شاف الجمل حدبتو لوقع انقصفت رقبتو .
- على خشتو راقع بشتو زبال وشاكل وردة .
- عرج الجمل من شفتو .
- كوم حجار ولا هالجار .
- قاللو شو فوتك لبيت عدوك ؟ قاللو محبي جواتو .
- يا افتحو وافتخر يا اطبقو وانستر .
- بيت كبير وحيطانو حمر وجواتو شي بيقصف العمر .
- سكر بابك وآمن جارك .
- عينو بالطبق وادنو لمين زعق .
- الحبل دلال والطلق غية والترباية يا بلوة البلية .
- قرعة يمشطين وعمية بمكحلتين .
- خليه بالقلب يجرح ولا يطلع لبره ويفضح .
- طرشة علباب تتسمع .
- يا مستعجل وقف لقلك .
- ساعة الك وساعة لربك .
- اذا بدك تحيرو خيرو .
- اذا بدك تحرمو اسألو .
- قرعة تحفف مجنونة .
- شجرة بداري بتحل الي والا لجاري .
- الدبانة مو نسه بتغلط منافس .
- لا تركب حمارة وصاحبها بالحارة .
- ان شفت الاعمى طبو مالك اكرم من ربو .
- حامل السلم بالعرض .
- اجا للعميان صبي قلعو عيونو باللحمسة .
- من بعد الام حفير وطم .
- راح المبتئط لعند المبتلي يطلب دوا للعافية .
- بدعي على ولدي وببغض اللي بقول آمين .
- كل طلقة براحة .
- القلة بتحمل الآغا سلة .
- حيل مفلس على مفلس ترى العجب .
- الحي مطموع فيه .
- قاللو يا فرعون مين فرعنك ؟ قاللوا ما في حدا يردني .



الفنان لؤي كيالي ـ حلب

- ما بعد الصبر الا المجرفة والقبر .
- طلعت الحشيشة على راس لساني .
- القمح اللي مو الك لا تحضر كيلو بتتغبر دقنك وبتتعب بشيلو .
- متل سيران الكلاب غبرة وقلة واجب .
- كل قمحة مسوسة الها كيال اعور .
- الف قولة جبان ولا قولة الله يرحمو .
- رضينا بالبين والبين ما رضي فينا .
- قاللهن الكلب الف قولة هشت ولا قولة ناولو .
- مين خلف ما مات .
- انت امير وانا امير ومين بدو يسوق الحمير .
- لاقيلي ولا تطعميني .
- طبعك ردي غالب ودنب الكلب اعوج لو حطيتو بميت قالب .
- اللي بينشرى ما بينشهى .
- هاللي بدك تخدمو طيعو وهاللي بدك ترهنو بيعو .
- وردة بتخلف شوكة .
- الموت مع الناس رحمة .
- الضحك من غير سبب من قلة الادب .
- الحية اذا جاعت بتعض بطنها .
- الكلام بينداق متل الطعام .
- اللي بيدق الباب بيسمع الجواب .
- البطن ما بيحمل منيتين .
- قلبن حب ما بغض .
- كون ديب ما بتاكلك الدياب .
- البدوي أخد تارو بعد اربعين سنة .
- اذا احتجت للكلب قوللو ياحاج كلب .
- قبل ما تقلها كش اضربها كسير رجلها .
- ما بين السابق والمسبوق دقة خازوق .
- الايد اللي ما بتغضر عليها بوسها وادعي عليها بالكسر .
- يا شاري الهم من قلب صاحبو .
- اللي عندو فلفل بيرش عالمخلوطة .
- الله بيطعم الحلاوة للي مالو سنان .
- لسان ابن آدم شختة .
- يا لساني شلون ما درتك بتندار .
- منمشي الحيط الحيط ومنقول يا ربي السترة .

- الخنفسة شافت بنتها عالحيط قالتلها تقبريني متل اللولية بالخيط .
- متل الخنفسة بالطاسة .
- متل حمام ومقطوعة ميتو .
- ضايعة الطايسة .
- ما بيسلم الكرم من الناطور .
- متل اللي جاب الدب لكرمو .
- القرد بعين صاحبو غزال .
- اذا كترت اشغالو قل ما بين يديه .
- يا رايح كتر ملايح .
- طالع عالسلم بقبقاب .
- خدوا فالكن من أطفالكن .
- اصابيعك بايديك مو كلا سوا .
- حط اصبعتك بعينك متل ما بتوجعك بتوجع غيرك .
- فخار يكسر بعضو .
- من تحت الدلف لتحت المزراب .
- مشتراة العبد ولا تربايتو .
- صام صام وفطر على بصلة .
- أدن من طين وأدن من عجين ..
- ضروب هالطينة بالحيط اذا ما لزقت بتعلم .
- مندق المي وهية مي .
- عميل منيح وارميه بالبحر اذا ما بين مع العبد ببين مع الله .
- بير مالو قرار .
- متل مقشة الشباطية كل قشة ببلوعة .
- حرد الدب عن الكرم زاد العنب قنطار .
- اللي ما بتزينو عروقو ما بتزينو خروقو .
- لبس المكنسة بتطلع ست النسي .
- ايدين دكك رجلين سكك .
- اللي بشوفني بعين بشوفو بعينتين .
- اربط الحمار مطرح ما بقلك صاحبو .
- مصرية الخاناتي بتضوع الحمار .
- عطي الخباز خبزو ولو سرق نصو .
- لا تاخد هاللبانة الا من هالحنك الاعوج .
- لا تاخد صاحب الا بعد قتلة .

- اكبر منك بيوم اعرف منك بسنة .
- من زبيبة بيخمر .
- قاللو يا شـــعبان ليش ما بتجي برمضـــان ؟ قاللو كــل شي مطرحو منيح .
- مو كل مين قال بكرة العيد دفعولو .
- لابق للشوحة مرجوحة ولابو بريص قبقاب .
- الحجر مطرحو قنطار .
- اول الرقص حنجلة .
- متل اللي عم بيغني بالطاحون .
- شيخ اذا تصبين وصبي اذا تمشيخ وعاشق ومفلس .
- متل العرباية على البلاط .
- النار ما بتحرق الا ايد كاويها .
- عقلك مو معك تنين بديروه .
- شاور اكبر منك واصغر منك وارجاع لشور عقلك .
- فوتة الحمام مو متل طلوعو .
- متل فوطة الحمام من ايد لايد .
- الضرف العايب نافخو تعبان .
- خلي العسل بكوارو لتجي اسعارو .
- اللي بيخفف راسو بتتعب رجليه .
- اللي بيطلع لفوق بيتعب .
- متل الحبلاس كلما كبرت عم تحلى .
- صبي حمام ايد من ورا وايد من قدام .
- بصلتو محروقة .
- الكلام اللي ما بينفد يا حسرة قايلو .
- متل الحبر على ورق .
- قتاية عوجة ان جلستا بتنكسر .
- اولادن لكو اعدائن لكو .
- الحكي الك يا كنة لتسمعي يا جارة .
- لا تكتر على امك وابوك بيكرهوك .
- كتر الدلال بيهرب العاشق .
- متل الحرباية بالوش مراية وبالقفا صرماية .
- متل الاطرش بالزفة .
- متل ياللي عم يرقص بالعتمة .
- تعا علي وخلصني ولا تجي معي وتشربكني .

- قالو للكلاب ليش وانتو راكدين ما بتغنو موالات قالولهن يالله نلحق اللهيت .
- اللي بينزل من السما بتستلقيه الارض .
- ما بيعجبو العجب ولا الصيام برجب .
- قاللو يا خياط يا رئيس قبل ما تفصل قيس وقبل ما تقع بالشبك يا مصعب التخليص .
- خيط بغير هالمسلة .
- فقير ونقير وأغنجي يامرا عالحصير .
- على قد لحافك مد رجليك .
- قالوا لكتار الغلبة نص الدنيا الك قاللهن : النص التاني لمين ؟.
- اضروب الحديد وهوة حامي .
- متل اكابر الديماس كبار بعين حالهن صغار بعين الناس .
- حبل الكذب قصير .
- بالحركة بركة .
- حامل السلم بالعرض .
- قاللو بعيد عن الشر وغني لو .. قاللو لا بيغنيلي ولا بغنيلو .
- البرغوت قال للبقة يضرب الشرشوح اذا ترقى .
- كل مين مخطتو على تمو حلوة .
- عيوبنا لا نراها وعيوب الناس نركد وراها .
- حرامي مالك ايدك بجيبتي ليش !؟
- لا تقول اقرع بالبيت طاسة .
- لو كنتي شمس ما بتطلعي عالقصارين .
- لا بنام بين القبور ولا بشوف منامات وحشة .
- قدها قد الفارة وصوتها ملات الحارة .
- فوق ابوك خود جدك ربيه .
- لا تعلم شحاد على باب دارك .
- ما بيحك جلدك متل ضفرك .
- ساقية جارية ولا نهر مقطوع .
- العاب بالمقصوص بين ما يجي الطيار .
- الحجر اللي ما بيعجبك بفجك .
- المونة بدها ركونة ما بدها مرا مجنونة .
- ست وجاريتين على قلي بيضتين .
- ست واربع جوار على سلطة بخيار .
- الرجل ما بتدب غير مطرح ما بتحب .

- الحب مطب والعاشق اعمى .
- لا تقول عنب ليصير بالسلة .
- الجواب بمحلو متل الدهب بمغلو .
- قدرة ولقت غطاها .
- طب الطنجرة على تما بتطلع البنت لاما .
- شو ما طبخت العمشا جوزها بيتعشى .
- قاللها يا مرا طبخي طيب قالتلو يا رجال كتر ادام .
- عم تتباها بضفاير بنت خالتها .
- يا لبنية بلا كبب يا عداوة بلا سبب .
- ما بقرقع بالدست الا اوشم العضام .
- عم بيخبص بالفصة .
- كل ممنوع مرغوب .
- يا داخل بين البصلة وقشرتها ما بينوبك الا ريحتها .
- كل مين بجر النار لقرصو .
- الآخرة يا فاخرة .
- كل عنزة معلقة من كرعوبا .
- بين النور ما في تكليف .
- الرايح بايدو والجاية بايد الناس .
- لا تقول للاعور اعور بعينو .
- قطع الاعناق ولا قطع الارزاق .
- عيش يا كديش لينبت الحشيش .
- الغايب حجتو معو .
- الغايب مالو نايب .
- اقتلوني وزهير .
- قالوا للبغل مين ابوك ؟ . . قاللهن الحصان خالي .
- جدي بدو يلعب بعقل تيس .
- متل الخنزير المقوص .
- لو رحنا لبين القبور بيلحقنا الداقور .
- تاجرنا بالكفان بطل حدا يموت .
- لا تقللي ولا بقولك الدهر محيرني ومحيرك .
- اخدوا كردي ليشنقوه قاللهن ان شاء الله تكون المرسة حمرا .
- اكل ومرعى وقلة صنعة .
- الغنية بتتقل خلخالا والفقيرة بتستر حالا .
- قاللو قبل ما تحور سقفنو اشترى لارضو حصيرة .

- لا مين عمر سكن ولا مين مون اكل .
- متل الشمعة بضوي على غيري وبعتم على حالي .
- السكافي حافي والحايك عريان .
- من بعد حشيشي ما ينبت حشيش ومن بعدي ما حدا يعيش .
- بالدنية وراتينا وبالآخرة حراتينا .
- خل ببلاش ولا عسل بمصاري .
- قالوا للجمل شو كارك قاللهن كباب حرير قالولو باين عليك وعلى قوالبك .
- كبرت يا دانا ولبست كتانا ونسيت اواعيك اللي بتتنقل من خانا لخانا .
- متل بضاعة الخان زعبوب مدود وسفرجل تخان .
- سمك بالمي ما بينشرى .
- يا شاري الهم من قلب صاحبو .
- حط العدس وانبور تحتو ما العن من الخال الا بنت اختو .
- قبل ما خطب هير حطب .
- سموك مسحر خلص رمضان .
- حكي الملق بييل الحلق وبيرضي الخلق .
- حبلة ومرضعة وراها اربعة طالعة علجبل تجيب دوا للحبل .
- انا بحلف وابني بزلحف .
- اللي فيه مسلة بتنخزو .
- طلع القمر وتدور ونسي زمانو الاول .
- السلق اخضر والناس اخبر .
- قاللو يا أبي شرفني قاللو يا ابني لحتى يموت اللي بيعرفني .
قاللو شرفني وركبني حمارة قاللو ليموتو كباريت الحارة .
- قاللو اليوم مرقني وبكرة غرقني .
- راح الاعور وتبعور .
- اذا تبلك بليس بيخصر عليك التتبيلة .
- عرق آس ولا شماتة الناس .
- البيت وساكنو والواعة ولباسها .
- من برة رخام ومن جوة سخام .
- فوتة الجار على الجار اولها مهتة وآخرها معيار .
- لو كانت اسوارتي وقية مالي عن جارتي غنية .
- ايمتا كنا والشمس ترقعنا .

- قاللو يا حواجبو يا عيونو قاللو عالمغتسل باين .
- اللي بيعرف اولتو بتهون عليه آخرتو .
- صابح القوم ولا تماسيهن .
- قال يا قاعدين يكفيكن شر الجايين .
- كترة الايادي بتحرق الطعام .
- مجنون يحكي وعاقل يسمع .
- اللي مالو اسطوح بينام تحت اسطوح جارو .
- قاللو الحرب بالنضارات هينة .
- اجا ليكحلها عماها .
- دخان يعمي ولا بردن يضني .
- الرمد اشوى من العمى .
- طول وعقل ما بيجتمعو .
- دود الخل منو وفيه .
- رغيف برغيف ولا يبات جارك جوعان .
- العيرة ما بتدفي .
- منشوف الديك منخمنو دالي باش .
- الناس بالناس والقطة بالخلاص .
- ساقية جارية ولا نهر مقطوع .
- كل طايفة والها بلوعة .
- جبل لجبل بيلتقي وابن آدم لابن آدم ما بيلتقي .
- عكا لو تخاف من هدير البحر ما جاورتو .
- ياللي الو راس عند الرواس ما بينام الليل .
- اجت الحزينة لتفرح ما لقتلها مطرح .
- ياداخل على مصر متلك لوف وياطالع من مصر متلك الوف .
- شرابة خرج لا بيعدل ولا بميل .
- متل التلاتا بنص الجمعة .
- متل راس القرنبيط بسوق الاحد .
- متل ناطور الصحرا .
- متل خازوق البحرة .
- عمرا سجرا ما وصلت لربا .
- ما في شجرة ما هزا الهوى .
- ياللي بيطلع صيتو بيطلع صرمو .
- من قلة الخيل شدينا عالكلاب سروج .
- احمرار وجوه ولا مغصان بالقلب .

- صاحبي وحبيبي وناح الجيبة لا تقرب .
- صاحبك لما اخوك ؟ قاللو الانفع بيناتهن .
- ايد وحدا ما بتصفق .
- ان داقت عليك المخازن مخزنك عبك .
- البخشيش بالدرهم و العطا بالقنطار .
- الحساب بالدرهم و البخشيش بالقنطار .
- قرقعة وخشيش وطحين مفيش .
- ان كان حبيبك عسل لا تلحسو كله .
- الله يطعمك الحج و الناس راجعة .
- عين بباب الجابية وعين بتقلي زلابية .
- اللي بتشتغل فيه السمرا بتحطو حق خطوط وحمرا .
- صبرك على نفسك ولا صبر الناس عليك .
- الولد اللي ما بيبكي امو ما بترضعو .
- اللي بيستحي من بنت عمو ما بيجيه غلام .
- اللي بيبيعك بالفول بيعو بالقشور .
- اعزب دهر ولا ارمل شهر .
- الجحشة بعليقها و الاصيلة بعليقها .
- اذا بدك تعاشر لا تعاشر الا امــير و اذا بدك تسرق لا تسرق الا حرير و اذا بدك تدق دق بــاب كبير حتــى اذا عيروك تستحق التعيير .
- قال يا حاملة الصبيان يا حاملة الصوان .
- لا تحلق دقنك بين تنين و احد بقلك طويلة وو احد بقلك قصيرة .
- بيخطف الكباية من راس الماعون .
- الكلب اللى بيعوي معك احسن من اللي بيعوي عليك .
- كل مين شافني ارملة شمر و اجاني هرولة .
- قالوا للجمل ليش بتاكل شوك قاللهن بستفكرو وقتنكان اخضر .
- قبل ما تعمل جمال علي باب دارك .
- فارة نطت من السقف قالتلا القطة اسم الله . . !! قالتلا اتركيني بحالي و انا بالف خير من الله .
- قاللو الدبة شقت كرشا قاللو ما ضرت الا نفسا .
- قاللو ما بقى في الا تحنيكة لطقة الكبريتة .
- الف قلبة ولا غلبة .
- الف عين تبكي و ايضا امي ولا انا .
- عطو الدب حرير يكب .

- حكى بدري و انشرح صدري .
- كلام القاضي متل الفستق الفاضي .
- الصغر علحمار جمال .
- الرجال عند غراضها نسوان .
- مو رمانة لاكن قلوب مليانة .
- قط ما بيهرب من عرس .
- عزموا حمار على عرس قال يا لزق المي يا لزق الحطب .
- كنس بيتك ما بتعرف مين بدوسو و غسل وشك ما بتعرف مين ببوسو .
- ما حدا بقول مرض الا الو تلتين الغرض .
- كل الديوك دكدكت ما صفي غير ابو قنبرة .
- مو حافظ من العشق غير كلمة اوحشتني .
- من معرفتو بالصحابة بيترضى على عنتر .
- حطوه علمغتسل ودهنوه بالعسل .
- لا تعيبي يا معيبة ويا سريجة مقطبة .
- دبور هدا على مسن قاللو سن اذا بتسن .
- بدو سلتو بلا عنب .
- كل جاجة حفرت على راسا عفرت .
- كول لقمة كبيرة ولا تحكي كلمة كبيرة .
- العين ما بتعلا علحاجب .
- تلاتة ما بيختفو الحب والحبل والركب عالجمل .
- شعرة من دنب الخنزير مكسب .
- هاللي الو شعرة من الجمل بنخخو .
- قلبي على ولدي نار وقلب ولدي عالحجر .
- انا واخي على ابن عمي وانا وابن عمي عالغريب .
- الدم ما بيصير مي .
- ياللي القلم بايدو ما بيكتب حالو من الاشقيا .
- ياللي بتحطو بالدست بيطلع بالمغرفة .
- قال مو قيمتك يا بطني قيمتك يا قدري .
- قاللو الله يخليلي ياك يا لساني متل ما درتك بتندار .
- يا مسترخص اللحم عند المرقة بتندم .
- الديك الفصيح من البيضة بيصيح .
- خود الاصيل ولو كان عالحصير .
- غب غب الجمال وقوم قبل الرجال .

- اذا بعبع الجاعود عطي الجمل حملو .
- الواعة الكبيرة بتسع الواعة الصغيرة .
- عم يرش علموت سكر .
- حلاق فتح باقرع استفتح .
- حمامي فتح بمتوضي استفتح .
- شو بدي استفكر منك يا سفرجل كل عضة بغصة .
- اذا كان الحكي من فضة السكوت من دهب .
- قاللو ياللي بياخد الاجرة بيطالب بالعمل .
- كرمال عين تكرم مرج عيون .
- بيدوب التلج وبيبان المرج .
- الحكي صابون القلب .
- الدراهم كالمراهم حطا عالجرح بيبري .
- الجمل بمصرية ومصرية مافي .
- العين بصيرة والايد قصيرة .
- منركب جمل ومنحمل علم ومنقول ما حدا شايفنا .
- العز للرز والبرغل شنق حالو .
- العالم عطيه جملو .
- اللي بيعرف بيعرف واللي ما بيعرف بقول كف عدس .
- أقرع ودقنو طويلة قاللو شي بغطي شي .
- قاللو اذا حلق جارك بل انت .
- اذا الصغير انتشا الكبير باس ايدو .
- الولد ولد ولو صار قاضي بلد .
- قالوا للجمل شو بتحمل قاللهن على قد ما تشيل الرجال وقالوا للبغل شو بتحمل قاللهن على قد ما تشيل الحبال وقالوا للحمار شو بتحمل قاللهن لو بتقيمو عني هالجلال لا سبقتكن علخان .
- الجمل اذا بار بيحمل قنطار .
- العين مغرفة الكلام .
- قالوا للقاق ليش بتسرق الصابون قاللهن الاذى طبع .
- متل ام العروس فاضية مشغولة .
- قاللو مين بيجي مع العروس قاللو اما وخالتا وعشرة من حارتا .
- لباس مالو ودكتو باربعين .
- بعاق الجدي ولا سواد العنقود .
- اللي ما بيشوف من ورا المنخل اعمى .
- ياللي مالو كبير مالو تدبير .

- ياللي مالو عتيق مالو جديد .
- كول ما تشتهي نفسك و البس ما يليق بين الناس .
- طحان ما بغبر على كلاس .
- لا تقول للمغني غني ولا للرقاص ارقوص .
- ما بيحك جسمك متل ضفرك .
- بيعمل على الزبيبة خمارة وعلحبة قبة .
- ضربو يهودي بعلبة لبن قاللهن وديني مشتهيها .
- باب النجار مخلع .
- اللي ما داق المغراية ما بيعرف شو الحكاية .
- قاللو بحلب نطيت اربعين قدم . .قاللو هون ارضو هنيك ارض .
- قاللو يا جامع انت مسكر وأنا مستريح .
- اذا كان بدك تستريح ايش ما شفت قول منيح .
- قاللو الطاقة اللي بيجيك هوا منها سدها .

  قاللو مو سدها جيب الفاس وهدها . .
- قاللو نام بالبرية ولا تنام قدام طاقة هوية .
- قاللو اذا شفت الطويل راكد عريف القصير لاحقو وقاللو اذا شفت القصير راكد عريف الشيطان لاحقو .
- قالوا للبقر اجاكن جلود . . قالولهن خلوا جلودنا علينا .
- قالوا للجمل ليش وانت ماشي بتطلع دوغري قللهن بانتظر الطريق البعيد .
- لا تاخد صاحب الا بعد خناقة .
- نص الكلام مالو جواب .
- قاللو حصوة بتسند جرة قاللو بتسند خابية قنطارية .
- اللي بيتو من قزاز ما بيرمي الناس بحجارو .
- ما حدا بقول عن زيتو عكر .
- عم يفوش متل الزيت .
- جاية من البرية بدو ياخد الاولية .
- قاللو شو الك بالقصر قاللو امبارح العصر .
- ياللي بفوتك حصرم بتاكلو عنب .
- لابق لك على هالحناك العوج لقة بابوج .
- متل خيل القضا بيتركا عالسلام .
- متل راس اليخنا بسوق الاحد .
- قاللو فراق البدوي بعبا قاللو بسوق العبي كلو .
- جارك متل اخاك ان ما شاف وشك بشوف قفاك .

- الجار قبل الدار .
- من طول عمرك يا تينة مجعلكة .
- هاللي بدو ياكل خبز السلطان بدو يحارب بسيفو .
- المال الداشر بيعلم الحرامي السرقة .
- كل ديك على مزبلتو صياح .
- قالوا للبسمار ليش بتفوت بالحيط قاللهن من عزم الرص اللي ورايي .
- الايد الفاضية منتنة .
- مو كل مين صف الصواني قال انا حلواني .
- قاللو عدن . . قاللو ياللي بياكل العصي مو متل ياللي بيعدن .
- قاللو قط ما بيهرب من عرس .
- قطاع راس القط من ليلة العرس .
- الجمل لولا الفزة حمل المزة .
- ياللي ما بيحضر عنزتو بتجبلو جرو .
- ان غاب عليك اصلو دلايلو فعلو .
- روح للدار الغالي وخدلك دار ان صان عرضك بيتوفر عليك المال .
- الطرق ولو دارت والبنت ولو بارت .
- الدهر يوم الك ويوم عليك .
- كل حال يزول وكل قاضي معزول .
- قال يا رايح علجبل جيب معك حجر .
- الارض الواطية بتشرب ماءها وماء غيرها .
- يللي بخبي غداه لعشاه ما بتشمت فيه عداه .
- شرطن بالحقلة ولا خناقة على البيدر .
- يللي اولو شرط آخرو سلامة .
- صنعة باليد امانة من الفقر .
- اذا الله حب عبدو فرجاه على ملكو .
- يللي ما بيخاف الله خاف منو .
- يللي بيتجوز بالدين بيجو ولادو بالفايز .
- الولد يللي مو من ضهرك كل ما جن فرحلو .
- الملك يللي مو ببلدك لا الك ولا لولدك .
- جارك القريب ولا اخاك البعيد .
- لا تتدخل فيما لا يعنيك بتسمع ما لا يرضيك .
- العمر بيخلص والشغل ما بيخلص .
- خير ما تعمل شر ما تلقى .

- ياللي ما بيشبع عند اهلو ما بيشبع عند الناس .
- ياللي ببيت اهلو على مهلو .
- خود الفرس من الفارس .
- الاصيل ما بعيبو جلالو .
- محل ما ترزق الزق .
- حبيبك حبو ولو كان عبد اسود .
- قاللو مرحبا يا اقرع قاللو هادا باب مناقرة .
- الكلب اللي بدك تجرو عالصيد يا طول مابدو يصطاد .
- كل رفعة دقن بخمسمية .
- شحاد ومشارط .
- لولا الكاسورة ما عمرت الفاخورة .
- على حظ الحزينة سكرت المدينة .
- العروس بعقلها وقلة اكلها .
- ياللي الو طباخ لا يزفر ايديه .
- ما دام طباخنا جعيص شبعنا مرقة .
- العنزة الجربانة ما بتشرب الا من راس النبع .
- قاللو يا جاري انت بحالك وانا بحالي .
- الطبل بحرستا والزمر بمنين .
- كسرنا الدف وبطلنا الغني .
- خبي قرشك الابيض ليومك الاسود .
- لباس مالو دكتو باربتعش .
- جبناك يا اقرع لتونسنا كشفت قرعتك وخوفتنا .
- القرعة لمن بتهوش احلى من عد القروش .
- بيقتل القتيل وبيمشي بجنازتو .
- ان بزقنا لفوق على شواربنا وان بزقنا لتحت على دقنا .
- بالع الموس عالحدين .
- قتلني وبكى وسبقني واشتكى .
- لا تقول فول حتى يصير بالمكيول .
- اذا قعدت بين العوران اعور عينك .
- عيش كتير بتشوف كتير .
- لبس العود بيجود .
- عود منيح واحكي صحيح .
- اذا بدي اصرف من كيسي ما بساويك عريسي .
- يا خلي متل ما بكون لك كن لي .

- متل حية التبن بتقرص وبتخبي راسها .
- وقتن كبر وشاب بعتوه علكتاب .
- ياللي متلنا تعو لعنا .
- زيوان البلد ولا قمح الجلب .
- شوبتعمل الماشطة بهالوش العكر .
- طواية عيرت المقلاية قالتلا اتنيناتنا بالمطبخ .
- الاعور بين العميان باش كاتب .
- زرعنا اللو طلعت يا ريت .
- لولا علبة مكي كانت الاحوال بتبكي .
- عمر اعطيني وبالبحر ارميني .
- ماحدا بيصحللو لبن الضرف الا بيغرفو غرف .
- بحر ما بتعكرو ساقية .
- ساقية جارية ولا نهر مقطوع .
- البزاقة شافت بنتها عالحيط قالتلها تقبريني متل اللولية بالخيط.
- بعد الكبرة جبة حمرا .
- لا تدعي لصاحبك بالسعادة بتخصرو .
- الطمع بالجامع .
- ضرب الحبيب زبيب ولو كان حجر صوان .
- اللي بريدك ريدو واللي ما بريدك بالجفا زيدو .
- ما في طلعة الا وراها نزلة .
- ياللي بدو يلاعب القط بدو يلقا خراميشو .
- ياللي الو عمر ما بتهينو شدة .
- جوزوا طنة لرنة وشرطوا عليها شروط ، لابقة هالمسفقة لهالقلعوط .
- طعمي التم بتستحي العين .
- تغدى وتمدى وتعشى وتمشى .
- مين استفقدني بعضمة كنت عندو عظيم .
- اللي بياكل على درسو بينفع نفسو .
- مين مالحك لا تخونو ولو كنت عبد خوان .
- الخبز والماء أكل العلماء .
- لو ريدك يا فخرة ما اخدت عليكي الرخرة .
- العيرة ما بتدفي وان دفت ما بتوفي .
- حلة نيل تصبغ المعلم مع الاجير .

- قبل ما خطب هير حطب ، عطا المغاني شروطها ووصى الدوماني على اللبن .
- اصبعتي مني ولو انقطعت وعيني مني ولو انقلعت .
- الحارة ديقة والحمار رفاس .
- سألوا الجمل شو بتشتغل قاللهن بدق بالشبابة قالولو مبين من شفتيرك .
- الله ما نشاف لاكن بالعقل انعرف .
- الخوف بيقطع الجوف .
- الرطل بدو رطل ووقية .
- حط بطال وحط بيت مال .
- معك قرش بتسوى قرش .
- الصاحب ساحب .
- تي تي تيتي متل ما رحتي متل ما اجيتي .
- متل قطرميز مصر لا رقبة ولا خصر .
- يا سراج وشمعة ياعالعتمة جمعة .
- اللي ما بيمتثل للناس ما هو من الناس .
- وقت بتقع البقرة بتكتر سكاكينها .
- بتقوللو تور بقوللك احلبو .
- العصفور عم يتفلا والصياد عم يتقلا .
- عند جرن الحمام بتبان القرعة من ام الشعر .
- الجنازة حافلة والميت كلب .
- متل الاطرش بالزفة .
- قدم بقدم لو كنتي ست ووراكي خدم .
- الست بدها جارية والجارية بدها ست .
- عين ما بتقاوم مخرز .
- عاشقك لا تاخديه ومطلقك لا ترديه .
- قاللو ما متنا شفنا مين مات قبلنا .
- جوزي بيحبني قوية . اهلي بيحبوني غنية . جيراني بيحبوني ايدية سخية .
- الاعور بين العميان ملك .
- الرحمة مخصصة والبلا بيعم .
- الخير بخير والشر بغير .
- اذا شمينا ريحة ايدينا بترجع روحنا لينا .
- باللعب والامزاح تشتفي الارواح .

- بحفر البير بابرتين وبكنس درب الحج بريشـتين ولا بعـاشر الحيوان بكلمتين .
- يا ربي من عشرة الحيوان خلصني ولادبح الحيوان واطبخ عليه يخني وان نز منو نقطة دهن عيبك على دقني .
- قالوا للقرد الله لسه بدو يمسخك قاللهن يمكن يساويني غزال .

وانتهت السهرة الطويلة بهذه المباراة اللطيفة الغزلية بين اثنتين من تريباتنا العجائز .

يا ريتني دالية لعرش على دارك .
لاحمل عنب عاصي كرمال شانك .
وياللي حرمني نومة حضانك
يقع بعشقك ما يصبر على نارك

*

تفاح ما ناكلو حمرة خدودك فيه
والبحر ما بننزلو سافر حبيبي فيه
لما يجي المبشر يبشرني بسلامتكم
عشرين ليرة لاعطيه .

*

عيونك السود حاجبينك قوص
وشفتينك عقايق بشهو البوس
على ما روح على بيتك ودوسو دوس
وآخدك بالحلال حبيبي .
واشبع من خدودك بوس .

*

عيونك السود خلتني أنا غني
عيونك السود نستني ابي وامي
بكون نايم باحلى النوم متهني
بيجي خيالك على بالي وبيجنني .

*

وصرخ احد الحاضرين في السهرة :

ــ لك قوموا بقى ... رح يأدن الصبح خلينا نروح على بيوتنا ... شو ابن خالتي منمشي سوا ..؟ شو قاعدين فؤاد افندي .!؟؟

ــ اي والله بكير ... لسة ما شبعنا منكن ...!

ــ لا والله خلينا نمشي خيرها بغيرها .

ــ لا والله ونحنا ماشيين ... اودعناكن ... بيتكن عامر ..

ــ عيدوها ...!!

ــ منجي ما منستغني تقبروني. .خاطركنتعو لعنا مو ما نشوفكن.!

ــ انتبه انتبه ابن خالتي ليقوم ينقط عليك « سطل » بوري الصوبا تعا هالناح امشي مع الحيط ...

ــ والله هالحارة عتمة ... مسيك معي هالولد يا رجال ..

ــ اوعي .. اوعي يا مرا هالطابوسة .. الحارة كلها طين ..

ــ نحنا رح نفرق من هالطريق . .خاطركن يا جماعة خلينا نشوفكن بنت عمي .. تصبحوا على خير .

● ● ●

صور شامية

قال لي أبي :

انا كنت قاعد بالكتاب بالبلطجية عند باب الجابية،حطتني امي بالكتاب كنت ولد صغير . كانت القعدة على الدف علأرض وقدامنا رحاليخشب نحط عليها المصاحف . وكان الشيخ يقعد على طراحـــة محطوطة فوق الجلد وقدامو رحلاية صغيرة مشان يسمع للولاد .

وكان الشيخ ظالم واذا واحد منا عمل برادة يضربو بقصبة طويلة على راسو . وكل ولد بيدفع « الخميسية » للشيخ يوم الخميس « ابو المية » . ويضل الولد بالكتاب من على بكرة لبعد العصر وكل ولد بجيب معو غـــداه بصرو بشقفة خرقة .

وكان صوت ولاد الكتاب يوصل لآخر الحـــارة وهن عم يقولوا ورا الشيخ :

الف لا شن عليها ب واحدة من تحتا ت تنتين من فوقا ث تلاتة من فوقا ج واحدة من تحتا ح لا شن عليها خ واحدة من فوقا د لا شن عليها ذ واحدة من فوقا ر لا شن عليهـــا ز واحدة من فوقا س لا شن عليها ش تلاتة من فوقا . . . .

ووقتن ختمنا الصبرة قرانا الشيخ جزو عم وجزو تبارك وربع ياسين . بعدين صرنا نقرا بالمصحف ووقتن بيختم الولد القرآن بساوولوختيمةوبيفرح اهلو وبيعزموا الاهل والجيران والشيخ وولاد الكتاب . وكل ولد حسب ما الله يفتحعليه وفي ولاد بيختموا القرآن وبعيدوه سبع مرات .

وانا لما ختمت فرحت امي في ولبسوني قنبـــاز حرير ابيض وطربوش مزين باللولو والالماس والورد . وطلعت من الكتاب مع الولاد من زقـــاق البركة عند باب سريجة لباب الجابية والدرويشـــية والمرجة هيك ورجعت علبيت والولاد ورايي عم يقرولي نشيدة :



الفنان نصير شورى — دمشق

يا برق شـــام بلغ ســلامي	على محمد خـــير الانـــام
يا برق زورو واحظـــى بنورو	فاحت عطورو مســك الختـام
يا بدر واطلع في الليل والمــــع	والمختار يشفع يوم الزحـــام
ساروا المطايا جابوا العطـــايا	زاروا محمـــد خـــير الآنـــام

وفرقوا اهلي الشراب وصرر الملبس وعطوا لكل ولد من ولاد الكتاب ابو الخمسين .

وقعدت قريت قدام الضيوف ببيتنا وشيخي قاعد ، من سورة البقرة . ولما وصلت لعند : ختم الله علـــى قلوبهم وعلى سمعهم خطف ولد من ولاد الكتاب طربوشي وركض لعند امي وأخد « الحلوان » .

• • •

قالت لي أمي :

يا بنتي ايامنا ما كان في مدرسة . حطتني امي عند خجا « تـــاجة » بزقاق البقارة بباب مصلى بالميدان . درستني خجاتي حتى ختمت . ايـــه الله يرحمها .

اول شي علمتنا الف لا شن عليها بكتاب « الصبرة » . كانت تقرينـــا ونقرا وراها : الف لا شن عليها ب واحدة من تحتا ت تنتين من فوقا ث تلاتة من فوقا ج واحدة من تحتا .

بعدين صارت تحفظنا الف ونصبة آصب آ الف وخفضة اخفض اي الف ورفعة ارفع او . ب نصبه باصب ب . ب خفضة بخفض ب ، ب رفعة برفع ب .

وعلمتنا نهجي القرآن الكريم كلمة كلمة . اول شي هجينا الفـــاتحة كلمة كلمة . « الحمد » كنا نهجيها : الف أصب أ ، ال جازم ال ، ح حـــا نصب ح الحـ ، ام جازم أم ، الحمـ ، د رفعة د ، الحمد .

لله : لام ولام وهـ . ل لخفض لـــ ، ل شدة ونصبة لل ، هـ خفضــــة هـ لله .

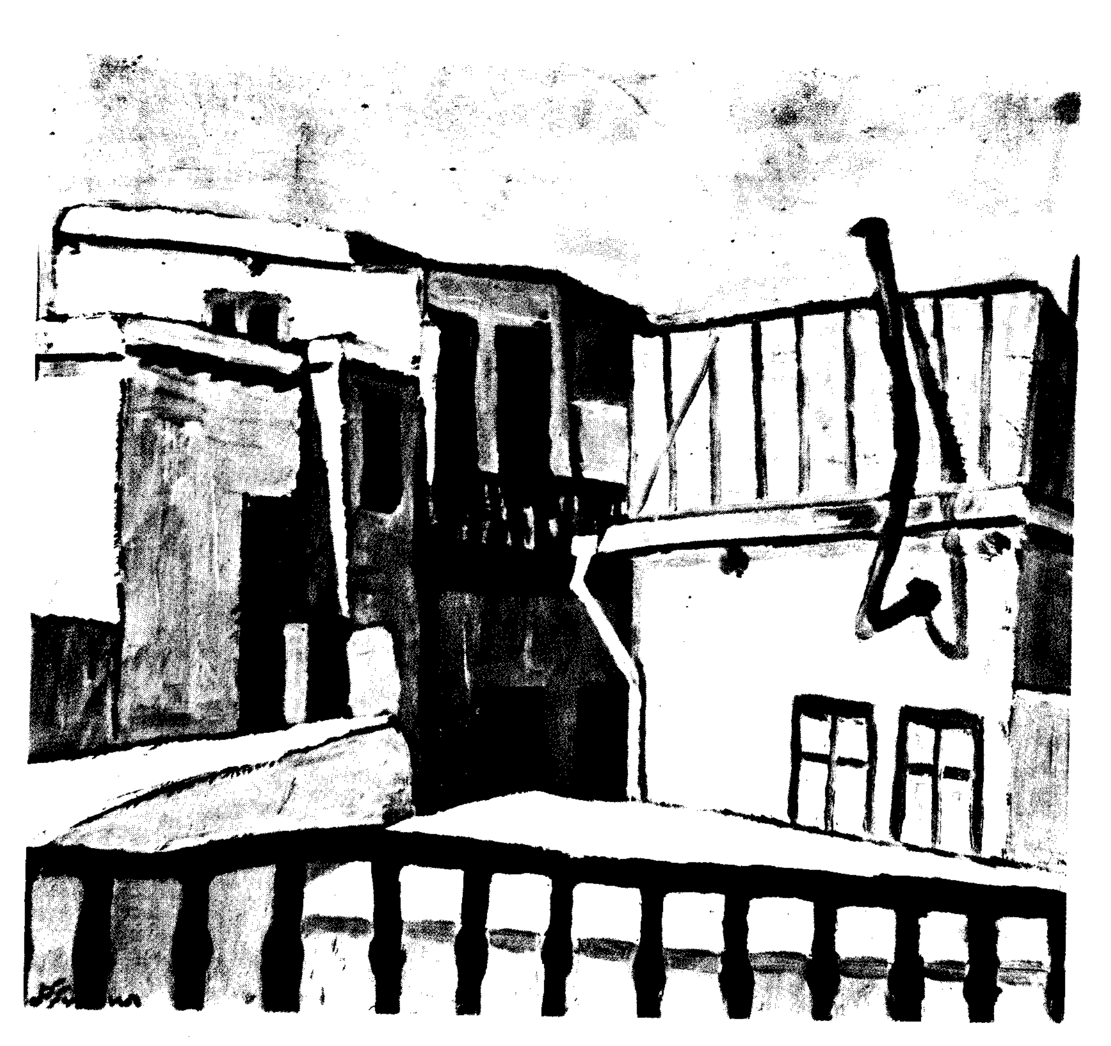
وعلمتنا خجاتي :

الف وشدة ونصبتين . الف وشدة ورفعتين . الف وشدة وخفضتين. ووقتن ختمنـــا الصبرة حفظتنا ابجد هوز حطي كلم سعفص قرشت ثخذ ضزغن ـــ والسلام .

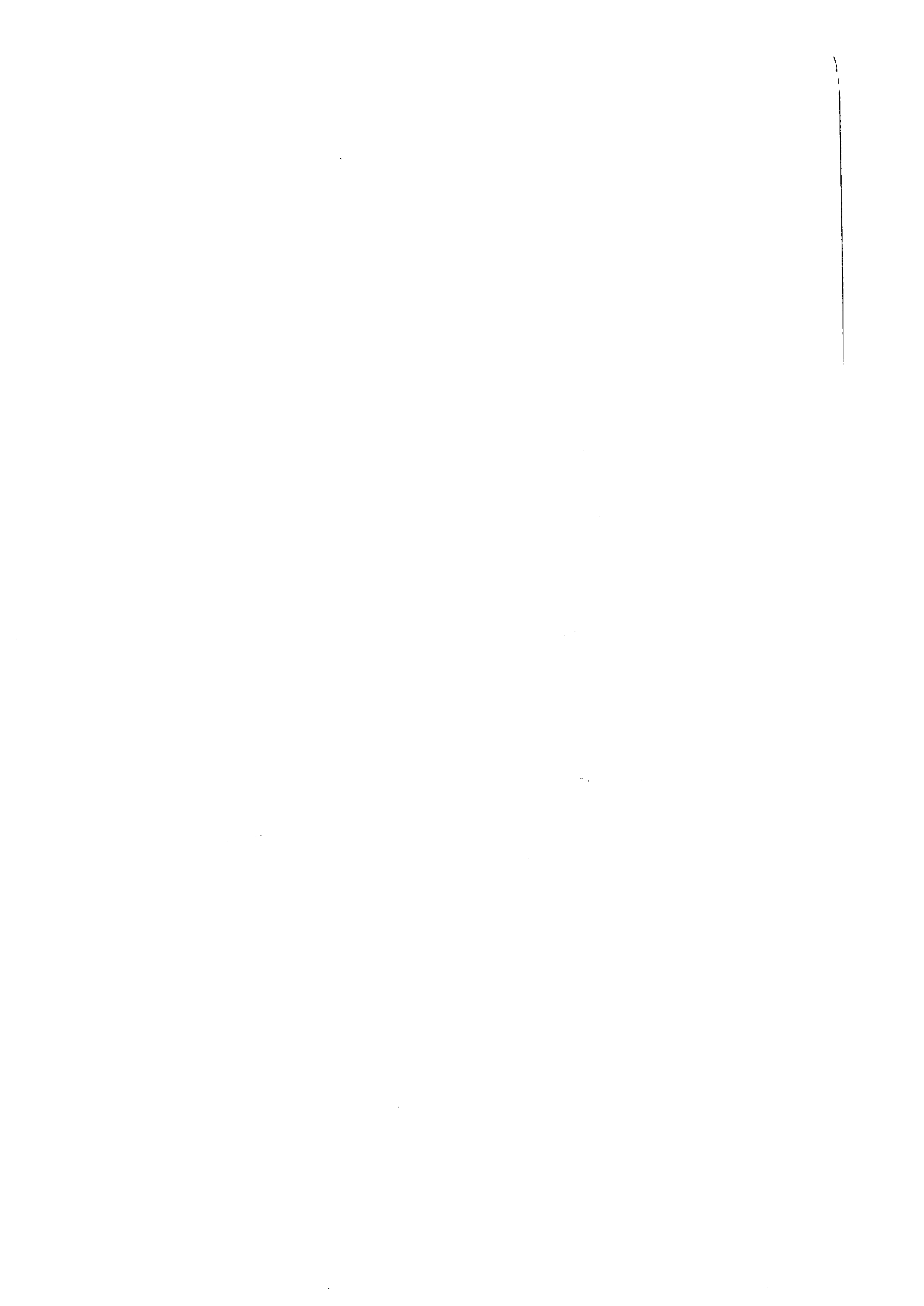
وكمان علمتنا :

أب ، ام ، اخ ، عم ، جد ، فم ، كف ، لب ، ظل ، ند .

بعدين قرتنا جزو « عم » وجزو « تبارك » وجزو « قد سمع » وجزو « والزاريات » .



الفنان برهان كركوتلي ــ دمشق



الفــلاح : كلي يا أما تدفع وركتين ونص يا را . . .

الحكيم : فهمت . يعني ما رضي منك اقل من هيك وانت ما معك ورقتين ونص . .

الفــلاح : اي بالله . داخل على الله وعليش سيدي وتجبلي دوا اكل من هيش .

الحكيم : انا كتبتلك الراشيتة بالدوا يللي لازمك . بقا شو معك ما معك ؟ ما رح يلتقى بجيبتك حق دوا لحفظ صحتك ؟

الفــلاح : سيدي وحق اللهومحمد رسول اللهكلتلكما معيش. ول انا مالي خلقة الله يا زلمة ؟

ابو ابراهيم : (من بعيد) سيدي حسيت درسي كن وحنكينمل.

الحكيم : طيب . طيب (للفلاح) بقا قلتلي ما معك حق دوا.

الفــلاح : لا بالله ياسيدي ، اللهيطول عمرشدبرني انا فقير.

الحكيم : طيب . اذن رح اكتبلك على دوا بتروح بتاخدو من صيدلية البلدية مجانا .

الفــلاح : نعم سيدي ؟

الحكيم : عم قلك رح بدبرلك دواك تاخدو ببلاش .

الفــلاح : آخد دواي ببلاش سيدي ؟ الله يطول عمرش منين سيدي ؟

الحكيم : من صيدلية البلدية ما بتعرفها صيدلية البلدية ؟

الفــلاح : لسع سيدي .

ابو ابراهيم : (من بعيد قليلا) سيدي حنكي خدر ووشي نمل .

الحكيم : طيب . طيب لحظة (للفلاح) مسيك هي راشيتة غيرها . فهمت كيف بدك تستعمل الدوا .

الفــلاح : نعم سيدي ، تشل ساعتين بتعرعر بالمي .

الحكيم : ايوه وبعد الغرغرة بتدهن منالقنينة الصغيرة لثتك بالقطنة .

الفــلاح : ودهن ويش سيدي ؟

الحكيم : يعني بتدهن نيرة سنانك .

الفــلاح : ها . اي اي نعم نعم سيدي نعم سيدي .

الحكيم : مع السلامة .

الفــلاح : الله يسلمش سيدي (مبتعدا) خاطرش سيدي .

ابو ابراهيم : (من بعيد قليلا) ســيدي حسيت وشي مو مني وحنكي منمل .

الحكيم : طيب جايه .. يا عفيفة .
المرضة : نعم دكتور .
الحكيم : حضري البنس (لابو ابراهيم) شو تلتلي نملفكك؟
ابو ابراهيم : (من قرب) وما عدت حسيت بوشي كله .
المرضة : تفضل دكتور .
مؤثرات : (صوت وضع ادوات الجراحة) .
ابو ابراهيم : شو كل هاد ابرة البنج قوية سيدي ؟
الحكيم : طبعا فتاح تمك لشوف .
ابو ابراهيم : دخلك دكتور خايف ليقوم يجعني.
الحكيم : ما بنجنالك ياه ليش خايف ؟ فتاح تمك .
ابو ابراهيم : سيدي خايف يجعني بالقلع .
الحكيم : لا تخاف لا تخاف ما بتشعر بشي ابدا. فتاح تمك.
ابو ابراهيم : سيدي الله يـ . . .
الحكيم : هوهو . .شو ولد صغير ؟ فتاح تمك .
ابو ابراهيم : هه ها .
الحكيم : فتحو كمان شبك خايف عم تزم شفتك ؟
ابو ابراهيم : سيدي مالي خا .. ها ها
الحكيم : كمان .
ابو ابراهيم : ها ها ها .
الحكيم : كمان كمان .
ابو ابراهيم : ها ها ها .
الحكيم : ايوه ايوه لا تخاف كمان كمان .
ابو ابراهيم : ها ها رح ينشق حنكي ها ها .
الحكيم : ما بدها تفوت البنس بتمك ايوه برافو هه .
ابو ابراهيم : آآآ (متوجعا) .
الحكيم : ها ها طلع .
ابو ابراهيم : شو شو نقلع سيدي .
الحكيم : طبعا . مالك شايف ما أكبر شرشو .
ابو ابراهيم : الله يسلم دياتك يا دكتور .
الحكيم : تمضمض هلأ وبعدين بتحكي .
(صوت وضع البنس على البللور) شيليهالادوات للتعقيم يا عفيفة .
المرضة : حاضر .
مؤثرات : (صوت جمع الادوات تحت الكلام) .

ابو ابراهيم : يعني اديش كنت متوهم يا دكتور . و هاكل همقلعو .
الحكيم : طبعا . هوة الوهم مؤلم اكتر من الوجع نفسو .
ابو ابراهيم : الله يسلم دياتك الحقيقة انك ما شا الله ايدك خفيفة .
الحكيم : الله يحفظك . لا تنسى الغرغرة بالبيت كل شوية وشوية .
ابو ابراهيم : امرك سيدي . الله لا يحرمنا ياك (مبتعدا) خاطرك سيدي الحكيم .
الحكيم : مع السلامة .. عفيفة ..
المرضة : (من بعيد) نعم .
الحكيم : شوفي بصالون الانتظـــار دور مين خليه يتفضـــل (يدمدم) لا لا لا لي .. م م م ...
ابو فهمي : (من بعيد مقتربا) آه ام اخ آه يا حنكي آه يا درسي سلامات سيدي .
الحكيم : سلامات .
ابو فهمي : أخ .. دخيل الله حكيم ببوس ايدك درسي !
الحكيم : وليش هيك ملفلف وشك بعشرين قمطة وشاشية؟
ابو فهمي : سيدي حاطط لزقة نشا .
الحكيم : (يضحك) وليش ملفلف وشك كلو مو مبين غـــير عيونك ؟
ابو فهمي : سيدي كترت النشيات حتى يكن درسي مالهاخواص .
الحكيم : طيب عود عندك عالكرسي .
ابو فهمي : آخ دخيل الله حكيم لحقني ببوس ايدك .
الحكيم : فك عن وشك هالطرد لشوف .
ابو فهمي : آه يا حنكي آه . آه يا وداجاتي آه .
الحكيم : عاونيه عفيفة بفك شرشف « اليوك » عن وشو .
المرضة : هات دشر عنك يا عم .
ابو فهمي : اي اي اي دخيل الله قلعتيلي جلدة وشي على مهلك .
المرضة : لا تخاف هاي لزقة النشا يبسانة على خدك .
ابو فهمي : آه .. والله حسيت طاسة راسي نقامت دخيل الله .
الحكيم : حاجة بقى شو ولد صغير .
ابو فهمي : دخيل الله صرلي تمن تيام ما نمت فيهن من وجعي ايدي بزنارك دكتور .
الحكيم : وليش تارك حالك كل هالمدة من غير حكمة ؟

ابو فهمي : مين قلك سيدي تارك حالي من غير حكمة ؟ والله ما خليت حلاق بالحارة ما ورجيتو درسي .

الحكيم : اف وشو خص الحلاق بالتهاب فكك ؟.

ابو فهمي : ليش حنكي ملتهب سيدي ؟

الحكيم : طبعا مالك شايف وشك كيف صاير متل الطبل ! انو حلاق ساوى فيك هيك ؟

ابو فهمي : سيدي عنا بالحارة .

الحكيم : ماكنت تعرف لهلأ انو في بالدنية اطباء ومتخصصين كان لازم تستشير طبيب قبل ما تروح فكك .

ابو فهمي : سيدي بعرف . لاكن قلعلي بلا ما حطلي ما فتح ورزق على درس مسوس مو محرز .

الحكيم : مشان ما تدفع مبلغ بسيط تلهب فكك وتسمم دمك ويمكن تتوفى يا غشيم ؟

ابو فهمي : هلأ رح بتوفى سيدي ؟

الحكيم : يعني لو ما اجيت هلأ وشفتك كان بعد يومين صار بفكك كنكرين ، وتسمم دمك ورحت .

ابو فهمي : !!! شو هالحكي سيدي !

الحكيم : طبعا مالك شايف خدك كيف مزرق .

ابو فهمي : والله من اللزقة يللي حاططها ما شفت وشي من جمعة .

الحكيم : فتاح تمك لشوف .

ابو فهمي : سيدي مالي غضران افتحو . حاسس عرق اللبن شادد من طبلة ادني لجحش حنكي .

الحكيم : فتاح تمك على قدر الامكان لشوف الحلاق شو عامل بفكك من جوه .

ابو فهمي : هه ها .. عا عا ..

الحكيم : كمان فتاح . .كمان كمان .

ابو فهمي : ها ها .. عا عا عا .

الحكيم : شبك فتاح كمان .

ابو فهمي : ها ها .. عا عا عا .

الحكيم : لك يا عمي بس خليني دخل المراية وشوف متل العالم .

ابو فهمي : عا عا عا عا .

الحكيم : هم . سكر هالمتحف بقى .

ابو فهمي : آه .. ام .. شو شفتللي سيدي الدكتور ؟

وبعد ما ختمنا نقلتنا للمصحف الكريم . وانا ختمت المصحف يعني كان عمري شي تمن تسع سنين .

كنت اتعلم عند خجاتي وعلم . وكنا نروح علخجا من على بكرة للعصر . وكنت آخد اكلي معي واتشارك مع رفقاتي وآكل انا والبنات، وما في صريفة لبعد العصر . كانت الله يرحمها « بكريمة » واحدة وتربيتها منيحة وبالها طويل مو متل خجا « زقزوق » بتاني حارة بتحط الولاد زرابة وما بتقري منيح . بس خجاتي والله كبرت وبحبها وكل ما مرقت من الميدان بتطلع عالحارة وبترحم عليها .

وبتذكر لحد هلأ شلون عطتني ولد حتى علمو لاني كنت شاطرة وعيني فتحة . ولد ما بيتعلم من رابع المستحيلات لهلق محروق قلبي منو . منوب منوب ما بيفهم اذا قريتو ، حتى داب قلبي منو . قمت رحت قلت لامي وكنت مدللة على امي ومالا غيري . قامت امي راحت لعند خجاتي وقالتلا وين رح تدوبيلي قلب البنت قامت خجاتي عطتو لغير بنت حتى تعلمو . والله بكل عمري متل هالولد لسه ما شفت . اسمو سليم لهلأ بتذكر اسمو .

ولهلأ بتذكر شلون كنا نغني لخجاتنا تاجة عند العصر نترجاها تصرفنا على بيوتنا ونقول :

« خجاتي صرفينا وما حلت مصارفنا والشميسة غابت وقلوبنا دابت بحياة سيدي خالد تصرفينا » .

وتصرفنا خجاتي كل تنتين سوا . قباقيبنا بالعتبة نلبسها ونرجع لبيوتنا فرحانين .

ايه سقا الله وميت سقا لله والله كان العلم أيامنا الو قيمتو . وأنا بعد ما ختمت القرآن صرت اقرا لحالي كتب الانبياء وكليلة ودمنة وابو زيد المهلهل والزير سالم والمنفلوطي والملك الضاهر والف ليلة وليلة وقيس وليلى . كتب كتيرة كنت آخدها من عند صهري جوز خالتي ابو جعفر وصهري جوز عمتي الله يرحمو . والفضل لخجاتي تاجة ياللي علمتني القراية وخلتني اقرا كل شي .

ايه الله يرحمها . ولك بنتي ايامنا راحت والعلم تغير وهلأ الدور الكن . الله يوفقكن وياخد بيدكن ويعطيكن الحظ ليرضيكن .

عند الحكيم

عند الحكيم ...

تمثيلية اذاعية باللهجة الشامية العامية الفها الفنان المرحوم القصاص الشعبي حكمت محسن وضحكت لها دمشق كثيرا لانها كانت عملا من اعماله الكثيرة التي بدأت منذ سنوات طويلة ، واخذت تنتقد بصورة فكاهية عيوب المجتمع الدمشقي القديم ، وتسجل التراث الشعبي الدمشقي الفني خوفا عليه من الاندثار في موجة المدنية الجديدة الفائرة حتى على صور الجمال في حياة مجتمعنا الذي يتوارى خلف طيات الزمن بكل ما فيه من عيوب وميزات دون ان يقدر شباب هذا الجيل خطر التخلي عن تقاليده وعاداته وقيمه الاصيلة.

اخرج التمثيلية للاذاعة السورية الفنان تيسير السعدي احد تلاميذ واصدقاء حكمت محسن المخلصين واشترك بتمثيلها عدد من اهم ممثلي فرقة حكمت محسن الذين تحبهم دمشق وتقدرهم منذ بدأوا العمل معا كما اذكر منذ حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .

قام حكمت محسن بدور « ابو رشدي » وتيسير السعدي بدور « الحكيم » وعبد السلام ابو الشامات بدور « ابو ابراهيم » وفهد كميكاتي بدور « ابو فهمي » وانور البابا بدور « ام كامل » وطيبو الصيداوي بدور « الفلاح » وهدى صدقي بدور « المرضة » وهذه هي التمثيلية بنصها الحرفي :

نحن الآن في عيادة طبيب الاسنان في دمشق :

الفلاح : سيدي كلتله الله يطول عمرش ما معيش ادفع وركتين ونص حق الدوا ، انشان ترخص شوية كرامه لله ومحمد رسول الله .

الحكيم : ام ...

الحكيم : شو شفتلك . شفتلك الحلاق كاسرلك فكك ؟

ابو فهمي : له . لك . .

الحكيم : كلو حتى جنابك لما نوجعت ركدت عالحـــلاق كانك عايش قبل ميت سنة .

ابو فهمي : سيدي قلعلي بلا ما تحطلك ما فتح ورزق هلأ عند الحلاق جاري بيقلعلي ياه بنص ورقة .

الحكيم : صحتك وحياتك ابدى واللا المصاري يا غشيم ؟

ابو فهمي : لاكن دبساتو مراق ودرويش شو بيعمل بحـــالو سيدي ؟

الحكيم : ما بتعرف انو وزارة الصحة فاتحة مراكز للمداواة بكل حي مشانك ومشان غيرك يتطبب فيها مجانا اذا حالتو ما بتساعد ؟

ابو فهمي : سيدي والله مالي دريان انو في هيك شي .

الحكيم : على كل حالتك تستوجب اني ابعتك عالمستشفى حالا . لازمتك عملية مستعجلة .

ابو فهمي : له ، شو هالحكي سيدي ؟ دخيلك برقبتي عيـــال سيدي ما بغضر اترك شغلي ونام بالمستشفى الله يطول عمرك .

الحكيم : اذا نمتلك كم يوم بالمستشفى وطبت احسن واللا اذا نمت بالجبانة ؟

ابو فهمي : آه يا حوينتك يا ابـــــو فهمي آه . آخ يا جحش حنكي اخ . . !!

الحكيم : تفضل طلاع انتظر بالصالون لبين ما تجي سيارة الاسعاف تاخدك .

ابو فهمي : آه يا كرسي خدودي آه . . روح ودع عيالي واجي سيدي ؟

الحكيم : لا ليش كل هاد توهمت ؟ هلأ بيعطوك بنســـلين وادوية بيرتفع عنك الخطر وبتطيب . يا عفيفة ؟!

الممرضة : (من بعيد) نعم دكتور ؟

الحكيم : عملي هاتف للمركز يبعتوا سيارة بسرعة تعا وين طـــالع ؟

ابو فهمي : (من بعيد قليلا) ما قلتلي ستنى برة سيدي ؟

الحكيم : تعا قبل ما تروح عطيني اسم الحلاق وعنوانو .

ابو فهمي : (مقتربا) ليش سيدي ؟ بدك تقلـــع درسك انت التاني بابا ؟

الحكيم : (يضحك) لأ . لاكن حتى نحيلوللمحاكمةونجازيه.

ابو فهمي : سيدي الله يطول عمرك الحق مو عليه .

الحكيم : شلون مو عليه ؟ انت قلتلو كسرلي فكي ؟

ابو فهمي : لا سيدي . لاكن هوة ما عم يقلع الدرس بنص ورقة؟

الحكيم : ام ؟

ابو فهمي : قمت انا شارطتو عالدرسين بتلت رباع الورقة .

الحكيم : هنة كانوا درسين يللي عم يوجعوك ؟

ابو فهمي : لأ سيدي يللي عم يجعني واحـــد . لاكن لمن رضي يقلعلي التنين بتلت ربـــاع الورقة قلعلي صـــارت المسألة رخيصة يا ولد قلاع تنين افرطلك .

الحكيم : أف (يضحك) اما عقلية غريبة . على كل طـــلاع انتظر سيارة الاسعاف .

ابو فهمي : امرك سيدي (مبتعدا) آه يا حناكي آه يا كراسي خدودي آه . .

الحكيم : عفيفة .

المرضة : (من بعيد) نعم دكتور .

الحكيم : شوفي بالصالون دور مين قليلو يتفضل (يدمدم).

أم كامل : (من بعيد مقتربة) آه يا سقف حلقي آه . . آه . . يا نيرة سناني آه . . ام . . آه . . السلام عليكن يا ابني .

الحكيم : وعليكم السلام . . خير خير . . شبك حجة ؟

أم كامل : الله يجعلك بخير . تقبرني نـــيرة سناني قابة علي وحاسستها عم تتقطع بعيد عنك آه . . . ام . . .

الحكيم : بسيطة بسيطة عدي لشوف عالكرسي . امسكي ايدها عفيفة .

أم كامل : يو الله يرضى عليكن وياخد بيدكن هم . هه . .

المرضة : سندي ضهرك خالتي .

أم كامل : يو الله يرضى عليكي ويبعتلك عريس ابن حلال .

المرضة : (تضحك) .

الحكيم : شو صاير معك حجة !

أم كامل : تقبرني سقف حلقي نيرتي وحنكي وشقاتي وعضام وشي وبنات اداني و . .

الحكيم : (مقاطعا) طيب طولي بالك فتحي تمك لشوف .

أم كامل : (تفتح فمها) ها ها ها .

الحكيم : كمان فتحي تمك مو باين شي .

أم كامل : هه . ها ها ها .

الحكيم : كمان حجة كمان .

أم كامل : يوه رح ينشق جلد وشي لك ابني .

الحكيم : لا تخافي فتحي لشوف .

أم كامل : هه . ها ها ها .

الحكيم : يا ستي ليش خايفة كل هاد ؟ فتحي تمك منيح بدي شوف سقف حلقك .

أم كامل : هه اكتر من هيك بدي افتح تمي ؟ بينت معدتي مو سقف حلقي (تفتح فمها) ها ها ها .

الحكيم : اف هادا طقم سنان يللي بتمك .

أم كامل : اي لكان . شوكنت مخمن طقم كنبات ؟

الحكيم : (يضحك) طالما ما في بتمك سنان ومركبة طقم بقا شو يللي عم يوجعك ؟

أم كامل : تقبرني حاسة كل وشي عم يوجعني مدري الطقم كبير على تمي مدري صغير .

الحكيم : ما تراجعي الطبيب يللي ساوالك ياه ؟

أم كامل : تقبرني شتريتو حاضر « مألن » .

الحكيم : اف حدا بيشتري طقم سنان مستعمل ؟

أم كامل : لقيتو رخيص تقبرني .

الحكيم : (يضحك) اما سمعة ما بتعرفي انو ما بجوز حـــدا يركب طقم سنان التاني بتمو .

أم كامل : يوه ليش ما بزوز يامو ؟ والله ما سمعتها بالدرس انو بزوز وما بزوز .

الحكيم : هي ما دخلت بالدرس ، لاكن طبا وعلما ما بجوز . ما بتعرفي انو في بالدنية ميكروب وامراض معدية ؟

أم كامل : يوه « قل هو الله واحد » .

الحكيم : لكان كيف ركبتيه بتمك ؟

أم كامل : تقبرني قبل ما ركبو غستلو بالصابون والطرابـــة الحمرا وتشاهدت عليه سبع مرات وبعدين ركبتو .

الحكيم : لكان شو بتريدي جاية لعندي ؟

أم كامل : قالولي جماعه خديه لعنـــد حكيم سنان البلديـــة يصلحلك ياه على قد تمك .

الحكيم : (يضحك) اما هي سمعة غريبة ، يللي دلك غلطان يا خالتي واساسا طقومة السنان ما بتتصلح وتتكبر وبتتصغر . بدك طقم بتكلفي طبيب بيعملك يـــاه على قد تمك مظبوط . وقتها لا بعود بيلتهب فكك ولا بيوجعك تمك .

أم كامل : تقبرني ان كان الجمل بقرش وقرش ما في شو بعمل بحالي ؟

الحكيم : وقتها ببعتك عالجامعة يعملولك طقم سنان مجانا .

أم كامل : يوه يبعتلك الهنا على هالبشارة الحلوة .

الحكيم : تكرمي يا حجة .

أم كامل : يو الله ياخد بيدك وبيد كل منيح .

الحكيم : وانا هلأ بكتبلك كتاب بتاخديه بايدك يعتنوا فيكي .

أم كامل : روح الله يجبر بخاطرك وخاطر كل ابن حلال بحن عالفقير .

الحكيم : استني بصالون الانتظار . هلأ ببعتلك الكتاب مع البنت .

أم كامل : اي تقبرني عم بستنى برة (مبتعدة) خاطرك يامو .

الحكيم : مع السلامة . أف . يا عفيفة .

الممرضة : (من بعيد) نعم .

الحكيم : شوفي بصالون الانتظار دور مين قليلو يتفضـــل (يدمدم باغنية) .

ابو رشدي : (مقتربا) آه .. اخ .. ام .. يا درسي .. آخ .. السلام عليكم سيدي الدكتور .

الحكيم : (من بعيد قليلا) وعليكم السلام . تفضل جلوس عالكرسي جاية .

ابو رشدي : ايه .. ام .. آخ دخيل الله درسي .. ايه .. ام .. آخ دخيل الله شقاتي .. ام آخ آخ آخ آخ شي عم يلمع علي متل السيف بدرسي .

الحكيم : (من بعيد قليلا) شو هاد يا عم ؟

ابو رشدي : نعم سيدي .

الحكيم : على مهلك بدي اعرف اكتب الورقـــة للحرمة شو هالعن هاد ؟

ابو رشدي : غير عم عن من وجعي لك ابني ؟
الحكيم : وطي صوتك مالك ولد .
ابو رشدي : ايه سكتنا . ام .. آه .. آه آه أخ أخ أخ درسي .
الحكيم : هو هو . هلأ ما رح تخليني اعرف اكتب هالسطرين ؟
ابو رشدي : سكتنا سيدي سكتنا . آه . ام .. اي اي اي . يا حنكي آه .
الحكيم : وبعدين معك ؟
ابو رشدي : سكتنا سيدي سكتنا . ام . أخ . آه . اي اي اي .
الحكيم : هو هو (يقترب) هي دشرنا الكتابة مشانك شو صاير معك ؟
ابو رشدي : درسي بعيد عنك طول الليل ما نيمني الشكوة لله .
الحكيم : فتاح تمك لشوف ؟
ابو رشدي : هه (يفتح فمه) ها ها ها .
الحكيم : هم . سكر تمك .
ابو رشدي : ايه . شو شفت سيدي ؟
الحكيم : شفت قصر يلدز شو بدي شوف ؟ هاتي هالبنس يا عفيفة .

● ● ●

من قاموس الشام

السقاطة : مصدم مطرقة الباب وتكون من الحديد على شكل الحلقة او يد الانسان .

باب خوخة : باب البيت العربي الكبير المزدوج ، باب خشبي كبير وبقلبه باب صغير مزين بالمسامير .

باب مصراعين : باب عادي بردفتين .

الدهليز : ممر ضيق بين باب الدار وباحتها .

الديار : باحة البيت العربي ، وهي مفتوحة للسماء وسطها بحرة ماء وحولها احواض الشجر والازهار ، وتمر منها احيانا ساقية ماء . وللبيت العربي الكبير ديار براني وديار جواني .

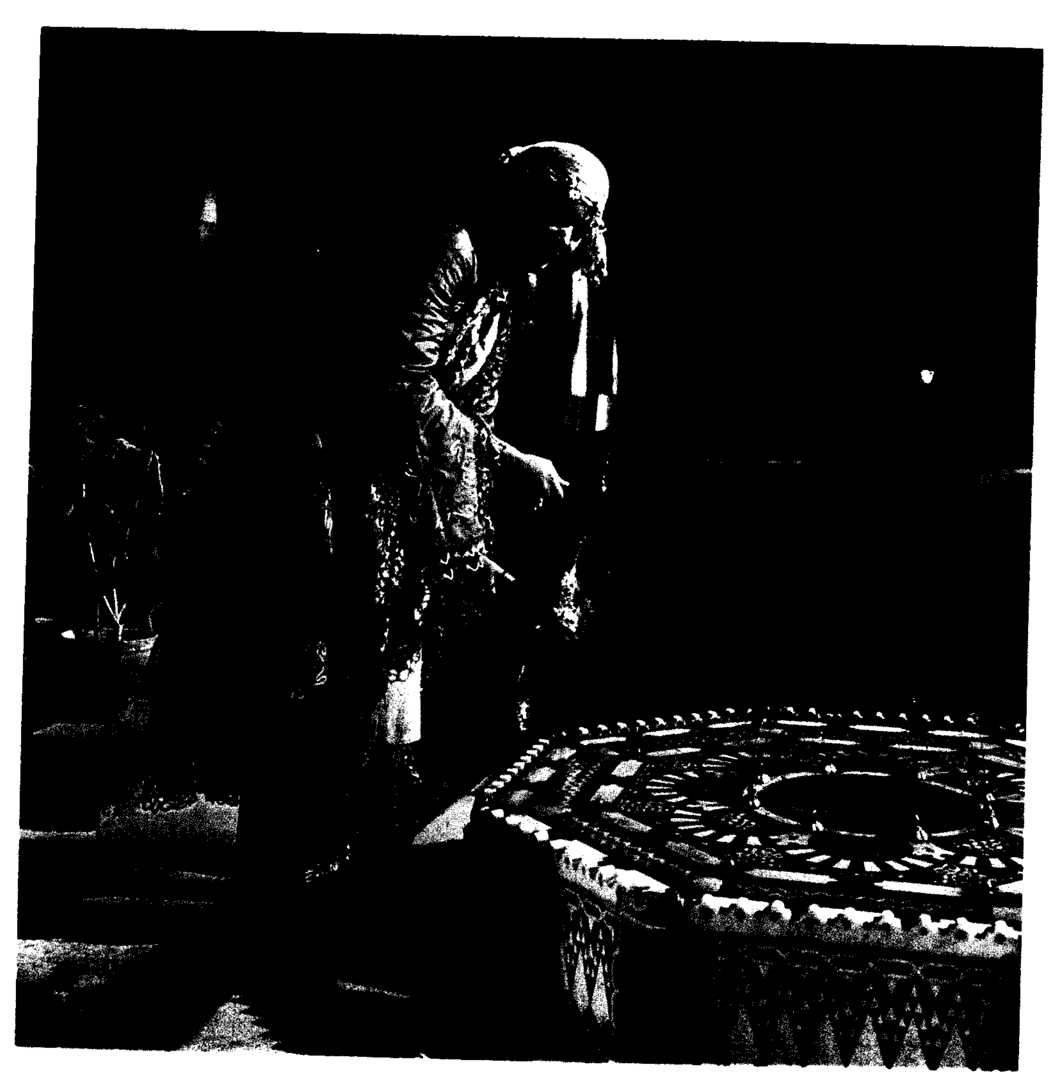
القاعة : غرفة كبيرة في البيت العربي جدرانها وسقفها من الخشب المطلي المزين بالزخارف العجمية ، ولها فستقية ماء في عتبتها او فستقية ماء جدارية ، وهناك قاعة بطزر وقاعة بطزرين وثلاثة ، والطزر هو ما ارتفع عن ارض القاعة . كما يوجد في صدر عتبة القاعة « مصب » من الرخام الزخارف توضع فيه المرآة .

المربع : غرفة مربعة في الديار ولها عتبة وتسمى ايضا المخدع .

الليوان : القسم المسقوف من باحة الدار . يطل على جمال البيت العربي ويستعمل للجلوس في الصيف لرطوبته .

التكنة : النصية ، الغرفة الصغيرة الواقعة في منتصف الدرج بين ارض الديار والفوقاني .

الصالية : غرفة عالية عن ارض الديار بثلاث او اربع درجات ، والصالية معربة عن الصالون . كما توجد الصالية بالطابق الفوقاني .



قصر العظم في دمشق

كاميرا الفنان عبد الكريم الاصفر ـ حماه

النساس : الانسان البارد القلب الذي يبعث على الضجر ، ويقال فلان نساس لان اسلوبه في الحديث يسبب الضيق لما يتضمنه من تعليقات باردة .

السحنوك : تدقود : النحيل الهزيل الذي يبعث هزاله على الضحك .

النايط : النعيان الانسان البارد البطيء .

مجلوء : مدلل . مائع . مفروط .

مجلوع : مشهون على الاكل . عنده شهوة ظاهرة للاكل . يقولون عينه جوعانة مجلوع .

ممصوع : نحيف جدا .

ليــكو : ها هو .

مرقعلينا: مر علينا .

اجا لعنا وراح : اتى لعندنا وذهب .

جئــر : ودح : وقح وعنيد .

الوتوتة : الوشوشة : اثنان يتكلمان همسا .

المظبطة : عريضة موقعة من قبل عدد كبير من الناس تقدم للسلطات ودوائر الامن تحمل شكوى ضد ظاهرة مسيئة للسكان ، كمدخنة فرن .

الكراكون: المخفر .

الشرشوحة: المزرية : التي تعير بلباسها او اخلاقها .

الشرنة : الفوضوية غير المنظمة في بيتها .

ام كمونة : البخيلة .

الجاضومة: امراة ثرثارة وقوية .

البابا حسن: الرزيل .

مدهرن : اهرماني : اكبر من عمره ، صغير ويتكلم كلام الكبار .

سرنوة : خبيثة تخفي خبثها بذكاء .

الحيكيكة : شحمة قرد . بخيل .

الشنتير : الكبير الذي لم يعد طفلا .

العمر لكم

مقابل الحياة الموت .

لا فائدة .. لا بد من الموت ..

اكره الموت . أخاف الموت . لا يقهرني الا الموت .

أنا أهرب من حوادث موت الآخرين . مذ كنت طفلة وبعد ان كبرت وانا اتجاهل واجباتي الاجتماعية تجاه اهل الذين ماتوا . وعندما يموت احد من جيراننا اهرب من البيت حتى لا اسمع اصوات البكاء وولولة النساء على النوافذ والشرفات ، وكلمات الوداع المفجعة للميت وهو يخرج من بيته بلا عودة . تقتلني كلمة ام الميت او زوجة الميت « مع السلامة » .. اية سلامة !! الكلمة خنجر في قلوبنا نحن الاحياء اما الميت فانه لا يسمع ولا يحس ولا يرى ولا يتذكر احدا ، ولن يجيب : الله يسلمكم ..!!!!

ومات زوج احدى صديقاتنا الغاليات . شابة جميلة وذكية وطيبة فقدت فجأة زوجها الشاب الوسيم المحب المرموق الطيب الذي كان يغمرها بالحب والدلال وكل ما تتمناه صبية . ذهب وتركها مع طفليها بلا عودة .

وحدثت في دمشق هزة . الرجل من افضل شبان دمشق خلقا ومركزا وثقافة ورحل الرجل رحمه الله .

ولا بد من الوقوف مع بقية الصديقات الى جانب الصديقة في مصابها الاليم .

انا ... !! ؟

يا ربي كيف اجرؤ على دخول البيت السعيد بعد ان فقد سعادته الى الابد ..؟ واسم صاحب البيت على جرس الباب ..! كان هو الذي يفتح لضيوفه الباب مبتسما مرحبا .. والآن ..! في غرفة الضيوف الخمرية تغير كل شيء . أين القلاطق الخمرية الساتان ! وأين الستائر الخمرية ..! وأين

الثريات اللامعة ! لا شيء . . . كراسي من الخيزران مصفوفة حول جدران الغرفة وفي صدر الغرفة الارملة الجميلة متشحة بالسواد تبكي بلا توقف بحرقة ، وصورة زوجها فوق رأسها تبتسم بسخرية من الحياة التي يهزمها الموت برفة عين .

الموت اقوى اذن . .!؟

ويقفز طفلها الصغير . . يسأل اين ابي .؟ متى يعود ابي يا ماما . .!؟

لا . . الحياة اقوى . الطفل هو الاقوى .

لا بد من تأدية الواجبات الاجتماعية في حوادث الموت .

ولكنني بعيدة جدا عن تقاليد دمشق حيال الموت .

وقبل إن اذهب سألت سيدة عجوز من قريباتنا حتى لا اخطيء في سلوكي ، وبدأت تعلمني قائلة : يا بنتي للموت في دمشق تقاليد وعادات يجب ان تحترميها :

ــ اذا كان الميت صاحب البيت تكون المصيبة كبيرة وخاصة اذا كان شابا . ويحضر الى بيت الميت بعد نشر النعوة ، الاهل من قريبات الميت وقريبات زوجته والمقربات من الصديقات والجارات .

وبعد طلعة الميت . . . من بيته ، وبعد ان يرافقه الرجال حتى « جامع الاموي » او اي جامع آخر للصلاة عليه ، يشيعه الرجال للتربة للدفن اما في « الدحداح » واما في تربة « باب الصغير » وبعد دفنه يقف اهل الفقيد في التربة في صف ويقبلون التعازي من الناس .

فيقول المعزي :

ــ عظم الله اجركم .

ويرد أهل الفقيد :

ــ شكر الله سعيكم .

ويدعو احد الاقرباء الناس الذين حضروا الجنازة للغداء وتعود بهم السيارات جميعا الى بيت الفقيد .

طبعا تكون احدى قريبات الفقيد قد حلفت على النساء اللواتي حضرن الى بيت الميت منذ معرفتهن بالخبر ، لتناول طعام الغداء ، اذا كانت طلعة الميت قبل الظهر ، ولتناول طعام العشاء اذا كانت طلعة الميت بعد الظهر .

ويتكون طعام مائدة الميت من الاكل « السوقي » وهو « الاوزي » وهورقاقات من العجين تحشى بالرز واللحم والفستق والصنوبر ، ويقدم ايضا اللبن والحلويات الشامية والفواكه ، وعلى سفر الاغنياء تقدم انواع المآكل الشامية كالكبب والخضار ، وكل بيت يقدم حسب قدرته . ثم توزع القهوة المرة .

وتنام عند اهل الفقيد القريبات ، وكانت العادة في القديم ان يأخذ الرجال بالخاطر في الصبحية في التربة حيث تنصب خيمة فوق القبر ويقرأ المشايخ القرآن الكريم وتوزع القهوة المرة . ولكن الايام تغيرت ، وتبدأ تعازي الرجال من اول يوم مساء بين المغرب والعشاء واسمها « تمساية » ويقولون عليها الصبحية احيانا ، وغالبا ما ينادي احدهم في المقبرة بعد دفن الميت قائلا : الصبحية مسامحة يا اخوان . وهذا يعني ان التعزية في البيت مساء .

وتعزية الرجال لا كتعزية النساء . يجلس اهل الفقيد على صف من الكراسي في اقرب نقطة من الباب حتى يروا الداخلين والخارجين من المعزين وكلما دخل احد المعزين يقفون له ، ويسلم بيده ويجلس مع الناس فترة قصيرة بينما المشايخ يقرأون القرآن . وتوزع القهوة المرة . وعندما تدخل مجموعة جديدة تخرج مجموعة ويصافح افرادها اهل الفقيد ويقول كل واحد لكل من يصافحه :

ـــ عظم الله أجركم .

ويرد اهل الفقيد :

ـــ شكر الله سعيكم .

طبعا التمساية ثلاثة ايام متوالية لا بد منها .

اما عند النساء فيوم « الموتة » تدعو احدى قريبات الفقيد بعض القريبات جدا للوقوف في العصرية ، وتقف عادة العمات والخالات والحموات (حماة البنت وحماة الصبي) وبنات الاحما والكناين والسلايف وبنات الاخ وبنات الاخت واقرب القريبات . وطبعا تقف في العصرية الاكبر سنا . وهذه الدعوة تدل ان لصاحبتها مكانة عند اهل الفقيد ودعوتهم لها دليل احترام وواجب وخاطر . وفي بعض الاحيان تقف في العصرية عشر سيدات وفي بعض الاحيان تقف في العصرية خمس واربعون سيدة ، طبعا حسب اهمية الميت وحسب المكان وغلاوة الفقيد .

وغرفة العصرية تجلل بالستائر البيض او ذات اللون الرمادي

او الاسود . ولكن المتدينين لا يجللون القلاطق والابواب والنوافذ بالاسود .
وباب غرفة العصرية عبارة عن ستارة قطعة واحدة او ستارتان . وتصف
حول الغرفة الكراسي الخيزران او القلاطق وتجلس في صدر الغرفة زوجة
الفقيد وترتدي الاسود وعلى راسها غطاء اسود وكذلك بناتها ، اما اللواتي
يقفن في العصرية فيرتدين الكحلي او الازرق او الرمادي وعلى رؤوسهن
أغطية جورجيت موسلين بيضاء ويبدأن بقراءة الصمدية في قلوبهن . وعليهن
قراءة آية « قل هو الله احد » مئة الف مرة . كل سيدة تمسك بمسبحة الفية ،
وتقرأ الآية الف مرة كل حبة مرة . وعند نهاية العصرية تكون السيدات العشر
قد قرأن الصمدية على روح الميت .

وجو الغرفة على الاغلب معتم . والى يمين الغرفة ثلاثة كراسي فارغة
للمعزيات . يدخلن دائما ثلاث . تدخل اولا الاكبر سنا ثم الاصغر سنا ثم
الاصغر ويكون مكانها الاقرب الى الباب . عند الدخول تقف لهن النساء بلا
كلام ويجلسن جميعا . ويقرأن ثلاث مرات آية « قل هو الله احد » في قلوبهن
ثم يقفن وتقف النساء جميعا وتخرج هذه المرة من الجهة الثانية للستارة
الاكبر سنا ثم الاصغر فالاصغر .

ويكون الشيخ في غرفة مجاورة يقرأ القرآن . والعصرية تستمر ثلاثة
أيام واول خميس بعد الوفاة . وبعض الناس يقلب السجاد ويغطي فرش
البيت بالابيض او الرمادي ويغطي الثريات ويقلب المرايا ، ويغطي الخزائن
لمدة سنة كاملة ، ولكن هذه العادات اخذت تخف مع الزمن لان الحزن في
القلب لا في المظاهر . وعادة اللباس ان ترتدي زوجة الفقيد وبناتها غير
المتزوجات الاسود وبناتها المتزوجات الكحلي او الرمادي والقريبات الكحلي
او الرمادي او الازرق . ولا تغير زوجة الفقيد لباسها الاسود قبل السنة
حتى يمر من يحلف عليها لترتدي الكحلي ثم الرمادي ثم الازرق او الابيض
فبقية الالوان .

اما اخدان الخاطر فهو اليوم الذي تعزي فيه النساء ويسمح فيه
بالكلام القليل . وهو اليوم الذي يماثل اليوم الذي توفي فيه الفقيد . فاذا
توفي صاحب البيت السبت فيكون اخدان الخاطر كل سبت حتى الاربعين .
وبعض الناس يستقبل المعزين كل اسبوع حتى تمر سنة . وخيمة القبر

تستمر حتى اول خميس للميت . كما انها تنصب في وقفة عيد الفطر وايامه الثلاثة وفي وقفة عيد الاضحى وايامه الاربعة ويستقبل اهل الفقيد المعزين في العيد في المقبرة وفي البيت ، ولا بد من زيارة الاموات في البرية في المواسم والاعيـــاد .

وفي اربعين الميت وسنويته يعزمون الاهل والمشايخ والفقراء على حفلة غداء او عشاء ويحضرون فرقة ذكر . ويوزعون المال على المعوزين علـــى روح الفقيد .

وبعد وفاة الزوج تدخل زوجته بالعدة اربعة اشهر وعشرة ايام لا ترى رجلا ولا يراها رجل ولا يسمع صوتها ولا يكلمها حتى تنتهي العدة .

وفي القديم كانت العادة ان يكون الحزن شديدا ، فكانوا يفكون السرير وينامون على الفرشات « الممدودة » علـــى الارض ويأكلون على الارض وزوجة الفقيد لا تنام على شرشف ، ولا تتوضأ من الابريق لانه « دكر » ولا تمشط شعرها بمشط سن سمك لانه « دكر » ولا تأكل بشوكة ولا ملعقة ولا تشرب بكأس ماء بل من الزبادي ولا تنشف يديها ببشكير ولا تجلس على كرسي بل على الطراحة . اما ملابس الفقيد فكانت تفرق علـــى الفقراء ، ورجال الكلاليب الذين يحملون اغصان الآس والزهور وعلب الميت ، طبعا هذا كله قد بطل الآن ، واصبحت الجنازة متمشية مع الزمن . النعش يحمل علـــى سيارة والآس والزهور تحمل علـــى سيارات والمشـــيعون يركبون السيارات . تغيرت اشياء كثيرة في مدينتنا يا ابنتي ولكن من العيب ان تجهلي اصول العصرية واخدان الخاطر . يا بنتي يجب ان نعرف قدر الناس ونلتقي لهم وقت الشدة والحزن حتى يعرفوا خاطرنا ويلتقوا لنا . لكان . . . الناس لبعضها . . . !!

ومن يومها . . وأنا لي ملابس غامقة الالوان جاهزة صيفية وشتوية وغطاء للرأس رمادي او ازرق حتى أقوم بواجباتي تجاه من احبهم عنـــدما يفقدون عزيزا . دمشق مدينة تحترم الاموات ، فلماذا لا اكون عند حسن ظن دمشق !!

ولكنني أخاف الموت .

لست أخاف ان اموت . اخاف ان افقد من احبهم . ولا اطلب من الله الا ان اموت قبل الذين احبهم جميعا .

انانية !! لا بأس ليتعذبوا افضـــل من ان اتعذب . اتمنى ان ارحـــل وحبيبي الغالي يحيا .

• • •

كركوز وعيواظ

في قهوة حمام « الجوزة » في سوقساروجة وعلـى الكراسي القش الواطية ، سمعت مع بقية الاطفـال في طفولتي هذا الحوار بـين كركوز وعيواظ بصوت الفنان الشعبي المجهول « الكراكوزاتي » :

عيواظ : يا أخي لايمتى انا واياك لا شغلة ولاعملة بكرة اذا وقعتلها شي سرقة بالبلد بحطونا مسؤولين ..!!

كركوز : اي مافي شغل شو بدنا نشتغل ..!!

عيواظ : يا كركوز انت ما بتحب تشـتغل انت زلمة تعودت علـى الكسل .

كركوز : لاقيلنا شغلة حتى نشتغل ..!

عيواظ : تعا نشتغل صيرفية ..!

كركوز : لحتى يقولوا عنا يهودي للبيع ..!!

عيواظ : تعا نشتغل بكار ابوك . فوت اسـأل امك عن كار ابوك ومنشتغل بكار ابوك .

كركوز : يامو .. يا يامو .. شو كار ابي ؟

امكركوز: اوها وميت الحمدلله هاللي ابني صار عاقل ، وابني اجـا عقل الرحمن لراسو ، ابني بكرة بدو يغنى ، ابني بكرة بدو يطوفر .. لي لي لي ليش .

كركوز : طيب شو كان كار ابي ؟

امكركوز: كان ابوك قصاص كلاب ..

كركوز : شو يعني ..؟

امكركوز: كان يشتري بعشر قروش خبز ، ويجمـع الكلاب ويقص صوفاتهن ويبيعها بخمس قروش .

كركوز : سمعان هيك كان كار ابي .

عيواظ : هادا مو كار يقطع عمرك انت وهالكار ..

كركوز : لكان شو بدنا نشتغل ..!

عيواظ : تعا نعمل شحادين .
كركوز : طيب ومين بدو يشحدنا نحنا التنـــين اذا ربطونا بسجرة جوز منقلعها ..
عيواظ : بالله .. هيك رح بشحدك!! انا عندي فاس بقطع ايدتينك، وعندي بلطة بكسر رجلتينك وعندي مخرز بقلع عينتينك وبدور فيك بشحد ..!!
كركوز : امشي .. تضرب انت وهالمزح .
عيواظ : « يغني »

كزل كزل دار
يا عيني دار
عجبي دنايا
بش بش يابش بش

كركوز : امشي يا بش بش على الاموي .
عيواظ : (في الاموي) طالب من الله ومن جود الله ومن كرم الله ملات صحن الاموي ليرات مخمسة مو كتير عليك يا الله ..!!
كركوز : عدم عقلو باذن الله . شو هادا بش بش عدمت عقلك .
عيواظ : لو اعرفك واطي النفس بهالصورة ما كنت شحدت معك . شو بتريد اشحد لك خمسين الف ليرة ميت الف ليرة ..!؟
كركوز : لأ شحاد مال الدنية !! طـــلاع هالطلعـــة والله هالوش فيه خير ..
عيواظ : رح دق هالباب .
كركوز : دق لنشوف بركي الله بيرزقنا .
حرمة : مين ..!!؟
عيواظ : شو مين ... يلعن ابوكي على ابو اللي سكنك بهالحارة . شايف لك اخي قال مين ..!!
كركوز : شو بدها تقلك ..؟!
عيواظ : ما بتعرفي انو كركوز وعيواظ حط فيهن الزمان وما بقى في شي بالحال . هاتي شوفي عندك كنبايات سجاد فرشات معليشي .
حرمة : اذا جوزي باسطنبول .
عيواظ : طيب دقي لو تلغراف باللاسلكي ..
حرمة : لك مطلقة انا .. لك مطلقة ..!!
كركوز : ان شا الله خلصت العدة !!؟

سكر وتتن

قال لي العجوز الدمشقي الظريف :

— يا بنتي بالشام في روح حلوة كتير وناس ظراف وزكرت . وكان النا ايام وقتن كنا شباب ، هلأ كبرنا وراحت علينا .

مرة بشبابي ايام الحكم التركي كنت ضـــابط بالجيش وكـــانت تركيا العثملية مانعة تجارة السكر والدخان ، وكـــل واحد بيهرب « سكر » وللا « تتن » بتكون عقوبتو الموت .

مرقت على خالي بسوق علي باشا . قاللي : يا خالي الله يرضى عليك بدي ياك تمشي مع هالولد من بعيد لبعيد حتى يوصل تنكة « التتن » لعند واحد تاجر ناح البزورية !! قلتلو على عيني يا خالي امشي يا ولد . ومشينا مشينا حتى وصلنا لسوق مدحت باشا ولما قربنا نوصل للبزورية ما لاقيلك الا العالم عم تركض والعساكر التراك عم يلحقو الناس بدهن يكمشوهن . انا حسبت حساب « التنكة » وخفت يكمشونا رجعت الولد بالتنكة قوام . وعند مصلبة البزورية شفتلك العجقة جنازة حافلة ، لاكن التابوت بالارض واللي كانوا طالعين ورا الجنازة هربوا واللي كانوا حاملين الميت والكلاليب والآس كمان هربوا ، مشتغل الركيد على ابو جنب ، مقلوبة الدنية واهـــل الميت عم يبكوا ، والعســـكر التراك بدهن يفتحو النعش ، واهل الميت عم يحلفو الف يمين انو النعش ما بينفتح على ابنهن الميت ، قام نط واحد من العسكر التراك قاللهن :

— بس بدي أفهم شلون بتطلع من بيت واحد عشر جنازات بيوم واحد ما عما تفوت بعقلي . . . . !!

بالظاهر طلعت الجنازة من حارة جنب البزورية ، مسدودة وصغيرة



الفنان ميشيل كرشة — دمشق

وما فيها غير باب واحد . وبهداك النهار طلعت من هالباب شي‌عشرجنازات قام انتبه الشرطي التركي .

ــ بدي افتح النعش !! ما بتفتح النعش !! لا بدي اكسر التابوت !!

الحاصل كسروا التابوت وفتحوه طلع مليان قوالب سكر عم تتهرب من بين البيوت وتروح على التربة وهنيك كانوا عم يخبوها بمغارة ومن هالمغارة عم ينقلوها ويتاجروا فيها . وهالقصة يا بنتي مضحكة وبنفس الوقت بتدل على انو الاستعمار ما كان يقدر يحكم الشام .

وفي قصص حلوة كتير ظريفة كنا نحنا ابطالها وقتن كنـــا شباب . في عادة بالشام قديمة انو اذا مات واحد فقير او واحدة فقيرة مستورة وما في عند اهلها مصاريف « الطلعة » كانوا زكرتية شباب الشام يحملوا ميزان ويحطوا بالكفة الواحدة صابونة ويدوروا على الدكاكين ويوقفوا عند دكـــان دكان حتى يحط صاحبها بالكفة الثانية اللي فيه النصيب واللي بتسمح نفسو فيه . وكان الميزان والصـــابونة بيعنوا بدون شرح وكـــلام انو في واحدة مستورة لازم نتبرعلها بمصاريف التغسيل والطلعة « لباب الصغير » أو « الدحداح » . وهالعادة بتدل على طيبة اهل الشام . ووقتن كنـــا نصير طفرانين وما معنا مصاري لحتى نروح نسكرلنا شي سكرة ، كنا نحنا كم شب نحمل الميزان ونحط فيه صابونة وندور نجمع مصاري للميتة المستورة اللي ما بيجوز نذكر اسمها . ونسهر سهرة لطيفة ليلتها ونحنا عم نضحك ونترحم عالمرحومة . . شغل شباب . .

وكتير مرات كنا ندور نحمـــل الميزان نطلب من الـــدكاكين مساعدة لواحدة « مقطوعة » بالفرن . وطبعا ما في « مرا » مقطوعة بالفرن ، وكنا نساويها حيلة حتى نجيب لحمة « الصفيحة » المقطوعة بالفرن فعلا ولا بد من دفع حقها واجرتها حتى نتغدى غدا لطيف بالسيران على كتف بردى . طبعا على حساب الاجاويد .

شباب . . . سقا الله يا بنتي هديك الايام .

وبعرف قصة حلوة عن واحد شامي اسمو ابو احمد طلع مرة مع‌واحد بدوي بسفرة عن طريق البادية . بالطريق عطشوا قاموا وقفوا على بير مي كانت واقفة عليه عما تعبي بالدلو صبية حلوة .

قالها البدوي : مرحبا . . ما تسقينا يا بنية . . !!

قالتلو : اهلا بيكم .

ومدت الدلو للبير وعبتو مي وقدمتو للبـدوي . شرب . قالتلو : لو اعرف اسمك لقولك هنيا . قاللها : « اسمي بوجهك » . قالتلو : هنيـا يا « محسن » . قامت هية حملت الـدلو وشربت . قاللها : لو اعرف اسمك لقولك هنيا . قالتلو : « قبضة يدك » قاللها : هنيا يا « خزنة » .

اجا ابو احمد حمل سـطل المي ونزل شرب كر كر كع .. ونزل السطل وقال بصوت عالي عريض : الحمد لله . قالتلو البدوية . لو اعرف اسمك لقولك هنيا ..!! قاللها ابو احمد بلهجتو الشامية :

« تعو لقلكن ... انا ما بعرف بهالعـلاك المصدي .. انا اسمي ابو احمد » .

● ● ●

دمشقي ودمشقي

قاللي واحد جاري اسمو ابو احمد :

ابو احمد : كان لازمنا يا شوكت لهالولاد كم شنتة . شو لازمنا ؟
قلتلو :

شوكت : كم شنتة ؟

ابو احمد : اخدنا الولاد ونزلنا على سوق الخجا . لوين نزلنا ؟

شوكت : على سوق الخجا .

ابو احمد : اشترينا تلت شناتي . شو شترينا ؟

شوكت : تلت شناتي .

ابو احمد : بعدين رحنا هيك ناح سوق القروام لوين رحنا ياشوكت؟

شوكت : رحتو ناح سوق القروام سيدي .

ابو احمد : نازلة سجادة بالدلال . شو نازل ؟

شوكت : سجادة بالدلال .

ابو احمد : واصل مزادها للخمس تالاف ، لوين واصل ؟

شوكت : للخمس تالاف .

ابو احمد : ما سمعنا الا ادن العصر . شوة ..؟

شوكت : ادن العصر .

ابو احمد : اخدنا الولاد ونزلنا علأموي صلينا العصر ، شو صلينا ؟

شوكت : سيدي صليتو العصر ..!!

ابو احمد : بعدين طلعنا من باب البزورية منين طلعنا ..؟

شوكت : من باب البزورية .

ابو احمد : هيك واصل على سوق مدحت باشا . لوين رحنا ..؟

شوكت : على دمر .....!!!

ابو احمد : لكان مالك فهمان علي ..!! مالك معي !!

شوكت : لا .. انا تركتك بسوق الخجا !!!!

عنتر أبو الفوارس

حكواتي الشام المشهور ابو قاسم اللي كان يحكي قصص «عنتر وعبلة» بقهوة مصلبة باب سريجة ، صدف يوم من الايام حكى على حرب جرى مع عنتر ، حارب حارب بقى سيدي ووقع بالاسر . وحبسوه لعنتر . اي نعم . تركو ابو قاسم محبوس وقال هون اودعنا الكلام . وراح الحكواتي وراحت العالم . في بين هالعالم واحد مغرم بهالقصة وبحب عنتر ومن انصارو . راح عالبيت أكل وشرب . اجا وقت النوم . قامت قالتلو مرتو قوم نام يا رجال قاللها مو جاييني نوم لأنو عنتر محبوس . فز بقى سيدي اخد « صلاحو » وراح دوغري لبيت ابو قاسم الحكواتي ودق عليه الباب بعد نص الليل . نزل فتحلو . خير ان شاالله ..؟! أمور ..!! قاللو : هيك بيجي من مروءتك انت تنام وعنتر محبوس !! والله اذا ما طالعتو الليلة من الحبس غير ما اطرقك سكين بج كرشك !! غصبن عن راسك بدك تطالع عنتر مشان يرجع لعند عبلة !

هادا الحكواتي عرفو شقي خاف منو قاللو تفضل، عزمو عالبيت وفتح كتاب «سيرة عنتر » قعد يقرالو حتى طلع عنتر من الحبس معزوز مكروم قام برد قلب صاحبنا وانبسط وراح نام مرتاح . اما شلون طلع عنتر من الحبس هي قصة طويلة حلوة قراها الحكواتي ابو قاسم الله يرحمو وقال بعد ما طار النوم من عيونو :

يا سادة يا كرام ...

« قال الراوي » فلما عبر ابو الدوح بالعساكر واستقام على الطريق المستقيمة حدثته نفسه باخذ ابنة عمه حليمة فسار يعلل نفسه وانشديقول:

يا دهر ويحك ان بلغتني الاملا ممن احب ويمسي الحب متصلا

شكرت فضل اياديك التي سلفت حتى اموت وتلقى النفس الاجلا





الفنان أبو صبحي التيناوي — دمشق

قالت حليمـــة اني فيك زاهـــــدة فاذهب وخل لبنت السادة الفضلا
قد عذبت بجفـــــاها مهجتي عجبا وصارعتني ولا أصغت لمن عـــذلا
وعن قليـــل اجازيهـــــا بما فعلت اذا رأت دارها قد اصبحت طلـــلا

سار وهو يعلل نفسه بالآمال وهو يقطع الروابي والتلال حتى قارب دمشق وبقي بينه وبينها يوم أو يومين قال للرجال الذين في صحبته اعلموا انني قد عولت على امر واقول اننا به نأمن الانكار وننال ما نحب ونختار اذ أنتم وافقتموني عليه فقال له القوم وما هو فقال نـــأخذ من الديلم مع العجم الذين معنا ونشدهم على خيولهم عرضا ويكون معهم الف فارس من العرب المتنصرة وندور نحنبألف فارس آخر بهذه البيارق والصلبان ونشرف بهم على البلد وهم معنا في زي الاسارى حتى اذا ركب نائب عمي الى ملتقـــاهم فلا ينكر حالنا احد ويتقدم الينا ويســـأل عن اخبارنا وعســـاكرنا واجنادنا فأحدثه انا بما يشد قلبه واطول معه الحديث حتى يركض منكمخمسينفارس ونملك البلد والباب وقد هانت علينا نحن الامور الصعاب واضرب بعد ذلك رقبة نائب عمي ونبذل السيف في اصحابه ورفقته وقد بلغنا المراد مع اننـــا قضينا غرضا من اصحاب هذه البلاد فقال المستمعون والله يا ابا الدوح لقد اشرت بالصواب وقلت قولا تقبله اصحاب العقول والالباب لان عمـــك اذا بلغه هذا الخبر انكسر ولو ان عسكره بعدد اوراق الشجر ونحن نعلم انهم متفرقون وهم على الهرب عازمون وانه يعود على اثرنا في طلب البلد فتطمع فيه اصحابنا وكل احد ويعلمون بما قد فعلنا وههنا يكون هلاكه على ايدينا ونملك الشام من بعده ونهلك عسكره وجنده ثم ان القوم بنوا امرهم على هذا الترتيب وشدوا منهم الف فارس اسير وهم على خيولهم حتى شارفوا دمشق ووصلت اخبارهم الى عند حامد بن حفيظ وهو الذي كان خليفـــة الحارث الغساني على دمشق وكان عنده ثلثمائة فارس فركب وخرج ينظر اخبارهم فرآهم يتحادروا من سائر الاقطار الا انهم ما ابعدوا عن الاسوار حتى بانت لهم البيارق الصلبان والاسارى بينهم ينساقوا سوق الهوان فقال حامد بن حفيظ يا للعرب انكسرت وحق المسيح فرسان العراق وجاءتنـــا فرسانهم في الاصـــفاد والوثاق ثم جعـــل ينظر الى مقدم الجيش واذا بـــه ابو الدوح فلما رآه صاح به ونادى لله درك يا ابـــا الدوح اخبرني وطيب قلبي بحق المسيح فقال له ابشر يا حامد بالنصر والغنى وبلوغ المنى فقد كسر عمي عساكر الملك كسرى واهلك منها خلق كثير لا تعد ولا تحصى واتبـــع آثارهم ليملك ديارهم وما عدت على هذه الحالة الا حتى اعرضهذهالاسارى عليكم واسلمهم اليكم لانهم من خواص العجم وابطال الديلم وقد امرني ان

اجمع كل رجال الشام والحقه بها الى بلاد العراق حتى يفتح بها بلاد وقلاع عبدة النار لان الراجل انفع من الفارس عند الحصار ثم ان ابا الدوح تم مع حامد في الحديث وهو يحدثه بالمحال الـــى ان علم ان اصحـــابه قد وصلوا وفعلوا ما امرهم به فما استقر بهم القرار حتى سل ابو الدوح حسامه من غمده وضرب به حامدا طير راسه عن بدنه وحملت بنو طي على الرجـــال بصحبته فشالوهم على اسنة الرماح شيلا واي شيل وقد انزلوا بهم البـــلا والويل وعدم منهم القوى والحيل وما سلم من الثلثمائة التي كانت من يخبر بخبر وكان ابو الدوح قد دخل على دمشق عند الصباح وقد اشرقت الشمس على الروابي والبطاح فما صارت الشمس في قبة الفلك حتى لاح لابي الدوح لائح النصر لانه بعد قتله لحامد بن حفيظ امر اصحابه فحلوا فرسان الديلم والعجم ودخل في باب البلد وهجم وقال للرجـــــال والابطال يا ويلكم مكنوا السيوف من العوام والقوا الهيبة في قلوبهم حتى يتم لنا الامر ونادوا باسم الملك كسرى يا منصور « قال الراوي » فعندها حملت الفرس وتبعتها العرب ووضعوا السيف في اهـــل البلد وعلا صياحهم وانعقد وجرت الدمـــاء من الاسواق وقام الحرب على قدم وساق وكانت الغلبة لاهل العراق لان اكثرهم هربوا في الدروب وفاتوا المال بين ناهب ومنهوب وفيهم من طلب الكفـــاح ودام القتال واشتدت الاهوال وتصـــايحت النسوان فزعا على الابطـــال والاطفال وكانت بوقات القوم قد ضربت على الاسوار فرحا بوصول الاسارى والنصر والظفر فعادت اختفت وعدمت فزعا من الاعاجم وانطرحت عليهم العرب والعجم بالسيوف الصوارم وبذل ابو الدوح سيفه في الناس والعالم لانه كان صاحب قريحة واساس وقد حدث نفسه باخذ محبوبته حليمة بين تلك الناس فسطا ابو الدوح سطوة جبار على الاقارب والجوار وصاح في أهل دمشق يا ويلكم ارجعوا الى دوركم والمنازل وتخلصوا من هذا البـــلا النازل لانني سلمت البلد الى الملك كسرى ملك العرب والعجم لاجل ما فعل عمي في حقي وغدر وظلم وغدا تصبح عساكره متتابعة ورايات الفرس مقبلة وطالعة وتجازون على هذه المدافعة والممانعة الا ان ترموا سلاحكم وتطلبوا سلامة ارواحكم والا سبيت منكم النســـــاء والاولاد وفعلت بكم ما فعلت باجنـــادكم لان عمي قد انكسر بالجيش الـــذي معه واسر وهلك اكثرهم والسالمين منهم طلبوا انطاكية وانتم اليوم رعية الملك كسرى صاحب الايوان وملك العراق وخراسان والحاكم على جميع الآفاق والبلدان فتلافوا امركم قبل الندم ولا تقاتلوا من له الخدم تسبى عيالكم والحرم « قال الراوي » وما زال ابو الدوح يقول مثل هذا الكلام وهو يضرب في العوام بالحسام حتـــى

رموا من ايديهم العدد وما بقي للقوم صبر ولا جلد وطلبوا الامان واغلقوا ابوابهم واحتموا خلف الجدار وما امسى المسا وولى النهار بانوار الضيا وكان ابو الدوح برؤوس الدروب والمضايق من اصحابه الف فارس من اصحاب السيوف والمناطق وداروا من حول القصر بالف فارس آخر وكانت حليمة علمت بما جرى من اول النهار فلطمت هي ومن معها من الجوار وعلمت ان ابن عمها ما فعل هذه الفعال الا من اجلها وانقطع ظهرها وحارت في امرها ونثرت شعرها ودقت صدرها وصارت تنادي من الفزع وهي ترجف من الخوف والهلع وكانت قد ظنت ان اباها قد هلك وفي الحقيقة قتلت نفسها مما لطمت على خدودها واشتد مصابها وندمت وتفكرت فيما عملت ونادت الى اهلها وقد دارت بها بنات عمها فقالت من شدة خوفها وتحيرها من ابن عمها وحق المسيح لا بد ما اهلك نفسي ولا اترك ابن عمي يشمت بي ثم ان حليمة جذبت بعض سيوف ابيها ومكنته من فؤادها فلطمتها امها ومزقت اثوابها مما اصابها وقامت اليها ومسكتها بيديها وقالت لها يا بنتي انت اذا عرض عليك الزواج تقولي انا ما أريد رجالا وما أريد الا ابقى على حالتي حتى القى المسيح ابن مريم وانا كما ترى طاهرة دية ما يكون اعظم من هذا يا بنيتي ثم ان امها قالت لها بحياتي عليك اصبري واسمعي مشورتي عليك ان كان لك فيها مصلحة وخبرة والا افعلي ما تريدي وتدبري ما تشتهي فقالت حليمة وقد زاد منها بكاها وكثر شكواها قولي يا اماه ما عندك من الراي حتى انظر ما اصنع ولشر هذا الولد الزنا عني ادفع والا اتلفت مهجتي وتطول على خطيئتي ولا يتملك هذا الولد الزنا من ناحيتي فقالت لها امها المصلحة يا بنتي والصواب اننا نسير وننشر شعورنا وجميع ما في القصر من البنات والستات والجوار والمولدات وندخل كلنا على هؤلاء العرب والسادات الذين هم عندنا في الاسر ونحن باكيات نادبات وتمسك كل واحدة منا بذيل واحد منهم ونستجير بهم ونأخذ منهم الذمام ونبدي لهم ما جرى علينا من المصائب والاحكام ونضمن لهم الخلاص من الاسر وعودتهم الى اهلهم سالمين غانمين ونسألهم المعونة عن هذا الشيطان الرجيم الذي قد نافق علينا وحازانا بالنفاق واتى الينا بهؤلاء الاعجام من قفر ارض العراق واذا علمنا بذلك ما نطلق احد منهم حتى نأخذ عليهم العهد والميثاق فاذا نصرونا وخلصونا جازيناهم بالاطلاق ومكناهم في المال والسلاح والعدد والرستاق وان هم هلكوا قتلنا نحن انفسنا ونكون قد بذلنا المجهود وما نسلم نفوسنا حتى نعجز عن ارواحنا فاني قد سمعت اباك مرارا يقول هؤلاء المحبوسين مالهم في الشجاعة نظير ولا في القتال والحرب والنزال وفي اعطاء

الذمام والصدق في الكلام ونحن واياهم قد أشرفنا على الهلاك على كل حال واطلاقهم في هذه الكرة خير لنا من ان يكونوا في الاعتقال « قال الراوي » فلما سمعت حليمة هذا المقال تعلق قلبها باذيال السلامة وركنت الى كلام امها خوفا من العقوبة والندامة ثم انها جمعت كل من في القصر من البنات الابكار والستات والجوار وحدثتهم حليمة بما سمعته من كلام امها فاجابوها الى ذلك ونشرن شعورهن وهن احسن من البدور والولدان والحور ثم سارت بهن حليمة طالبة الحكرة التي فيها عنتر بن شداد واصحابه الاجواد وجميع الاسارى والكل ساهيات حيارى وقد نشرن شعورهن على اكتافهن « قال الراوي » لما ضرب البوق في البلد وقوى الزعاق وانعقد وقعقعت العمد ورأوا الذين كانوا موكلين بهم قد تصايحوا وخرجوا على صياح النساء والحريم وفي ذلك الوقت دخلوا على عنتر بن شداد في السجن وهم مهتكات وكان عنتر كثير الغيرة على النساء والحريم فنكس عند ذلك رأسه لما نظر الى حليمة والى تلك النساء والجوار التي اتوا معها وقال لهن استرن يا حرائر وجوهكن واقللن من البكاء والانتحاب وحدثوني بما جرى على الحارث الوهاب وكيف طرقتكم هذه الامور والاسباب « قال الراوي » فاعادت عليه حليمة قصة ابن عمها ابو الدوح واخبرته بجميع ما جرى لها معه من الاول الى الآخر وباطن وظاهر واعلمته في الآخر انه قد احتال على البلد وملكها هو وطائفة من العجم وقد بذلوا السيف في القوم العوام وهتكوا يا مولاي الحرائر وكان في فعله جبار جائر وما فعل ذلك يا وجه العرب الا من اجلي حتى يملكني ويجري بيني وبينه ولا احل له لكوني بنت عمه وهذا حرام في دين المسيح وعند اهل المعمودية ويسن سنة قبيحة في دين النصرانية ثم انهم ضمنوا لهم الاطلاق من الوثاق والعودة الى اهلهم بالهدايا والتحف والاموال والخيول العتاق فقال لهم عنتر والله يا جويرات ويا ستات ان دخولكم الى وانتم على هذه الحالة والصفات قد أنساني ما أنا فيه من الاسر والعذاب وقد بغضت نفسي الحياة لعظم هذا المصاب وانا اكشف عنكم هذه الاغلال والوثاق حتى لا يكون قد عملت معكم مكرمة وطلبت في مقابلتها الفضل والاطلاق لان الكرام لا يطلبون جزاء اذا جادوا بالعطاء ولا يذمون الدهر على ما قضى ولا يحملون هم النوازل التي تأتي من السما لان لنا ربا كريما يفعل في خلقه ما يشاء ويقدر الآجال والارزاق وقد تحيرت فيه العقول والاوهام وسلموا اليه الامر والاحكام ثم ان عنتر طيب قلبها ووعدها بالنصر على الاعدا وامرهم باحضار عددهم وازالة الحديد عنهم ففكوهم من الوثاق ففعلن ذلك ، وكذلك فعلت بولده ميسرة واخيه مازن وجميع

الاسارى وما فيهم الا من وعدها ان يتلف مهجته ويضرب ابن عمها بالسيف على قمته ويجتهد في قتلته فقل عنهن البكا والخوف وباتوا طول الليل وهم ينقلون لعنتر ولاصحابه السلاح والعدد والسيوف والرماح والعمد ويفكوا قيود الرجال مع الاغلال حتى صار وقت الصباح واسفر عن وجهه الوضاح وفي ذلك الوقت زحف ابو الدوح الى القصر في جماعة من العرب والعجم وجبابرة الديلم وصارت تصرم الرقاب بالعمد وعلا صياحهم وانعقد « قال الراوي » وكان عنتر واصحابه قد لبسوا الزرد وتدرعوا بالحديد المنضد ووقفوا للرجال بالسيوف والدرق وقالوا لاهل القصر لا فيكم من يصيح ويزعق واتركوهم يدخلوا في ابواب القصر وانظروا ماذا ينزل عليهم من العذاب والحصر وكان الغلمان والخدم قد شدوا لهم على الخيول وقادوا لهم الجنائب ولم يركبوا بل قالوا هذه اتركوها حتى نقتل هؤلاء الانذال ونخرج خلف من يسلم منهم الى ظاهر البلد ويتسع علينا المجال « قال الراوي » وكان هذا التدبير من عنتر الا انه ما فرغ من المقال حتى كسرت الفرس الابواب ودخلت تتسابق الى نهب الاموال وسبي الكواعب الاتراب وازدحمت الرجال وارتفع لهم الصياح الذي يذهل عقل الانسان وكان ابو الدوح مقدمهم يصيح مثل الشيطان وينادي يا حليمة ابشري اليوم بالسبي والاذلال وذوقي العذاب والوبال والبلبال هذا وعنتر يمهلهم ويكف اصحابه عنهم حتى صاروا جماعة في القصر منهم اكثر من ثلثمائة فارس وفي ذلك الوقت زعق في ولده ميسرة واخيه مازن وعروة بن الورد وابن عمه عمر وأبوه شداد وباقي الرجال الاجواد وقد هزوا في ايديهم الصوارم الصقال وزعقوا في الاعاجم كما تزعق الجمال وضربوا في اطرافهم ضربا شديدا اشد من وقعات الصواعق اذا وقعت على صم الجبال فاول من قتل كان ابو الدوح الذي دبر هذا التدبير واحتال هذا الاحتيال الا ان ميسرة التقاه فحمل عليه وفاجأه وكان ابو الدوح قد صاح في ذا الوقت انا قتيل هوى حليمة وسقيم جفنيها السقيمة « قال الراوي » فلما سمع ميسرة كلامه علم انه رئيس القوم فضربه بالحسام جنب اذنه طير راسه عن كتفيه واما عنتر بن شداد فانه حمل على طوائف العجم فنثر منها الجماجم والقمم ومحق ابطال الديلم وكذلك مازن وعروة ورجاله فانهم طلبوا القوم من ذلك الطريق والمخرج وقاتلوا قتالا يغم العدو ويفرح الصديق وصارت الناس تتزاحم عند الدخول ولم يعلموا ان الداخل في القصر مقتول والذي واقف لهم اسد اكول وكل ما عبر منهم قوم بعد قوم صارت رؤوسهم كوم جنب كوم وصياح القوم يسير ورؤوسهم تتناثر وتطير هذا وصياح النسوان قد ارتفع وعلموا ان البلا عنهم قد اندفع

وعلمت حليمة بقتل ابن عمها ابي الدوح ففرحت وعادت اليها الروح « قال الراوي » وما زالت الفرس والديلم وعرب العراق تدخل وبني عبس تمحقها محاقا حتى تضاحى النهار وارتفعت الشمس وانقطع مددها وضعف جلدها فعادت على الاعقاب تطلب الابواب وهي هوازم هراب وصياح العوام عليها من كل جانب قد انعقد وما بقى فيهم احد ما يسأل على احد لان الحكام الذين في القصر نادوا من اعلاه وبشروا اهل دمشق بالنصر وبلوغ المنى واعلموهم بفكاك الاسارى وبالامر الذي جرى فعندها تبادرت العوام على اصحاب كسرى واشفوا منهم غليل كل قلب وصدر وزجوا عليهم الاحجار من اعالي الجدران ورؤوس الدروب وما سلم وخرج منهم الى ظاهر البلد الا كل ضامر مهزول وكان للقوم يوم مهول « قال الراوي » هذا وعنتر واصحابه قد ركبوا عتاق الخيول وخرجوا خلف المنهزمين الى خارج المنازل والطلول وقطعوا باسيافهم الرقاب والنحور وصار الدم من جراحاتهم يفور وما عاد عنتر عنهم حتى اهلك الباقين وتركهم في اقطار البر مطروحين ورجعوا يطلبون البلد وعروة بن الورد يقول لعنتر يا ابا الفوارس ايش في نيتك ان تفعل اتركنا حتى نأخذ الراحة ونتباعد عن الاعدا فقال له عنتر لا وحق باسط الارض ورافع السما اننا يا ابا الابيض لم نغدر بالنسوان الذين اطلقونا من الاغلال والقيود ولا نخلي حليمة تقول نقضوا العهود بل نعود الى البلد فان رأينا الابواب على حالها وهي مفتوحة دخلنا الى البلد وحفظنا المكان الى ان ينكشف لنا اخبار صاحبه وما قد جرى له وان كانت الاخرى وان حليمة اغلقت الابواب وفزعت على اهل البلد منا طلبنا اسما زوجة مجيد ونأخذها معنا ونتوجه الى ارض الحجاز وعذرنا عند الناس واضح وميزاننا يحفظ الذمام والوعد راجح « قال الراوي » وكان الحارث قد انزل اسما في القصر عند اهله وابنته وامرهم باكرامها لاجل ما رأى منها من الحسن والجمال والعقل والكمال وكان قد عاتب ولده ميسرة واخاه مازن لاجلها وبسببها مرارا عديدة وهم في الاسر فاعتذر له مازن مما عملوا وندموا على ما فعلوا فشكى اليه ميسرة ما لاقى من حبها وما كان قد جرى عليه من اجلها فعذره عنتر ورحمه لانه كان على اهل العشق شفوق وبالمتيمين رفوق هذا وعروة بن الورد قد وافقه على الرجوع الى البلد لما سمع منه هذا الكلام وتبع عزيمته في الصدق والوفا والذمام وكذلك فعلت بنو عبس الكرام لانها علمت ان الطريق بين يديها بعيد وانها ما تعود سالمة الا بها واما ميسرة فقال لعمه مازن اطلب بنا نحن الفلاه والنجاه ودع الحاضرين يعايرونا بنقض العهود فاذا حضرت اعدانا يمكن يعيدونا في الاغلال والقيود « قال

الراوي » فقال له مازن يكفي ما مضى ولا عدت اتبع لك رايا ابدا لاني مـــا رايت من رأيك خير لا سيما في هذه النوبة كادت تضرب رقابنا وجهلنا القانا في الاسر والمصائب ولولا اعتذر له اخي وقبل عذرنا كان اهلكنا وان قبحنا عليه مرة اخرى ما يرجع ابد الدهر يسمع منا مقال ولا يقبل منا احتيال ولم يزالوا على مثل ذلك حتى قاربوا ابواب البلد فراوهـــا على حالها مفتحـــة الابواب والقوم يدعون لهـــم من اعلى الاســـوار وصاروا يطلبون القصر والقسوس والرهبان قد تلقوهم وساروا بين يديهم وهم يتلون الانجيل حتى وصلوا الى الدهليز الاول في القصر فتلقتهم حليمة وحولها سائر الجوار وقد لبست ثيـــاب الملك والافتخار ونثرت عليهم النثـــــار واستقبلتهم بالفرح والاستبشار وقالت لعنتر يا ابا الفوارس انتم اليوم اصحاب البلد لانـــكم بسيوفكم خلصتم الجميع ولولاكم كانت بيوتنا خربت واصحابنا مع الاعـــدا سبيت وانا اسألكم ان تنزلوا في هذه الدار التي اخليتها لكم وتمنوا علـــي باحسانكم بالمهلة الى ان يأتي ابي سالم واضمن لكم ان يجازيكم على بعض افعالكم بالغنائم ويعتذر اليكم فيما فعل من الجرائم ويكون لكم ذخيرة علـــى نوائب الزمان فقال عنتر والله يا حرة العرب من وقتها ما رجعنا الى البلد لا نريد منكم مجازاة ولا مال ولا اردنا الا الصدق في المقال لاننا وعدناكم ان نكشف عنكم الشدة ونرجع الى ما كنا . ها قد رجعنا فافعلوا ما شئتم وما تشتهون لان العبد ما يقدر ان يعارض مولاه فيما يفعل والصبر للقضا اجمل فلما سمعت حليمة ذلك تعجبت من هذا المقال وعلمت انه اعتقاد صحيح بعيد عن المحال وكانت قد اخلت لهم دارا كبيرة في القصر وانزلتهمفيها وامرت الخدم بالمواظبة في خدمتهم ليلا ونهارا وانفذت من وقتها النجابين خلف ابيها تعلمه بما جرى ثم ان القوم باتوا في النعيم وهم يتقلبون وبسلامة انفسهم يتباشرون لانهم كانوا في ذلك الاسر ينتظرون الهلاك فامسكوا يتحكمون على اعدائهم كما تحكم الملاك في الأملاك .

وقال الحكواتي ابو قاسم وهو يتثاءب : الى هنا اودعنا الكلام .

وتنهد صاحبنا .. وودع الحكواتي وراح على بيتو مرتاح البال ونام ملات عيونو .

قليلة طلعة عنتر من الحبس !!؟

● ● ●

أين تسكن دمشق

انا من دمشق . بيتي دمشق . فاين تسكن دمشق ؟

نقرت على الابواب ... اسأل : هــل تسكن مدينتي هنـــا ...؟ وفتحت بيوت الشعر في دمشق وجبل لبنان والقاهرة وبغداد ... واذهلتني القصور الفخمة التي تعيش فيها مدينتي المدللة ، وفتنتني الاكواخ الهـــادئة المريحة التي تصيف فيها اثيرتي الحبيبة تحت عرائش الياسمـــين والورد البلدي والبنفشى والليلك ، تظللها الزهرة العطرة من وهج الشمس وترش عليها الكلمة الخالدة اكسير الحياة والديمومة .

نقرت الابواب برفق أسأل :

— انا احب مدينتي .. فمن يحب معي مدينتي !؟

انا أفهم دمشق .. فهل تفهمون دمشق مثلي !؟

نقرت على باب الشـــاعر احمد شوقي .. ورحب بي الرجل العظيم وقدم لي بيديه مفاتيـــح القصور التاريخية العظيمة التـــي عمرها لدمشق الخالدة ولاهلها من احفاد بني امية وصلاح الدين الايوبي .

ضعت بين القصور .. واذهلتني ثلاثة قصور كل قصر منهـــا يضم عشرات البيوت المضمخة بعطر الفخار :

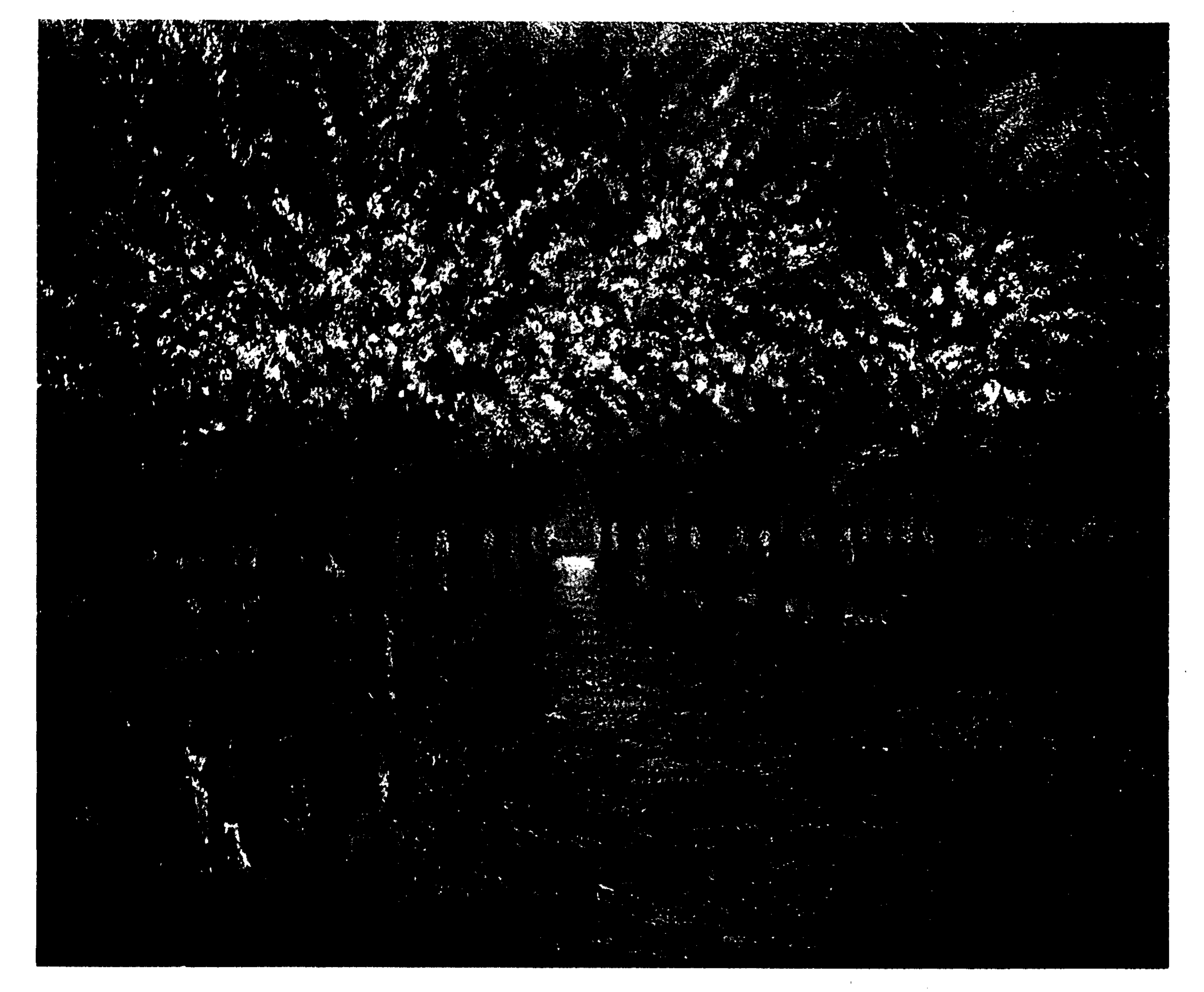
دخلت القصر الاول :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا ... مشت على الزمان احداث وازمان

هـــذا الاديم كتاب لاكفـــــاء لـــه ... رث الصـــحائف باق منه عنـــوان

بنو اميـــــة للانبـــــاء ما فتحوا ... وللاحاديث ما سادوا وما دانـــوا

كانوا ملوكـــا سرير الشرق تحتهم ... فهل سألت سرير الغرب ما كانوا



الفنان سعيد تحسين ـــ دمشق

سيران في غوطة دمشق

عالين كالشمس في اطراف دولتها ... في كل ناحية ملك وسلطان

لولا دمشق لما كانت طليطلة ... ولا زهت ببني العباس بغدان

مررت بالمسجد المحزون اسأله ... هل بالمصلى او المحراب مروان

تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر احرار وعبدان

فلا الآذان آذان في منارته ... اذا تعالى ولا الآذان آذان

وبنى شوقي لدمشق قصرا ثانيا :

سلام من صبا بردى ارق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق

ومعذرة اليراعة والقوافي ... جلال الرزء عن وصف يدق

وبي مما رمتك به الليالي ... جراحات لها في القلب عمق

دخلتك والاصيل له ائتلاق ... ووجهك ضاحك القسمات طلق

وحولي فتية غر صباح ... لهم في الفضل غايات وسبق

غمزت اباءهم حتى تلظت ... انوف الاسد واضطرم المدق

وضج من الشكيمة كل حر ... ابي من امية فيه عتق

وقيل معالم التاريخ دكت ... وقيل اصابها تلف وحرق

الست دمشق للاسلام ظئرا ... ومرضعة الابوة لا تعق

صلاح الدين تاجك لم يجمل ... ولم يوسم بازين منه فرق

سلي من راع غيدك بعد وهن ... أبين فؤاده والصخر فرق

وللمستعمرين وان الانوا ... قلوب كالحجارة لا ترق

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

جزاكم ذو الجلال بني دمشق ... وعز الشرق اوله دمشق

ورفع شوقي لاهل دمشق قصرا ثالثا :

كأن الله اذ قسم المعالي ... لاهل الواجب ادخر الكمالا

ترى جدا ولست ترى عليهم ... ولوعا بالصغائر واشتغالا

وليسوا ارغد الاحياء عيشا ... ولكن انعم الاحياء بالا

اذا فعلوا فخير الناس فعلا ... وان قالوا فأكرمهم مقالا

وان سألتهمو الاوطان أعطوا ... دما حرا وابناء ومالا

سأذكر ما حييت جدار قبر ... بظاهر جلق ركب الرمالا

مقيم ما أقـــامت « ميســلون » يذكر مصرع الاســـد الشـــبالا
تغيب عظمـــة العظمات فيــــه واول سيـــد لقي النبـــالا
اذا مرت بـــه الاجيـــال تتــرى سمعت لهـــا ازيزا وابتهـــالا
تعلق في ضـــمائرهم صـــليبا وحلق في سرائرهـــم هــــلالا

ونقرت على ابواب الشاعر حافظ ابراهيم وفتحت البيوت الفواحـــة بعطر الليمون والنارنج . وقال الشاعر :

« انا من يعرف الشام ويحبها ويحب اهلها » :

حيـــا بكور الحيا ارباع لبنـــان وطالع اليمن من بالشـــام حياني
اهل الشـــآم لقد طوقتمو عنقي بمنـــة خرجت عن طوق تبيـــاني
اقر عيني اني قمت انشـــــدكم في معهد على العرفـــان مزدان
سـكنتم جنـــة فيحاء ليس بهـــا عيب سوى انهـــا في العالم الفاني
في سهلها واعاليهـــا وسلسلها برء العليل وسلوى العاشق العاني
لابدع ان اخصبت فيها قرائحــكم فاعجزت واعادت عهـــد حســـان
من رام ان يشهد الفردوس ماثلة فليغشى احياءكم في شهر نيســـان

ومررت على بيوت الشعراء في دمشق اسأل هل من يحبها اكثر مني؟
وقال لي الشاعر خير الدين الزركلي انا :

بات يرعى النجم والنجم مطـــل والجوى يســـهر والحب يـــذل
ذكر الشـــام فاجـــرى دمعـــه مستهلا ولـــه في الشـــام اهـــل
عج على الشـــام وبلغ من بهـــا شيئا عن مســـتهام ليس يسـلو
يا ليـــــالي بــــواد جلـــق هل ترى يتبع منك الوصل وصـــل
وجنان « السفح » و « الربوة » من كـــان يدري انني عنـــك اغـــل
زعمـــوا ان لربـــي جنـــــة في فسيح الارض تؤوي وتظـــل
حدهـــا الاقصى منـــين فـــاذا أقبل المقبل راق العـــين « تـــل »
يا خليلـــي اذكـــــرا بالله ان جزتما « دمر » من كـــان يحـــل
اذكراني حيث يصـــــفو لـــكما غسق المغيب والنجـــم يطـــل

وقال لي الشاعر بدوي الجبل بل انا :
قف بالشآم مســـائلا اثـــارها مرحى لمن ام الشـــام وزارهـــا
اهوى الشـــآم طريفها وتليدها فتيانهـــا وكهولهـــا وصـــغارها

اهوى ازاهرهـــا احن لعهدهـــا ... اشـــتاق بلبلها احب هزارهـــا
قضيت ايامي القصـــار بظلهـــا ... جادت مدامع مقلتي قصـــارها

وقال لي الشاعر عمر ابو ريشة بل انا :

يا عروسا تنـــام ملء المحـــاجر ... شـــيعي الحلم والطيوف السواحر
ان ان تفتحي العيون الى النســـو ... ر وتلقي على الظـــلام الستائر
طلع الوحي من مفــــارقك الغر ... وبـــانت من راحتيـــه المـــآثر
والنبيون فـــوق ثغرك اغفـــوا ... والنبـــوات ساهدات ســـواهر
فانهضي فالصـــباح يلمس خديـ ... ـك وينساب من خـــلال الضفائر
سكب الحسن روحه فوق برديـــ ... ـك فاصـــبحت فتنـــة للنـــواظر
يا بلادي وانت نهلـــة ظمـــآ ... ن وشـــبابة على فم شـــاعر

وصعدت جبل لبنان الاخضر اتوكأ على السؤال ابحث بين الارز عن جواب . من يفهم دمشق اكثر مني ؟

ورد الشاعر سعيد عقل ردا حاسما : فتح لي الابواب عن دمشق التي تسكن عقله وضميره وقلبه في بيوت مترفة بارائك من الفهم والحب والتقديس وقال لي ردا على السؤال :

ســـائليني حين عطرت الســـلام ... كيف غـــار الورد واعتل الخـــزام
وانا لو رحت استرضي الشـــذا ... لانثنى لبنـــان عطرا يـــا شـــآم
ضفتـــاك ارتاحتـــا في خاطري ... واحتمى طيرك في الظن وحـــام
نقلـــة في الـــزهر ام عنـــدلة ... أنت في الصحو وتصفيق يمـــام
انا ان اودعت شـــعري ســـكرة ... كنت انت الســـكب او كنت المـــدام
ظمىء الشرق فيا شـــام اسكبي ... وامـــلأي الكـــأس له حتى الجمام
اهلك التـــاريخ من فضـــلتهم ... ذكرهم في عروة الـــدهر وســـام
امويون فان ضـــــقت بهـــم ... الحقوا الدنيـــا ببســـتان هشـــام

وقال لي الشاعر بشارة الخوري عن حبه وفهمه للشام وبردى :

بردى نظمت لنا الزمان قصـــائدا ... بيضا وحمرا من نـــدى وصـــفاح
في كـــل رابيـــة وكل حنيـــة ... عصماء تســـطع بالشـــذا الفواح
كم وقفـــة لي في ذراك وجولـــة ... شعرية وهوى الشـــآم سلاحي
فديت ليلك والكواكب في يـــدي ... ولثمت بدرك والضـــياء وشاحي

ليـــل حديدي النسـيج كأنــه — شكوى الهوى وصـبابة الملتـاح
وعلى الضفاف اذا تموجت الضحى — لونـان من ارج ومن تصـــداح
والغصن في حضن الرياض وسادة — نمت على عنقـــين من تفـــاح
متلازمين توجسـا اثـم الهـوى — فتخوفا طرف الضحى اللمـاح

ونقرت على بيوت الشاعر ايليا ابو ماضـي يدفعني حب الفضول فردت بيوت الشاعر بكل ترحاب :

هي الشـــآم مهتدا وكتــابا — والغوطـــة الخضراء والمحرابـا
ليست قبـــابا ما رأيت وانمـا — عزم تمرد فاستطـــال قبـابـا
فالثم بروحك ارضها تلثم عصورا — للعلى سـكنت حصـى وترابـا
واهبط على بردى يصفق ضـاحكا — يستعطف التلعات والاعشـابـا

ودمشق تسكن بيوتا لا مثيل لها بين بيوت العز والمجد عمرها لها من ذرات قلبه وعقله الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري :

يا شـــام يا لمـح الكواكب في دجى — ياموكب الاعـراس في صـحراء
يا موئل الذكرى يغطي ارضـــها — وسماءها حشـد من الاصـداء
يا أم اقيـــال ومـدرج امـــة — وعرين اشـــبال وكهف رجـاء
يا أخت غسان ينـــادم رهطـه — يوما بجلق سـيد الشـعراء
يا بنت مروان يركـــز رايـــة — حمراء فوق رمالـك السـمراء
جل العـــلا ابنيت من اشـــلاء — ارفعت فـوق جمـاجم ودمـــاء
لله انت اكـــل يومك حاشـــد — برجولـــة ومـروءة وفتـــاء
في اي جو عـــابس لم تبزغي — ريـا الجنـاب ندية الاجـــواء
وباي سـوج مكـارم لم يرتفـع — علـــم عليـك مثلث الاجـــزاء
اليوم عيـد الواهبين وفي غـــد — عيد الفتوح وامس عيـد جـــلاء
قدما دمشق لســـنة عودتهـــا — في المجد من عود علـى ابـــداء

وقال نزار قباني بل انا من تسكن دمشق حنايا ضلوعه وتنمو في عقله وضميره فكرة ملتهبة بالحياة ، دمشق لا تسكن بيوت شعري ، بل تسري في عروق دمي تمنحني سر الحياة ، هي عصفور يخربش في جوانحي. استمعي الى حنيني لدمشق عندما كنت بالاندلس :

سـلامات ..
سـلامات ..

الى بيت سقانا الحب والرحمة ..

الى ازهارك البيضاء ..

فرحة (ساحة النجمة) ..

الى تختي ،

الى كتبي ،

الى اطفال حارتنا ..

وحيطان ملأناهـــا

بفوضى من كتابتنا ..

الى قطط كسولات

تنام على مشارقنا ..

وليلكة معرشة

على شباك جارتنا

مضى عامان .. يا امي

ووجه دمشق ..

عصفور يخربش في جوانحنا ..

يعض على ستائرنا ..

وينقرنا ، برفق ، من اصابعنا ..

مضى عامان يا امي ..

وليل دمشق ..

فل دمشق ..

دور دمشق ..

تسكن في خواطرنا ..

مآذنها .. تضيء على مراكبنا ..

كأن مآذن الاموي قد زرعت بداخلنا

كأن مشاتل التفاحِ تعبق في ضمائرنا .

كأن الضوء والاحجار . .

جاءت كلها معنا . .

★

أتى ايلول اماه . .

وجاء الحزن يحمل لي هداياه

ويترك عند نافذتي

مدامعه وشكواه

اتى ايلول . اين دمشق ؟

اين ابي وعيناه ؟

واين حرير نظرته

واين عبير قهوته

سقى الرحمن مثواه

واين رحاب منزلنا الكبير . . واين نعماه ؟ ؟

واين مدارج الشمشير . . تضحك في زواياه ؟

واين طفولتي فيه . .

اجرجر ذيل قطته

وآكل من عريشته

واقطفِ من (بنفشاه)

دمشق . دمشق .

يا شعرا . .

على حدقات اعيننا كتبناه . .

ويا طفلا جميلا
من ضفائره صلبناه
جثونا عند ركبته
وذبنا في محبته
الى ان في محبتنا قتلناه . .

• • •

يا عيني على قصر العظم

قلت لسائق التاكسي :

— هنا ... هنا من فضلك . شكرا .

ونزلت في قلب سوق البزورية ورائحة البخور والمقشات والحبال والصابون والعطور والبن والسمن العربي والشاي والكمون واليانسون والطحين والرز والدخان والزيت البلدي ومربى الورد الجوري والمازهر والزعتر والجوز واكياس الجنفيص والشمع والموالح والفواكه المجففة ، تتعشق ثياب المارة والسواح والباعة ورؤوسهم ونفوسهم وجدران وسقف ودكاكين وخانات السوق .

فتستقبلك « رائحة الشام » رائحة سوق البزورية لو كنت متجها « لقصر العظم » من سوق السلاح الذي ينتهي عند الصاغة القديمة المحترقة التي يطل عليها احد ابواب الجامع الاموي،او لو كنت قادما من حي القيمرية او من سوق مدحت باشا او منطقة الحريقة الجديدة او من باب شرقي .

الشام اشم رائحتها في البزورية فيهزني عطر مدينة التاريخ ، واشم رائحتها عندما انزل من الصحراء فجأة الى الجنة الوارفة الرطبة التي يظللها الحور والصفصاف عند الهامة ودمر والشادروان والربوة .

انا من جديد وجها لوجه امام القصر .

ودخلت من باب اجمل قصر عربي من قصور الشام والمشرق العربي . وفي مكتبة القصر الذي تحول الى متحف للتقاليد الشعبية السورية ، قرأت قصة القصر الحقيقية .

كان يا ما كان يا قديم الزمان تقول الحكاية :

قصر العظم او دار العظم تقع في مركز مدينة دمشق القديمة بالقرب من الجامع الاموي عند اول سوق « البزوريين » . ومكان القصر اليوم يقع داخل معبد جوبتر الروماني ولا زالت آثار جداره عند الباب الفاصل بين

سوق الحرير وسوق الخياطين . ويقال ان دار الخليفة الاموي معاوية بن ابي سفيان كانت في هذا المكان او بالقرب منه او في جزء منه ولم تبدأ التحريات عنه ، ولكن المعروف من المصادر التاريخية انها دار الامير دنكز . وقد اثبتت الحفريات التي جرت في احد زوايا الدار عن وجود فستقية عليها الرنك العائد للامير دنكز وهي من الموزاييك الرخامي ، كما انها كانت دارا اسمها « دار الذهب » عمرها الامير دنكز « تنكز » الذي عمر جامع دنكز في شارع النصر المؤدي الى سوق الحميدية .

وكانت تدعى قبله « دار الفلوس » حيثتضرب بها الفلوس او النقود. وجاء الامير دنكز فسماها دار الذهب وسكن فيها .

وفي سنة ١٧٤٩ م (١١٦٣ هـ) اخذ هذه الدار حاكم دمشق اسعد باشا العظم والي الشام وامير الحج الذي كان مولعا بالعمران وخلف آثارا عظيمة في حماه ودمشق ، وعمرها دارا لنفسه على الطراز العربي المعروف آنذاك .

جمع اسعد باشا العظم الفنانين من بنائين ونجارين ودهانين مهرة . كما استولى على كثير من الاخشاب ومواد البناء والزخارف والاعمدة من دور دمشق والابنية الاثرية من اجل هذه الغاية . وانتهى بناء القصر في ثلاث سنوات واتى آية في الابداع وحسن الريازة وجمال الزخرف ، وكان يهتم بالعمل بنفسه ليلا نهارا وتبرع له اهالي دمشق بكثير من المواد كالاخشاب والرخام والاحجار النادرة وقد ذكر ذلك مفصلا الشيخ احمد البديري الحلاق في يومياته ، وكان حلاقا دمشقيا ذكيا يسجل ما يجري في مدينة دمشق يوميا . وقد روى في كتابه حوادث دمشق اليومية ايام ولاية اسعد باشا العظم قصصا طريفة ، فيها شيء من المبالغة احيانا ، عن بناء هذه الدار وعن الاحداث التي كانت تمر بالبلدة ويعرفها من افواه الذين يرتادون محله كل يوم . كان الشيخ البديري بحكم هذه الصلة اليومية بالناس ، وبسبب ولعه بالزجل والمواليا والكتابة ، يجد حافزا لتسجيل هذه الحوادث كلها باللغة الشامية الدارجة ويشفعها بالمواليا كقوله في واقعة فتحي الدفتري الذي كان قد اساء الى حرم سليمان باشا العظم فلما تمكن منه اسعد باشا قتله قال ؟

يا مافعل فتحي لما صار دفتردار
غره زمانه وسعده حول داره دار
دولاب عزه رقص يا ناس حتى دار
لم يعتبر ان هذا الدهر به غدار

والحكم التركي كان واحدا ، والوزراء والولاة كانوا متشابهين بوجه عام في الاسلوب والسيرة ، والشعب الفقير كان يئن تحت وطأة غلاء يصنعه الاغنياء والتجار والولاة والحكام واتباعهم من الجند (الدالاتية) ومن المرتزقة (القبقول) ومن الانكشارية الذين كانوا يتقاتلون فيما بينهم ويخربون الاحياء تباعا وينهبونها ويحرقونها ويعتدون على الاموال والاعراض فيوما دور الميدان ويوما دور سوق صاروجا ويوما يحل البلاء بالقنوات .

ويصف البديري الحلاق تلك الايام فيقول :

« اشتد الغلاء في سائر الاشياء لا سيما المأكولات مع وجود الاغلال وغيرها . فمن عدم تفتيش الحكام صار البياعون يبيعون بما ارادوا ، غير ان الغنم كان قليلا جدا ، فصار الجزارون يذبحون الجاموس والجمل والماعز ، وصار يباع رطل اللحم الشامي بثلاثين مصرية ، والسمن رطل واوقيتان بقرش . وبقدوم شهر رمضان المبارك غلت الاسعار حتى الخضر . فقد كان قبل رمضان الكوسا كل مائة بمصرية ، فلما هل رمضان صار كل خمسة او اربعة بمصرية ، والباذنجان كان كل رطلين بمصرية فصار كل رطل بمصريتين ، واللحم عدم ، وكل ذلك من عدم تفتيش الحكام .. »

لقد كتب البديري الحلاق عن حياة دمشق اليومية ، يوميات انتهى منها منذ مئتي وخمس سنوات .

اما عن الدار فكتب يقول عن صاحبها الامير اسعد باشا العظم :

« قطع لها ، اي للدار جملة من الخشب ، اثنا عشر الف خشبة ، وذلك عدا ما ارسله له اكابر البلد من الاخشاب وغيرها . واشتغل بها غالب « معلمين » البلد ونجاريها وكذلك الدهانين . واينما وجد بلاط او رخام او غير ذلك مثل عواميد وفساقي يرسل يقلعها ويرسل القليل من ثمنها » ..

ثم يتحدث البديري عن المباني والاوابد والاسواق التي نقضها الامير لاخذ موادها الى ان يقول :

« ... ويقول أئتوني بحجارة المزمر والرخام والسرو وتفننوا بالبناء والنقوش والتحلية بالذهب والفضة . وكلما سمع بقطعة نادرة او تحفة من رخام او قيشاني او غيرهما يرسل ويأتي بها ان رضي صاحبها او ابى ... »

وانتهى البناء سنة ١٧٤٩ وسكن اسعد باشا في الدار مدة (١٤) سنة .

من هو صاحب هذه الدار العظيمة ..؟

هو اسعد باشا ابن اسماعيل الوزير . مولده معرة النعمان سنة ١١١٧ هـ . صار متسلما لوالده بالمعرة وحماه وعوقب مع والده ثم افرج عنه . ثم ذهب الى عمه سليمان الوزير في طرابلس لبنان . ثم انعمت عليه الدولة العثمانية وعلى عمه « بمملكانة » حماه وتوابعها مناصفة وذهب اليها وسار بها سيرا حسنا وعمر بها خانا وحمامات وبساتين ودورا ليس لها نظير في سائر البلاد الشامية .

وجاء في اعلام النبلاء للاستاذ محمد راغب الطباخ الجزء الثالث صفحة ٣٣٤ ما نصه :

« ثم انعمت عليه الدولة بطوخين (الطوخ ذنب فرس معلق على علم) رتبة روملي ، ثم صار جرداويا لامير الحج علي باشا الوزير سنة ١١٥٣ هـ. وبعد عودته ولي صيدا فضاق بها ذرعا لامور يطول شرحها فاستعفى وطلب حماه منصبا ودخلها سنة ١١٥٤ هـ وبذل الاموال الى ان جعلها مالكانة له بعناية الوزير الكبير بكر باشا .. »

وجاء في « حوادث دمشق اليومية » صفحة ٣٥ للبديري الحلاق :

« خلف سليمان باشا في ولاية الشام ابن اخيه اسعد باشا العظم وكان قبل ذلك حاكما بحماه . وقد اقام واليا في دمشق ١٤ عاما متوالية من سنة ١١٥٦ هـ — ١١٧٠ هـ فكان اطولهم حكما .

تولى اسعد باشا ولاية الشام في ظروف صعبة وقد نجح في الادارة والحكم وحاز كثيرا من المدح بالنسبة للولاة المتقدمين عليه » .

ويقول ميخائيل بريك الدمشقي في كتابه :

« قتل في سيواس بتركيا وصودرت متاعه وامواله ومجوهراته » .

ويقول الاستاذ احمد عزت عبد الكريم الذي نشر البديري الحلاق :

« تنوعت الروايات في سبب مقتله، اي اسعد باشا ، الا انى اعتقد ان السبب الحقيقي هو ان الرجل انساق الى المصير الذي آل اليه اكثر ولاة الدولة العثمانية التي كانت تتركهم في ولاياتهم لاجل محدود يجمعون فيه المال ويكدسونه ويظنون انه مدعاة للسلام والطمأنينة ودرع يقيهم بطش السلطان وصروف الليالي والايام ولم يفطنوا الى جلبه للقتل وصنوف البلاء» .

انجب اسعد باشا ولدين اسماء وقبلان . تزوجت اسماء من ابن عمها مصطفى بن فارس . ولم يتزوج قبلان ولم ينجب . وسكن اسعد باشا مع

جميع افراد عائلته وافراد عائلة ابراهيم باشا العظم الجد الاكبر . وبقيت الدار ملك آل العظم حتى سنة ١٩٢٠ حين باع ورثة اسعد باشا اكثر من نصفها للمعهد الفرنسي . ثم استلمتها الحكومة السورية سنة ١٩٤٥ واستملكت البقية الباقية وجعلتها متحفا للتقاليد الشعبية والصناعات اليدوية عام ١٩٥٣ بعد ان كانت مركزا لدراسة الفنون الشرقية .

يقوم قصر العظم على ارض مساحتها (٥٥٠٠) م٢ وقد شيد على الطراز الشامي الذي انتهى اليه فن العمارة في سورية خلال القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي .

ويلاحظ ان منظره الخارجي لا يدل على ما في داخله من مظاهر الثراء. وبابه على اتساعه النسبي ذو زخارف متواضعة وهو يؤدي الى مدخل رئيسي واسع يتصل بالقسمين الاساسيين في القصر وهما : « السلاملك » او البراني و « الحرملك » اي الجواني .

المدخل الرئيسي يؤدي من الجهة اليمنى الى جناح السلاملك وهو معد لاستقبال الزوار من الرجال فقط . وهو بشكل دار شرقية تحف قاعاتها بباحة واسعة تتوسطها بركة كبيرة مستطيلة تدور بها اشجار الحمضيات والزينة ودوالي العنب . وهناك درج يصعد منه الى الطابق العلوي المخصص لمبيت الضيوف .

اما جناح الحرملك فانه يتصل بالمدخل الرئيسي بثلاثة ابواب متتالية تؤدي الى الباحة الرحيبة التي تتوسط اجمل قاعات القصر واغناها. وكانت هذه الباحة الواسعة والبرك المتدفقة بالمياه والاشجار الملتفة الظليلة فوقها هي متنفس الاسرة وخاصة النساء في مجتمع يستنكر خروج النساء من بيوتهن الا في احوال استثنائية ولضرورات قصوى .

الباحة الحرملك مستطيلة الشكل تمتد من الشرق الى الغرب وتطل عليها الاجزاء الرئيسية من البناء المؤلف من ست كتل كتلتين في كل ضلع طويل . وتقوم الى يمين الداخل الى هذه الباحة الكتلة الاولى والتي تضم قاعة الاستقبال الرئيسية وهي ذات ثلاثة طزرات تشكل حرف T باللاتيني وتطل من الخلف على البستان . ومن مميزات الكتلة الاولى الصعود الى قاعتها بدرج مزدوج ، كما ان نوافذها وقماريها العالية المستطيلةو المستديرة والمزدوجة تؤلف وحدة تناظرية جميلة .

اما الكتلة الثانية بعدها الى يمين الداخل للباحة فلها في واجهتها ايوان مرتفع وعلى يمينه وشماله قاعتان صغيرتان . والقسم الخلفي من البناء

يشكل حمام القصر ، وهو نموذج مصغر عن حمامات دمشق العامة يكفي لسكان القصر مؤلف من براني ووسطاني وجواني واربع مقاصير وقميم .

ومن القاعة اليمنى للكتلة الثانية يصعد درج الى الاعلى الى « القصر » الغرفة التي ينام فيها الباشا قديما وبها موقد جداري على الطراز التركي من الرخام الملون يوضع فيه منقل الفحم لخروج رائحة الغاز من مدخنته . ويعد « القصر » من اجمل غرف الدار بتناسقه ونسبه والوان زخرفته المطلية على خشب السرو .

ونلاحظ ان التناظر معدوم في واجهة هذه الوحدة الثانية من حيث عدد القماري والنوافذ ومن حيث الفراغات والخطوط ، ومع ذلك فهي تؤلف وحدة جميلة ترتاح لها العين وتشكل مع بقية وحدات البناء لوحة آية في الابداع . وهذا يدل على عبقرية « المعلم » الدمشقي المهندس المعماري والبناء الفنان الذي يتحسس الفن لا شعوريا .

ويشكل البناءان الواجهة الرئيسية لهذه الباحة السماوية الواسعة . اما الواجهة المقابلة لها وهي الشمالية فهي مؤلفة من جزئين ايضا جزء مؤلف من خمسة اقواس محملة على اربعة اعمدة منها من الغرانيت ومنها من المرمر ، والاقواس مزخرفة بالرسوم الهندسية الملونة « الابلق » .

والايوان الذي يتألف من هذه الاقواس يرتفع بطزرين يميني وشمالي في كل مرتفع فستقية من ثلاث طبقات يتدفق منها الماء بشكل انسيابي جميل . وفي الارضية بين الطزرين بحرة من طبقة واحدة من الموزاييك الملون . وتطل على هذا الرواق ثلاث قاعات بنوافذها وقمرياتها وشمسياتها . وتؤلف هذه الواجهة بهذه المجموعة مع المنظر الخلفي الذي تظهر فيه مأذنة عيسى من الجامع الاموي واشجار السرو حول القصر منظرا رائعا . وهذا الرواق الشمالي معد لايام الشتاء المشمسة .

اما القسم المتمم للواجهة الشمالية فهو بسيط نصفه اصم تماما ونصفه الآخر يحوي قاعة واحدة تعد بزخرفتها وسقفها ونوافذها وشماسيها تحفة من تحف القصر .

اما الكتلة الشرقية المطلة على باحة الحرملك فهي تصل بين القسمين الجنوبي والشمالي وتؤلف شكل طابقين بسبب النوافذ المنخفضة والنوافذ العالية التي يفصل بينها زنار من رواق خشبي يبرز الى الامام لحماية الداخل الى القاعات من الامطار ويجعل ارتباط وحدة البناء بشكل وحدتين علوية وسفلية ، فتقوم داخلها ثلاث قاعات كبيرة زخرفت جدرانها بالخشب

المطلي بالذهب وبالالوان وزينت بابيات الشعر والقصائد الشهيرة كقصيدة البردة للبصيري وغيره من الشعراء الدمشقيين المجهولين .

ووقفت اقرأ على جدران احدى هذه القاعات بعض الابيات بمدح صاحب القصر والقصر مكتوبة « بالمادهب » :

يا جملة الناس قفوا وانظروا ... محاسننا جلت بناها الامير
بيت اتى تاريخه للمنى ... شيده اسعد باشا الوزير*
بيت التهاني باسم مستنير ... بني بتوفيق المعين القدير
شمس المعالي وسط افلاكه ... مشرقة ما ان لها من نظير
والسعد فيه لم يزل قائما ... في موسم الافراح فوق السرير
يخدمه المجد ويأوي الى ابوابه ... والعز فهو السمير
يا اسعد الحظ ويا من له ... في ذروة الفخر مقام كبير
ساعدك الرحمن رب السما ... ودمت محراس الجنان الخطير
في دولة محفوظة سرمدا ... بحفظ آيات الكتاب المنير

والكتلة الغربية المطلة على باحة الحرملك يشكل قسم منها قاعة واحدة والباقي عبارة عن باحة تشكل المدخل الرئيسي وتظللها عرائش الورد البلدي والبنفشى .

ومن باحة الحرملك تنفذ الى الباحة الصغيرة التي تدعى باحة المطبخ وبها بحرة مستطيلة وبعض الاشجار المثمرة ، وبها مطبخ للطعام بكانونة كبيرة وعدة وجاقات ومطبخ للحلويات وغرف لسكن الخدموالجواري وبئر للماء .

وفي مدخل باحة الحرملك تستقبلك البحرة النجمية الشكل وتتألف من ستة عشر ضلعا وفي وسطها نافورة يتدفق منها الماء بنغم رتيب يريح الاعصاب . تليها حديقة مستطيلة قسمتها ساقية ماء الى نصفين تعكس صفحتها ظلال اشجار السرو والحمضيات والورود المزروعة في هذه الحديقة الصغيرة . وترتبط هذه الحديقة ببحرة مستطيلة الشكل من الشمال الى الجنوب بشكل منخفض على محاذاة الارض وعلى محاذاة منتصف قوس الايوان الصيفي الكبير بشكل تسمح معه بانعكاس منظر قوس الايوان وسقفه الثري المزخرف على صفحتها الصافية كما تسمح للجالس على التخت الحجري بقربها ان يتمتع بشرب الشاي في ظلال عرائش الياسمين المعرشة عليه والتي تمتد على طول خط الاحواض الملاصقة للجبهتين

(*) سنة ١١٦٣ هـ.

الشرقية والشمالية مشكلة في القصر زاوية زهرة الياسمين التي يحبهـــا اهل الشام .

يبلغ طول الباحة ٤٥٫٥ م وعرضها ٢٦ م وهي ملأى بالاشجار المزهرة والمثمرة والاحواض التي تتسلق منها جدران البيت شجيرات ترتاح علـى سقائل خشبية لها اشكالها التقليدية . واشجار القصر السامقة هي محط ومأوى للعصافير التي تعود من رحلة النهار لتتلو قبـل ان تنام سيمفونية المســاء .

- اما القصر في الليل فكان ينار بالقناديل الزجاجية الملأى الى منتصفها بالزيت الحلو تشتعل داخلها فتيلة وتعلق بسـلاسل بين الاقواس ، او بالكازات وتوضع في الكتابي الخـاصة بها في القاعات وتحت الاروقة في الباحات . اما تحت المطر فكانت توضع الفوانيس الزجاجية الكبيرة .

ويضم قصر العظم (١٦) قاعة كبيرة و (١٩) غرفة في الطابق الارضي و (٩) غرف في الطابق العلوي و (٣) أواوين ، رواق بخمسة اقواس ، (٤) اقبية كبيرة للحطب والمؤونة ، (٤) برك كبيرة تستمد ماءها من نهر القنوات احد فروع نهر بردى ، (١٩) فسقية ماء بين ارضية وجدارية ، (٣) آبار لا تزال بئر منها تعمل حتى الآن ، و (٥) أدراج تصعد الى الطابق العلوي ، وفي كل قاعة من قاعات القصر تقريبا مدخل يؤدي منها الى درج يصعد الى الاعلى الى غرفة نوم صغيرة واحيانا تطل نوافذها على القـاعة نفسها ، ومصلى بجانب الدار ضم الى دار ثانية ، ومخزن للعربات حول الى مستودع ، واصطبل للخيل حول الى مخازن تجارية خارج القصر .

واجمل ما في قصر العظم الباحة الكبيرة في جناح الحرملك التي تشعر الانسان بالهدوء والراحة والطمأنينة بسبب هذه الوحدات التـي توحي باصالة بعيدة الجذور في الفن العربي الـذي يستمد ذاته من روح الـدين الاسلامي الواضح المفتوح الى الاعلى وللجميع ، الذي يضع الانسان في لقاء مباشر مع الله .

و « المعلم » الفنـان الدمشقي الذي وضـع هندسة قصر العظم والمعماري والعامل والمزخرف والنقاش والنحات ، هـم انفسهم متصلون باللانهاية .

هذا هو الشعور الذي امتلأ به قلبي عندمـا دخلت « قصر العظم » احد اشهر معالم دمشق الاثرية السياحية .

وخرجت وانا أردد في قلبي واقول لكل من أصادفه بعيني :

« يا عيني على قصر العظم » . .

أبلق بجلسة

— سكوت يا ابو عزو .. ضاربلك اليوم طير بيمزع العقل . ابلق حلقاتو قد المجيدي ، الو « سـيخ » ، عيونو كبار متـل الجمر ، جالس متل الديك ..

— ورجينا ياه لنشوف .. طالعو من عبك ..

— تفضل .. تفرج .. شوف هالشوفة ..

— واطي وحلقاتو صغار .

— شو عما تقول . ولك انت شو فهمك بالسوسة .. حط عينـك منيح .. اي شو جديد بالكار ..!؟

— انا جديد بالكار ...!!؟

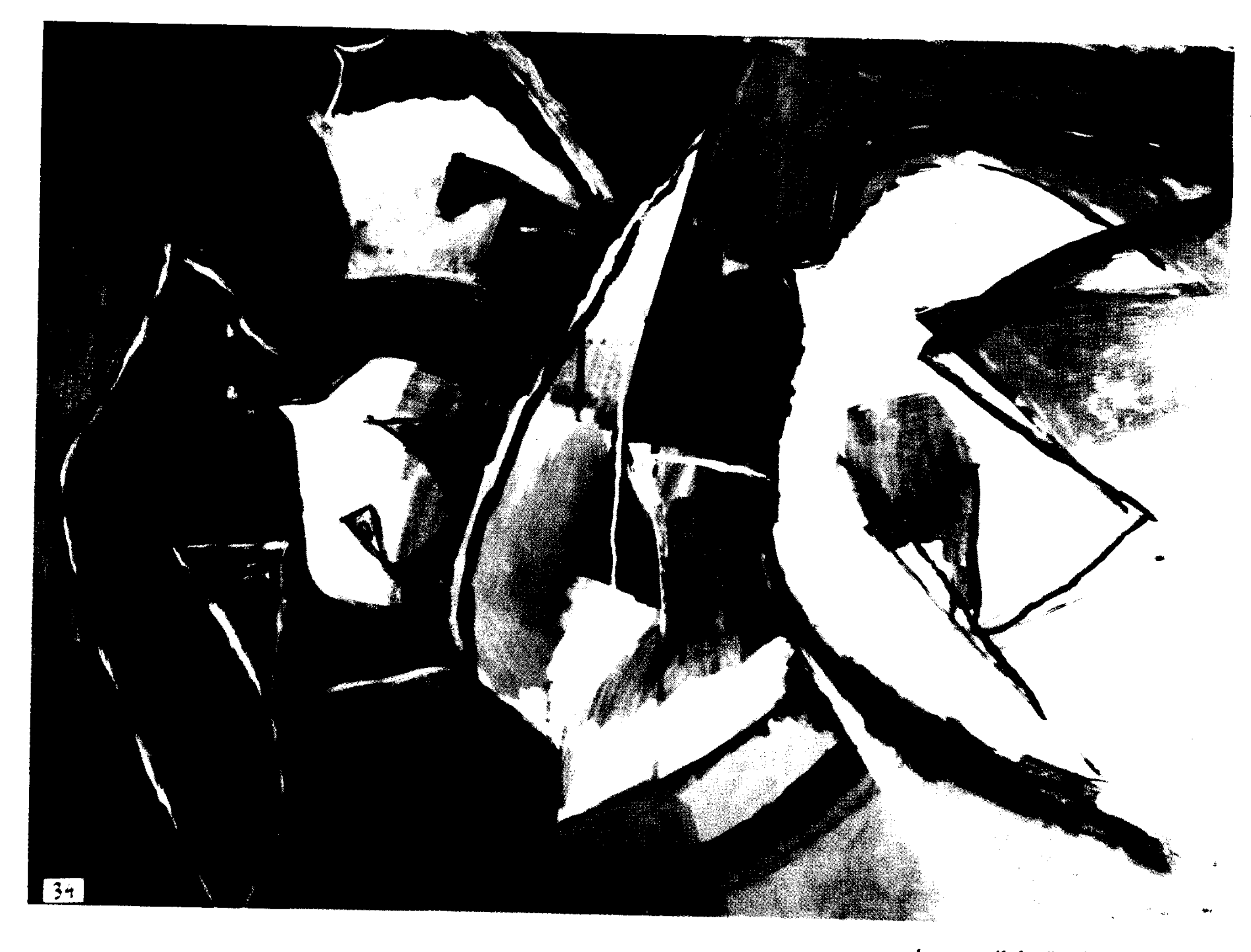
— اي اي يا جماعة طولوا بالكن .. منحكم ابو صطيف اكبر واحد فينا . شو بتقول يا ابو صطيف ..؟

— معو حق ابو حميد ، واطي شوي وحلقاتو صغار .

— اي بتؤمر ابو صطيف انت معلمنا .

— والله يا جماعة كاراشتلكن اليوم ابو صخر . نزلنا كراش انـا واياه خدني جيتك خدني جيتك سـاعتين ، علق معي « شكلي باسود » نزلت فيه فتل برم فتل برم عالبرمة شي ربع ساعة هلكتو كسرت ضهرو . قلبتو قام مسح رديت لبستو ردينا نزلنا فيه علبرمة ، كمان قلبتو مسح رديت لبستو ونزلت فيه فتل برم فتل برم قلبتو قام شنشل علمحط وحط ، شديت عليه وطلعت خلصتو وكفيت الشبك .

— عمي ابو حميد والله كانك عم تحاكيني بالتركي ما فهمت شي .



الفنان خزيمة علواني ـــ حماه

شو يعني « كارشتلك » فلان بلغة الحميماتية ، وشو يعني «لبستو» و « مسح » ونزلت فيه « عالبرمة » و « شنشل » و « عالمحط » ..!!؟

ــ « كاراشتلك » فلان يعني خلطت كشة الحمام تبعي بكشةالحمام تبعو . و « لبستو » يعني رديت لحقت الكشة بالطير اللي كان راح ينزل على الاسطوح مع بقية الطيور حتى تروح تجيبو و « مسح » يعني حطتكل الطيور علأسطوح ما حط معهن يعني منقول « زحل » .

و « البرمة » يعني دورة الطيور حوالين المحط . و « شنشل » يعني صار يحط رجليه عالمحط من غير ما تعلق رجليه يعني ما وقف ابدا .

ــ يا عمي ابوحميد بقولوا الحميماتي مالو شهادةوماحدابيرضىيجوزو بنتو ، صحيح هالكلام ..؟

يا ابني تقريبا صحيح ، لانو الحميماتي ، الطير عندو اغلــى من كــل الناس . وكش الحمام يا ابني سوسة بتاخد وقت الحميماتي كلو . وبعرف واحد حميماتي طلق مرتو تلت مرات من تحت راس الطيور . ولما كــانت مرتو تقوللو يا انا يا هالطيور بالبيت كان يقوللها لأ الطيور !!

مرة راح حميماتي عالحج وترك خمسين دهبة امانة عنــد جــارو الحميماتي بالحارة . بعد الحج رجع طلب امانتو واخدها . بعد جمعــة صاروا يتكارشوا بالحمام . قام الجار مسك للحجي طير . اجا الحجيقاللو: عطيني الابلق ..!! قاللوا : انو ابلق !؟ قاللو الابلق ياللي شديت عليه انــا شايفك ..!! قاللو جارو : والله ما شفتو وما مسكت شي .

هون منشوف يا ابني شلون كذب الحميماتي مشان الطير لاكن رجع الدهب لصاحبو لانو الطير عندو اغلى من الدهب .

ويا ابني في عنا نحنا الحميماتية طريقة حتى ما نحلف كذب ، ما حدا بيعرفها . مثلا في عندي سحاحير خشب كل سحارة الها اسم حارة بالشام . مثلا هي عمارة وهي سوقساروجة وهديك باب سريجة وهديك شويكةوهي مهاجرين . اذا مسكت طير لجاري وكنت صيد انا وصاحبو ،يعني ما في صلح بيناتنا ، اذا اخدلي طير مابيرجعو ، واذا اخدتلو طير ما برجعلو ياه ، وصدف اجا لعندي بدو ياه ، بحط ايدي على السحارة ياللي فيها الطير وبحلف انو الطير مو عندي والله مو عندي بالمهاجرين وبكون مخبى الطير بالســحارة ياللي اشرت عليها وياللي سميتها بقلبي المهاجرين .

شو فكرك يا ابني الطيور غالية واذا كان الحميماتي علأسطوح عم يكش وندهتلو مرتو ينزل اي ما بينزل لو اجا عزيز عينو .

والله مرة بباب الجابية بسقاق البرغل راح شرطي حتى يصادر الحمام لانو طلع امر بمنع كش الحمام ، اي قامت الحارة وقعدت . ومرة تانية راح تلت اربع قتلى بدمر وبدوما مشان الطيور .

— اي ليش طلع امر المنع ..؟!

— من رزالة الحميماتي احيانا . وجيران الحميماتي بيشتكو لانو الحميماتي دائما علأساطيح بيكشف البيوت اللي حواليه والحريم بتتضايق من وجود رجال فوق الاساطيح . لاكن يا ابني الحقيقة انو الحميماتي ما بيتطلع على النسوان ابدا وعندو كل طير بيسوى خمسين مرا . وكمان الجيران بيتضايقوا من وساخة الطيور ومن ريشها بالصيف ، ومن كتر ما بيضرب الحميماتي طيورو بالبطاطا وقشر الليمون والقنب اللي بيضربو بالنقيفة بتقوم بتنزل على بيوت الجيران بتوسخلن ياها بعد ما بكونوا شاطفين بيوتهن ، والجيران بيدعوا انو الحميماتي عم يضرب الطيور بالحجار بتقوم بتكسر قزاز الشبابيك ، مع انو الحميماتي ما بيضرب الطيور بالحجار حتى ما تموت .

— لكان ليش بصفر الحميماتي ..؟!

— مشان تبعد الطيور ، وكمان اذا كان جارو « صيد » وعلقلو معو طير وراح يحط عندو بقوم الحميماتي بصفرلو بينقز الطير وبيرجع وما بيحط عند الحميماتي التاني .

واذا كان الحميماتي بدو ينزل الطيور ومالن عم ينزلوا بالطيرة ، بيقوم بيضرب بالكرباج على تنكة بقوموا بيلعطو وبصيروا على وش الاسطوح وبينزلوا .

— ايمتى بيصير الكش عمي ابو حميد ..؟

— الصبح والمسا . والطير الجديد منطيرو بعد المغرب وبكون جوعان، ومن كتر الجوع والعتمة بقوم بيرجع ما بيهرب بخاف من شي شوحة واللا شاهين ياكلو .

— وشلون بتنزل الكشة بعد ما بتطير ..؟

— منخبطلا بالطيرة .. لانو الكشة بتكون كلها طيور . والطير بشوف الطيرة من علو خمستالاف متر وبينزل مشانها ، وكل ما بعدت الطيور وقدرت ترجع بياخد صاحبها صيت وبقولوا « شقفة فلان عم تمشي » يعني كشة فلان بتطير مسافات بعيدة .

ــ شو بياكلو الطيور ..؟

ــ درة صفرا وحمرا بالشتي ودرة بيضـــا بالصيف وجلبانة لطيور الزق « التفريخ » والطير منطعميه بالصيف شعير حتى ما يضعف ، والطير الضعيف منطعميه « قمبز » . ووقتن بيغلى اكل الطيور بترخص الطيور . والطيور بترخص بالصيف لانا ما بتطير منقصها وبيتبدل ريشـــها وبتكون مقصوصة فترة « بريك » ووقتن بتسقط ريشة بيخلق غيرها . وما بتسقط الريشة التانية حتى تخلق الريشة الاولانية حتى يقدر الطير يطير . يعني الكش بدك تقول بيبدا من اول ايلول لحد مايس اول الصيف .

ــ طيب شلون بيصير الكش ..؟

ــ الطيرة بتكون مقصوصة ما بتطير حتى ما تاخد الطيور معها .

ومنخلي الطيور بـــلا جواز محرومة حتى يطـــير الطير ويرجع وقت منصفقلو بالطيرة . الحميماتي بكش الكشة « بالخيالة » وهية عصـــاية براسها خرقة سودا يا اما حمرا بتقوم بتختلط كشتي مع كشة جاري مثلا وبترجع يا اما معها طير جديد او اكثر ، يا بترجع ناقصة يا اما بترجع كلها .

ــ طيب منين بتشتروا الطيور ..؟

ــ من عند « الجنابطة » بخان البطيخ يا اما من سوق الاحد بحارة اليهود يا اما عند الشيخ حسن في حي الميدان بالشام .

ــ طيب شلون بتصير المعاملة بين الحميماتية ..؟

ــ ها .. لاقوللك ، يا اما « صلح » يا اما « شري » يا اما «صيد» .

ــ ما فهمت ..!؟

ــ « الصلح » بتفق مع جاري على اساس متل ما بعاملو بيعاملني يعني اذا مسك لي طير بيرجعو ، واذا مسكتلو طير برجعو . والصلح لازم تكون المسافة بيناتنا قريبة حتى يزعرلي طيوري اذا راحت لعندو وازعرلو طيورو اذا اجت لعندي وطعمي الطير اللي جاية من عندو لعندي قتلة حتى ما يرجع يعيدها .

ــ قتلة ..!!

ــ اي قتلـــة ..! يعني بضربو بطريقة خاصة حتـــى ما يعود يعيد الذنب . يا اما بضربو بالطارة ، وهية تضييب من خشب التوت الطري والها شبكة . بخلي الطير يطير مترين وبصطادو بالطارة . يا اما بمسك الطـــير

وبثقبلو شحمةمنقارو بريشةمنريشو، يا امـــا بدبوس ، وبتركلو الريشة بشحمتو حتى يصل لصاحبو علامـــة اني انـــا كمشتو وقتلتو ورجعتو . يا اما بفركلو رجليه بطراب الحيط حتى ينقشط جلدو الرقيق ويتكرسح اربع خمستيام مـــا يعود يحسن يمشي بعـــدين بفلتو . يا امـــــا بنتفلو ريشو داير مزبلو .

وطبعا « في » صلح بمصاري ورقة ورقتين تلاتة حق الطير ، وفي صلح ببلاش اذا كانت الصحبة بين الحميماتية غميقة .

— والصيد . . !!

— ها . . الصيد يعني حرب . . لا بعملة في تفاهم ولا بواســـطة في تفاهم . لو دفع لي جاري وكنت معو « صيد » على طير من طيورو وقـــــع عندي عشر اضعاف حقو ما بعطيه ياه . يمكن بدبحو وما برجعو لصاحبو حتى لو جابلي اكبر واسطة . ليش . . لانو منفاخ كبير وانا مالي قابضو .

— طيب والشري . . !!

— الشري يعني التعامل على قد ما بيسوى الطير . . ولك وين الشـاي يا ولد مو شايف عنا ضيوف !! اي سيدي ، يعني ما في علاقات بيني وبـــين صاحب الطير لا بيعرفني ولا بعرفو . بيجي صديق عزيز علي واسطة بقوللي يا ابو صطيف بدنا هالطير الله يرضى عليك . . !! بقوللو انـــا بتؤمر امر . بقوللي شو بتريد ، بقوم انا بقوللو هللي بتريدوه انتو . يعني بيدفع صاحبو حق الطير وزيادة ، واذا ردت اني ما آخد مصاري ما باخد كرمال خـــاطر **الواسطة** .

— هالسوسة يا عمي ابو مصطفى متل مالي شايف عما تكون مورد رزق للحميماتية مو هيك . . !!

— يا ابني بالماضي كان في حميماتية محترفين بياكلوا وبيشربو من ورا الطيور . وبتذكر بطلت هالشغلة من وقت ما طلع امر منع كش الحمـــام الزاجل سنة ١٩٣٨ . لاكن هلأ صفيانة الشغلة سوسة وهواية ولو تطلعت للسما فوق الشام بتشوف اكتر من كشة حلوة .

متل ما قلتلك كش الحمـــام صفيان هواية متـــل الرسم والرقص والموسيقى عند شباب هالايام مو اكتر . والحقيقة سوسة كش الحمـــــام خلقت حتى تمسكلي طير وامسك لك طير وتتعارف العـــالم على بعضها . والمسألة مسألة اخلاق وكل حميماتي بيتصرف حسب اخلاقو . مرة كمشت « حلبي باحمر » لحميماتي اكابر . اجاني صديق عزيز واسطة سألني : انت

كامش « حلبي بأحمر » لفلان . . !؟ قلتللو اي والله . قال بدو ياه صـــاحبو وطلوب قد ما بتريد . قلتللو اعوذ بالله والله ما بدي شي . وعطيت الطـــير الحلو الحلبي باحمر للواسطة وراح رجعو لصـــــاحبو . قام قاللو والله ما بستلمو منك الا حتى يجي صاحبك وقدملو بدالو هدية طيرين بنقيهن على كيفو . وطبعا ما رحت لاني استحيت .

ــ طيب يا عمو . . . هالبنايات الجديدة العالية بالشام احسن واللا الاساطيح العتيقة تبع البيوت العربية . . !؟

ــ يا ابني . . والله هالبنايات العالية عمت قلب البيوت العربيةلاكن الحميماتي بيفضل يستأجر اسطوح عالي .

ــ ما قلتللي شلون بينزل الطير الغريب مع طيورك . .؟

ــ اذا كان جاية مع الكشة طير غريب بصفق انا للطيور بالطـــيرة بتقوم الكشة بتعمـــل برمة حوالين الاسطوح وبتجي لتحط فوق الاسطوح مترين تلاتة بينكسر ضهر الطيور من التعب وبتمل بتقوم بتحط علىاسطوحي بقوم بيحط معها الطير الغريب .

ــ طيب وشلون بتصير تربابة الطيور . . !؟

ــ كل حميماتي بيعرف هالشغلة وبيربي طيورو على ايديه . ووقتن بيتجوز الطير من طيرة وبتبيض بتقوم الام بتقعد علبيض من الصبح للعصر ومن العصر للصبح بيقعد الاب . والطير الصغير باول ايامو بتنفخلو امو بمنقارو هوا ، بعدين بياكل تراب بعدين بياكل جلبانة ودرة .

والله يا ابني مالك علي يمين ، مرة حدث معي حادث غريب . بتصدق انو بين الطيور في خالة مرت أب . . !! يمكن ما بتصدق . . !! اي سمـــاع هالقصة . مرة هربت لي طيرة وما عادت رجعت من كتر ما تضـــايقت من تربابة ولادها . الاب حنون صار يطعميهن ليل نهار . شافتو طيرة تانيـــة صارت تحوم حواليه وتدور حواليه حتى بلفتو ولعبت بعقلو تجوزتو . وبعد ما تجوزتو فاتت على السحارة يللي فيها طيورو الصغار قدام عينو وقتلت ولادو من غيرتها يا لطيف بخشت راس الصغار بمنقارها لانهن مو ولادهـــا وما بدها تربي ولاد غيرها . حدا بيصدق هالقصة . . !! قصص شو بدي احكي لك . . !!

ــ انا هلأ بدي اعرف انواع الطيور . . !!

ــ ايوة . . هـــلأ بدي اترك الحكي لعمك « برو » لانو ســـيد مين بيعرف بالطيور .

— عندك مانع يا عم برو ..

— ابدا يا ابني اهلا وسهلا فيك لسهرتنا ، وانتو الجيل الجديد لازم تعرفو كل شي عن هالتقاليد القديمة ببلدكن . يا سيدي منين بدي ابدالك ؟؟

عندك تلت انواع من الطيور : زاجل وحمام للكش وحمـــام تربابة بيوت . ولازم تعرف يا ابنـــي انو المهم بالطيور الحلوة الطبعـــة والخدود والعشر : يعني لازم يكون عدد الريش بالجناحين يا اما عشرة بعشرة يا اما تمانة بتمانة يا اما تسعة بتسعة يا اما تمانة بعشرة . هادا هوة العشر . واذا كان عشر الطير اقل بكون اسمو طير فالت او اعسر .

والطيور منزينها عادة بخزام بالانف وبصنيجات برجليها مـــع اساور عقيق وشمع وباغة ونايلون وقرن جاموس . والطيرة بزوزقوها وبحمروها بدودة حمرا على خدودها حتى تصير حلوة وتنزل الكشة من السما مشانها. والطير المدلل الحلو بزينو صاحبو باللولو والخرز بكتـــافو ، يا اما بزينو بكردان قطعة حديد بتتعلق برقبة الطير وفيها حبات خرز ملون . يعني الطير الحلو كان يسوى بزمانو تلت ليرات دهب واكتر .

— شي حلو ... والله تمنيت شوف الطيور .

— قبل ما آخدك لعندي بكرة وارجيك طيوري رح عدلك اســـامي الطيور وانواعها وصفاتها .

في عندك البغدادي باسود والبغدادي بابيض والبغـــدادي بازرق . عندك بندوق البغادة : ابوه بغدادي وامو من غير نوع . وفي عندك الريحاني ازرق على رمادي . والشرابي ازرق على رمادي . والسكري ابيض مـــع اصفر فضي . والهزاز ابيض سادة واسود سادة ميزتو بيهتز دائما. وعندك النمساوي : نمساوي باصفر لونو اصفر وراسو ابيض وخدودو بيض . نمساوي بابيض كلو ابيض الو فروة حوالين راسو . وعندك الرؤوفي عداد بيشبه طيور الاموي على لون صفوي طبعا طيور الاموي زرق . وعنـــدك المكاوي باحمر وكلو احمر والمكاوي باسود وكلو اسود والمكاوي بابيض وكلو ابيض . والمكاوي الو ريش طويل بيغطي اصابيع رجليه والو قنبرة براسو . وعندك المسود : جسمو اسود وجناحو بيض . وفي المســـود باحمر وكلو احمر وعشرو ابيض . وفي المسود باصفر .

وعندك الابلق وطبعا الابلق احسن من المسود لانو الو حلق بخدودو وطبعة بيضا على كل خد وحجمو كبير . وفي ابلق بحلســـة لونو رصاصي وعشرو ابيض ، وفي ابلق بخضرة رصاصي سادة وعشرو ابيض ، وفي ابلق باحمر .

وعندك شكالي باحمر وشكالي باسود وشكالي بازرق . وبكون الطير لونو احمر مع تدنيرة (يعني بياض على روس جناحاتو والدنب) .

وعندك شخشرلي باسود وشخشرلي باحمر وشخشرلي بازرق . والشخشرلي حجمو صغير الو خدود وطبعة بالراس مع سمكتين بيض بسفل بطنو .

وعندك بربريسي باحمر وبربريسي باصفر . والبربريسي كلو ابيض وكتافو حمر بالنسبة للاحمر وصفر بالنسبة للاصفر .

وعندك البني كلو ابيض وجناحو سود مع خدود وطبعة بيضا براسو وعشرو مظبوط .

وعندك التقلجي باسود والتقلجي باحمر والتقلجي باصفر . دنبو ابيض والو قنبرة براسو بتكون حسب لونو .

والحلبي طبق الاصل عن التقلجي ما منفرقو وهوة عما يطير بالسما الا من جناحو لاكن منعرفو عالارض من عيونو ومنقارو . وفي عندك حلبي باحمر وحلبي باسود وحلبي باصفر .

وعندك النوري باسود والنوري بازرق . والنوري بكون ازرق يا اسود ودنبو ابيض وحجمو صغير .

وعندك البوظ وهادا طير ابيض والو قضيبين سود على كتافو وتدنيرة للدنب لونها اسود .

وعندك العمري احلس كتافو مكلفة باسود والعمري الاخضررصاصي فاتح على بياض .

وفي عندك يا سيدي بيلندي بابيض وبيلندي باحمر وبيلندي باسود ، وبيلندي سادة : الو تاج بصدرو من نفس لون القنبرة يللي شكلها شكل الشاكوش وعيونو واسعة طبعا والعيون الواسعة من مميزات الجمال عند الطير .

وفي عندك القويز ابيض ودنبو اسود مالو قنبرة. واسطنبولي رصاصي دنبو ازرق مكلف بسواد خفيف والو قضيبين بكتافو من نفس لونو بس على أغمق .

وعنا البلدي لون واحد كلو حجمو كبير مالو قنبرة .

وعندك احمر بلدي واصفر بلدي وازرق بلدي واسود بلدي . وفي طير مرقع امو نوع وابوه نوع وبياخد الوانو من الام والاب .

والمنمر الاب احمر مثلا والام اصفر بيجي الطير منمر لون بين لونين يعني لا احمر ولا اصفر .

والابرش حجمو كبير . وفي عنا ابرش باسود وابرش بازرق . والابرش لونو ابيض والابرش الاسود دنبو اسود والابرش الازرق دنبو ازرق وبكون ضهرو كلو ابيض وريشو مجعد والو طبعة وخدين يا اما سود يا اما زرق .

وعندك المفتل ابيض سادة وضهرو كلو ريش مفتل ومالو طبعات ولا حلق .

الدباني والكشميري كل ريشة لون . ريشة حمرا وريشة بيضا . يا اما ريشة حمرا وريشة سودا .

الكركاطي كلو رصاصي ورقبتو افتح من لونو وفي منو ابو قنبرة وفي منو مالو قنبرة .

القرنفلي كلو اسود وكتافو حمر .

العرجاني كلو اسود على كتافو قضيبين بني . وفي عندك عرجاني باسود وعرجاني بازرق .

النحاسي ازرق مع دقة بني بريش ضهرو .

البقدونسي كلو رصاصي والو خدود وطبعة وضهرو اغمق من جسمو على اسود « مبقج » .

الانكليزي ازرق والو برجليه ريش طويل مشخشر والو قنبرة .

البولوني كلو لون واحد وبيختلف الدنب والو خدود وطبعة . وفي عندك البولوني باصفر والبولوني باحمر والبولوني باسود . والبولوني باصفر كلو ابيض دنبو اصفر والطبعة والخدود صفر وهادا طير حلو ونادر .

والبيرملي باسود كمان طيرنادر وحلو كلو اسود وضهرومنقط بابيض، وعندك بيرملي بازرق رصاصي وضهرو منقط بنقط بيض ناعمة .

وعندك يا ابني النمساوي والتفاحي كلو ابيض وكتافو لا صفر ولا حمر بلون التفاح والو حلق وطبعة .

— والله شي حلو يا عم برو شو هاد انت موسوعة... والله شهيتني صير حيماتي لانو الحيماتي انسان فنان ..

— ليش يا ابني انت شو بتشتغل .. !؟

— صحفي .

— ايه الله يوفق . بقولوا يا ابني انو الادب والصحافة سوســة.. صحيح ..!؟

— اي والله صحيح يا عمي .. وهلأ انا بستأذن تصبحو علــى خير موعدنا بكرا الصبح ان شاء الله على اسطوح بيتكن عمي برو حتى شوف طيورك الحلوين واتعلم منك شلون بيصير كش الحمام .

— اي ميت اهلين وسهلين .

● ● ●

السفربرلك

قال لي ابي فهمي بن مصطفى آغا الترجمان بلهجته الدمشقية العامية العفوية :

ـ كنا ساكنين ببيت الآلش ٠٠ كان عمري خمس سنين لمن مات ابي ٠ قبل امي تجوز عشرة واجا ولاد من تلاتة ٠ امي عائشة رمضان بنت سعيد آغا رمضان وجاب منها : مهيبة ومراد وفهمي ٠٠ انا ٠

وتجوز قبل امي خالدية وجاب منها بنت بدرية وقبل خالدية كان متجوز واحدة شركسية وجابت منو اخي صبحي ٠٠٠ وصبحي هوة أبو شفكي ام عدنان ٠

بعدين مات ابي صفيت يتيم ٠ كان اخي صبحي بحمص باش شاويش رديف لهون قال بدو ياخدنا على حمص انا واخي مراد ٠ امي عطتو مراد وخلتني عندها انا ومهيبة ٠

تجوزت امي واحد ختيار غني ٠ وضليت عندها لحتى كبرت ٠ تعلمت صنعة الحرير ٠ من ايش ٠٠ ! ؟ اجا اخي مراد من حمص بعد ما كبر متعلم صنعة بحمص اجا قال تعلم هالصنعة هون بالشام في منها خانات وشيغ كار طويل عريض ٠

وفي بصنعة الحرير صنعة اسمها صنعة المسدي ٠ وجابني اخي لعند المسدي ٠ وعطاني عشر قروش اشتغلت عمري بيطلع عشر تناعشر سنة ٠ تعلمت الصنعة وصرت صانع وصرت اشتغل بنص مجيدي كل يوم ٠ اشتغلت عند الحلباوي بالخراب٠٠وبعدين عند بيت الصواف معلم بالقيمرية٠ وصنعة المسدي يابنتي يعني بيلف عالدوارة ٠ يعني بيلف قيمة ٢٥ كركر ٠٠ بيلفهن عالدوارة ، بتصير شقة مشان تروح للمصبغة بيصبغوها وبيساووها سدي وبتصير صايات « الاجه حرير » ٠



الفنان عبد القادر النائب ـ أريحا ـ حلب

والدي فهمي بن مصطفى آغا الترجمان

ضلينا نشتغل بصنعة الحرير هيك لحتى كبرنا لحد قريب عشرين سنة ·
وكانت الاجرة عالرطل كـم رطل بيشتغل بيـاخد · بيتنا كان بالبحصـة مع الشمس نروح لحد قبل المغرب · المغرب تمام نرجع ناخد غدانا معنا نتغدى ·
وكانوا يشتركوا معنا بالغدا ·· عندنا تحت فتالة ·· يفتلو الحرير ويطلع لعندنا كراكر ومنساويها شقات · الكار ياستي ··· اول شي بتجي من اوروبا شلل شلل حرير · هالشلة بيعطوها لكبابة الحرير بالبيوت وبالضيع ، فيها منصب بيفردوها عليه ، وبلفو الخشن وحدو واللي طلع أرفع وحدو ، ما بين حرير خشن وحرير ناعم بيساووه شموطة والشمط مدور بيربطوه بين القصب وبعدين بقلعوه بيصير شمط · الشمط بيجي لعند المعلم بيعطيه لعند الصنعية الفتالة بيفردوه عالكوفية وبيلوه بالمي وبيدور مواسير صغار صغار وبيعطيه للدولاب · في سياخ بشكو المواسير بساووهن كراكر هالكراكر بتطلع لعندنا نحنا منساويها شقق · بتروح لعند المعلم · في شقة عددها كبير وشقة عددها صغير · بتروح الشقق عالمصبغة كانوا يعطوها لصابغ اليهود واحدة خضرا سودا ليلكي ·· لحتى هدول من حرير الخام بيصيرو حرير مصبوغ ناعـم بالمصبغة بتتقطع خيطان وبيوصلوا الطيقان ياللي تتقطعت وبعدين بـيردوا بلفوها على خشبات بعد مايبخوها بمرقـة الراس وكانـوا بياخدوها مـن الرواسين لحتى الطاق مايصير ناعم ويتقطع بلفوها كل شـقة واحدة هالقد وهالتخن ·· هي بتروح لوين ، بيجو لعند المعلم · هي سودا مثلا التانية حمرا ، بينحطوا خمس ست سبع تيام حتى تطلع الصاية قلام قلام · مـن هنيك بتروح لصنعة اسمها ملقي · بجيبو راس الشموط وفي مشط واحد · بيقعد قدام واحد وورا واحد بيساووها بالمشط بصفوهن جنب بعض · بتخلص من الملقي بتجي لعند المعلم خالصة صار اسمو سدي · بيجي الصانع الحايك ·· في محلات كبيرة يبقى فيها خمسين ستين نول كل مين بيجي لعند المعلم بياخد صاية وبيشتغل بالمكوك وبيكبس برجليه حتى يطلع المشط وينزل ، وبيضل عما يساووي هيك لحتى تخلص وتصير صاية ·

بعدين بقصوها وبساووها المعلمين بسبع تضرع وتسع تضرع كانوا يبعتوها لمصر لانها تقيلة ، يبقى حقها خمس انكليزيات · التوب المصري عريض وحريرو تقيل ·

قبل ماتصير صاية الها صنعة تانيـــة · ووقتن بتجي صاية من عنــد الحايك لعند المعلم صاية خامية مبخوخة بالزفر · ياخدوها لحمام خصوصي بالخراب بيغسلو فيه الصايات بترجع ناعمة · ماخلصت · هي وين بتروح ·· بتروح عالمنكنة بيسحبوها من اولها لاخرها بيكووها كوي · بتطلع صاية بتروح للدقاق بدقها عالخشب حتى تلمع وبيكووها وبيطبقوها ومن هنيــك بتروح للبيع · وهالصايات في منها صايات « ديما » صايات غزل ·

وكل كار يابنتي الو شيخ كار والو ترتيب والصانع بيشتغل من تحت ايد شيخ الكار . اي عشرين كار ، لصنعة الحرير وحدها ، ونص البلد كانت تشتغل فيــه .

صار عمري عشرين سنة اجا دور عسكرية مراد اكبر مني بخمس ست سنين بدن ياخدوه عسكري . اي نعم . طلع لامو معيل اخدوني انا وهداك صفي معيل .

كل سنة « في » مجلس قرعة هالقرعة بسني سن العشرين . وكان يصير بكل حارة يعملو مجلس عسكرية رديف أو بالسرايا وتجي هالعالم لهالمجلس حتى يكوفوه عسكر (يقيدوه عسكري) .

بعتو عسكري ومعو خبر . شيخ الحارة عندو دفتر قيد . انالسه ماصار سني عسكري طلبو أخي جيب أخوك جابوني . رحت مع أخي لمجلس القرعة بالسرايا . فتنا جلسة طويلة عريضة قومندان ودفاتر . وأخي صبحي كـان باش شاويش رديف . ثبتو انو أخي معيل لامي مالها حدا قالولهن هي أخي . قالوا عمـرك موتمنطعش .. عمرك عشرين (لايقيلا) بالتركي . صرت عسكري اخدوني قبل سنتين . رحت عملت معاملة ودخلت باش شاويش فخري بدائرة الرديف بواسطة يحيىبك صدقيكان بالاركان حربية كانت امونفوس بنت الترجمان . الخلاصة ندهلو قاللو امتحنوا لشيت الرديف .باش شاويش رديف لابياخد تعيين ولابياخد معاش ورتبتو باش شاويش كاتب .

نسيت قللك ..كنت اتعلموانا عماشتغل بالصنعةكنت روحلدرسةبسوق التبن بالبزورية مشقبيت حمام البزورية . كانت تعلم القراية والكتيبـــة مدرسة الشيخ كامل القصاب كان سياسي يعلم تركي وعربي . تعلمتالقواعد التركية كلها فيها ضليت تلت ســـنين . خصصلي الشيخ كامل استــاذ خصوصي ليعلمني .

لقيت حالي لابكتب ولابقرا ، وصنعتنا بدها حساب وبدها قراية .

كان الصانع بدو يكتب عالشقة قديش عددها قديش عدد طبقاتها . بدو يكتب الرطل حسابو مع المعلم . كان عمري بدك تقولي شي خمسطاعشر سنة وقتن صرنا نقرا تركي . الاسامي التركية : الشباك : بنجرا . الباب : كابو القلم : قلم . الطاولة : ماصا .

وتعلمنا الخط .. كنا نكتب بالخط السلس بقلم تخين باحرف مقطعـة واحرف صحيحة .. بعدين صرنا نكتب بالخط الرفيع . كل واحد معوسفينة خطوطها عثمانية فيها كتابة اول الكلمات ومنتصفها وآخرها حفظونا لامية ابن الوردي . بتذكر منهـا :

اعتزل ذكرى الاغاني والغزل

وقل الفصل وجانب من هزل

ودع الذكرى لايام الصبا

فلايام الصبا نجم افل

وعلمونا الصبرات والنشايد والحساب القسمة والضرب والطرح والجمع وختمنـــا القرآن ٠

عدت صرت باش شاويش بدائرة الرديف بالسرايا (الاحتياط) يعني ياللي بيصير فيها مجلس القرعة ٠

السرايا كانت عند لفتة القنوات كانت المشيرية فيها وسراية المشيرية القديمة كان يسكن هون المشير حاكم الجيش ٠ الوالي كان يسكن بسرايـــة الحكومة بالمرجـــة ٠ سراية المشيرية هنيك الاركان حربية وبيت المشير جوه ٠

ووقتن اخدوني عسكري كان المشير الططر عثمان باشا ٠ قعدت بالسرايا عسكري شهر زمـــان شهر القرعة وبعد شهر تاني اعلنوا الحريـــة (حريات عدالات مساوات) انقلاب انـــور باشا ونيازي ومحمود شوكت باشا على عبـد الحميـد ٠

وطلع امر الباش شاويش رديف لازم ياخدوهن عسكر ٠ ردوا اخـــدونا عسكر ٠ ردوا لغوها ٠ رحنا دخلنا بلق التلغراف بطريق الصالحية محل نادي الضباط ٠٠ كان بلق التلغراف اربع سنين ٠ كلهن ظباط عرب وظباط ترك ٠

تعلمت بالبلق التلغراف والهليوسطا يعني اللاسلكي عالضو وبالنهـــار عالشمس ٠ وتعلمنا التلغراف بالكهربا ٠ كتبوا بتذاكر البلق بعد اربع سنين انو خلص عسكرية ٠ اخدنا التذاكر حطيناهن بعبنا ٠ البلق كان فيه شـــي ميتين زلة ٠ تعليم تلغراف واملا وكتابة مانشوف الاجا امر قال هاتو التذاكر قال حرب البلقان ٠ اي نعم ٠ تحضرنا بقى سيدي البلق وحضرنا معداتو ٠ ووقتن صار الانقلاب صار كل يوم التعليم لعموم القطعات الموجودة بالقلعة الصبح ٠ تعليم عالبارودة وعالنظام بالتركي ٠

الاري مرش يعني الى الامام ٠

صاغا دون يعني الى اليمين سر ٠

صولا دون يعني الى اليسار ٠

غيريا دون يعني الى الوراء سر ٠

دور يعني قف ٠ بعدين تعلمنا عالبارودة ٠

صلاح إمظا يعني سلاح على الكتف ٠

سلام دور ٠٠٠

بالقلعة ضلينا نتمرن كل يوم حتى رحنا لحرب البلقان بالبلق بالنهار في تعليم بالبستان ٠

تحضر البلق عددو ميتين زلمة مع عرباياتو ومع الآلات والعدد والاشرطة والماكينات والتلفونات ٠ سافر البلق لحلب بالترين ٠ كان لحد حلب واصل القطار ما كان ماشي على كلق بغازي ٠ بحلب ضلينا عشر تيام نحنا والعربايات والبغال والمكارة والخيل مشينا على طريق انطاكية اسكندرون ٠ نصل عشية ننام بالقرى ٠ نمنا ليلة من الليالي بقرية فاضية مافيها حدا ٠ نامت العسكر فزينا على بكره لقينالك كل العسكر بدنهن متل الدق الازرق مالخدنا وعطينا فيه حيوان عم يلدعنا من تعبنا ماحسينا ٠ كان معنا عشي بالطريق بيساويلنا اكل بيطبخ ٠ قازان عسكر للطبخ ماشي معنا ٠ شوكنا ناكل ٠٠ خضرة وترلو بيتنجان وبندورة وفليفلة وبصل ولحم شقف يسكبو بالقروانة لكل عشر تنفس الكبجاية قد سطل ٠ الخبز يعجنوه ويساووه عالصاج العسكر ٠ ياخدو طحين كل طقم بطقمو ٠ وصلنا لاسكندرون باسكندرون تحضر البلق ٠ قعدنا قيمة جمعة ونزلنا بالبحر مع فرقة عرب ٢٧ قيمة عشر تالاف زلمة شكلوها ٠ ونزلنا بالباخرة «إقدنز» ٠ هيك دخلنا الدردنيل بغاز شنق قلعة ٠ نزلنا بلقنا بلق التلغراف ببلدة (بمايدوس) وكان أيام تلج ومطر نصبنا الشوادر قشينا التلج ونصبناها عالارض ٠ والفرقة مشيت على غاليبولي جزيرة كانت ولاية ٠ قعدنا بمايدوس بدهن يقسمو بلقنا عالقطع الحربية لتامين المخابرات ٠ ليس ٠ انتسبني انا قائد البلق انا وتناعشر جندي ومعنا ماكينات وتليفونات وهليوسطات ٠ نحنا مفرزة بعتونا (بستيم بوت) بابور صغير وقال اليوزباشي جيبولنا كم راس معكن ٠ مشينا طلعنا على غاليبولي لقينا الساحلكلو مهاجرين اسلامبالارض مهاجرين من وش البلغار واليونان ٠ من ادرنة مشي البلغار ورا جيشنا وكسروا حتى وصلوا لغاليبولي وكانت الاراضي نص اسلام ونص روم ٠ صاروا بتفقوا الروم مع الجيش البلغاري واليوناني ويدبحوا ويزنوا بالاسلام ٠٠ صارت تدرا العالم هربت نزلت بعربات بقر على غاليبولي ٠ نحنا قعدنا لقينا أمة لا اله الا الله٠٠ الاراضي والازقة كلها مهاجرين ٠ طلعنا لعند مركز قومندان

قعدنا يومين ثلاثة كتبنا مظروف وحملنا غراضنا وماكيناتنا بعربة بقر وقالوا امشوا عالساحل · نحنا مالنا فهمانين وين رايحين طلعنا بهالوحل ماشيين عالساحل الساحل · ونحنا ماشيين المهاجرين راجعين على عرض الطريق · لك وين رايحين يقولوا رايحين معنا امر · قال اي انكسر الجيش والبلغار قاعدين بتم الجزيرة والجيش جيش عباس باشا كلو رجع· انا احترت بامري· معي امر لوين بدي روح ··· بدي روح لعند القائد · بعدين وصلنا لضيعة اسمها «بولاير» عالاسكلة عالبحر · تطلعنا لقينا عسكر وعالم راجعة · ولك مشكل ·· نسال القائد وين ماحدا يعرف ·· ونحنا ماعرفنا ·· بعدين ماشوف الا قائد بينباشي (عقيد) راكب عالحصان وجاية مكسور مبين من حرب · قاللي عقلي سالوا ياولد · ضربتلو تمني قلتلو بالتركي : بيك افندي بوظرف كيما ونيردا اوطور يور بوقومندان ؟ » ·

يعني هالظرف لمين وصاحب هالظرف انو قومندان ؟ · قاللي صاحب الظرف عباس باشا قائد جيش استحكامات ضيعة بولاير فوق ·

قلتلو بالتركي : بيك افندي! افتكرتو تركي· ماشوف الاجاوبني بالعربي تاري ابن عرب · فرجيتو الظرف قال رجعو برجوع ·· طلاع بطلوع عالجبل· في طريق بالجبل · تاري طالع كل الجيش عالجبل هنيك في استحكامات · خايف ليقوم البلغار يضرب ·

طلعنا لفوق لقينا بناء واحد متل الصرايا براس الجبل بيت صغير ومدافع اسمها يرلي طوب بتدور عالسكة وتلت مدافع كبيرة وطويلة عالسكة بتدور · هون مركز حرب قديم افتكرتي شلون ؟ مركز دفاع قديم · ايه · طلع الجيش التركي ياللي راجع تمركز وتحصن والفرقة اختلطت بهداك الجيش كلو وانتصبت الشوادر بها لجبال وقعدنا ·

انا بدي بدي امن نفسي انا ومفرزتي لمين المخابرة تبعي بدها تكون لانو جيش ؟ لانو قومندان ؟ بدنا ناكل بدنا يعطونا اكل · اجينا لباب السرايا بدنا نفوت · النوبتشي قال : يسق ممنوع · جمار ماكان يفهم مني · وقفت والبغال تبعنا والعربايه واقفة هيه والجنود تحت المطر ·· والماكينات · النتيجة ماشوف الا ظابط عما يفوت ويطلع «بيشروش» · اجيت لعندو بترجاك تنبيني هالظرف لمين · تطلع هيك ·· قال لعباس باشا · هوة جوة فوت · فت معو دغري لقيتلك رجل شعر شايب ختيار كبير قال انتو مفرزة تلغراف · قلتللو نعم حضرة الباشا ·

قاللو : نافز افندي ·· ؟ نده للضابط · افندم باشا حظرة لاري ؟

قاللو : حالا عطوهن شادر وخيمة هدول مفرزة انا طالبها لمخـــابرات الجيش ٠

كنا نشوف بروس الجبال البعيدة البلغار ٠ انا حضرت آلة هليوسطا (مخابرة لاسلكي) ٠ واحدة بعتناها للمدرعة وواحدة عندنا ٠ انا صرت خابر المدرعة ٠ يعطوا امر للمدرعة اضربي من مسافة كذا فلان كذا نقطة عند البلغار ٠٠ نشوفها نحنا بالدربين بالناضور تطلع « الكلة » من المدرعة عالبلغـــار نشوفها فين تنزل يعني هادا اسمو اشغال ٠

ماشوف الا القائد هنيك عباس باشا عطاني امر قال انت بمانك مخابرة وبتعرف بتمديد الاسلاك بدك تنزل عالبحر ٠٠ بيتحضرلك بابور صغير أنت وخمس ست نفار بتاخدو معكن ديناميت وبتمشو بالبغاز حتـى اذا طلعنـا عالبر منلاقي البلغار بالجبال ٠ قال بدكن تروحوا تدفنوا الديناميت بالقلعة ياللي قاعدين فيها قواد البلغار ٠ سرايا صغيرة ٠ دائما بالاستحكامات بيلتقى بناء صغير بيقعدو فيه القواد ٠ النتيجة نزلنا بهالبحر واخدنا معنا (منياتو) مشانٍ اذا مدينا الخطوط من بعد ندفن الديناميت منربط شريط فيها لعندنا في دينامو منربطها بزر الدينامو ومنفتل الدولاب الصغير مابتلاقي الا قدحت نار ٠

نزلنا بالبحر بالليل « بستيم بوت » مشينا بالبغاز هيك على حدود البر ٠ نحنا بالبحر والبلغار بالجبال ٠ قربنا شوية شوية سرقة بالليل ٠ نزلنا بقى ستي اخدنا الشريط واخدنا الديناميت وصرنا نتلطى بالوديان ٠ مشينا في اضوية البلغار فوانيس ، والمركز فهمانينو تمام طلعنا على مهلنـا قريبين للاسكلة على مهلنا ٠ صرنا نتلطى بالوديان وبالشجر حتى وصلنـــا لفوق تطلعنا لقينا نوبتشي رايح جاية خفر مصلح قدام القلعة ٠ استنينا لحتى قفى لـورا القلعة يمشي ورا البنا قيمـة ربع سـاعة ولهناح نص ساعـــة استقفيناه ونحنا عما نزحف على بطناحتى وصلنا لطرف البنا لقرنة مابشوفنا منها حفرنا هالطراب شوية وعما نحكي وشوشة ٠ ليس ٠ حطينا هالديناميت وطمرناه وسحبنا الشريط وكشينا الموت عن كتافنا لوشافنا النوبتجي رحنـا فتلى ٠ ربطنا الشريط وصرنا نكر الشريط من الكركر معنا (شريط « قابل » كوتشوك) نزلنا دوغري عالبابور الستيم بوت ٠ أخدت معنا هالشغلة قيمة ساعتين ونص قريب يأدن الصبح ٠ اكدي النقطة ٠ أي نعم ٠ ونزلنا للبابور٠ حطينا المنياطو ربطنا بماكينة المنياطو الشريط وفتلنا الدولاب وانو يطلـع حس لغم اعوذ بالله طويل عريض قرقع البرية والبغاز ٠ نحنا سمعنا وقلنـا يالله شغل بعيد عن الساحل اشتغل الضرب من فوق البحر حسبو تعرض من البحر ٠ ماصابني شي ونفدنـــا ونفدنا ونفدنا ٠ ندهلي عباس باشا بعـد مارجعنا وقاللي : عفرم سان قبضاي٠٠عفرم انت عسكري قوي وعطاني تقدير عفرم وبعتلي امر تتشكر هالمهمة :

« مهمتني تماميلا يابطن تشكر ادرم » ٠ اي نعم ٠

رجعنا قعدنا بيطلع عشر تيام تحت الخيمة باستحكامات بولاير فوق والدشمان قعد بعيد عنا اربع ساعات٠ يابي الدشمان البلغار واليونان ٠ عملنا بقى جبهة نحنا وهنة قدام بعضنا ٠ كان اجوهن قعدو بتعرفي منين ٠٠ ؟ من ادرنة عشرتيام لحتى وصلوا لشبه جزيرة غاليبولي ٠ هي بتدخل فيها استنبول وشنق قلعة والبوغاز شنق قلعة وسد البحر وكليت البحر (قفل البحر) شغلة معتة !! كلو موجود بهالجزيرة هنيك حاطين المفرقعات ماحدا بيقدر يدخل من المدرعات والبوابير ٠٠٠

ـ يا ابي انو بوابير ٠٠ ؟ !

ـ بوابير البحر ٠ ماحدا بيغضر يدخل فاجوا هدول قعدوا ٠ طالعنا قطعة لقدام من الجيش من بولاير ومنها خفرات لقدام وكمان البلغار قطعتو الاخرانية وفيها خفرات لقدام ٠ وبهالمسافة مابين الجيشين اسسنا بين الخفر والخفر ساعة زمان ٠ هون عملنا تلفونات اذا لقينا حركة من الجيش منعطي خبر لورا للجيش ٠ ووزعنا الماكينات على غير قطع ٠ ندهلي الباشا قال ياالله حضروا حالكن بدكن تمشوا مسافة خمس ست ساعات لبلد اسمها القواقلي بدك توصل الجيش ببعضو ٠ ومن القواقلي صرنا ناسس مخابرة تانية لغير قطعة٠ الخلاصة قعدنا هنيك مدة قيمة ست تشهر في فرقة العرب ٠ واسسوا فرقة تانية اسمها (مرتب فرقة) هدون فرقتين كل فرقة تناعشر الف مانشوف الا جاية انور باشا رئيس الاركان حرب حاكم الجيش ومحمود شوكت باشا وزير الحربية٠ اجوا زاروا القطعات كلها الموجودة بجزيرة غاليبولي بعدما زاروا القطعات ورتبوا « الفرقة مرتب » ورتبوها مع « فرقة العرب » وعطوا معاشين معاشين للجنود ٠ كانوا يعطوا الجندي النفر مجيدي والاومباشي مجيدي ونص ٠ والشاويش مجيديين والباش شاويش مجيديين ونص ٠

انا كنت باش شاويش يعني قائد مفرزة تلغراف ٠ وعطوا امر بالتعرض عالبلغار ٠

تحضروا الفرقتين بالليل ومشيت السواري (الخيالة) قدام الكل ومشيو وراها الجنود والمدافع ٠ هادا تعرض جيش متل حكاية الاستعراض يعني هيك مشينا ٠ الصبح بالليل مشي هالجيش كلو وقال الكريم خود امطار اعوذ بالله ٠ وهنيك مافي حجر ، كلو احراش وطراب احمر ٠ غرقنا بالمطر ٠٠

مطر على طول الخط مافترت ٠ وهالجندي ماشي عالحرب بدو يلتقي مع البلغار ٠ وقتن شاف البلغار انو جيش ماشي بدا يضرب المدافع وطلعت طياراتو ٠ في عندو طيارات بتنزل قنابل بتحفر قد هالصندوق ٠ من هداك

الزمان عندو طيارات اي والله يابنتي • ضل جيشنا عم يطلع عالجبـال تحت الضرب • لمنبيقربوا المدفع مايعود يفيد صاروا يضربوا مترليوزات هيـك لحتى بآخر النهار بقى سنتي وصلنا ، عيضة اعوذ بالله • ورجعنا البلغار واستلمنا جبخانات علو جبل ومشقيتها طواب مدافع • إي نعم • ترك المدافع ورجـع هرب •

عسكرنا مافي انتظام فلتت المسالة مابقى ظابط يعرف جنودو من كتـر ماراح قتلى •

مدافعنا ماطلعت معنا لفوق •• جبال وطين • بدل مانستعمل مدافعـن مسكوها العسكر ولحشوها عالوادي •• انو ربحوا •• فرحانين •• هــرب البلغار !! تاري الديوس رجع حضر قــوة تانية من ورا وارتد اعوذ بالله • العسكر هنيكة في قرية صاروا يكمشوا الجاج بدهن ياكلو • النتيجة بـدل مايستعملو الجبخانات والمدافع فترت المسالة والتهوا بالاكل والجاج • رجع البلغار علينا هوة والعسكر ونزل فينا الضرب اعوذ بالله• رجعت العسكر ردت انكتت من الجبال عالسهول ونزل فينا شل • رجع من ارباعشرين الف جندي ميتين عسكري • كلو صفي بالارض • وهالميتين عسكري وصلوا لبولاير بدهن يلحقوا طريق غاليبولي ويهربوا مع المهاجرين • كان زكي بك العظمة قائـد ببولاير ماسك الجبهة هوة وعباس باشا • صار الجندي ياللي بدو يرجـع لغاليبولي ويستلم طريق غاليبولي بدهن يقوصوه • مد العسكر هالميتين نفر من البحر للبحر جندي بعد جنديبعد جندي ميتين نفرصفهن بمسافة هالساعة زمان بين البحرين من هالناح البغاز البحر ومن هديك الناح (كرفز) جزيرة غاليبولي •

نمنا هديك الليلة بقلق مهول • نحنا رجعنا مع الميتين نفر • لعـلا بكرة اشتغلت المخابرات مع استنبول بالليل • طوال الليل مخابرات مع انور باشا ومحمود شوكت باشا انو الجيش انكسر • بعرف صبح الصباح نحنا قاعدين عالي اسكلة غاليبولي منشوفها •• تطلعنا لقنا قيمة اربعين بابور عسكر اجو بالليل من استنبول على اسكلة غاليبولي • ضلت العسكر جمعة تطلع مـن البحر وأجت مدرعات مشان توقف بالبغاز مشـــان تحمي طلوع العسكر اذا تعرضلها البلغار • البلغار خافوا ماجوا • تطلعت بقى سيدي خمسا وتلاتين اربعين بابورعسكر قيمة سباعشرين فرقة عسكرالجبال انتلت شوادر•وتركنت الجيوش بالجبال والاحراش قدام الدشمان •

ايطلعوا الطياراتكشفوا لقواجيش عرمرمماتعرضوا ضلوا قاعدينبارضهن حزري قديش قعدنا بعدن منها ست تشهر هالجيوش قاعدة ونحنا بهالشوادر

والاحراش ست تشهر بدهن يعملوا تعرض تاني ٠قضينا مدة ست تشهر تحت التلج الشوادر كلها انطمرت بالتلج الجندي يطلع ربع ساعة بس اذا تأخر بروحوا يلاقوه يابس٠ الحرس ربع ساعة٠كشفت الدنية من التلج وصار وش الصيف قالوا « تعرض » وفزت هالجيوش متل مافزت بالاول الصبح تمام ٠ كلها كانت مخربة الشوادر ٠ قلنا بدنا ناكلها بالطيف ٠ بس جيوش عرمرم ٠ سباعشرين فرقة عسكر كل فرقة عشر تناعشر الف قيمة مية مية وخمسين الف جندي ٠ والقائد كان عباس وعموم الاركان حرب تبع الفرق كانوا عرب وفي منهن باشاوات عرب متل سليم بك الجزائري ميرالاي كان قائد فرقة اركان حرب ٠ومتل رظا بك الكناني كان بيمباشي اركان حرب تحت ايد قائد الفرقة ٠ ومتل زكي بك العضمة كان قائد (ألاي) اربع طوابير عسكر كل طابور الف ٠ الخلاصة مشينا ضلينا ماشيين بهالبر حتى طلعنا عالجبال سبقتنا السواري كشفت البلغار لقتو هربان لقت الدشمان هربان ٠ ضلينا ماشيين وراه نحط عشية ونفز على بكرة نلحقو ٠ ننام بهالقرى بهالطريق باللي كانت للــــروم يايلي دبحو الاسلام ٠ ورجعت المهاجرين معنا ولحقت الجيش وصار كل مين يروح لضيعتو لبلدو ٠ كل ماشافوا جندي بلغاري مقصر يقتلوه يحرقوه ٠ بعدينقاللهن القائد لاتحرقواحدا ولاتحرقوا الضيع٠ضلينا عشرتيامماشيينعلى هالمعدل حتى وصلنا ادرنة ٠ وصلنا ادرنة هدول سباعشرين فرقة فاتوا مسكوا الجبهة وكان وقتها ألاي اكراد متطوعين اربعتالاف سواري خيالة اجو وقتهـا مع فرقة العرب واجا متطوعين من الحجاز مع الامير فيصل بس هدولة مساكين مشيو قدام الكل راحوا ماتوا كلهن ٠ هداك ألاي الاكراد مشيو راحوا يفتحوا صوفيا عاصمة البلغار ٠ وقام الانكليز اعترض وقتها وقاللهن وقفو ٠ وقفوا وقعدنا بادرنه ست تشهر كمان وهنة يقولوا صلح صلح صلح متاركه (هدنة) يعني ما في حرب هدنة٠ وبيولاير عملنا هالمتاركه هه ٠٠ بهالست تشهربعدين ما اتفقوا مشينا عليهن ٠ بقى كانت البلغار احتلت ادرنة صاروا اهل ادرنــة يشكروا البلغار ٠ انهن نضاف ٠ بالحكومة في قانون نظام للنظافة وخدمــة البلد كانوا يقولوا جماعة نظاميين ٠ الخلاصة لمن قال الانكليز متاركة متاركة متاركة ضلينا ست تشهر بادرنة ٠ اجا علينا شتي هنيك اعوذ بالله ملعون ٠ بعدين قالوا (صلح إمظا لان مشتر) يعني انمضا الصلح وقعوه ٠ وقتها عملوا الحدودجسر مصطفى باشا مابين البلغار وادرنة ٠ اي نعم ٠ والبلغار عطوهن قطعة منطقة اسمها فرق كليساكنيسا ٠ يعني اربعين كنيسة ٠ وقتها حجزوها من الاتراك وعطوهن ياها هيك راي الانكليز وقتها ٠ وصار الصلح ٠ نحنا مركزنا بالطبع البلق تبعنا مركزو الشام ٠ قال انتو العسكر كلها ترخصت اخدو منها (الصلاح) وكلها فرقة العرب باللي بقي منها ٠ ركبونا ببابـــور اسمو اقدنز بالبحر ونحنا صفينا بلقنا مسلح بوسط البابور محافظة٠فيسبع

تالاف مترخص كل واحد اخد تذكرة وصار سيويل • محافظة حتى مايصير خنايق • مشينا ستاعشر يوم ليل ونهار بالبحر • لحتى وصلنا اسكلة بيروت نحنا وهالجيش • اجت الاطباء بقى سيدي من بيروت بدهن يعملو فحص عالبابور ملوت عطو تقرير انو في مرض توليرا مابجوز ينزلوا • قال لازم يرجع البابور لحيفا ويعملوا هنيككرانتينا•نحنا ستاعشر يوم طلعت روحنا ونحنا طول هالطريق عما نعالج بامة لا اله الا الله • الحنفيات كسروها بدو واحد ياخد مي قبل التاني • والاكل بقسماط وعجوة • البقسماط كعك مدور يابس يعني مرقدة يابسة بما انهن مرخصين كل مين اخد وعبا • نحنا عم نطبخ وناكل • العسكر مابقالها ارزاق كل مين عما ياكل من عبو متل الحجاج • النتيجة بتنا هديك الليلةباسكلة بيروت فزينا علىبكرة مالاقينا حدا بالبابور منوب • اجت الفلايك بهالليل عبت وتهرب من البابور • يلحشو حالهن بالفلوكة على بكرة مابقى حدا • قالوا لكان بلق التلغراف لازم ينزل حضرولنا مركز القومندان ببيروت ـ تابعة لتركيا ـ ترين مخصوص مشان العسكر والدواب والمعدات والماكينات • عبينا ومشينا بهالليل وصلنا لطلعة سرغايا هنيك طلوع ماشوف بهالليل وراسي انطرق وتكسر البللور شوفي !؟ قال نطت الماكينة وتلت فراكين عن الخط • وبرد • ضلينا بهالبرد لعلى بكرة • بحكمة الله من الامطار والتلوج هرولت صخرة من الجبل واجت بنص السكة والترين طالع موشايفها وانو يطرق فيها كسر عشرين عارضة من السكة • وطلعت الماكينة وتلت فراكين • ضلينا لعلى بكرة بهالبرد • اجا ترين تاني من الشام نقل العسكر البلق واجا ترين من بيروت ونقلوا فيه التقيل والبغال لبيروت حتى صلحوا السكة ورد رجع للشام • رحنا للشام كتبولنا تذاكر من جديد ردوا كتبوا فيها (بلقان محارب سي تذكر سي) كل مين اخد تذكرتو وفودسنا ••• كل مين راح لبيتو لبلدو لضيعتو • نحنا قرعتنا ياللي خلصت مدتها ردوا عطوها تذاكر ترخيص انو خلصت عسكريتو • قعدنا قيمة ست تشهر بالشام مانشوف الاعلن الحرب العامة الاولى وقالوااياللي مابيسلمنفسو بارباعشرين ساعة رميا بالرصاص • ونحنا بما انو (تلغراف بلق موجودو) بدو يصير كبير بدل مية وخمسين جندي بدو يصير الف • عطت امر الموشيرية انو كل اللي استبدلوا بتلغراف بلق بيرجعوا للبلق بزاتو• رجعنا للبلق بزاتو• ضلينا قاعدين بالبلق قيمة شهرين تلاتة وكان محلو بطريق الصالحية مطرح نادي الضباط هلأ • وبسراية الموشيرية عما يدبحوا خواريف ويشعلوا النار ويقلوا الخواريف بالدهن بالحلل حتى يساووا قاورمة يابسة ويعبوها حتى يطعموها للعسكر بالحرب •

قعدنا بالشام قيمة ست تشهر · رجعت لصنعة الحرير مسدي بالحرير · اي نعم · وانا عم باشتغل بالصنعة سكنا وقتها بالبلطجية عند باب الجابية بيت ابو الشامات انا وأمي وجوز امي · قضماني عنـدو محمص وولاد تنين بيشتغلوا معو · محمصو بالشاغور · هوة من باب السلام · انا استأجرت البيت من ابو الشامات كل شهر بليرة دهب · جرت معي مسالة ما شوف الا اعلنوا منالحكومة بطلب بواليس بيعرفو بمصـــلحة التلفون · انا بالطبـع اشتغلت ست سنين ببلق التلغراف تلفون وتلغراف بعرف هالصنعة تماما · تمديد الخطوط وماشابه ذلك · بعرف مخابرة هليوسطا مخابرة اليكتريــك ومخابرة تلفون ·

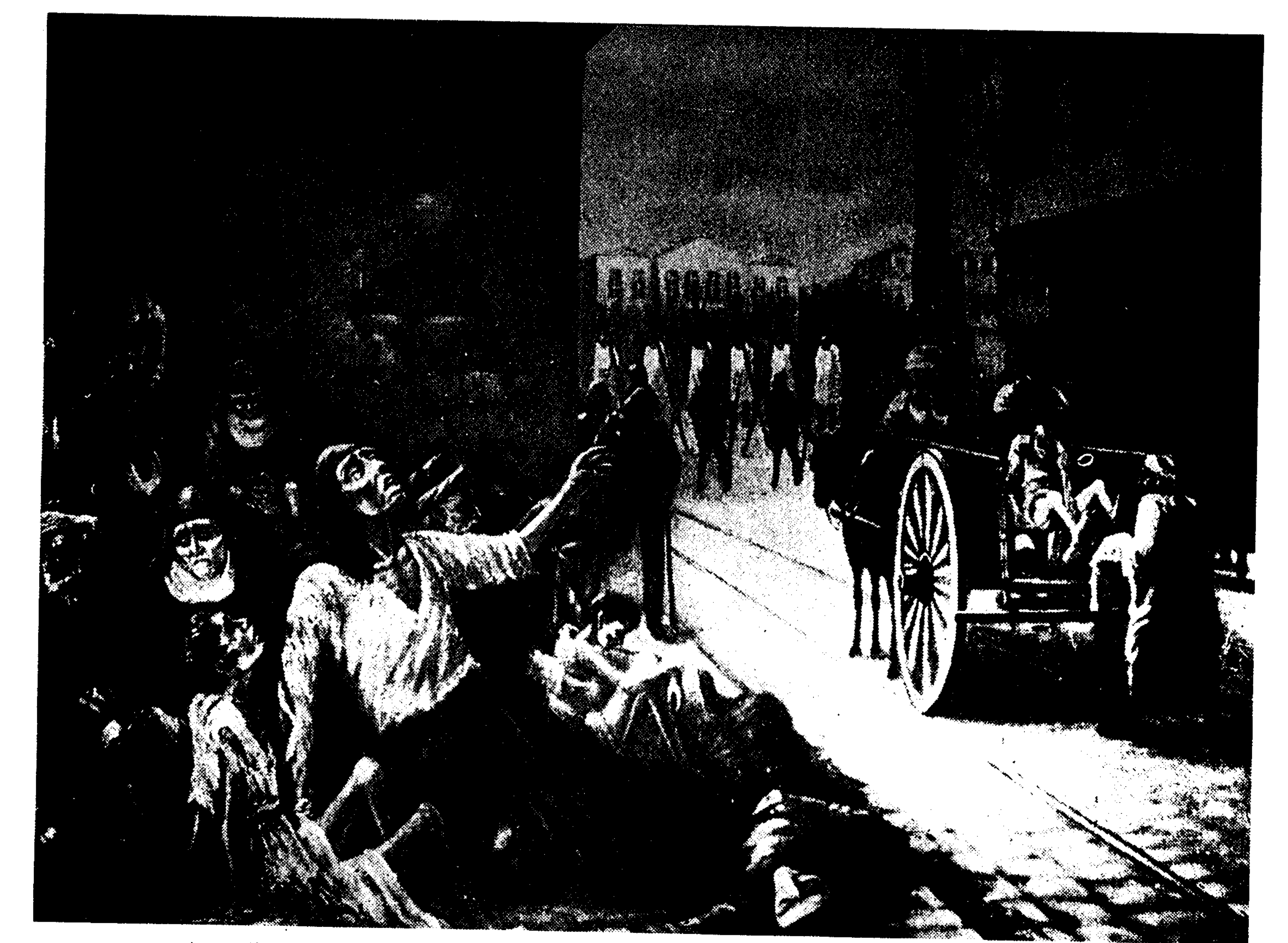
قدمت استدعــا بطلب استخدامي بدائرة البوليس وفرجيتهـن تذكرة عسكريتي انو أنا من حرب البلقان (وحرب جبل الدروز قبل البلقان وطوشة الكرك قبل البلقان) عصي جبل الدروز وقتها على تركيا واجا سامي باشــا ومعو تلت طوابير لتأديب جبل الدروز وبعد مااصطلح جبـل الدروز وبعدمـا شنقوا المشايخ كمشهن ســامي باشا واحتـل جبل الدروز · واجينا للشـام طاشت الكرك · العربان حرقوا الكرك وقتها فرضوا عليهن جندية وطلع عبـد الرحمـــن باشــا والايوبي والباشاوات مشــان ينصحوا الكــرك وقامــوا بمحطة المسمية هجمت عليهن العربــان وقتلت عبد الرحمن باشا وقتلت كــم واحد من الباشاوات · اي نعم · وهرب الباشا الايوبي وقتها · لبس بدوي وهربتو الدكنجية التجار بعدن منها نفد من القتل · وكان قائد حملة الكرك قومندان اربع طوابير سواري · الكحالة كان وقتها قائمقام · واجا امـر لبلقنا انــو يلتحـق بالكـرك لتمديد الخطـوط مـن محطـة القطرانـة للكـرك · محطة ترين مشان يتصل الجيش بالسكة بالترين · في قوة بالقطرانة وطلعت القوة · وبعرف دخلنا الكرك لقينا الكرك مو باقي فيها لاسقف ولاشبـاك وعموم الاهالي بالمامورين بالعسكر الموجودين محاصرين بالقلعة حاصرتهن البدو · البدو حرقوا الكرك واخدوا النسوان · انتهت الكرك رجعنا عالشام ·

الحرب العامة الأولى

بعد ست تشهر تمام من بعد حـــرب البلقان مانشوف الا اعلنت الحرب العامـة الاولى ٠

بيرجع مرجوعنا لوظيفة الشرطة ٠ وقتن اعلنت الحكومة مشان الشرطة قدمت استدعا وكان مدير شرطة الاتراك عزيز بك ٠ قدمنالو استدعا قـــال مقبولة عطينا ورقة نفوسك ٠ بقى اجينا لورقة النفوس ٠ كان تولدي ٣٠٦ رومي ٠ساوا مجلس القرعه ٣٠٣ رومي وأخدونـــي «لايقيلا» عالعسكريـــة ٠ ومجلس القرعة ماعطا تقرير لدائرة النفوس بانو صحجنا تولدو ٠ بقي تولدي بالنفوس ٣٠٦ رومي وبالعسكرية ٣٠٣ رومي ٠ كان تاريخ الحكومة التركية قريب للعربي ٠ انا لمن شفت بتذكرة العسكرية ٣٠٣ تولدي واضح وبورقـــة النفوس ٣٠٦ واضح شو بدي ساوي٠قلتوالله لحكها٠رح بعمل: «سخطة» ٠ رحنا لعند واحد بدائرة النفوس ٠ صحجلنا ياها !! قال بدها وقت ٠ تاللي عقلي ساويها ٣٠٦ لحالك ياولد مادام ورقة عسكرية مابينتبهو ٠ قدمنا ورقة النفوس محكوكة لمدير الشرطة ٠ قام صفن فيها ٠٠٠٠ قال : هي اظن محكوكة الاكتــر تبدلا ٠ طالــع ورقة جديـــدة المهلــه عشــر تيام ٠ طالعــت ورقـــة جـديدة طلعت ستـــــة ٠ اجيت لمديـــر البوليس ٠ قـــال وين العتيقـــة ٠ ليكـــا ٠ قـــال هي سخطـــة لف التنتـــين مـــع الاضبارة وبعتنـــي عالعدليـــة محفوظا ٠ سلمني ٠ حطوني بالقفص الدنيـــة المســا ودشر البوليس ومشي ٠ قريب المغرب رح يصير الدنية عشية قلت الله يلعن الوظيفة ويلعن يومهـــا ٠ كان ابن عمتي عزت بك الاستاذ عضو بمحكمة الجزا٠قلت على بكرة منقول لابن عمتي مندبرها ٠ مرق ابوه لعزات ٠٠ اسعد افندي صهري جوز اختي كـــان مباشر بالمحكمة ٠ ندهنتلو اجا٠ لك شوجابك لهون قلتلو القضية كذا كذا كذا٠ راح عمل سند كفالة وطالعني ٠ حاكموني الخلاصة سالني رئيس المحكمة منو ساواها ٠ قلتلو والله المسالة كذا كذا ٠ رحت لدائرة النفوس في الي صاحب اسمو كامل افندي صحجلي ياها ٠ قال حكها ٠

حالكون كذب ٠ وهالزلة كان عامل سخطات كتير وهربان لمصر ٠ عملوا منع محاكمة ٠ تبرينا انا تبريت من هون وانا ماعاد بدي شي لا وظيفة ولا شرطة قرفت رجعت لصنعتي مسدي حرير ٠



الفنان سعيد تحسين ـ دمشق   مجاعة السفربرلك في دمشق

لمن اعلن الحرب العامة الاولى طلبوني صرت عسكري • اتقيدنا بنفس البلق تلغراف تبعنا وصرنا ناخذ تعيين كل يوم تلت ترغفة والبلق عم يطبخ بدك تعا كولمابدك روح لبيتك • وبدت الحكومة تحضر تنكات وتدبح غنم وتعمل قاورمة « بالصرايا » ضلت اكتر من شهر تدبح غنم وتساوي قاورمة وتعبي بالتنك وتحضر صناديق عجوة •

بهداك الحرب اتفق الالمان والاتراك • والانكليز قاللها لتركيا عدي عالحياد لاتدخلي مع المانيا ونحنا منعطيكي حصتك وخدي مصاري قد مابدك • رفضت تركيا الا بدها تحارب مع المانيا • الخلاصة مافي الا يحضروا جمال يجيبوا من هالبادية جمال ويحضروها •

ايه الخلاصة • مشينا على فلسطين هيك عالناصرة وحيفا وهديك الجهات وجبل الكرمل وتل الشمام • يعني من هون راحت عالحرب « فرقة العرب » فرقة عسكر • قعدنا مع الجيش بالناصرة لحتى التم الجيش • قالوا حركة • يا الله على صحراء سينا بدنا نفتح مصر مشان يخففوا الضغط عن بوغاز شنق قلعة من المدرعات الحربية الانكليزية والحكومات المتفقة معها • بدهن يتعرضوا لمصر • مشينا هيك على بير السبع • من بير السبع على حفيرة العوجة آخر اليابسة • بعدن منها رمال صحراء التيه كل يوم نمشي ١٨ ساعة • نحط بالليل ونفز الصبح نمشي • ومعنا طابور استحكام (الف زلمة) قائده الماني يحفر آبار بالطريق مشان الجيش • مشان المي عملي شونات مراكز • مشان الارزاق وتنكات القاورمة والقورما والعجوة والمي كان يحمل الجمل تمن تنكات مي • لكل جندي يعطونا المي بالوزن ونتفة عجوة وتلت بقسماطات كل يوم • وكل عسكري معو مطرة يعبولو ياها • هي هية • نبعت المكارة والدواب للمركز يعبو مي بالضروفة بالتنكات نجيب ارزاق •

نحنا حملتنا فرقة عسكر يعني عشرين سباعشرين الف • القائد كان اسمو الدالي فؤاد رتبتو لواء باشا الدالي فؤاد • هوة القائد على هالحملة كلها وكان تعرضنا من نص الصحرا عالسماعيلية وفي جيوش غيرنا عاليمين وعالشمال • الصحرا عريضة ارباوعشرين ساعة • والترعة طولها ٢٤ ساعة جيوش قسموها شي من ناح اليمين شي من ناح الشمال نحنا جيشنا من نص الصحرا • وقبل مانطلع من الشام كنا مصطنعين فلايك من توتية اسمها طنبازات بهداك الزمان • طول الواحدة خمساوعشرين متر واكبر • وساوولا عربيات عريضة على قدها وطبوها عالعربانة طب • هدول الطنبازات رايحين معنا خمساوتلاتين واحدة عم نتعاون بجرهن العسكر والبقر البغل مابيمشي • كان كل حركتنا جمال مية الف جمل بهالتعرض هاد • الجمال اكتر من

العسكر • تعلمو عالطنبازات ببحرة المليحة ينصبوا جسر عالمليحة ويحفروا آبار ويساووا جسورا • هادا القومندان الالماني هي صنعتو موظف خاص كان عندو الف عسكري يسبقوا الجيش لقدام • الجيش يستريح يومين لبين ما يحفروا آبار لقدام • هنة يحفروا البيارة وينظموا الجيش ينتقل لعند البيارة لحتى امنوا السفرة بهالصورة وهالطنبازات مطبوبة وعمايسحبوها بهالرمل وحاطين ضبان عريضحديد عالدولاب شيتالعربابة عرض نص ضراع مشان اذا مشي عالرمل مايغرز كأن الطنبازة تقيلة •

ضلينا قيمة ستين يوم والله نمشي تمنتاعشر ساعة وننام ونفز الصبح ونمشي وعلى هالبقسماط والعجوة والمي مالحة مية بحر • كأن كانت هالصحرا بحر مافي جبل • النتيجة وصلنا لنص الصحرا بهديك الجبال في جبل اسمو جبل الجفجافة بهديك الرمال مافي غيرو • امروني انا وعشر تنفار من بلقنا انو نروح للجبل مشان نأمن مخابرات الجيش • اوامر ليطلب جبخانة من بير السبع ارزاق • جيش بدو مخابرات هليوسطا بالليل بتمشي عالضو بالنهار بتمشي عالشمس • ضلينا قيمة عشرين تلاتين يوم لبين ماقطع الجيش وبعد مامشي لقدام انتقلنا مع الجيش لمحل اسمو « المحدس » (المحدث) هادا آخر محطة الترعة قريب للترعة قيمة مسافة عشر ساعات • صرنا نخابر الجيش • انتقلنا مشينا صرنا على حافة القنال قريب من القنال قيمة تلت ساعات • حطينا ماكينة هليوسطا صرنا نخابر لورا للمحدث مركز شونا مشان ارزاق ماء للجيش لانو فيه جمع ماء •

واجا جمال باشا الكبير وقتها نصب تلت شوادر وقعد على كنار هالماء مشان يراقب الجيش •

الخلاصة جمال باشا رجع ونحنا مشينا مع الجيش لحد الترعة • بجبال الرمال حفروا استحكامات العسكر وقعدوا بدهن يتعرضوا عالترعة قعدنا تلت تيام هنيك • بعد تلت تيام امروا بالتعرض بالمشي عالترعة ليلا دشروا الاستحكامات براس التلال ونزلوا ضوغري عالترعة ومعهن الطنبازات مشان نصب الطنبازات وفوقن منها خشب وحديد بيعملو جسر • وصلنا للترعة بالليل • سكوت عالنصت • لاحدا بيشرب سيكارة ولاحدا بيحكي والرمال مابينسمع حدا عم يمشي عليها الارض كلا رمل • مانشوف الا اجا الالماني • نزلوا الطنبازتين حطوهن بالبحر تلوا الواحدةعسكر واخدها الالماني ومشي بالترعة • نحنا عما نعبي التانية عسكر • راح غاب لتاني جهة قيمة ساعة زمان ورجع بهالليل سكوت • أخد طنبازة تانية حط الفاضية واخد الملانة • رد رجع حط الفاضية واخد الملانة وعلى هالمعدل وزع بتاني طرف الترعة ميتين وخمسين جندي • اذا كان بدهن ينصبوا الجسر لازم يكون في قوة اذا حدا طلع لازم يدافعوا عنو • بالطنبازة الساتة اخدها ومشي وصلوا لنص المي • انا

حافر جورة انا والتلفون والخطوط ممدودة عالرمال مشان نخابر الخلف ٠ قال القائد خابر للشام انو فتحنا الترعة٠ ضربنا تلغراف راح التلغراف بدو ينتقل حتى يصل للشام ٠ قامت زينت الشام وصارت عراضات انو فتحنا الترعة هوة التلغراف راح اي نعــم وكانت ساتت طنبازة ماشية بالبحر ٠ وفجأة قامت القيامة اعوذ بالله ٠ طلع علينا رشاش يعني من فوق الالف رشاش مـا منعرف منين عم يطلعوا صارت مية الترعة تبقبق متل كانها مـي وعم تغلي ياللي هنيك صاروا يقوصوا ماعدنا عرفنا شو صار فيهن وياللي بالبحــر انبخشت الطنبازة وغرقت وياللي سبح رجع وياللي مابيعرف يسبح اختنق ٠ الالماني سبيح لحش حالو بالبحر ورجع ٠ اجا امر للعسكر انو لحقو تبات الرمل ٠ الاستحكامات ياللي كنتو فيها قبل مايطلع الضو والا بيروح الجيش كلو ٠ واشتغل الركيد ٠ في استحكامات بتبات الرمل صبحنا الصبح تطلعنا لقينا اعوذ باللــه بالترعــة سبع مدرعــات مصفوفين متل السمك ٠ وطلعت الطيارات علينا وصاروا يضربوا كلل من البواخر ٠ وكل مدرعة فيها خمسا وتلاتين مدفع ، الكلة طولي ٠ تنزل عنا تحفر شي يطق وشي مايطق ٠ونحنا قاعدين تحت الضرب ٠ انا نصبت الماكينات وصرت خابر لورا صرت خابر المحدث وهالمدافع عم تشتغل فينا ٠

تطلع الكلة من الترعة وتجي علينا ٠

ايه نهارها طلع النهار قعدنا ٠ لك اي بعرف الجيش الو حركة ٠ تبات رمل قدامنا مافي حركة ٠ مافي الا صناديق جبخانة ملحوشة ٠ تاري الجيش مع وصلتو كتب للقطعة تبعو حتى تعمل حركة ٠ وبعتولنا عسكري لحتى نعمل حركة نحنا الرخار ٠ أنا نهارا قاعد ماحدا وصل لعندنا ٠ تاري الجيش عمل حركة بالليل وبعتلنا زلة تاري الزلة تاه ولحق الجيش وتركنا ٠ نحنا عشر تنفس معنا عدد وماكينات وتلت جمال وعما نخابر الخلف ٠ هالديوس ياللي بعتولنا ياه ماوصل ٠ تاري الجيش مشي ومشي معهن ٠

انا بعت المكارة مشان يجيبولنا مي من المحدث راحوا مارجعو ٠ لــك صفينا بلا مي وبلا أكل هيك لعشـية ٠ عشية عما طلع ماحدا مبين مافي حركة شعلنا نار صار برد حفرنا جورة بها الرمل ٠ قلتلو لواحد وصال جبلنا كــم صندوق جبخانة٠وانا قاعد عم انتظر المي والاكل وناموا الولاد وحطيت البارودة قدامي وقعدت نوبتجي ماشوف الا من تبة رمـل بعيـدة شخصين عما يبينو ويغطو ٠ العمى ٠ فزيت علىحيلي وقفت ماشوف الا طلعوا ٠٠ ونزلوا مــن تبــة الرمل وطلعوا لعنــا ٠

بدو كمامهن عراض كانهن مصاروة . قال شلون ان شاء الله موفقين .
عما اتبهور قلتلو الجيش بمصر . قال الله يوفق الله يوفق . تاري العرصات
جواسيس . شو جابكن لهون . قال والله نحنا مندفن صناديق عجوة بهالجبل .
اجينا مالاقيناها . من أنو ديرة قال من ديرة شمال . خاطرك . قال
بدهن سيكارة مامعي . نزل اسعد عما يرعى تلت جمال شايفو ماشوفهن الاطلعوا
من عندهن . ليقوموا يشلحوه الجمال . حملت فلنطة البارودة ودكيتها سبع
ضروب قاللي عقلي منلدعهن . بسطوا عندو بعدين مشيو . بعد ماالجا اسعد .
منوهدول قال تنين معهن بواريد . تاري قبل مايطلعوا لعندي دفنو بواريدهن بالرمل
صارت الدنية مسا والبرية كانة . وقلت هدول مخبايين من المدافع . حفرنا
جورة صار برد . كسرنا الصناديق وشعلناهن . ونحنا عما ندفا ماشوف
الا فتح ضو هليوسطا من الخلف . اجا النوبتجي قال مخابرة . فزيت فتحت
عليه سالتو شو اسمك ؟ قال اسمي احمد . احمد انا بعرفو مع الجيش . وين
المحدث تمن ساعات لورا . لك شو هاد لاتتلعب احمد . منو انت . احمد لك
شو جابك لهنيك . قاللي ماعندك خبر . بعتنالك خبر الجيش رجع من مبارح
ونحنا اليوم بالمحدث خبروني بالليل بعد المغرب وهي تلغراف من القومندان
عما يقوللك عميل حركة حالا مع المعدات . قلتلو اي طيب خليك فاتح الضو
حتى استهدي عليه وامشي ناحك . وانا حسبت حساب الجواسيس يطلعوا
علينا مابقى حدا غيرنا . جيش عرمرم رجع .

وتاري الجيش بالليل مشي وضاع عن الطريق وضل ماشي لتاني يوم
على بكرة والجيش متل الميت .

لك انا شلون بدي اعمل حركة . جيش تاه ومعو دللة (ادلاء) . اسعد
قال بعرف الطريق مقاطعة بدنا ننزل ناح الترعة قيمة عشر دقائق بعدين
بدنا ناخد طريق الدوس تبع الجمال . وفي مدافع وبيضل اثر لو طلعت زوبعة .
قلتلو اسعد من هون الطريق . اسعد قال من هالتبة بطلع بساعتين منوصل .
لك يااسعد لنقوم نضيع !! قال انا ابن بر . والله قولي سقنا هالجمال وقلنا
على بركات الله . نحنا معنا عشر بواريد كل واحد معو تلاتميت ضرب فشك
ومامعنا لقمة بقسماط انا قوام طفيت النار . حطيت صاج الخبز فوق النار
انطفت قلت قوموا ياالله الجيش مشي . اجتهن النخوة . حمل عشر جمال
حملناه على تلت جمال . قلنالو امشي لاسعد توكل على الله . مافي الا نطلع
تبة رمل وننزل تبة رمل . ولك وين الطريق اسعد يقول قدام قدام . ولك
وين قدام . قال والله ياأخي ضعت . بقولتو ضعت رايح ناولو فشكة ضيعو .
صحراء التيه مامعها ملعبة . ونحنا جايين عالترعة تلت قوال جمال كل قول
تسعين جمل مع عسكرهن وارزاقهن وضباطهن ضاعوا بالصحرا وضاعوا وضاعوا

وضاعوا ٠ اجت عليهن زوبعة طمرتهن ٠ قلتلو يخرب بيتك شلون نحنا بدنا نوصل ٠ لو استلمنا طريق الدوس كنا على كل هلأ وصلنا ٠ مشينا ونحنا ماشيين برك اول جمل ٠ تشو ٠٠ قوم ٠٠ قز ٠٠ مابقى يفز ٠ قمنا الغراض حملناها عالجملين ٠ مشينا برك التاني ٠ ونحنا لسه مااجتمعنا بالطريق ٠ بعد نص الليل بدو يطلع علينا النهار وتقدح الشمس ونموت عطش ٠ تشو ٠٠تشو ٠٠ الجمل التاني مابيفز ٠ قمنا حملنا هالغراض عالجمل التالت وجربان وضعيف ٠ تشو تشو ٠٠ الله قواه ألظاهر فز مشي ٠ شديناه من دنبو عاوناه رفعنـــا رسنو فز وقف وقف لاكن بدنا الطريق ٠ ماشي ٠٠ لاكن ماشي على عيوني كل مالي عما غمق بالصحرا ٠ والبورجكتورات عما تضرب علينا من القنال ٠ خفت لروح ناح القنال بصير بايد الدشمان ٠ اني كنت اعرف شلون بدي امشـــي بقينا كل واحد ماسك قلبو بايدو على بكرة بدو يموت ٠ ونحنا عما نبسمل باسم الله الله الله ٠٠ ماشفلك الا والطريق طلــع قدامنـــا نزلنا من التبة ٠ رجعت حياة عشرتنفس ٠ قلتلهن بركو الجمل ٠ عنا درادير خبز طعمينا ياهـن مع مي بلعهن ٠ ريحناه شوية اخدنا نفس ٠ كانت الساعة تنتين ونص بعد نص ليل ٠ بس قلبي مطمن وصرنا نغني موالات وميتين من جوعنا ٠ ليس ٠ فززنا الجمل تشو تشو الله عانو فز وقف وعليه كل الحمل ٠ مشينا عالطريق تطلعت لقيت كل مالنا عما ننحرف من مشقيت الترعة وطوال مالنا ماشيـــين جمال عم تبعبع بوع بوع باركين عطشانين ٠ يعني ليلة وحشة مالانظير ابدا ٠ الجمال عما تبعبع بصحراء التيه تاركينها باركـــة ونحنا ماشيين خيال ٠ ضلينا ماشيين للصبح ٠ الصبح بين علينا سراجات الجيش ٠ بدنا ندخـــل شافو خيالنا وسمعوا حسنا خفرات خايفين خمنونا دشمان وقف ٠٠ ماصدقوا حتى اجا واحد مع مترليوز حط بيل بوشنا فهمنا انو نحنا تلغراف ٠ فتنـــا لقينا العسكر بالسطيح عالرمال ٠ قال هلأ وصلنا ضعنا يومين بالرمل نحنا والدللة ٠ ليس ٠ طلبني القومندان ٠ رحت لعندو ٠ تطلع فيني قاللي شلون وصلتو شو اخركن ٠ قلتلو ياللي اخرنا ماحدا عطانا خبر ٠ قال شلون قدرت تصل ٠ قلتلو الله وصلني ٠ قضيتنا كذا كذا قال سبحان الله جيش طويـــل عريض ضاع ٠

بعرف ساوالي كاسة شاي بتسوى ليرة دهب وعطاني كعكة من الشام قاللي نفدت حالك والجنود وماكينات مخابرات الجيش ٠ قلتلو الله ساعد الجمل لازم نخدمو ٠ رأسا امر بقطران دهنوه الجنود بقطران وحطولوا علف اكل اكل لشبع ٠ (واختنق هنا صوت أبي بدموع الشيخوخة التي تعبر عن فــرح شبابه مــن أجل مكافاة القومندان للجمل المريض الشجاع ٠٠ واختنقت دموع في حلقي وحلق القلم ، وسأظل أبكي كأبي كلما قرأت كلامه عن الجمل) ٠

والله خدمنا لحتى وصلنا للسبع • مشينا • ننام عشية ونفز على بكرة• مي ناخد من الآبار مابقى •• اكل بدهن اكل •• بدهن لحم •• يبخشوا فخد الجمل وهوة طيب قاعد عما يبعبع وعما ينحفر فخدو تاركينو بالارض • صرنا ناكل من لحم الجمال وهية طيبة ، نحطو بالشيح بها النار ونبلع كل شقفة بشقفتها • ياالله قيم يوم جيب يوم قيم يوم جيب يوم وصلنا لحفيرة العوجة متل اشقياء عجلون دقني وصلت لزناري يالطيف على هديك الحالة • بحفيرة العوجة في آبار • العسكر استهدت عالآبار صاروا ياكلو ويشربو • في شادر عتيق نصبتو وسخنت تنكتين مي وحلقت شعري وراسي وصدري بالموس قمل عما يدبي دبي فينا متل النمل اعوذ بالله • بعرف عملت حمام بهالتنكة ماعمري دقت متل هداك الحمام بعمري • ضليت نايـم بالشادر عالكليـم خمستاعشر ساعة •

قعدنا بيطلع جمعة • استراحت العسكر • مانشوف الا طلق رصاص طلع • لحقو طلق •مانشوف الا اجا الدشمان•تاري فلتت معو رصاصة لحقو التاني والتالت لبعد ساعتين حتى فهمنا انو مو العدو الدشمان غلط من الجيش • رصاصة فلتت بالغلط من واحد من عساكرنا • رجعنا بعدن منها هيك لبيرالسبع • وحفيرة العوجة بلد طويلة عريضة قد الشام • صارت خرابة اثارا مبينة • آخر الرمل نزلنا على بير السبع • من بير السبع هيك ضلينا شاحطين للناصرة •

قعدنا بالناصرة قيمة سنة زمان ونصبت وقتها مخابرات مابين الناصرة والبحر بجبال الكرمل • حطيت ماكينة بجبل الكرمل بدير المحرقة طلعت مفرزة تخابر من الناصرة للجيش ياللي حارس البحر • هداك كان درك • كانوا يخافوا من البحر كانت تجي مدرعات فرنساوية توقف بعيد وتطلع منها طيارات تجي تضرب الجيش على كنـار البحر وبالكرمل والناصرة • مشان هالمراقبة بعتونا مفرزة لجبل الكرمل عالي بيطل عالبحر وعلى مرج ابن عامر لحد الناصرة •

صرنا ناخد من القومندان تبع الساحل تقارير نعطيها للناصرة • وقتن تطلع طيارة يعطينا خبر ونحنا نعطي خبر للناصرة والناصرة تعطينا نعطي لدالية الكرمل • وفي فرن برات الدير • قلعنا الرهبان • عطاني امر قال بتستلم الدير وبتطالع الرهبان باشيائهن الذاتية كانهن فرنساوية • فتنا لهالدير فرشات صوف وذخيرة وخمر ونبيت ومونـة ميـة بندورة وجوز • وفوق بضهر الجبل مزرعة بطاطا وجاج وطيور وبط وصرنا ناكل وانبسطنا • قعدت بيطلع اكتر من سنة ونص وكان في بينا وبين الشام امانات ومكاتب •

بعدين اجا امر نلتحق للناصرة ٠ والناصرة عطوا امر بالليل بقى ٠٠٠ جهزوا الجيش على بير السبع ٠ طلع الجيش كان قائد الجيش عصمت اينونو ٠ وبجبهه غزة عالبحـر قومندان الجيوش كان فونكرس باشا ألماني وكل جيوش فلسطين تابعة إلو ٠ نحنا كنا ببير السبع مع اينونو ٠ الانكليز حشدمدرعاتو على جبهة غزة خمساوتلاتين مدرعة وراد انو يطالع جنود عالبحر ويحتل جبهة غزة كان فيها سبع استحكامات والجبهة كانت قوية هنيك٠اي نعم ٠ الانكليز اعتمد على انو يعمل (بومبار دومان) يعني انو يضرب الجبهة بالمدرعـات مشان يخرب الاستحكامات بدو يتعرض على جبهة غزة ٠ نحنا نشوف البحر من عندنا يلمع ٠ تلمع المدافع متل ضو الليل مليون لمعة ٠ تطلع المدافع سوا ٠ تفتر دقيقة ماتلاقي الا ب ب ب على جبهة غزة جمعة ليل مع نهار ماهــدي الضرب بعدين‌طالع جنود ٠ من بعد ماضرب هالضرب القوي طالع جنود ٠ هادا عدا عن الطيارات بالنهار ٠ النتيجة ٠ الجبهة قوية طلع الجيش الانكليزي‌قوي وعما تعينو المدافع والطيارات ٠ مشي أخد أول استحكام وتاني وتالت ورابع وخامس ٠ صفي استحكامين ٠ يعني صدف جوعانة العسكر ٠ جندي مــن جنود الاتراك ضرب جندي انكليزي قتلو بهالليل٠من جوعو اخد الطربةشيت الاكل وشلحو البصطار والاواعي وصار عسكري انكليزي ٠ لك شو هاد ٠ قال قتلتو من جوعي٠من هالزلمةهاد رجعتقوة العسكر من‌الجوع عالانكليز٠بهالليلة دبحو تناعشر الف عسـكري انكليزي ٠ كان الجيش التركي حافي وبالقرعة صبح انكليزي ٠ شلحوهن وصفيو بالزلط ٠ بدو يدفا العسكري وكل واحـد معو طربة اكل لحم وقضامة وبقسماط ٠ طلعت الطيارات تاني مرة والانكليز طلعو من البحر لقوا كل العسكر سطيح ٠ وقتا كتبوا لفونكرس باشا ٠ رموا خطاب مناشير لفونكرس باشا : لو اعلمتنا موجود عسكرك لبعتنالك الهــن اكل ولبس احسن ماتشلحو الموتى ٠ وهددوا وقاللوا سوف ننتقم بس عطينا مهلة حتى نرجع الموتى للبحر ٠ عطاهن مهلة والله لولا هالجندي راحت الجبهة وراحت فلسطين من هداك الوقت ٠ الخلاصة طلعت بقى سيدي هيئة الصحـة الانكليزية صارت تلم هالموتى بالسيارات عالبحر ٠ نضفوا الجبهة ٠

ركنت هديك الجبهة مابقى حرب ٠ صفي الحرب هلا تينية عما نحافـظ عالسبع ٠طلع الانكليز ماعاد عمل حرب ، شغل ميت الف عسكري مصري عامل ومد خطين حديد من مصر لجبهة غزة ٠ واحد رايح واحد جاية ٠ وعلى طرفهن خراطيم مي من بحر النيل سنة كاملة ٠ اي نعم ٠

نحنا بمدة هالسنة سنة ونص كنا كل ليلة نعطي تقارير لجبهة السبـع انو في عـدو لقينا دورية عدو ٠ لقينا العدو عما يتلصلص بكذا نقطة ٠ هادا (احانص) اسمو على خطة الحرب ٠ مضت الايام الى أن ليلة من الليالــي

كترت التقارير • عما يقولوا عما نسمع حس الدشمان قريب كتير • طلع عصمت اينونو خابر فونكرس باشا قاللو الدشمان ناوي التعرض والقوة مو كافية بدنا امدادات • يجاوبو امدادات مافي على كل حافظوا عالجبهة •

بدو عسكر كمان مايبعتلو • ليلتها كترت (الرابورات) يقوللو بدنا قوة يقوللو (حربا دوام) خليكن ثابتين عالحرب مافي قوة • خابروه ليلتها صارت تصل التقارير عندنا بالية خمسين تلف بينا وبين العدو • ليلتها هجم علينا الانكليز متعرض • • يقوللهن حربا دوام • حضروا الجبهة طالعوا الجبخانة بس لاتضربو • بعدين على بكرة قالولهن اضربوا طلعت الطيارات واشتغلت المدافع • لقينا جيش عرمرم امام جبهة السبع انكليزي • ضرب حوقة جبهة السبع وجبال السبع وعما يطلع عليها • والضرب عم يشتغل من عندنا وهوة بالطيارات وبالمدافع • قالولو بالية سبعين تلف • قاللهن حربا دوام • ضلت الجبهة عما تحارب هيك لبعد العصر متل هلأ • أنا نزلت عطو امر بحريق الارزاق كلها •كترو عليها زيت كاز وحرقوها • قالوا احرقوا (الاغرلق) • الاثقال بعتولهن سيارات كبيرة المانية صارت تحمل وترجع لورا • تقطعت المخابرات والاتصالات مع الجبهة • اجا مظروف • اي نعم•بعتناه مع الخيالة اعوذ باللهوالمدافع عمايضرب والكلة نازلة فوق السبعوبعد السبع صفينا وسط اتون نار • إفي بطارية مدافع باحد الجبال (بطارية باربع مدافع) عطوا أمر تضرب • ضربت أول ضرب • ومدافع الانكليز والطيارات محوا هديك القرنة بساعة واحدة • تقطعت المخابرات بين القوة ياللي بالسبع وعصمت اينونو وبين الجبهة • كتبوا مظروف وبعتوه مع خيالة امر لعموم القطعات ضلو عما تحاربو لبعد المغرب وبعد المغرب انسحبوا ليلا من الجبهة • ماشوف الا نزل اركان حرب عصمت اينونو وعصمت اينونو راكبين على حصانين ومشيو بقلب سوق السبع ياللي عم يشعل عالطرفين • حرقوه وضربوا الابار وحرقوا المستودعات وحرقوا الحنطة ياللي علو جبل الصالحية كلهاالكياس بقدر بقللكقد الملعب البلدي تشعل فيها النيران • بقى انا نزلت مابقى مخابرات• السنترال تقطع ونزلت لارضالسرايا عماطلع علىهالحالة وعلى بير السبعنزل القومندان واينونو ومشيو بقلب النار على مهلهنحتى آخر السوق وغطوا ماعادوا بينوا• الجبهة الظباط وبقية القومندانات بالسرايا كل مين محضر حالو والاحصنة للهريبة الجبهة صارت كلها نار • نزلت عما طلع ماشفت الا خيالين من الترصد راكدين متل النار على هالخيل • اجو لقدام السرايا لحشو حالهن وطلعوا عالدرج • انا لحقتهن • إفي ركدة ، طلعت لفوق ضربوا تمني للقومندانات شالحين وقدامهن الخرايط • قاللهن واحد من الخيالة بالتركي :

(بيه افندي لار دشمان سبعة كير مشتر)

يعني الدشمان دخـــل السبع عمل التفاف من ناح الخلصة ودخل كلو عالخيل قسم كبير يعني بيطلع قيمة الف جندي وبايديهن كل فرد نص ضراع والدفنكة برقبتو · ماشفت الا القومندان ياللي اخد سترتو والقلبق البرنيطة · شي دشر شي اخد · انا رابط الحصان تبعي تحت للهريبة · لن اجو ماعدنا وعينا · انا في تلفون الماني قطعتو ونزلت ركيد · كل مين ركب حصانو وقال ياايدكم · مالقيت الحصان واحد نتشو · صفيت راكد ناح المحطة انا وجملـة ناس راكدين · المدفع عما يشتغل والطيارة عما تشتغل والخيالة ورانا · ركدنا مابين السبع ومابين المحطةفيسهلة كبيرة يعنيفي كيلومتر·نحنا بنصالسهل منطلع اربعين زلمة راكدين هربانين خلص العدو دخل وهديك ريشة الخيل تبع القومندانات سبقتنا متى ماوصلوا للمحطة في جبال بيتخبو · ونحنا راكدين بهالنص مانشوف الا الرصاص يطق ورا ادني · التفت العمى روحي طلعت لقيت مية وخمسين خيال انكليزي عما يضربوا عاللي راكدين ضرب قتل · وقفنا يخرب بيتكن رحنا قتل وقفنا رفعنا ايدينا صفر صفرتين نزل تنــــين بايديهن فرود هدنك ضللو لاحقين الضباط·قتلوا خيالين وقائد الفرقة والياور تبعن قتلوا الاحصنة ورجعوا اسرى · وجابوا كم واحد وإني رئيس المستشفـى واقف برة· صحة· على جنبو فردو ·كمان أخدو الفرد وقالولن قعدوا معهن· قعدنا· صارت الدنية صفاري شمس· اجتمعنا بيطلع ميت زلمةصاروا يلملموا ويقعدوا عنا مافي الا خيالة انكليز عم تتبع جيش طويل عريض ضلينا قاعدين لبعد المغرب · ونيموهن ليلتها بالسهل وضربوا جنزير بلق انلكيزي كلهـا خيالة حرس · إلين الصباح الجبهة راحت والسبع راحت مع الانكليزوالجيش كلو راح اسير ماصفي حدا · يعني لقاء الضرب ياللي ضربناهن ياه ، ضربونا هالضربة · ماقاللهن سننتقم ···

صبـــح الصباح على بكرة كان كـل الجيش اسير بهديك النقطة هوة وضباطو بهالسهلة · مانشوف الا جاية قومندان انكليزي على حصانو ومعو واحد ترجمان مصري ضابط مشان الترجمة · اجا لعنا ·· بقى نحنا الضباط مع جنب والجنود مع جنب · اجا لعنا قال لا تواخذونا بدنا نقدم لكن الكـل الاكل لجنودنا ماوصل ، وعليه انا رح قدم لكن من تعييني صندوقين بقسماط تكسرو الصفرة ·· للضباط عما يقوللهن · بعت زلم جابو صندوقين بقسماط من تعيـــين هالقومندان · وقاللو للضابط المصري قول للجنود خليهن يوقفو اربعة اربعة لحتى نعدهن · ياخوانا وقفو اربعة اربعة فزت الجنود على حيلها صاروا متل طرش المعزة ماعادوا يعرفوا يوقفوا · ياللي حاطط براسو كيس منتفين مقطلين مزفتين حالة بتقرف · وكان بجبهة الضباط فخري البارودي

الله يرحمو · قولي انو كانوا يمشو اربعة اربعة مع المصري عبث · قاللو قول لظابط من ظباطهن حتى يعطيهن اشارة ·· قوللو اربعة اربعة انتظام · فز واحد بالتركي عطاهن قومندا بالتركي :

« دردار دردار ضرنز » ماحدا سمع فلتانة · هداك الانكليزي عما يطلع على هاالامة وعلى هالنور ·· بعدين تنازق · دار الحصان وراح وهوة عمـــا يقول « فكن » · بعت جنود خيالة ·· مشونا الظباط والجنود وراه جيش كلو اسير ·مشينالبير السبع · ببير السبع في خان كبير · لقينا تنين نوبتجية عالباب · قال اربعة اربعة ادخلوا · دخلنا قعدنا مع جنب وصارت تدخـــل هالجنود · دخل الجيش كلو لوسط الخان عدوهن اخدو العدد · اية بقى ببير السبع بقيان كياس بقمساط بالمستودعات · امر الانكليز خدولهن للعسكر خليها تاكل من بقسماطهن لبين ماتجي الارزاق اخدوا جنديين وحملوهن ودخل ظابط مصري ووزع علينا البقسماط · وزع اول واحد وتاني واحد · هجمت العسكر طارت الكياس · جوعانين · قاللهن الظابط المصري داهية تاخدكو · صفي المسكين تحت الكياس · راح مـــن ورا الدك تبع الخان صار يكمـش ويلحش من فوق · وسقونا مي · ضلينا قاعدين بهالخان لبعد المغرب بعـد المغرب قال قومو طلعو · طلعنا لقينا صف خيالة من هون ومن هون بيطلعو تلاتميت خيال دخلنابين الصفين اربعات اربعات بانتظام قال ياللهمارش امشو مشي الجيش طوال الليل لعلى بكرة ماشيين على رجلينا · صار ضحوة نهار للضهر ماشيين على رجلينا طريق بعيد وهالطريق كلو عسكر انكليز وشونات وخيالة ميت الف خيال انكليزي دخلوا بهديك الجبهة كلها من هالخيل القطنا خيل كبيرة رجليها عريضة ومافي عندهن حصن كلها طواشية لابيخانقو ولا بيقتلو بعضهن بتلاقي الحصان مطيع متل الغنمة · ضلينا ماشيين لحتى بعد الضهر عطشنا وجعنا الجيش كلو مـــع ضباطو هيك لحتى وصلنا للمحطـة العمومية تبع غزة ياللي عليها الترينات·تطلعنا لقينا طنبازةبالمحطة مساوينها بحرة وعما يعبو فيها مي خرطوم من النيل · اربع طنبازات والمي عليهن عـم تدلق يقولوا عشرةعشرة كل عشرةعلى واحدةيوقفوا يغسلوا ويتنشطوا وياخدوا روح ويشربو ليشبعو · دوز دوغري عالمحطة سهلة كبيرة · صاروا يحطوهـن قوالب قوالب اربعة بخمسة عشرين صبة واحدة · بركو باركين واحدة ورا واحدة · صفوهن كانو رياضة · وهالترينات عما تصفر · ترينات فراكين للركب مافي كلها فراكين شحن · مانشوف الا لكل قطعة باركة متل قالب الجبنة او قالب الصابون ، تنين مصريين حاملين كل واحد صندوق يكسروهن يعطو لكل واحد علبة لحمة وقد مابدو بقسماط · شوفي الانتظام الاكل علبة لحمـة كونسروة · يكسر الصندوق ويلحش بحضن العسكري قد مابدو · على ماتعملي هيك وزعوا لكل الجيش· ·لكل زلمة بعتوا تنين · طعموا الجيش فرد مرة · بدت

العسكر عما تاكل ٠ حمدنا الله وشربنا مي ٠ بعد ماخلص الاكل قيمة ساعة ونص استرحنا باركين ماحدا يغضر يتحرك ٠ مانشوف الاجا ظابط انكليزي قال للقطعة الاولانية قال (كامون) امشو مشينا الظباط على فركون فحم تلت فراكين ٠ طلعوا اربعين باربعين باربعين ظابط مية وعشرين ظابط وبالجملة انا كان معنا الله يرحم عيونو فخري البارودي ٠ طبقو باب الفركون ٠ مية ميتين فركون عبو هالعسكر قبل ماعبونا ٠ صفروا الترينات وقالوا ياايديكم ٠ الترين خمسين فركون ٠ ترين سريع عريض مو متل خط الحجاز ٠ تلت فراكين للظباط بعدين بقية القطار عسكر حتى انتهت بساعة زمان كل هالعالم ركبت ٠ بالاصول ٠ ضرب الجرس مشي القطار ٠ مشينا بهالطريق رايحين لمصر بالترين عالساحل تبع صحراء التيه طوال مالنا ماشيين نلاقي على هالرمال شونات ومستودعات ارزاق وصواوين خيم كبيرة مستشفيات كلو انكليزي وقطع عسكرية بكـــل محطة كلها بغاية الانتظام ٠ ماشيين « بالظلوط » بالشورت شوب ماشيين الشمس عم تلدعهن ٠ يجو لعنا يقولو « هالو » شي يعطينا شوكولاطة سكرة ٠ مشينا هيك وقف برفح ٠ برفح نزلو الظباط كلهن ٠ نزلنا كلياتنا برفح ضوغري عالكرنتينا عاملين شريط عالداير وقلبات من خشب مشان الواحد ينام وشوادر بس محصور بشريط كرانتينا تلت تيام ٠ فخري بك البارودي كان قرايبو بيت البكري التحقو بثورة فيصل بالحجاز ٠ وكانت الثورة تشكلت بالحجاز بواسطة فيصل وابوه ملك عالمدينة ٠ خبروا اذا اجالسم فخري بك بعتولنا ياه سريع ٠ بقى نحنا مو فهمانين الخبر ٠ مانشوف الا القائد برفح طلب فخري البارودي طلع قاللو نعم ٠ تعا كلم القومندان ٠ اخدوا جندي محافظة ٠ عمـــا ننتظرو هلأ بيجي وشوية بيجي راح ماعـــاد رجع ٠ بقي نحنـــا قلنا الظاهر ضربوه قتلوه قوصوه اسير ٠ بعدين فهمنا طالبوا الامير فيصـــل ٠ ليس ٠ كملنا تلت تيام وردوا نقلونا من رفح وعطونا بطانيات ٠ يكسروا البالات قد مابدك حطي تحتك وفوقك ٠ تلت تيام كرانتينا بعدين اخدونا عالاسكندرية سيدي بشر اسر الظباط العمومي ٠ الجنود اخدوها لهيوبوليس لمصر افتكرتي شلون !! فتنا بقي سيدي عالكرنتينا بالاسر ٠ قامب مخصوص للكرنتينا ٠ أي نعم ٠ ٠ الظباط عددهن مية وعشرين ٠ العسكر قيمة عشرين الف ٠ وشلحونا كل اواعينا اللي علينا دوغري عالاتوماكينا التبخير وكل واحد قميص وكلسون وبدلة عسكرية سودا وحممونا بقى سيدي بالبراميل (بقريؤولين) ومن هنيك عالحمام والاواعي عما تتبخر بالماكينات ٠ من هنيك على قامب العرب ٠ العرب كان الها قامب وحدو ٠ الاتراك لحالهن والعر بلحالهن دائما يتخانقو ٠ كان عملنا عليهن ثورة ٠

قعدنا بسيدي بشر عاملين براقات (براكات) متل فركون بتفوتي مـــن الباب بتلاقي اوض كل اوضة تلت تخوت بتلت ظباط ٠ بمباشي راس الالف

مقدم الوشادر لحالو · قائمقام اكبر ميرالاي صيوان اكبر متل البيت · يوزباشي رئيس يعني ملازم اول ملازم تاني وكيل ظابط (نام زيت) · كل واحد حسب رتبتو · بالاسر على بكرة في خيم · قيمة عشرين خيمة هدول لجنود اتراك وعرب هدول لخدمة القمبات · بكل قامب عشرين خيمة وشاويش انكليزي هوة الآمر · أنت روح كنس انت روح عميل كذا · قامبات الرمل يمشطوها بالمشاط · يحطوا حجار بالعرباية تغرس بالرمل يجروها وهية ماشية تلم اوساخ ·

الخلاصة الجنود خيم للخدمة · عشية كل يوم يوقلما · تصفر الصفيرة كل مين يوقف قدام بيتو · يمرق الظابط الانكليزي ياخد تحية قبل مايدخل يفهمن أنو بدو يدخل · الظباط يوقفوا وقفة عسكر يمرق يعدهن وكل مين يروح لاوضتو ·صدف بصفنا كان عنا ظابط يهودي وقتن يمرق الظابط الانكليزي يجي لعندو يوشوشو يقللو أنت يهودي ؟ عما يسالو أنت يهودي ؟ الانكليزي نفر قاللوا نو نو انكلش انكلش ·

وبتذكر كان معنا وقتها يوزباشي من طرابلس الغرب يجي الظابط يوقف فرشخة · هوة يوزباشي تركي يوم الواحد وقف عندو قاللو ليش مابتاخد احترام · ليش مابتحترم القانون العسكري · قاللو انا مابعترف بالجيش الانكليزي انا يوزباشي أنت ظابط انا وقفلك !! كتب اسمو وراح بعد ماخلص اليوقلما (التفقد يعني) بربع ساعة مانشوف الاجايين لنص الرمل جنود انكليز · جابو شادر ونصبوه وعلى داير الخيمة عملو شريط خوازيق بعرض متر وربطوا عليها شريط شوكي وجابوا نوبتجي بصلاح انكليزي وقفوه على باب المدخل لايش هادا ؟ مانشوف الا جاية الظابط مع جنود تنين · قاللو كامون دوغري عالشادر · اخدولو تخت ضل تلات تشهر يدور حوالين الشادر بعدين نقلوه من هنيك لوين مامنعرف لحتى يربوا غيرو · النتيجة قعدنا هالمدة اي نعم · ايداعشر شهر بالاسر · مانشوف الا اجا بعض الظباط من جيش الشريف حسين دخلوا الاسر وصاروا اسرى معنا · تاري مشان الدعاية انو الجيش العربي تشكل وتشكلت حكومة عربية وياللي بدو يطلع بدينا نطوع ظباط العرب بدينا نقيد اسامينا كل واحد يعمل استدعا لقائد القامب انو انا بدي التحق بالجيش العربي مشان اخدم وطني ضد الاتراك · ضلوا يقدموا استدعايات حتى صاروا ميت ظابط · مانشوف الا اجا نيشان ارمني ترجمان تبع قائد الاسرى كلهاانكليزي يمكن اسمو كوتس · جايه نيشان مرق بين الاسرى بلغ ياللي طلع اسمو بدو يسافر · اخدوا قيمة خمساوتلاتين اسم حضروحالكن بكرة قبل الشمس بدكن تكونوا على باب القامب · بيفتح النوبتجي بتفوتوا سرقة ماحدا بينتبه من الاتراك بس انتبهوا · وصاروا يسبونا ونسبهن ·

تلت بوسطات ورا بعضهن البعض بين البوسطة والبوسطة قيمة عشرتيام نحنا البوسطة التالتة . ركبونا بالسيارات على سويس مصر . اجا ياللي استلمنا من قبل فيصل . حسن فهمي بك وحسن حمادة بك واحد شامي وواحد بيروتي . مرسلين من قبل الامير فيصل مشان يستلموا الاسرى من الانكليز . وصل الانكليزي على اوتيل من اوتيلات السويس مضولو للظابط الانكليزي انو استلمناهن . وصفينا نحنا حرين بالسويس . هون بتنامو وهون بتاكلو لبين مامنفصلكن بدلات عسكرية على حساب الشريف على حساب جيش الحجاز . رحنا لخياط اخدو قياساتنا وانتظرنا بهالاوتيل ستاعشر يوم ننام بالاوتيل وناكل بالمطعم على حساب فيصل . والمندوبين نقرونا كل واحد خمسين انكليزية خمسين انكليزية عالماشي اكرامية بخشيش مشان نصرف . بعد ستاعشر يوم مانشوف الا حضروا حالكن عالمشي . اجت سيارات كبيرة كل واحد عندو صندوق صندوقين حطينا غراضنا . كلا جنود مصاروة سيويل نتعو هالصناديق عالسيارات ضوغري عالاسكلة بالاسكلة لقينا البابور ضوغري عالبابور ركبنا هيك عالعقبة . بالعقبة طلع لا قالنا الامير ناصر اخو فيصل واحترمنا وقال خدوا كل واحد شادر . خمساوتلاتين شادر جديد . نزلنا تلت تيام اكل وشرب وكل شي تمام . من هنيك قال يالله . عطانا امر اجت الجمال حملت غراضنا مشينا بالبر تلت تيام على ابا اللسن جبال قدام معان هنيك الجيش العربي تشكل . واقفين قدام محطة الاتراك فيها . كل يوم نتناوش نحنا والاتراك . بمحل اسمو الجنوبية والسخنة الشمالية جيش وعربان ومشايخ والقائد كان نوري السعيد كان قواد الجيش العربي عراقيين والباقي سوريين ولبنانيين وعربان . جيش مشكل عطونا بطانيات شوادر رز سكر أكل هاللي بدك ياه موجود . اختلف معنا الحال . معاشات كلو دهب . انا كنت آخود تمن انكليزيات دهب . ابن عمي توفيق الترجمان كان ظابط واخي كان بالعقبة مع الجيش التركي انأسر والتحق بالجيش ولقيتو وكيل ظابط . ابن عمي توفيق كان يوزباشي قائد فوج وكان صبحي المحتشم صهري جوز بنت اختي كمان ظابط بنجمة اي نعم . الخلاصة نحنا طابور وكل ظابط على بلق ميت زلمة وقائد الطابور ابن عمي . نتناوش نحنا والاتراك بمحطة معان . كل يوم نتضارب نحنا وياهن . الى ان فيصل شكل من الظباط جيش صغيركلو هجانة ونزل على درعا بدهن يتعرضوا هوة والانكليز بنابلس وفلسطين . الانكليز احتل فلسطين كلا ونحنا محتلين الحجاز . راح لدرعا بدهن يتعرضوا للشام نزل فيصل مع هالهجين قيمة مية ميتين ظابط مشان يدخل هوة والانكليز عالشام . دخلوا وهربت الاتراك .

ونحنا انا وابن عمي وطابور ابن عمي صفينا بابا اللسن . وقتن سقطت الشام عملنا حركة على معان احتلينا معان وهربت الاتراك . لقيناها فاضية

قعدنا يومين بقى سيدي بعمان • وقالوا ياالله امشوا عالكرك مشينا بطريق الحج • جروف الدروايش وديان طريق الحج كلها • من هداك الطريق مشينا خمس تيام لحتى وصلنا لعمان • ضلينا بعمان حتى ترتب الجيش بالشام • الضباط راكبة خيل والعسكر ماشية عالارض • عشية ننصب شوادر وننام • على بكرة نمشي • ضلينا بعمان حتى ترتب الجيش بالشام والحكومة • قالولنا اجاكن تبديل بعتولنا قطع عسكرية وبعتوا ضباط محلنا ونحنا نزلنا عالشام •

وقتن وصلنا قابلنا قائد الجيش كان ياسين باشا الهاشمي • كل مين عطوه وظيفة عسكرية • انا بعتوني عالمنزل سراية عزت باشا العابد • قائد البلق تبعنا قائد القطعات الفنية (ابن الجندي) بعتوني لعندو • حمصي واخوه كان ظابط ، انا بديت اشتغل عندو بسراية العابد • شكل قيمة ميت جندي للكهربا وتمديد الخطوط والتلفونات انا رئيسها انا ظابط رهط البرق والتلفون •

اجاني أمر قال روح بدل شريط الحبوس بالقلعة بالكهرباء • اخدت الجنود عندي تسعين جندي •

اجاني امر بدل خطوط الجامعة (اشله الحميدية) بدلتها من اولها لاخرها • بدلت كل اشرطة الدوائر تبع التلفونات • ضليت لابس عسكري لحتى صار سنة ٢٠ • انا بهالمصلحة اجا امر ساقونا قال وكلاء الظباط كلها لازم تدخل الحربية• اجانا الدور دخلنا المدرسة الحربية تتمة التحصيل انا واخي • المدرسة الحربية جامع دنكز • وياللي ورا جامع البحصة كانت للرشدية • هدون ياللي بدو يلبس عسكري • الولد الصغير يلبسوه زرار عسكري متى ماخلص شهادتو يبعتوه للحربية • يعلموهن تعليم عسكري • وفي مدرسة للمدني اسمها مكتب عنبر بالخراب سوق الاحد • بيطلع من هنيك تعيين مدير الناحية والقائمقام قضاء ايام تركيا •

بالحربية تعلمنا صرنا ناخد دروس عالحرب • ياسين باشا الهاشمي كان فريق • يجي يعطينا دروس كان رئيس ديوان الشورى الحربي • وكان الاول بصفنا عريف عراقي كان ذكي كتير يمكن اسمو فهمي الله والعليم •

كانوا يعطونا الهندسة التعبئة العسكرية • النيشان دروس ديانه • كان عبد القادر المبارك يعطي درس بالعربي • قعدنا قيمة ست تشهر راح اخي هوة وتوفيق الحلبي ابن خالتي استعفا من الجيش ومشي راح لميسلون • ضليت بالمدرسة الحربية• ماشوف الا اجا امر بحقي اعتازوني • قائد القطعات الفنية توفيق بك الجندي تضايق بدو ظابط فني • طلب من رئيس ديوان الشورى الحربي ارجاعي للبلق من المدرسة • رجعت والله اجا الامر • اي نعم • مدير المدرسة كان اللهم صلي على النبي ميرالاي عبيد • النتيجة طلعت التحقت

بقطعتي بالسرايا ببناية العابد • بقى انا تضايقت ومابقالها قيمة وكيل ظابط بما اني انا ظابط فني بلق تلغراف قدمت استدعا لحسن بك الحكيم كان بزمانو مدير عام البوسطة لقبول استخدامي بالبوسطة عالانشاءات • قبلها حــول الاستدعاء لرئيس ديوان الشورى الحربي • وكيل الظابط الوما اليه يطلب الاستخدام بدائرتنا الرجا اعلامنا عن سيرته اثناء خدمته بالجيش ودرجــة اقتداره وكنيته الاصلية وهل باس من استخدامو ٠٠٠ ؟؟

ايه • اجا الامر بالرفض • انا عقبت الاستدعا النتيجة توقفت اللــه يرحمو • بطلت شغلة وكيل ظابط وصفيت بلا معاش شهرين تلاتة بلامعاش قال ماني انقطعت • توفيق بك الزالق رئيس اللوازم مارضي يعطي معــاش ضليت ست تشهر بلامعاش • قدمت استدعا لرئيس ديوان الشورى الحربي ياسين باشا • انو انا عم اخدم بالجيش وانقطع معاشي طبعا قدمتها بواسطة توفيق بك الجندي • ياسين باشا حولها لرئيس الاركان تبعو يوسف بــك العظمــة • يوسف بك العظمة كتب لرئيس ديــوان الشورى الحربي لزوم اعطائه رواتب حيث خدم هالاشهر بموجب تصديق قائد القطعات الفنية • عطوني معاشاتي قبضت ست تشهر معاش تمن لــيرات دهب كــل شهر • والاستدعا تبعي مشيت مشان طلب البوسطة • قال لاباس من استخدامــه بدائرتكم من رئيس ديــوان الشورى الحربي للعظمة للجنــدي انو انقطعت علاقتو لمدير البوسطة • ماشوف الاباعتلي خبر عالبيت مدير البوسطة باعتلي موزع قوم استلم • رجعت مدني بالبوسطة • ضليت موظف فيها لحتى طلعت عالتقاعد وقتا كنا بصقاق البركة • رجعت صفيت انا وامي تجوزنا بصقاق البركة عند باب سريجة هنيــك صــار عرسي انا وامــك • بعدين انتقلنــا لسوق ساروجة للبيت ياللي عنــد الفيجــة براس طلعة جوزة الحدبــا جنب الفــرن •

ـ بس يابي نسيت تحكيلي حكاية البدوي ياللي شفتو بالسفر برلــك على حبتها شو قصة هالبدوي وايمتى شفتو ووين ٠٠٠ ؟

ـ شفتو بمحطة جروف الدراويش • بوقف الترينجي • بتجي هالبــدو بدها تشحد • اجاني بدوي مقطوعة رجلو قــال اديلنا قطعة عيش • تطلعت برجلو زعلت لك شلون انقطعت رجلو مســكين • قلتلو مين قطعلك رجلك • قال اتركني ياخوي حكاية طويلة • قلتلو حكي لي ياها لاعطيك قرص عيش وقرص عيش الو قيمتو بطريق المدينة • دفتر السيكارة بربع مجيدي منبيعو بالطريق والله وظيفة مربحة • خمسين لــيرة دهب اسحب روحة جيه نتفة بضاعة منبيعهــا بالمحطــات • لاهابــوب ولا دابوب لابيــاع ولاشرا • محطــة صــغيرة • بيقـوا مشـن مســاكين • والله يابنتــي قاللي

انا حبيت واحدة من البدو من عشيرتي اهلها ماعطوني ياها . هية بتحبني خطفتا وهربت لمحلات مافيها زلم بالجبل . حطيتها بالمغارة كل يوم انـزل اغزي اسرق غنم وجيب اكل ناكل بهالمغارة يوم من الايام نزلت لجيب راس غنم .. نزلت شلح قلنالو طيب . قال سرقت ورجعت . راس غنم وشلحت . وصلت للمغارة لقيت مراتي لافف عليها حنش غلض زندي (غلظ زندي يعني) ومفوت راسو ودنبو بالبخش بدو يسحبا وعيونا مفنجرة بدو يسحبها ويساويها نصين طار عقلي سحبت السيف وضربتو حس بالحامي شد عليها وقطعها نصين . أنا صرت متل المجنون الحنش هرب . دفنتها ومشيت بهالبرية متل المجنون . وأنا ماشي بهالبرية مالي وعيان لقيت جمل بهالبرية وهاجم علي .

قلتلو الجمل ليش يهجم قال الجمل اذا هاج بيدشروه بالبرية بيصير كاسر . شافني لحقني هربت منو انا اركد وهوة يركد لقيت شقفة جبل عليت . عما يطلع علي ضليت واقف . صخرة مزحلقة .. التفتت ناح فوق الصخرة لقيتها صفحة . ماشوف الا عقرب قد سطل لافف زنيفتو واقف . لابقيت اقدر اطلع لفوق عقرب ولا انزل لي جمل . قال وانا عما اتحير ماشوف الا العقرب شـم ريحتي تحرك ونزل عالصخرة ناحي وتزحلق العقرب ودرج قلب ضرب على ضهري من ضهري عالارض الله خلصني من العقرب . نزل الجمل راسا بدو يعضو لدعو للجمل . ماشوف الا العقرب والجمل تسطحو بالارض لا العقرب يتحرك . ولا الجمل يتحرك . انتظرت فهمت انهن ماتوا سمموا بعضهن . نزلت لتحت ما بيخلصني امشي عملت هيك للجمل برجلي بدي شوفو طيب ماشوف الا رجلي فاتت بالجمل بلحم الجمل وانطرقت بالعضم انجرحت لعب السم صار يمشي شوية شوية فهمت اني بدي موت متلهن سحبت السيف وقطعت رجلي وكويتها وطابت وبقيت عم اشحد بين العربان برجل واحدة متل مالك شايفني . اي واللـه يابنتـي .

وقالت لي أمي عزيزة بنت الشيخ علي قاسم البهلول الجزائري بلهجتها الشامية الحلوة تحدثني عن حالة الشام أيام السفر برلك :

– وقتن اجا السفربر والله كنت صغيرة ياسهام يعني شـي (تلطعش اربطعشر) سنة وقتها بسفر بر مات أبي يي على قامتي . زعل نزلت نقطة على دماغوتاني يوم مـات ، ماضعف والله ابـدا . ولايوم . موكبير بيطلع عمرو خمساوخمسين ستين سنة ،كنا ساكنين ببيت أبي «بصقاق» عسقلان . عسقلان « ولي » ابن خاله النبي . واللـه كنت صـغيرة صغيرة وقت مرقت المدحلة بدهن يدحلو الارض . قامت وقفت المدحلة سبع تيام ماصفي زلـمة ماجرب حالو يمشيها ماحسنوا . لحتى دبحولوا راس غنم ودقولوا نوبـة وعرولو مولد قامت مشيت . حضروا المشايخ وقروا على روحو واستأذنوه .. والرجا ياللي ترجوه لحتى مشيت .. مشيت لحالها . ولد صغير مشاها .

وميدان ، وكانت وقتها بسيطرتها وقتها كانوا بدهن يساووا « السكة » يمكــــن ٠

بالسفربر أهلي ماجاعوا كانوا عم يشتغلوا بالصوف ٠ كانوا يشتروه ويعطوه للشغالات بيغزلوه وينزلوه يبيعوه ٠ ومرت خالي بدريــة كانت عند امي وخالتي ٠ كان خالي ابو راشد مسافر قعد أربع سنين مسافر ٠ واشتغلوا عالم بالصوف كتير ، كانوا ينزلـــوه لسوق الصوف وسوق القطن ويبيعوه ويطالعوا معيشتهن ما في رجال ٠ الدكاكين كلها مفتوحة وقاعدة للكلاب الكلاب ينــاموا فيهــا ٠

راحوا الرجال عسكر ٠ الغلا ٠٠ الغلا ٠٠ يبيعوا من تحتهن أواعيهن ٠ الخبز بالوسيقة ٠ من نص الليل تنصف العالم عالفرن حتى تاخد خبز قلبو اسود متل الفحمة ٠

وكانت الفران تشتغل ليــــل نهار بقسماط للعســكر ليبعتوه للحرب ٠ والجوامع كلها صارت مشان يصادروا العسكر للسوقيــات ٠ وبالحمــــام بالسنجقدار « حمام الراس »،كانوا يحلقولهن « قلط » ويغسلوهن ويبعتوهن على قطعهن ٠

يجمعوهن بجامع المعلق بــين الحواصل وجامع السادات حتى يبعتوهن عالسوقيات ٠ انساقت « العالم » ماصفي الا ابن تمانين سنة ٠

النسوان كان يبعتلهن بياع قش الكراسي ياللي بالدرويشية « القش » يساووا منو كراسي قش واطية وعالية،يقششوه وياخدوا « كراه » هادا بباب مصلى بالميدان وبالسويقة ٠

والنسوان عند بحرة المدورة٠وين بحرة المدورة اصبري لقلك وين ياسهام شفتي مطرح ماكنت تفوتي لخان الزيت برة عالجادة مطرح مابتمشي السكة ٠ شفتي سوق العتيق وقت منطلع من آخرو بدك تطلعي عالجادة قبل ماتصلــي لسوق الهال بمصلبة الزرابلية، هنيك كنتي تشوفي حلة كوسا محشي ومرقة٠ وحدة مرا تحط كوسا وتبيع ٠ حاطة ملاية وتكشف على وشها « ختيارة » ولادها كلهن عسكر مخلينلها كناينها وولادهن تطبخ وتطعميهن ٠ ومواجــه القلعة ، الحارة ياللي مواجه القلعة هنيك واحدة كانت تشوي كبة ٠ وببــاب الجابية كانت واحدة تساوي معاليق تشوي كبدة وتبيع ٠ وبالميدان يشتغلوا حصر دباجية ٠ يعني مو متل الحصيرة العادة ٠ الحصيرة ياللي بيطلع مـــن وراها قش ٠ الها وش ، بس مرتب ، دباجيـــة لانها سميكة « وأيــا » ٠ بياخدوها للبساتين ٠

ماصفي شي ياحسرتي ماباعوه النسوان · اخدوا الرجال كلها ماعاد صفي بالبيت حدا · رجال بالسبعين بالتمانين مايلتقى ·

والله العظيم « شوبك » !! كلهن اخدوهن عالسوقيات · الجامع ياللي بعد سوق الهال · جامع المعلق بين الحواصل مخصص للعسكر كلهن يبعتوهن من هنيك للسوقيات ، تجي القرعات ويفرقوا ويبعتوا · كل واحد ونصيبو ومتل ما الله كتبلو وكانوا متفقين المانيا والنمسا وتركيا كلهن جبهة واحدة ·

ولي على قلبي شو تعذبت النسوان بالشام لقولك شو السبب · التراك بيطلعلهن من « الكوبراتيف » · والنسوان التراك اللحم ياللي كان يجيهن والبضاعة والسكر · والله «العالم» اذا شافوا شقفةسكرة يحسبوها تهريب · والقمح ، واللهوالله تحملو أمي بالبقجة مطرح مايشتروه تهريب منالبواكية · البوايكية صادرولهن القمح · صاروا يخبوا القمح ويبيعوه بالسرقة · واللي تشوي درة بالصقاق وتطعمي ولادها · قالبين متل الشحادين · الوسخ · بصلة مافي بالبلد · ولك الملح شو قيمة الملح مابقى ملح بالبلد · ابوكي قاللي بعد ماتجوزني وخلصت الحرب : صرت يامرتي حط بدكة لباسي شوية ملح خايف عليهن · « لك » اصبعتي بالملح من خوفي ليخلصوا الملحات ·

تعذبوا كتير اضرب ·

وقت خلص السفر بر وهربت التراك والالمان أهل الشام قتلوا الالمـــان اللي كان متفق هوة والنمسا وتركيا · اجو الالمان صاروا يعملوا كونسروة · ماخلوا بالبلد خضر · يعملوا كونسروة للعسكر · الاهالي عما تموت بالصقاق · عم يقولك جوعان جوعان تاني يوم يقوموا يلاقوه يابس ·

الولاد يموتوا بالصقاق · ياللي ماتوا وتشردوا · فوضى بالبلد مابقى شي مرتب · وولاد الفقرا كانوا كلهن فلتانين بسوق الخيل وهون وهـــون ويروحوا لعنـد العسكر ماكانوا يعطوهن غير البقسماط · الرغيف ماكانوا يحصلوا عليه · تموا بهالحالة مدري سنة الستة مدري سنة السبعة حتى إجا الانكليز وطالع تركيا والالمـــان · والدهب عبوه بدهن ياخدوه بالبوابير · وصلوا لدمر طلعوا الدمامـرة كسروا البوابير واخدوا الدهب والالمـان هربت وتركيا هربت واللي قتل قتل واللي راح راح · زرار الالمـان كاتبين عليهن انو الدمامرة اخدت الدهب بدهن ينتقموا لانو قتلوهن دبحوهن واخدوا الدهب ·

والله يومها رحنا عالحمام حمام الدرب رحنا عم « نتخسل » ونحنـــا عم «نتخسل» ياسهام مالنا عرفانين انو انكسر الالمان ورح يهرب · وقاموا صاروا يشعلوا الجبخانة مدري بالكسوة مدري بقرنة تانية · صار الحمام يرج فينا ·

ليلتها بالليل هجمت العسكر وطلع النهار كان فات الانكليز حرقوا الجبخانة ياسهام لانو الأهالي صارت تقوم ضدهن · حرقوا الخبخانة حتى ماتقتلهن العالم صارت النــاس تاخد بواريدهــن وتقتلهــن · ليلتهـا قتــل تلاتة من بيت النوري شباب ياحسرتي · الحـاصل ليلـة منيلة · تاني يوم اجا الانكليز وانتشر ياسهام بهالبلد · كلحصان واقف تقوليملك موحصان · يعبو السكر بايديهن ويطعموا الحصان · أهل البلد شافوا هالشوفة وزحـل عقلهن · ويركدوا يخدموا الانكليز · صاروا يعطوهن ليرات دهب · شهرين تلاتة وصارت ترجع العسكر وفات فيصل · واجا فيصل · وإجالك هالكرم من هالانكليز وهالخير والفرح ياللي صار على زمان فيصل وقتن اجا · من يوم خلقت الدنيةماشفت منو · بتمشي منهون لهنيكسبع ليالي مع سبعتيام مغاني ورقص بالشوارع · البلد ماشية وانفرجت العالم وصار يجيبلهن رز وسكر وخبز واللي مات مات واللي عاش عاش · فيصل قعد سنتين والله انــا تفرجت عليه لبسوه التاجبالبلدية بالمرجة أخدتني أمي فرجتني · الفراح اللي صارت بجية فيصل بالكائنات ماصار منها · بتعرفي ليش اجت العسكر كلها ياللي صفي طيب ·والله انا وقفت تفرجت عليه وقتن توجوه بالبلدية مطرح ماهدوها · عالبلكون تبع البلدية حطولو التاج فوق راسو · شافتو «العالم» ماتشوفي الا الزلاغيط والزين · وبعدين لك امي ماشفت بعمري سبع تيام مع سبع ليالي الرقص مشتغل والسهرات ·· تخوت منصوبة وسجاد معلق وزين مفروشة · بتروحي لباب الجابية وباب سريجة والميدان والشاغور والعمارة والقنوات · بالله العظيم انا تفرجت على كراكوز بالقنوات فوق النهر قـدام بيت الشيخ شريف·اللي صار ماصار بحياتو · بعمرو ماشافت الشام والزين مشتغلة والمدافع مشتغلة واللي كانوا بالحبس طالعوهن واللي كانوا محكومين بالاعدام نزلولهن المحكومية ، واجــا الانكليز وقت فيصــل وفاتت الانكليز عالشام · عما قلك اذا الصباط مسحولو ياه يعطيهن تلت ليرات ليرة ليرتين دهب اكرامية · الانكليز شغل البلد · الاحصنة الاحصنة الانكليزيحط بكفو السكر ويطعميها · الاحصنة عما تلمع لواياتها وفخادها وضهرها · الحصان الانكليزي قطعتو كبيرة عما يمشي متل البرنس مابتقولي حصان · ايه شفنا ايام سودا تنذكر ماتنعاد يابنتي ·

والله فرجها عالشام وراح الانكليز وراحت تركيـا وراح الالمـان وراح الفرنساوي · والشام الله حارسها ·

لك بنتي شوجاب على بالك هلا سيرة السفر برلك ؟

يوميات فتاة دمشقية

لي صديقة ضاعت مني في ليل المعركة .. كما ضاع مني كل الناس..

ومرت الايام السود.. والتقيت بصديقتي. كان فكري عندها .. كنت اتوقع حالتها .. كنت اموت رعبا من فكرة تداهمني .. ماذا لو خطفت منها المعركة خطيبها الضابط ، الرجل الذي تحبه فوق الحب، وترتبط به ارتباطها بالحياة ..!!؟

مددت يدي اصافحها .. ونظرت في وجهها الباهت وصمتها المريب.. وسألتها بلهفة : ما الاخبار .. كيف حالك .. ما اخباره ..!!؟

وفتحت درج مكتبها . .واخرجت مجموعة من الاوراق .. وقالت لي بهدوء وصوت مبحوح :

— لا املك القدرة على الكلام بعد .. فهل تملكين القدرة على القراءة ..!!؟ اليك يومياتي .. كتبتها على نور شمعة بخط يرتجف كقلبي..

الاثنين ٥ حزيران ١٩٦٧ :

دخل علينا احد الزملاء ملهوفا وقال بسرعة : افتحوا الراديو افتحوا الراديو ، بدأت المعركة ، الطائرات الاسرائيلية تغير على القاهرة، والقوات المصرية بدأت تقصف اسرائيل من سيناء .

رأيت من نافذتي بعد مرور فترة على الخبر عددا كبيرا من طائراتنا « الميج » يندفع بسرعة مجنونة نحو خط الجبهة في الجنوب .

فرحت بمظاهرة طائراتنا في السماء وتيقنت من انها ذاهبة لتضرب العدو الذي يضرب الشقيقة مصر ، وخفت . بكيت من الخوف والفرح . قرأت للطيارين « آية الكرسي » ونفختها في السماء خلف سرب الطائرات .

بقيت في مكتبي احدق في الافق البعيد كأنني انتظر طيرا يحمل لي بشرى



الفنان غازي الخالدي — دمشق



النصر في لمح البصر ، وكنت ادرك ان غارتنا الجوية على اسرائيل سوف ترتد الينا من طائرات العدو فورا .

ضرب زمور الخطر بعد بدء الغارة الجوية الاولى مع الاسف .

دمشق بعد الثانية ظهرا ، والطائرات الاسرائيلية تقصفها ، والمدافع المضادة للطائرات تهز اركان مدينتي وسماءها هزا مرعبا . بدأت اتصرف بذكاء مع نفسي واميز بصورة اقرب الى الصحة بين اصوات انفجارات قنابل المدفعية المضادة للطائرات وقنابل العدو فاخفف عن نفسي وعمن حولي هول اللحظات المرعبة لاي انسان مهما كان شجاعا .

تكررت الغارات ، ومن نافذة القبو الذي هربنا اليه مع الجيران في الحي ، كنت اسمع صراخ الشباب في الحارة وتصفيقهم بعد مشاهدة سقوط طائرة اسرائيلية تحترق . لم يهرب الشبان الى المخابيء .. الناس كلهم قد اندمجوا في المعركة واصبحت مشاعرهم متوحدة ضد عدو خطير واحد. هذا يؤكد ان الناس في المعركة الحقيقية الكبرى تجاه العدو الخارجي ينسون احقادهم .

جاءني احد ابناء اختي يؤكد لي صعود عامود من الدخان قريبا منا . واصبت برجفة رعب هائل ، تسري في جسمي وتشله عن القدرة على الوقوف او الحركة او المشي .

كلهم خائفون من صوت الانفجارات التي لم تنقطع الا انا .. فقد كان الخوف عليه يكتسح كياني وتفكيري ويبتلع صوتي وكلامي العالي ، يبتلع حتى خوفي على نفسي . يقولون : الروح غالية . وانا اقول : روح من نحبه هي الغالية .

ولم اعد اطيق الانتظار . صعدت من القبو لارى من اي منطقة في دمشق يتصاعد اللهب علني اقدر مكانه ، ولكنني لم أر شيئا وعدت اكثر قلقا ورعبا .

ما قيمتي في الحياة من غيره ..!! ياربي انا لا اريد غيره . نمنا في القبو الليلة . وانا مجبرة على النوم مع اهلي اينما حل اهلي ، ولكن قلبي معه . وقبل ان يحل الليل المطبق فوق دمشق ، ذهبت بسرعة الى بيتنا العالي ، وطلبته هاتفيا ولم يرد احد وشعرت باطمئنان ، فما دام هاتفه يرن فهذا يعني ان غرفته لم تصب والا لكان الهاتف قد قطع . وطلبت رقم بيت اهله حتى اسمع صوت احدهم يقول « الو » واغلق السماعة بهدوء بعد

ان اطمئن من لهجته العادية الحيادية علـــــى ان رجلي الحبيب ، ابنهم الطيب ، بخير .

يجب علي ان افكر واتصرف بعقل امام اهلي .

الثلاثاء ٦ حزيران ١٩٦٧ :

اليوم الثاني للمعركة . كانت ليلة امس اصعب ليلة عرفتها في حياتي كلها . نمت على الاخبار وصحوت باكرا اسأل امي ما الاخبـــار . عطشي للاخبار لا يرتوي .

لم اذهب للعمل بقيت في المنزل ، تضايقت واحسست انني سجينة وانا في البيت بلا عمل بلا حركة . مشلولة في زاوية الغرفـــة كالكرسي ، واكتشفت ان المرأة التي تخاف من الحرب مصـــيبة وحجر عثرة في طريق المحاربين . وادركت ان اقل عمل يجب ان تقوم به المرأة بلا خوف ان تقدم شريانها وتتبرع بدمها لجريح قد ينزف الآن او غدا .

طلبته بعد الظهر وهاتفه يرن بلا جواب . ما اتعسني وانا بعيدة عنه لا أعرف كيف ينام وكيف يصحو وماذا يعمل واين يقيم !! اعرف انني الآن بالنسبة اليـــه لا شيء .. لا شيء .. المعركـــة اهم شيء في حــــاضره ومستقبله ..

بدأت كلماته تنتشر في رأسي ، وبدأت تدوي في رأسي كلمة قالها مرة :

« سأقاتل في الشوارع ضد العدو الصهيوني » . بدأت اخاف . نعم انا أخاف عليه لانني فتاة تحب ، والحب ضد الموت . الحب هو الحياة ، الحب هو الطفل الذي يغلي في عروقنا ، الطفل هو استمرار الحياة .

من محطة الى محطة .. أنا التصق بالراديو الذي غـــدا أعز شيء في البيت .

ابنة اختي الصغيرة ، وعمرها سنة ونصف ، اخذت تنتقل في العتمـــة الموحشة من حضن الى حضن . تقبل بشفتيها الصغيرتين كل حضن وكـــل ركبة تصل اليها وكل يد تلامس وجهها في الظلام المطبق ، ثم تعود الصغيرة الى الراديو وتتساءل بغيرة من المنــــافس الجديد الغامض : دادو ..؟! دادو ؟!! وكأنها تسألنا لماذا تحبون « الراديو » كلكم اكثر مني ؟ ثم لمــــاذا تجلسون في الظلام ؟ اين وجوهكم وعيونكم المحبة ؟ لا ارى من عواطفكم الا الكلمات الحلوة واللمسات الطيبة الحنون .

وهدرت غارة مفاجئة ،ودوى صوت القنابل في انحاء المدينة، وعرفت

الطفلة الصغيرة اننا في خطر بحسها الفطري ، واخذت تبكي من هول القنابل المتفجرة وتقول وهي تلتصق بامها : ماما .. هوا ... هوا ... ماما هوا ..!!!

الاناشيد الحماسية من دمشق وبغداد وعمان والقاهرة تدلني على المحطات الاذاعية العربية . لكل عاصمة عربية تقاتل العدو المشترك « اسرائيل » ، اناشيد حماسية خاصة . اثر بي من القاهرة نشيد عبد الحليم حافظ « اضرب » ، وهزني من دمشق تكبير صباح فخري على صوت طبول الحرب ، وهللت « لعراضة » على الطريقة الحماسية الدمشقية القديمة .

بدأت اصوات المذيعين تفقد حماستها وجنونها . ما الذي يجري ؟! كان المذيع في المحطات العربية يقفز الى ملايين المستمعين العرب حسب ما لديه من اخبار جديدة هامة ... الاعصاب متوترة والناس يتلهفون للخبر . ولكن ما الذي جرى لجبهاتنا الثلاث .

سمعت الخبر المروع : ضربت مطاراتنا السورية . وطائرات العدو قد ضربت ايضا مطارات مصر والاردن والعراق .

تقول محطات الاذاعة ان مجلس الامن بالاتفاق مع روسيا قد قرر وقف اطلاق النار في المنطقة .

سمعت من أحد ضباطنا اليوم ان العرب لن يتوقفوا عن القتال وستسمى الحرب الآن حرب التحرير الشعبية . وفرحت . ورغم خوفي من الحرب ان تأخذ مني من أحب ، فقد رفضت اعماقي كأنسانة عربية انننكسر وتعود قواتنا الى قواعدها بلا انتصارات .

جرحت حتى القلب لخبر انتصار اسرائيل في احتلال القدس العتيقة . هل تسمعين معي يا فيروز .. لقد اخذوا قدسنا العتيقة !!

الاربعاء ٧ حزيران ١٩٦٧ :

اليوم الثالث للمعركة . دمشق في الليل . دمشق قطعة ليل فاحم بلا نجوم .. حتى النجوم ارتدت حللا زرقاء خوفا علينا من قنابل العدو ، ماذا جرى لدمشق الطيبة !..

دمشق في الليل قطعة من الهم والترقب ، ودمشق في النهار قطعة ملتهبة من الانتظار والتوق المتأجج لاخبار الانتصارات العربية في المعركة . اجهزة الراديو في البيوت ودكاكين الخضار والبقاليات والافران مفتوحة على آخرها تثير الحماسة والقلق معا .

قبل الظهر طلبته عدة مرات وهاتفه لا يرحمني . وبعد الظهر حاولت ان اسمع صوته فخاب املي .

سألني اليوم اخي : ما بك ..؟

ونفيت شك اخي الذكي ، واخفيت ما في اعماقي من خوف على من أحب ، وعزوت لون وجهي الباهت الى مرضي وخوفي من الغارات .. اما اخي الطيب فقد كان يسألني وهو متأكد ممـــا يجول في قلبي ، علني اخبر « اخي صديقي » وارتاح . اما بقية اخوتي الشباب فقد ظنوا انني مريضة.

حاولت ان اضع على وجهي حمرة الشـــفاه والكحل لاغير منظري المخيف .

زارنا احد الاقارب وقال جملة اعجبتني . كان كلامه عن المعركةمنطقيا وعلميا ، قال :

« ليس اصعب على الانسان من أن يكون مزدوج الشخصية يقول ما لا يؤمن به ويصدق ما لا يصدقه فعلا » .

اعجبني ان تكون فرنسا علـــى الحياد . في الليـــل وقفت عند تعليق سياسي على مستوى عال سمعته من راديو بيروت أذكر منه هذه الكلمات:

— ان معركة البترول ستؤثر على الغرب في المدى الطويل .

— يجب ان يعرف الغرب ان دوام الظلم يسبب انفجار الحرب .

جننت فرحا بخبر تبرع الكويت والسودان للقيادة العربية المشتركة بمبالغ كبيرة . وسرتني جدا دعوة الباكستان ، الدولة المسلمة ، للعرب ، بان يطلبوا من الباكستان كل ما يحتاجون اليه في معركتهم مع اسرائيل .

الخميس ٨ حزيران ١٩٦٧ :

من القاهرة استمعت للمرة الخمسين لاقوى نشيد في معركة العرب مع العدو لبساطة كلماته وسرعة تأثيره وقوته :

لاجل الصغار
لاجل الكبار
لاجل النهار
لاجل البلاد
لاجل العباد
لاجل الولاد

لاجل البنات والامهات
لاجل النبات
لاجل الربيع
لاجل الجميع
لاجل الورود
لاجل الوجود
لاجل السلام والابتسام
اضرب كمان واخلق امان
لاجل الحياة ولاجل عشاق الحياة
لاجل الحياة ولاجل صناع الحياة

خبر عظيم يؤكد وصول قوات الجزائر الى الجبهة المصرية التي يقولون انها سقطت في يد العدو . وخبر هام يؤكد تطوع الف رجل من الصومال الى جانبنا .

رايت امس حلما غريبا . رايت ان قوات المغاوير العدوة تركض آخذة اماكنها في الشوارع . وصلوا الى شارعنا رايتهم من النوافذ المنخفضة للقبو اشتد الرعب في نفسي وافقت في قلب الليل المطبق وصدري يعلو ويهبط، وحلقي يطقطق .

ذهبت صباح اليوم الى عملي ، الجنود في كل مكان ما يزالون يعبئون الاكياس بالتراب والرمل ويوزعونها على نوافذ البيوت . جدار عال من اكياس الرمل امام نوافذ البناء الكبير . سلمت على المجند « الحرس » بيدي وابتسمت فرحة به وبخوذته الحديدية وبندقيته التي يحرس بها باب البناء .

قالت لي صديقتي امتثال زوجة احد الضباط على الهاتف وهي تشرق بدموعها من شدة قلقها على زوجها الحبيب الغائب قبل بدء المعركة بايام في قطعته ولا تعرف في اي مكان يحارب :

— والله اتمنى لو يعود لي حيا حتى لو قطعت يداه ورجلاه .

هزتني كلماتها وبكينا معا على الهاتف .

سمعت من اذاعة دمشق تعليقا صغيرا اعجبني لانه كان كلاما علميا وليس صراخا في الهواء :

كل اسلحتنا في المعركة : البترول ، قناة السويس ، عمال الموانيء مقاطعة امريكا وانكلترا ، ضرباتنا المتلاحقة .

دمعت عيني وخنقتني الدمعة . كان الاقبال على بنك الدم منقطع النظير . يقولون للمتبرع بدمه دورك بعد غد . طلبوا من الناس في الراديو ان يتوقفوا عن التبرعات بدمائهم لفترة . ارسلوا الفي زجاجة الى الاردن والفي زجاجة لجرحى جبهتنا السورية .

هل هناك وحدة اكبر واعظم من وحدة دمائنا العربية ..؟!

خبر هام قرأته في نشرة ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي اليومية :

فتاة صغيرة تدعي سنا اكبر من سنها ليسمح لها بالتبرع بدمها . عندما اكتشفوا من هويتها « الكذبة البيضاء » رفضوا طلبها وشكروها . أخذت تبكي بحرقة وظلت واقفة عند باب بنك الدم تبكي لانهم منعوها من تأدية واجبها في المعركة .

ليلة الجمعة ٩ حزيران ١٩٦٧ :

حلمت اني عدت طفلة صغيرة تحكي لي جدتي « ام عزيزة » هذه الحكاية المثيرة :

« كان يا ما كان يا قديم الزمان لحتى كان . كان في معزاية وعندها تلت ولاد صغار حلوين كتير . قامت اجت هالمعزاية قالتلهن لولادها .. يا ولاد .. يا ولاد انا رايحة جيبلكن اكل لا تفتحوا الباب لحدا ! اصحكن تفتحوا الباب « للغول » ...!! قالولها لأ يا امي ما منفتحلوا .

راحت أمهن عالبرية اكلت الحشيش وشربت المي وصاروا بزازها كلهن حليب . وقامت رجعت هالمعزاية عالبيت ودقت الباب ..دق دق دق.. قالولها : مين ؟ قالتلهن : فتحولي يا وليداتي والحشيش بقريناتي والحليب ببزيزاتي فتحولها الباب حطت ولادها وطعمتهن ورضعهتن وناموا .

قامت تاني يوم ، قالتلهن لا تفتحوا الباب لحدا بغيابي ، وراحت لحتى تجيبلهن اكل . مين شافها . شافها الغول خلاها لراحت واجا دق الباب . قالولو المعزايات الصغار مين عم يدي الباب قاللهن بصوتو التخين فتحولي يا وليداتي والحشيش بقريناتي والحليب ببزيزاتي . قالولو روح انت غول مالك امنا ، امنا صوتها رفيع انت صوتك تخين . راح هالغول لعند النجار قاللو نجرلي صوتي . نجرلو صوتو وعطاه سكر نبات حتى صار صوتو رفيع متل صوت المعزاية ورجع د قالباب وقاللهن: فتحولي يا وليداتي والحشيش بقريناتي والحليب ببزيزاتي .. متل امهن . قاموا حسبو امهن وفتحولو الباب ، اجا خطفهن واخدهن معو عالمغارة وحطهن بالمغارة لانو كان شبعان

قال لحالو بكرة باكلهن . اجت امهن المعزاية تطلعت لقت الباب مفتوح ، فاتت دورت دورت ما لقت ولادها . تطلعت بالارض لقت دعسات «الغول» لحقت الدعسة لوصلت لبيتو عالمغارة . وطلعت على اسطوح بيتو وصارت تدبك . كان الغول تعبان ونايم قام فاق قال : مين دبك على سطحي رمى الطراب على طبخي رمى الحجر كسر مخي ؟!! قالتلو : انا العنزة عنيزية ام قرون حديدية واللي اكل ولادي يلحقني عالبرية .

قاللها الغول : بايش بدي غالبك انا ما عندي قرون ، قالتلو ما بعرف روح ساوي قرون وتعا غالبني . راح جبل قرون من طين وحط قرن من هون وقرن من هون وقعد بالشمس حتى نشفو قرونو ووقف بالســـاحة بالبرية قدام المعزاية قاللها يا الله تعي اضربي!!قالتلو لأ انت ضروب بالاول. راح لبعيد تحمى وركد وضربها بقرونو على بطنهـــا قامو انكسروا قرونو . قاللها يا الله اضربي .. قالتلو : بالله ..!! راحت لبعيد واتحمت اتحمت وضربتو بقرونها قام انشق بطنو وطق ومات .

وراحت عالمغارة اخدت ولادها وقالتلهن :

يا وليداتي يا حبيباتي ما قلتلكن لا تفتحوا الباب لحدا ! شفتو شلون اجا « الغول » وخطفكن !!

قالولها : خلص يا امي ما عدنا نفتح الباب لحدا . توتة توتة خلصت الحدوتة » ..

وتلاشى طيف جدتي .

صحوت في الليل مذعورة ... وجدت امي مستيقظة قلت لها :

— رأيت ستي الله يرحمها بالمنام تحكي لي حكاية « الغول » ..!!
— خير ان شاالله يا بنتي .
— قديش الساعة يا ترى ..!؟
— لسة ما ادن الصبح نامي .
— وانت ...؟
— مو جاييني نوم يا بنتي . راحت ايام النوم !!

الجمعة ٩ حزيران ١٩٦٧ :

الخبر الذي هز العالم العربي خبر تخلي الرئيس جمـــال عبد الناصر عن الحكم .

السبت ١٠ حزيران ١٩٦٧ :

تراجع رئيس الجمهورية العربية المتحدة الرئيس جمال عبد الناصر عن قراره تحت ضغط الجماهير العربية في شوارع القاهرة وفي العواصم العربية ليلة الامس .

سمعت من لندن صدفة نبأ احتلال رجال المظلات الاسرائيليين للقنيطرة في الجبهة السورية .

اعلن راديو دمشق نبأ احتلال العدو للقنيطرة وبدا على دمشق ذعر لا مثيل له . اذن فالصهاينة يتقدمون نحو دمشق ..!!؟

وبدأ خوف هائل يمزقني . بدأت كلماته تكبر في نفسي وعلا طنينها في اذني : سوف اقاتل العدو في الشوارع لو حاول ان يحتل الشام ، لن يأخذ جندي اسرائيلي مكاني قبل ان اموت .

دقت بابنا بلهفة فتاتان من الاتحاد النسائي العام بلباس الفتوة الخاكي تطلبان برجاء ولطف من السكان شراشف بيضاء نظيفة وقمصان رجالية وبيجامات للمستشفيات العسكرية .

وركضت الى امي والى غرفة ابي . اعطتني امي الشراشف واخذت من ابي القمصان النظيفة البيضاء وبيجاما من بيجاماته الجديدة ، اعطاني ابي ملابسه ودموعه دموع الرجل العجوز الذي دخل اكثر من حرب ، تنحدر فوق الملابس ، وحبست دموعي امامه وانا اتظاهر بالسرعة .

اخذت الفتاتان الشجاعتان الملابس بفرح ، اغلقت الباب وعدت الى الكرسي وانفجرت ببكاء عال وصل حتى درجة الشهيق الحاد . سقطت مني ارادتي نهائيا . بكيت امام اهلي بشدة ، فانا اضعف بكثير من ان احتمل بعد ، او ان امثل امامهم بانني قوية وشجاعة . لست قوية انا ضعيفة جدا .. انا خائفة عليه .. لي رجل يحارب بين الرجال واخاف بل واموت عليه خوفا . من يدري ربما يكون جريحا الآن في احدى المستشفيات ..!؟

لاحظ اهلي بكائي . دهشوا . وصمتوا .

على المائدة التي لم تجمعنا منذ ايام ، اقترح احدهم ان نغادر دمشق الى ضاحية من ضواحي دمشق قبل ان يدخلها الصهاينة . قلت: اذهبوا كلكم انا لن اغادر دمشق ، سأموت في بيتي ، اذهبوا واتركوني . حياتي ليست غالية علي الى درجة الهرب، لست متمسكة بحياتي ما دام الصهاينة سيأخذون مدينتي ويقتلون ابناء وطني وحبيبي . ولم اكن اتظاهر بالوطنية ، كان «هو»

الوطن باسره ، لن اهرب واتركه وسط المعركة التي قد تحدث في دمشق . وبدات اتساءل :

ــ لماذا نخاف العدو .؟ لماذا نهرب من مدينتنا ..؟

الى اين نهرب ..؟ الى الوراء ...؟ ليأخذ العدو ارضنا ..؟ لنعيش في الخيام تحت العراء ..؟ من يحب مدينته يجب ان يدافع عنها حتى الموت. لن اهرب لن تأخذ صهيونية بيتي ومدينتي وملاعب طفولتي . سوف اقاتل من النوافذ في الحارات في الشوارع ... غريب بدأت اقتنع بكلماته واعتنقها لا لانها كلماته بل لانها كلمـــات الانسان الحقيقي الــذي كبر في نفسي تحت الخطر .

بعد الغداء رن الهاتف .. وركضت كالمجنونة . فقدت اتزاني في البيت وحيائي .. ليعرفوا جميعهم الحقيقة .. نعم انا احبه بجنون . لا سر بعد اليوم في بيتنا . السر فضحته ملامحي ودموعي ولهفتي . وكان صوتــه الحبيب . قلت : الو ... بتحفز وامل وشوق وقال : مرحبا . ولكنها كانت جافة تطقطق حروفها في حلقه تحمل لي الخجل والاسى كل الاسى والاخفاق والخيبة والجرح والموت الذي اصاب رجال جيشنا .

اذكر المخابرة :

قلت :

ــ اهلين وسهلين اين انت من أين تتكلم ؟

ــ وصلت الآن فقط .

ــ من أين تتكلم ؟

ــ من البيت وصلت الآن ..

وسكت لا اعرف ما اقول !! وقال :

ــ مع السلامة .

فرحت بكلماته على قلتها وعدت اليهم اكررها لهم وانا اشعر بالزهو والفرح امامهم ، بينما الالم يعتصر قلبي من اجل خسارته في المعركة كرجل يمتليء كبرياء ولم يكن يتوقع هذه الخسارة العربية الفادحة فالموت عليه اهون من هذه النكسة .

الفرح ايضا كان اقوى هذه المرة من ارادتي كالالم تماما . لم استطع ان اخفيه . شعرت بقوة خارقة تمنعني من تمثيل الدور الحيادي. ابتسامتي في طرف شفتي وفي عيني كانت خبرا عظيما لكل من يريد ان يعرف الحقيقة . لقد عاد لي حيا .

الجمعة ١٦ حزيران ١٩٦٧ :

زرت جرحى النابالم في المستشفى العسكري في المزة . بكيت بحرقة من اجل جنودنا المصابين المشوهين المتألمين من الجروح الرهيبة البالغة .

كتل من الفحم في الاسرة البيضاء .

ليتني امزق الطيار الاسرائيلي الذي قذف بالقنابل المحرقة باظافري . طائراتهم الحديثة تقودها وحوش كاسرة ويقولون للعالم بكل مسكنة بانهم دعاة سلام في المنطقة .

جرحى النابالم لا ينامون وانا لا انام . احترقت جلودهم وتلونت بلون الفحم ، واحترق شعوري وتلون بلون الفحم . انا المصابة بالنابالم وليسوا هم .

ليتهم يعلمون اني لم انم حتى الفجر وانا اتصورهم ، ربما يكون في هذا شيء يبرد قلوبهم .

احترقوا .. ولم تعد لنا فلسطين ... وهذا حرق بليغ يكوي قلبي وعقلي . ومن صميم الجرح اثور لا اقبل بهذه النتيجة لا نقبلها كلنا،وسنفعل حتما في المستقبل ما يعوض خسارتنا .

السبت ١٧ حزيران ١٩٦٧ :

قبل وجه الصبح افقت مذعورة على حلم يكاد يخنقني بصوره المرعبة :
رأيت أن ليل دمشق المطبق قد امتلأت سماؤه بالصواريخ . وبالقناديل الحمر والزرق . وقيل لي ان هؤلاء هم رجال المظلات الاسرائيليين يهبطون بشكل سري على دمشق . وكان منظرا مرعبا . المظلي والمظلة مختفيان في الظلام .

ونظرت الى الشوارع فرأيت الجنود الاسرائيليين الذين وصلوا الى الارض يحملون بايديهم الفوانيس الحمر والزرق ويركضون بخطوات غير مسموعة نحو مبنى قيادة جيشنا . خفت وركضت الى الهاتف اطلب رقم القيادة لاخبرهم بما رأيت حتى يستعدوا للعدو الزاحف كالافاعي ، ولم تجب الارقام . لا احد يرد . لا احد يرد . وفهمت ، الجنود والضباط في مراكزهم لا أحد في مكتبه ، لن يغدر الصهاينة بقواتنا لن تنجح الخطة ، ستصطادهم قواتنا كالفئران ...

وأفقت مذعورة .. مرت لحظات وصدري يعلو ويهبط وانفاسي متقطعة وانا احمد الله انه حلم .

شربت كأس ماء ونمت .

الاثنين ١٩ حزيران ١٩٦٧ :

قررت ان اكتب علني ارتاح :

في لهيب المعركة انصهرت الشوائب وظهرت الحقيقة بلون واحد . في خلية النحل ضاعت الملكة ، وتحولت كل نحلة الى ملكة وكل ملكة الى نحلة عاملة نشيطة .

تحت صوت القنابل سكتت اصواتنا وارتفعت الاعمال العربية الى مستوى القمة .

في عتمة ليل المعركة المطبق انطفأ لهب نور الشمعة وانكسر القلم في يدي وجف الريق في حلقي ولجأت الى سكون السكوت المطلق اقرأ ما يكتب في اعماقي .

قرأت سطورا كثيرة ...

سطر ابيض يتبعه سطر اسود يتبعه سطر أحمر يتبعه سطر اخضر ، وكان لا بد ان تكتب المعركة بهذه الالوان التي تشرب حقيقتها من جذورنا السعيدة والمتألمة المجروحة والمتفائلة .

هذه الالوان كانت تنسكب كشلال على قلوبنا وعلى حدودنا العربية المتلاحمة مع العدو .

في عتمة ليل الغارة المحرقة لمنجزاتنا خلال عشرين سنة كنت أخاف الهزيمة واتوق الى النصر .

وكانت النتيجة هزيمة في معركة الحديد ، ونصرا في معركة الالوان الاربعة مع فكرة العدوان والاستعمار .

اسرائيل .. لنقل هذه الكلمة بشجاعة ، استعمار قديم ندم على رحيله من بلادنا الخضراء التي تسبح فوق بحيرة من الذهب الاسود ، وتعانقها البحار ولا تفارقها الشمس وتنام فيها عيون الرسل والانبياء ، فقرر العودة .

ولكن العودة بالاسماء القديمة الرومانية والصليبية والعثمانية والفرنسية والانكليزية وحتى الامريكية امر يدعو للخجل ..!! وتم اختراع جديد انطلق كصاروخ من النار الى ارضنا واستقر في قاعدة رسمت عليها نجمة اسرائيل .

كنا نعرف اننا سنحارب امريكا وانكلترا قبل المعركة ، وكنا نعلن هذه المعرفة على الدنيا كلها . ووقعت المعركة وتمت مساعدة امريكا وانكلترا لاسرائيل ضد العرب .

تاكدت الحقيقة اثناء المعركة وبعدها ، على خطوط النار امس ، وغدا في مجلس الامن وفي هيئة الامم المتحدة .

وتوقف العدوان بقوة الكلمة لا بقوة الحديد .

كان جوابنا على الهزيمة العسكرية في المعركة غير المتكافئة مثلا شعبيا بسيطا : « عين ما بتقاوم مخرز » .

وكان جوابنا في معركـــة الحق : كلمة تطحن دبابـــة وحق يسقط « ميراج » .

اكتب الآن مع انني خرجت من التجربة بدرس عظيم :

« ان اسكت استعدادا للمعركة خير من ان اتكلم كثيرا بلا استعداد ».

ان اطالب منذ اليوم بتعلم قيادة دبابة وطائرة وحقن ابرة وطبخ لقمة ، خير من ان اجلس وراء المكتب القي الاوامر وانفخ الكلمات الرنانة في بالون كبير سرعان ما ينفجر في الهواء .

في معركة العرب من أجل استعادة فلسطين سنة ١٩٤٧ كنا صغارا ، ولم يكن لنا حق المطالبة بحمل مسؤولية معركة ستقع بعد عشرين سنـــة لاسترداد فلسطين .

واليوم .. نشعر بان علينا ان نشترك في حمل المسؤولية للمعركـــة المقبلة . مسؤولية اعداد انفسنا من جديد ومسؤولية اعداد الصغار بطريقة علمية تغلب فيها صورة المعادلة الرياضية على صوت النشـــيد الحماسي الساذج ينطلق من حنجرة المطرب بلا رصيد .

٣٠ حزيران ١٩٦٧ :

قال احد جنودنا البدو العائدين من ارض المعركة لمن حوله يشرح هول المعركة بلهجته البدوية العفوية الطيبة عندما سألوه ماذا رأيت :

« تحل علي امي ، شفت بالسما شي احمر واخضر واصفر ما ندري الا والسما طيارات » .

تضايقت من الحـــادثة رغم عفويتها وبساطتها . تألمت لمـــاذا صعق

جنودنا بمفاجآت الغارات الجوية الكثيرة لماذا لا يعد الجندي كما يعد الضابط لمعرفة وتوقع اسلحة العدو ؟ الم جديد فوق آلامي .

السبت ٢١ تشرين اول ١٩٦٧ الساعة ٣٠ر٥ مساء

اغرقت القوات البحرية العربية المصرية المدمرة الاسرائيلية الكبيرة « ايلات » وهي تحاول اختراق المياه الاقليمية للجمهورية العربية المتحدة .

خبر عظيم قامت له البلاد العربية وقعدت . التهاني في كل مكان . النصر لكل الوطن العربي . العالم كله يتحدث عن اغراق المدمرة الاسرائيلية ايلات . اكثر بحارتها غرقوا . يا سلام على هذا الخبر انه يبرد القلوب في هذا الصيف الحار الحافل بالاحداث الساخنة .

سمع الناس اذاعة اسرائيل تجري مقابلة مع قبطان المدمرة الذي نجا باعجوبة . قال في مقابلة صحفية واذاعية ما معناه :

« لا ادري ... رأينا شيئا اخضر اللون ، نراه لاول مرة في عمرنا ، يندفع نحو المدمرة بجنون ويشطرها الى نصفين ويغرقها في ثوان !! » .

كم انت كريم يا رب .. كم ضحكت من هذا القبطان الاسرائيلي وكم فرحت لما حدث له ولمدمرته ، انه في دهشة ... انه في ذعر من هذا الشيء الاخضر المجهول الذي اغتال مدمرته في لحظات ...!!

كم أنت كريم يارب .. لقد ثأرت هذه الحادثة العظيمة في معركتنا المستمرة مع العدو ، لجندينا السوري البدوي الطيب الذي فوجيء بألوان الطائرات الاسرائيلية الحمراء والصفراء والخضراء .

أنا متأكدة .. لقد بدأت اسرائيل « تلحمس » على رأسها !!

وسوف نحرر الاراضي العربية المغتصبة ونسترجع فلسطين الخضراء ، ولن يطأ اليهود أرض الشام .

الخميس ٢١ آذار ١٩٦٨

في عيد الام ..

قبلت امي في الصباح ، وابتلعت كلمات التهنئة مع الدموع وهربت بسرعة الى عملي .

في عيد الام .. العدو الاسرائيلي يضرب الاردن .

في عيد الام .. موشى ديان في خطر الموت بـــين لحظـــة واخرى في المستشفى . قالوا أصابه حجر وهو يبحث عن الآثار !!!

وقلبي يضحك ، لان موشى ديان أصيب حتمـــا بضربة فدائي عربي فلسطيني ، هكذا يقول قلبي الواعي .

في هذه اللحظات الوطن العربي كله عين واذن على العدو .. وقلب على الام العربية الطيبة التي تضع الهدية الجميلة الى جانبها وتتمتم بالدعاء وتبتهل الى الله :

« الله يوفقكم .. الله ينصرنا على العدو الله يخليلي ياكم » .

احب كلمات الامهات .. وهي قوة دافعة جبارة لاقوى رجل . « الله يرضى عليك يا ابني » هي اصبع ديناميت تتفجر من يد ابننا العربي في صدر العدو الصهيوني المتحفز كالذئب الكاسر في وجه « الضاد العربية » .

العدو غايته عندنا الضاد العربية ، الارض العربية ، الانســـــان العربي . هذا امر اصبحنا نعرفه جيدا . يعرفه الطفل عندنا الذي يقرأ الالف والباء وتعرفه الام العامية .

اتأرجح .. انوس بين امي وامتي . منهما اتيت ، اليهمــا انتمي ، وعنهما سوف أرد الخطة الجهنمية مهما كانت قوتي ضعيفة . لن يأخـــذوا الفرات ولن يأخذوا النيل .

ان كنت اجهل عملية حقن الابرة في عرق جندي ، فسوف اساعد في حمل علب المؤونة . ان كنت مقعـــدة فسوف اخيط قميصـــا رجاليا بالابرة والخيط . ان كنت ارتعد من صوت الرصـــاص ، فســـوف احضر نفسي لسماعه ، فتخف الصدمة وتنتفي المفاجأة . وبشدة الحذر والوعي وكامل الانتظار والترقب سوف اغتال كل حادثة سيئة ممكنة محتملة .

عيني على امي الحبيبة وعيني على خط الحدود ، على خط الحياة او الموت ، خط الوجود او اللاوجود .

كل لحظة بالنسبة لي لحظة ترقب لعدوان مفاجيء ، وساعة الصفر عند العدو ليست ساعة سرية ، لانني في كل ساعة اتوقع العدوان . في كل لحظة انا في حالة استنفار دائم يشير الى مئة بالمئة .

وانا لست انا . انا .. انتم .. انا الضاد العربية .

وامي ليست امي .. امي هي أمتي .

وبيتنا ليس بيتنا .. انه خريطة الوطن العربي .

وعيد الام العربية يمر على ديارنا العربية هذا العام الذي يلي نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، ليشهد ولادة حرية جديدة يصنعها مقابل حياته فدائي عربي .

ويأكل الخوف والذعر قلب الاسرائيلي الصهيوني الذي احس بأن الارض تحته تهتز بعنف ... يهزها زلزال عربي معاصر يزمجر من باطن الارض العربية .. من المائع الناري العربي الهادر الطالع من قلب الارض العربية الفلسطينية ليكتسح في طريقه كل فنون الصهيونية النابالمية .

ويتصايح الصهاينة ... الزلزال ... الزلزال ... ويتراكضون هربا من الزلزال العربي الذي لم يحسب له جغرافيو الاستعمار الحديث حسابا علميا دقيقا ، لانه خارج توقعات العلم .

لا فائدة ... فلسطين ليست لكم...

هذه كلمة نهائية .. يقولها كل فدائي عربي وهو على استعداد لان يحققها مقابل حياته .

لا فائدة من المماطلة والانتظار ...

الزلزال العربي انتشر ... الزلزال هو الحل .

المائع الناري العربي يتفجر من كل مكان عربي ... يسيل نحو العدو نهرا ناريا محرقا يبتلع كل مافي طريقه من نجمات سداسية .

لا فائدة من مقاومة الزلزال العربي الفدائي .. لا فائدة من حواجز واهية يخترعها العلماء الصهاينة في مخابر الاستعمار الحديث .

● ● ●

فلسفة ..

اشارت باظافرها اللؤلؤية الى ثلاث نقاط على شواطىء ثلاث قارات كبيرة تتمدد بكبرياء فوق الخارطة الزرقاء وقالت :

— هنا اتمنى أن أكون الآن .. او هنا .. او هناك ..!!

قـــال :

— ولكنها نهايات العالم ...

قالت :

— اهدافي الحقيقية دائما بعيدة .. يحملني اليها جناح الخيال .

قـــال :

— الخيال خيال وليس حقيقة .

قالت :

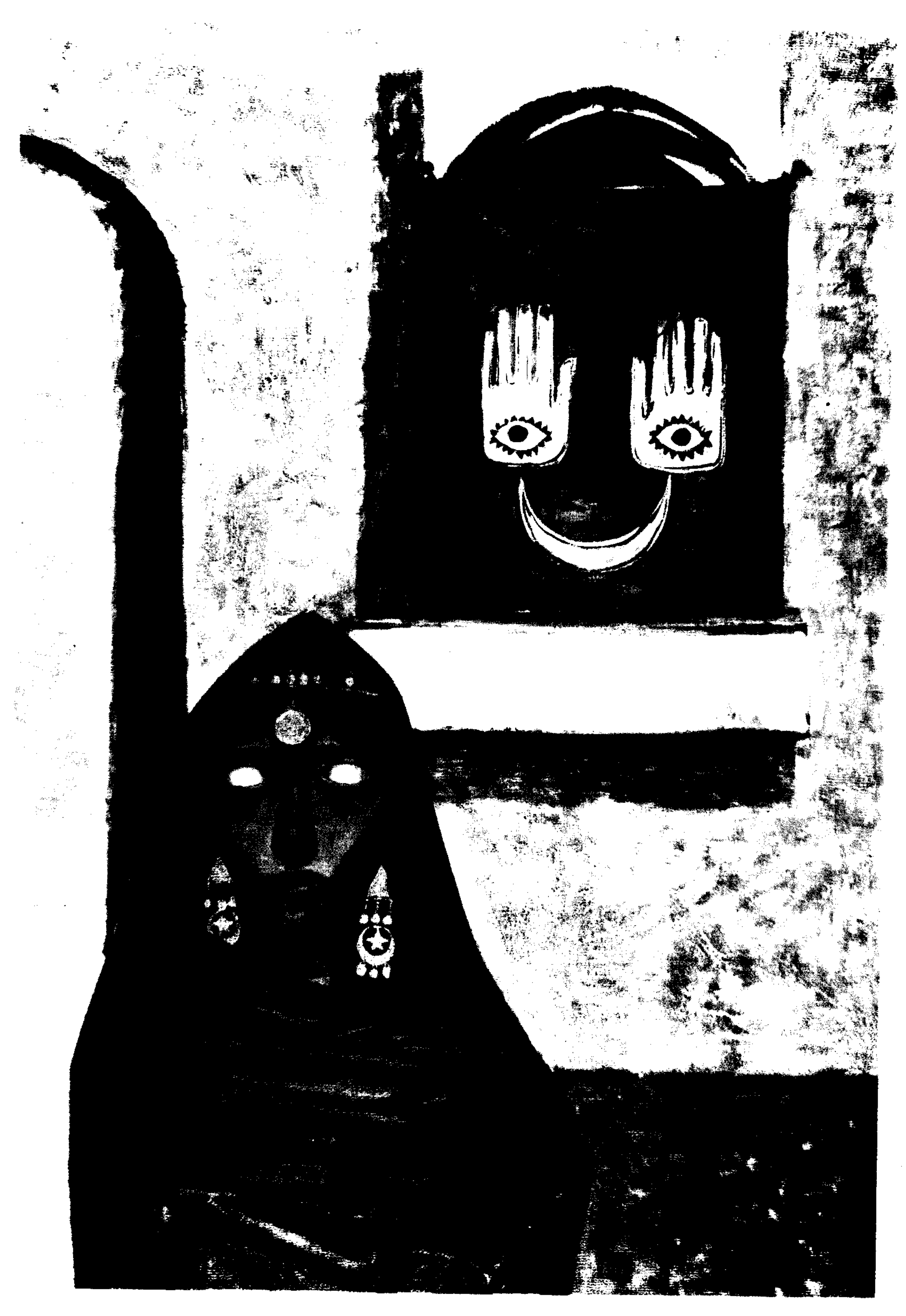
— كثيرا ما نتمنى اشياء مستحيلة يعجز عن تقديمها الواقــع ويفلح الخيـــال .

قـــال :

— مثلا ..!؟

قالت :

— لو قلت لك .. لاتهمتني بالجنون .



الفنان نذير نبعة ــ دمشق

قـــال :

ـــ قولي اذن ..!!

قالت :

ـــ دع المزاح .. فانها رغبة في اعماقي هائلة ومثيرة وعنيفة .. انظر معي الى الخارطة .. اترى هذا العالم .. هذه اليابسة وهذه البحار .. هذه المدن وتلك الموانيء .. أترى معي البحر الابيض المتوسط وهـــذه النوافذ التي تطل عليه منذ فجر التاريخ ..!؟

قال وصبره يكاد ينفد :

ـــ نعم ارى .. ارى ..

قالت :

ـــ اتمنى لو تضعني الحياة في نافذة الامنيات المطلة على هذا العالم.. لارى دون ان يراني احد حقيقة الحياة التي عاشها الناس عبر العصور .. اتمنى لو اشم رائحة الغبار الذي اثارته حرب طروادة .. والتقي بالعاشقين هيلين وباريس .. اتمنى لو اسمع الموسيقى التي كان ينام عليها قيصر .. اتمنى لو اسمع صهيل جواد طارق بن زياد وهو يعبر قارة الى قارة .. اتمنى ان ارى اسراب حســـــان اليونان بملابسهن السحرية التي غلبت التاريخ واستمرت عبر ايامه .. اريد ان اسمع صوت خالد بن الوليد .. وقيثارة الفارابي .. واركب سفينة عربية عتيقة لاطل من وراء شراعهـــا على نافذة من هذه النوافذ التي كانت تطل على اليحر المتوسط قبل ان تتغير خريطة العالم.. اتمنى لو التقي بالخضر عليه السلام وجها لوجه فأطلب منه ان يحقق لي امنياتي .. فأغدو بلمسة من يده على رأسي امرأة جميلـــة سعيدة ثرية يحبها زوجها وتنجب الصبيان والبنات ...

أريد ...

قـــال :

ـــ كفى كفى .. افهم ما تريدين ..

قالت :

— ربمــا ..

قـــال :

— انت كفتاة البحيرات املي برونتي .

قالت :

— هي رومانسية . .وانا واقعية تلبس رداء رومانسيا .

قـــال :

— أنت مثلها ..

قالت :

— لقد سحبها الحلم من الواقع .. وتعيدني احلامي الى الواقع ، احلامي مشبعة بالواقع تشرب منه ، واشعر دائما برغبة في الطيران ... اشعر انني دائما وابدا في تحليق مستمر يفرضه علي شعور ينبع من ذراتي التي تجسدني امامك انسانة من لحم ودم .

قـــال :

— وما الفائدة ..؟

قالت :

— الحياة ..

قـــال :

— اين ..؟

قالت :

— هنا في نهايات العالم. .وهناك في اعماق التاريخ وسراديب الماضي.

قـــال :

— والحاضر ..؟

قالت :

ـ ارفضه بشدة .. فهو الذي رفع اقدامي عن الارض .. وجعل اظافري الطويلة المطلية باللون اللؤلؤي تبحث عن كنوز الطمأنينة المرمية باهمال على شواطيء القارات .. وهو الذي سمح لروحي بالبحث عن الانسان في اساطير الغابرين .

قال :

ـ فيلسوفة صغيرة .

قالت :

ـ ربما ..

• • •

الشتاء ..

انا لا احب الصيف . ليشهق الآخرون وليرفعوا اهدابهم دهشة وليبتسموا ابتسامة فيها الف معنى .. انني افهم .. مجنونة ..!! ليكن أنا مجنونة بالشتاء ، وأكاد افقد عقلي وقلبي في الخريف .

ليت الصيف لا يعود.. انني منقبضة ، بدأت الايام الهاربة من الصيف الى شتائي العذب تقلقني ، وبدأت اتمسك باذيال الشتاء كمن يمسك باغصان شجرة « المستحية » خوفا من السقوط في الماء .

بدأ الربيع ينقر بأصابعه الملونة على راسي .. ويدق دقات خجول مترددة على قلوب المراهقين من الناس، ويهرع الكبار الى نوافذهم يغلقونها في وجه الشاب المغرور الذي يبدو لهم كمهرج في سيرك جوال ، بثيابه المزركشة الملونة ، ووجهه الضاحك دائما بقوة الاصباغ ، انهم لا يحبون الا الضحكة المخلصة لصاحبها وللآخرين ، وعندما يتكلم الربيع يغري عددا كبيرا من الناس ، وعندما يتكلم الشتاء فان الحلقة تصغر فالمريدون هم الخاصة . لقد بلغوا من الترف النفسي ما يسمح لهم بفهم الشتاء ، كالفقير الذي اثرى ثم بدأ يدرك ان بيته الطيني في الحي العتيق من المدينة هو المكان الوحيد في العالم الذي يمنحه عفوية السعادة ويحميه من سأم الحضارة والالوان ويمنعه من السقوط في بورجوازية النفس والفكر والجيب . فان كان الربيع بورجوازيا يخدم مصالح الصيف ، فان الخريف في رأيي ثري أدرك ان الاطمئنان الحقيقي للنفس لن يكون الا مع فقر الشتاء .

اكتب والريح تعصف في ليل المدينة النائمة .. تريد ان تقتلع المنازل والاشجار والناس من جذورهم . المرآة في الغرفة تكاد من فرط سعادتي بالريح ان تقول كلمتها رغم الظلام ، وكأن سعادتي نور ينبعث من وجهي .

الشتاء لي .. أنا أعلم .. وقد يكون لبعض الآخرين من المجانين امثالي ، وتسألون : لماذا لا أحب الربيع ..؟ وسأجيبكم بسؤال : لماذا تريدونني ان لا أحب الشتاء ..؟

كأني بالربيع يريدنا ان نقدم للطبيعة أطفالا .. وبالصيف يهيب بنا



الفنان عدنان أرناؤوط ـــ دمشق



ان نأكل ، وتظل نوازع الفكر والمحبة والانسانية من اعمال الخريف والشتاء .

هذه ليست نظرية ، انها احاسيسي ومشاعري والاحاسيس والمشاعر لا تخضع لمنطق ارسطو .

من منا يتعامل مع الطبيعة في الشتاء ؟ أنا .. وربما انتم .

اتمنى لو اسير وأسير في دروب الضيعة في بلادي ، وحدي ، يداي في جيبي وخطواتي هادئة ، وقدمي تدوس برفق غصنا يتقصف تحتها بألم لذيذ .. الاشجار العارية حولي تسير معي على الدرب ، وراسي يثقل عليها التفكير والحب القوي الهادىء الحقيقي في حياتي ، كل شجرة عارية تسألني عنه بحياء ، وكل ورقة يابسة ترمقني بنظرات حاسدة احيانا ومهنئة احيانا .. الكل يطلب مني ان يكون بيتنا هنا في حضن الطبيعة البعيدة عن المدينة المتلألئة بانوار الاعلانات .

في هذه الدرب وصورته في عقلي وقلبي ، اشعر بأني كبرت واني تحولت الى بالون ازرق ينمو ويكبر ويكبر حتى يلامس سطح القبة السماوية ، وتختلط على هذا البالون حقيقته هل هي من السماء أم من التراب ، يريد ان يتقلص فيضم في اعماقه بشرة الارض وجوهرها، وان يمتد فيلامس سطح القبة الزرقاء وسرها ، وكأن المسافة بين كرة الانسان وقبة الاله قد ضاعت . فأدرك من احساساتي البسيطة ان الشتاء طريق من طرق الصوفية تحملني الى مرحلة عالية من مراحل الخلاص . وابتسم هذه المرة ابتسامة لا تشبه ابتسامة مهرج السيرك الدائمة .

الريح .. تعصف عندما تمر امام نافذتي وتصفر ، تؤكد لي انني ضعيفة ، ولكنني لا أخاف .. أخرج اليها وافتح لها صدري واسمح ان تداعب خصلات شعري وتعاملها بعنف،علني مع الريح اطيركورقةيابسة.. ولكن الريح العظيمة لا تأخذ معها في رحلتها الراقية الا من تمت دورة حياتهم .

ليت الصيف لا يعود فأنعم بالشتاء البارد وأحس بحرارة الحياة تسري في عروقي وعروق الاشجار العارية . وان كانت زهرة الياسمين الرقيقة هي ميزة الصيف الوحيدة ، الا ان الشتاء يظل فصل زهرة البنفسج الناعمة التي تخلص بلونها ورائحتها ودقتها لمعنى الشتاء الغامض . ان الشتاء يحقق لي صورا لا تنتهي ، ويمدني بافكار وعواطف لا تنضب . ليت الصيف الغبي البليد لا يعود .

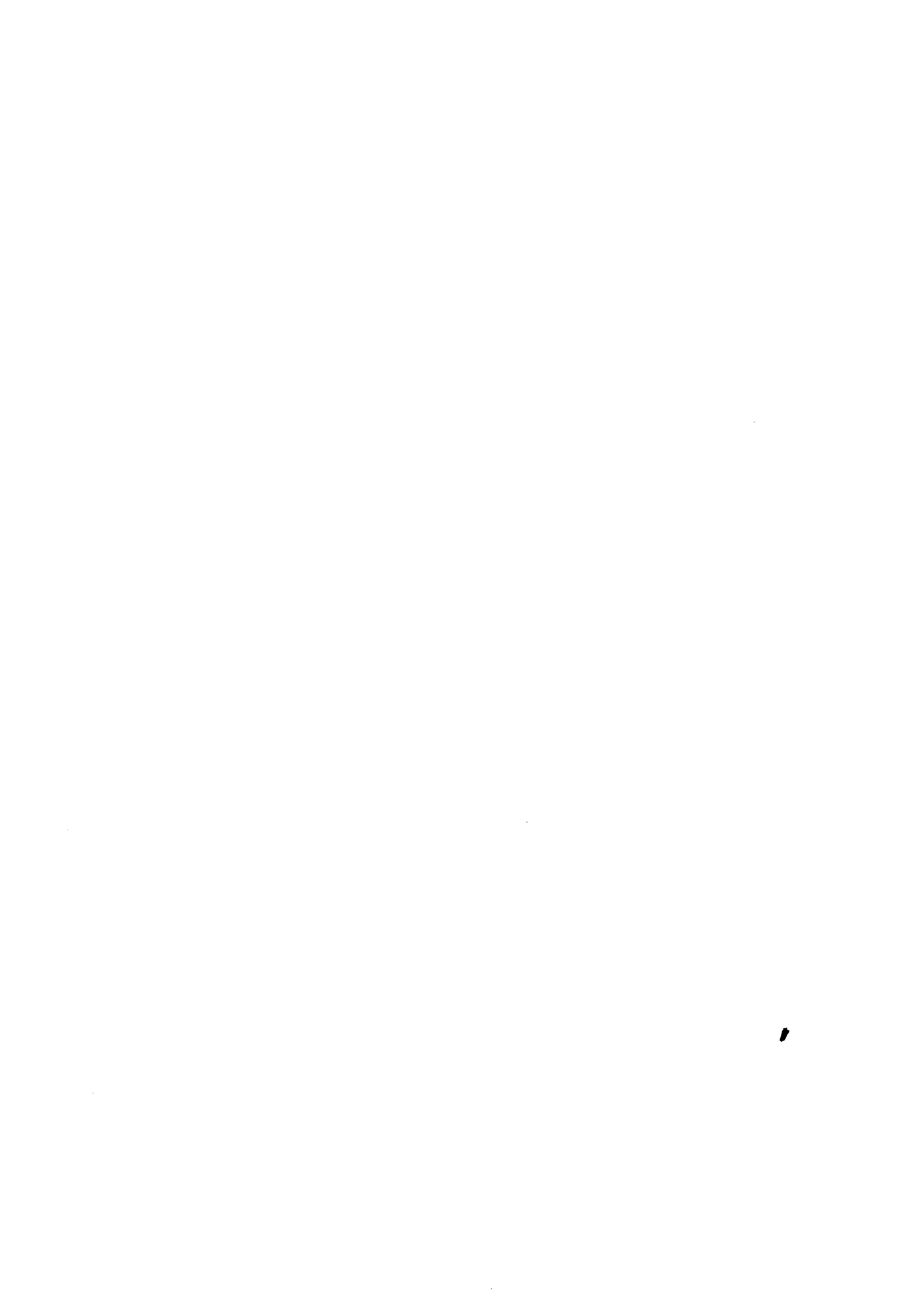
انني مع الشتاء انسانة .. انثى ضعيفة .. رغبتي في الابقاء على ضعفي الاول لا تحققها الا هذه الريح الهادرة الباردة .. وامامها وحدها تتلاشى قوتي التي منحها لي بترف صيف الحضارة .

لوحة ليلية

بعد منتصف الليل .. وصيف حزيران يتوهج ، يهدد آخر ما تبقى لي من اتصال مع ايار ونوار .. ونهر صغير يخر بهدوء بعد ان تحول قسرا الى بحيرة اصطناعية حلزونية الشكل جارية تحت ارجل البط والوز .. وغناء صرصور .. ونقيق ضفدع يسلي الليل .. وحوار يصل الى درجة الشجار العالي بين بطة وزوجها .. وصوت سيارة يشق الهدوء .. وخط باص نائم .. و« أطلال » أم كلثوم . .وغمزة من ضوء اصفر على سفحقاسيون . . وتثاؤب احمر من هوائي التلفزيون على قمة الجبل .. وخط رفيع باهت يفصل الجبل الاسود عن السماء الفضية المعتمة .. وأهل الكهف يغطون في نوم عميق . .ونور يتلألأ وحده قرب العتمة كشمعة ، يصعد الجبل الاجرد كل ليلة ويهبط مع مطلع الشمس يذكرني بالمسكين سيزيف .. ونسمة تهب فجأة فترطب وجهي وشعري وطرف يدي .. واوراق علىالشجر تتحرك . . وخصلة شعر متمردة تحاول الهرب مني مع النسمة النادرة .. وملامح رجل حبيب يختفي في طيات الليل .. والايام الصعبة الماضية .. والحرب الباردة بين قلبين حارين .. وورق يخشخش هاربا من غضب ريح عصبية تهب على الطريق تتحدى صمت الصيف .. وشرفة تنطفيء .. وناموسة تطن قرب اذني .. وصوت دراجة نارية تتوقف قسرا كي لا تقتل قطة بيضاء تقطع الشارع الى « تنكة » زبالة قلبها أحدهم بقوة الى جانب الرصيف .. وسعال متعب من جارنا المريض .. وصدى ضربة عصا الحارس الليلي يأتي من رأس الطريق .. وهدير طائرة عائدة الى المطار الوطن .. وضحكات اسرة مارة تختلط ببكاء طفل يمشي جرا .. وشرفات مضيئة يسهر فيها نعاس وتعب وهم وأمل في اجتياز امتحانات الغد .. ورنين هاتف في بيت الجيران .. وكرسي حارس حارتنا وكوخه الخشبي ودراجته .. ومدخل سفارة شرقية « بولونية » يشد العين الرومانتيكية .. عدة درجات رخامية وباب حديدي انيق وقنديلان حالمان ونباتات مزهرة تتسلق



الفنان هشام المعلم — دمشق



السفارة .. وسكون في البناء . .ونوافذ نائمة .. وأحلام بولونيـــة ..
وسماء صافية بلا نجوم .. وقمر طيب القلب رغم الاعتداء الثاني عليه ..
وعينا سيارة تشعان فجأة من الجبل كعيني ارنبة حامل مذعورة في حقول
الفرات خوفا من رصاصة صياد غادر في ليل الارانب .. وذكرى رحلـــة
شهر الى الجزيرة والفرات وحلب واللاذقية وحماه وحمص .. وامواج
تتلاطم على جبل قاسيون المتلألىء كتاج عروس دمشقية .. جبل وذكرى
بحر معا .. ومنارة في قلعة ارواد .. ومائدة للفرسان في قلعة الحصن ..
وأطراف ثوب تتطاير من هواء بحيرة قطينة .. وطيران مفاجيء لاسر البط
والوز هربا من قطة ماكرة تتحفز .. وكأس ماء تتحرك فيها قطعة ثلج ..
وقمقم ماء زهر النارنج والليمون والبرتقال في طرابلس لبنان .. وفنجـــان
قهوة أزرق .. وقرنفلة خمرية واحدة في زهرية فخار صغيرة .. وارطاسيا
في شرفتنا .. وشمعة تنثر في عز الليل رائحة بهارات الشرق من زهرات
مخملية ناعمة زهرية شمعية يعشقها النحل عشقا .. وغصن « خميسة »
يتدلى من سقف الشرفة القرميدي كنسناس صغير عابث يتحدى قـــانون
الجاذبية .. وظل رأس كبير كبير يملأ ارض الشارع يسهر صاحبه مثلي..
وسيارات بيضاء ورمادية وكحلية وفستقية تلتصق بكتف الرصيف التماســـا
للراحة والبرودة . .وترانزستور في يد انسان عابر .. وســـاعة في يدي
تشير الى الواحدة والنصف .. وتثاؤب . .وخوف داخلي من ارق الليل..
وأمل خفي بهاتف غير منتظر ... وهو .. وأنا ... والليل .. والصيف ..
والمدينة النائمة وبحيرة البط الساهر ، والفكر يروي لقاسيون قصة الانسان
الذي لا يهدأ . يريد ويتمنى ويغلي وينصت في السكون الى صوت الطبيعة
والى هدير اعماقه ، وتظل الحقيقة بعيدة كلما اقترب منها فرت هاربة .
وكأنها صبية حسناء لعوب تعبث بعواطف شاب مراهق بين اشجار الغابة
الغامضة السحيقة ، تمد رأسها ثم تختفي خلف جذع شجرة عجوز ، وصوت
ضحكتها المغرية الساحرة يدمر لهفته اليها ، تلوح له بضفيرتها ثم تغيب في
طيات الظلال ...!!

وانا أتسائل ما سر هذه اللعبة ؟

وهل حصولنا على جزء من الحقيقة يهددنا بضياعها من جديد ..!؟

وهل كتب على الانسان البحث الدائم ..؟ وكأني بهذا الانسان قـــد
رضي لنفسه هذا المصير ، وآثر الحياة في غابة الضباب لان النور البـــاهر
يحرم النفس من الظهور الكـــامل ، ويحرمها من لقائهـــا مع احلامهـــا
المتوردة ..!!

في النهار نرى من نحب ونلبس قناعا يخفي ملامح المحبة في تقاطيعنا . نبتسم ، ولا نبتسم .

وتطير الافكار المجنحة بالعواطف مع هبوط الليل طيران « سندريللا » السعيدة الى اميرها ، حرة طليقة لان العيون الجريئة .. عيون النهار .. قد نامت عنها حتى الاغماء .

لكن .. هل ينعم القلب بالفرح ، حين تنام عيون الآخرين .. وهو يتلمس امنياته ، وتضيع المسافات في ثوان ..! الا تظل عين القلب ساهرة على نفسها ..!؟

لقد اكتشفت ، وقد لا اكون الاولى ، السر الكامن وراء تعاسة الانسان في هذه المدينة . وعرفت ان العين التي تراقبه وتحرمه متعة اللقاء التام ، هي عينه هو على نفسه .

عندما نكون مع من نحب لا ننسى اننا معه .

نضحك وندرك اننا نضحك ، تلتهب مشاعرنا وندرك اننا نبردها ونثلجها ونقتلها في حركة عصبية جانبية تكاد فيها أناملنا تفرط عقد مفاتيح السيارة والخزانة والمكتب والبيت .

نخفق في اداء المعنى الحقيقي امامه ، ونعرف ان وجوده المفاجيء كان سبب تلعثمنا الفكري .

تلهث انفاسنا لدى سماع صوته على الهاتف ، ونسمعها كما يسمعها هو وأكثر .

الانسان الساذج فينا ينفعل ، والانسان القوي يقف كالمارد ليقدم لنا اشرطة تسجيل ملونة على شاشة مقابلة لامرئية ، تذكرنا بالصورة الطبيعية التي ترتسم على وجوهنا في كل لحظة .

نحن نعرف هذا ، ونعرف اننا نعرف ايضا باننا تعساء دائما وسنظل .

أعتقد ان هذه الحقيقة في نفسي على الاقل ، حقيقة انسانية يثبتها وجودي الانساني الذي وعدني به الفيلسوف ديكارت . انها حقيقة « الاسى لاننا نعرف » التي ترافق انسان العصر الحاضر بينما ارتاح منها انسان العصر الماضي الذي لم يسمع « بعقدة » فرويد ولم يتعرف «بكين» جان بول سارتر ولم يمر مع من مروا على « جسر » ايفو اندريتش ، ولم يعان « عشق » سيمون دوبوفوار ولم يصفر اعجابا « بجوستين » لورانس داريل .

الحياة الانسانية شقاء عندما يسيطر عليها الفكر ، وهي شقاء بــلا فكر . والانسان بين هذين الحدين يتأرجح ، فكر ام لم يفكر و لن يعثر على الحقيقة الا في الموت كما يبدو .

وعادت البحيرة برفة عين .. وعــادت انثى البط توشوش في اذن ذكرها قصة حب عنيفة وهادئة تحملها له وستحملها ابدا . وتؤكد له بان حبها له هو الحقيقة الوحيدة في حياتها . واخذت تنظر الى وجهه في عتمة الليل الندية المطبقة ، وهي تحلم بان تمنح هذا الوجــه الى الطبيعة والى شواطيء هذه البحيرة ، اكثر من مرة .. اكثر من مرة ..!! اكثر من صغير لها .. واكثر من صغيرة ..!! وستكبر اسرتها .. وستسبح هذه الصور الصغيرة العزيزة امامها بخفة ويأدب وبثقة .. وستظل هذه البطة كما هي، سعيدة وتدرك ، كالانسان ، انها سعيدة ، وسيظل زوجها الذي اختارته دائما كما هو ، ينظر الى عينيها بلهفة يلفهــا القلق ، ويدرك في اعماقــه « السابحة » ان عين نفسه ترقب نفسه العاشقة دائما .

هل يفكر البط حقيقة ..!! ام انني احمله حقيقة الانسلن المرةالمعذبة، الانسان الذي لا يلتقي مع من يحب الا في الليل،الانسان الذي يسير في شارع النهار يرتدي انسانا آخر !!!

● ● ●

حـــوار ..

قال : لا تكتبي عن حزنك اكتبي عن الحزن . لا تكتبي عن فرحك ، اكتبي عن لفرح .

قلت : تريدني ان أكتب عن قضية .

قال : نعم .

قلت : وانا اعجز عن الارتفاع الى مستوى الكتابة عن قضية ، وتظل ريشتي كالنعامة تطمر راسها في رمال ارض، نهاياتها حدودي وابعادها ابعادي والكل فيها لا يتعالى عن جزئياتي . لم املك بعد يا صديقي قدرة على الخلاص من « الانـــا » التي تلون الوجود بالوانها ، وما زلت ارســـم بذهني الشجرة شجرة وأحدق في لوحات بيكاسو ببلاهة وبلادة دب ابيض .

قال : اذن اكتبي عن نفسك ..!

قلت : انت تناقض نفسك.

قال : ابدا .. انا اعتبر الانسان قضية .

قلت : يبدو اننا سنلتقي بتواضع منك ونزوع مني .

قال : اكتبي ، لم هذا التوقف الاخير المفاجيء في ينبوعك الثر ..؟ كنت أقرأ لك باستمرار ولم أعد اقرأ !!

قلت : انا مستمرة لانني اقرأ .



الفنان فاتح المدرس — حلب

قال : القراءة بنظري خطوة الى الامام وخطوة الى الوراء .

قلت : القراءة تحملني على الخوف من الكتابة .

قال : ولهذا السبب تصبح القراءة عملا سلبيا في بعض الاحيان .

قلت : لا اشعر احيانا برغبة في الكتابة لا املك ما اقوله صدقني . الكتابة امر يحيرني كنفسي ، انا اخضع لنداء القلم لما سأكتب وانتظر بارادة مسلوبة ارتفاع الموجة العالية الصاعدة من محيطات النفس البعيدة حتى تتكسر عند النهاية ، عند فم الريشة وشاطيء الكلمة الابيض . انا أمة الكلمة ولست السيدة رغم زوال الرق ، انا لا املك الا انتظار نفسي المقبلة .

قال : هل سنقرأ لك قريبا .؟

قلت : انت تحرك الجمر تحت الرماد . الواقع اشعر بان فكرة جديدة بدأت تكتسحني مؤخرا بشكل لا مثيل له في حياتي السابقة واعتقد انها فكرة انسانية بقدر ما هي حالة انسان واحد واعتقد ايضا انها الحالة التي تعني القضية اكثر مما تعنيني ، وهذا ما تريدني ان ارتفع اليه .

قال : قولي .. ما هي ..؟

قلت : الزمن .

قال : الزمن ؟

قلت : والجنس .

قال : الجنس ؟

قلت : انتظر ، كل شيء في الوجود قديم ، وكل ما نقوله او سوف نقوله قد قيل ، ولكن علينا ان نساعد الذين قالوا قبلنا على تفسير انفسنا .

قال : تفضلي .

قلت : هل تشعر مثلي بان الزمن مرعب ، وانك وانت جالس امامي الآن ، تركض تندفع الى الامام بقوة خارقة مذهلة مجنونة نحو الغد لالتقاط الغد ..؟

قال : ......

قلت : هل تفسر مثلي ظاهرة الجوع الجنسي عند المثقف المعاصر بالذات ، رغم توفر الجنسين معا ، بانها ظاهرة تنبع من احساسنا الهائل بدقائق الزمن الهارب وثوانيه .. ؟

قال : .....

قلت : اني اربط هذه الظاهرة ، ظاهرة الجوع الجنسي عند المثقفين بفكرة الزمن الهارب، والمس مدى تشبثنا نحن الشباب بأيامنا المتبقية لنا ، واغبط الانسان العادي الذي لم يتعلم القراءة ويعيش مقتنعا بنصيبه من زوجته ، وابكي بدموع ناشفة على اليوم الذي يمر بي لانه يمتطي صاروخا لا يعرف معنى النهاية، ولن يكون له مدار يرتاح اليه ، فاجد نفسي وانا جالسة معك الآن اركض ، اجري ، اسرع ، الهث ، اتمسك باذيال الدقيقة الهاربة حتى لا تتركني بقسوة حبيب غادر ، للدقيقة التالية ، تدوسني بقدمها اللامبالية وتمضي وكأنني في كابوس من احلامي المزعجة ، اركض مع الراكضين ثم اسقط ، وتتابع القافلة قفزاتها ، تدوس فوق عنقي ، تحطم عظامي ، تشل حركتي ، اصرخ وليس من يسمع « اللاصوت » احاول الوقوف والجري وليس من يركض مع « كسيح » .

انا في الحقيقة تحت وهج النهار ، وانا جالسة امامك الآن اتكلم بهدوء ، تماما كما انا في الحلم وتحت طيات الليل ، اركض وانا واقفة ، وامد يدي الى اهدافي الرائعة دون ان

اطولها ، واعتقد اني سأظل هكذا مشبوحة الى قدر جيـــل
بكامله ، جيل يستمع معي الى نشرة الاخبار العالمية اليومية.

قال : شكرا ، لانك سوف تكتبين عني .

● ● ●

ارجعي يا ألف ليلة

لا اشك ان في اعماقي بدوية سمراء حارة الدماء ملوحة الخدين مكحلة العينين حافية القدمين متمردة على كل ملامح الصورة الطافية على سطح الحاضر .

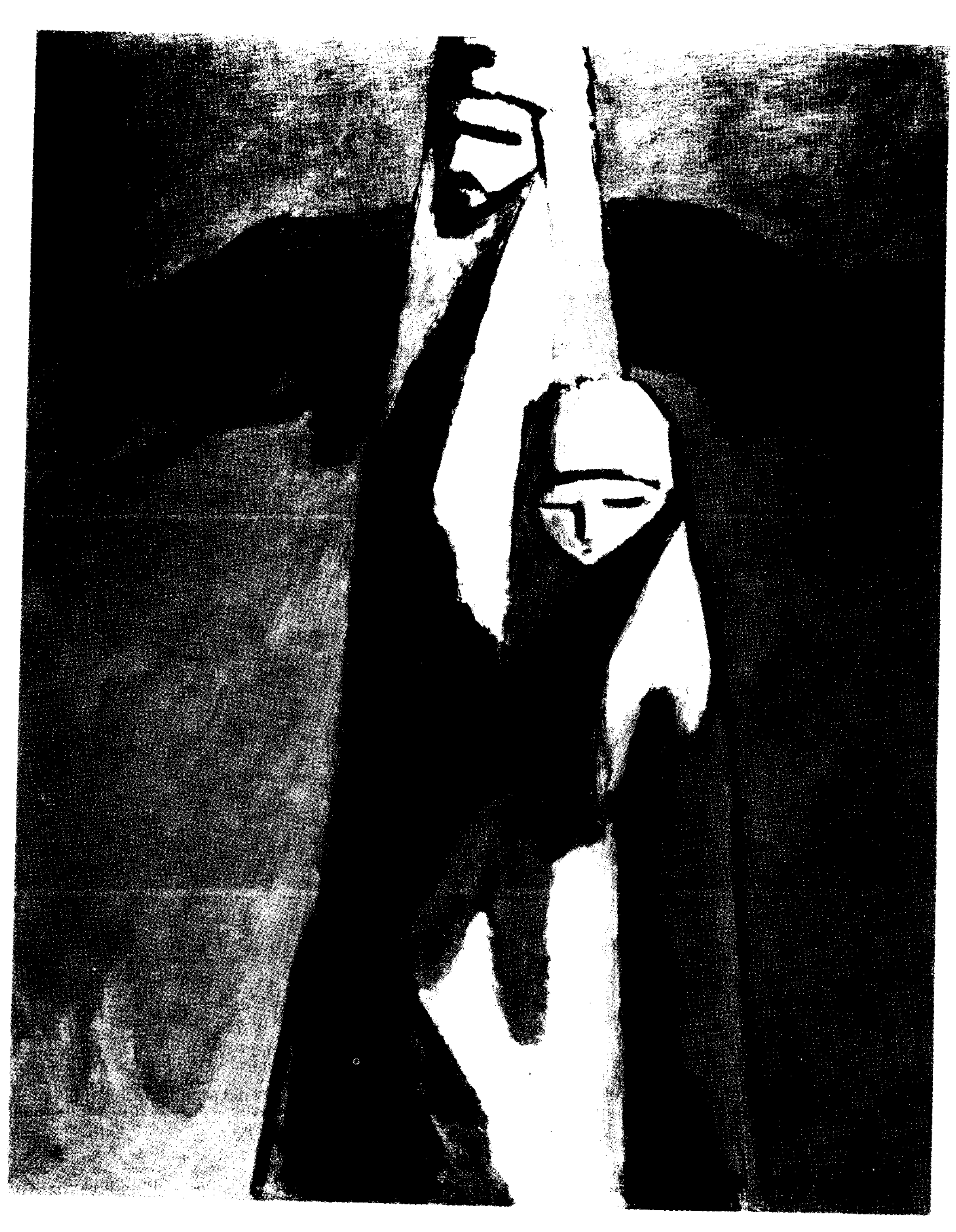
بدوية عنيدة تنتشل نفسها ، في كل لحظة تنفرد فيها بنفسها، من حذاء مدبب وثوب ضيق واظافر طويلة ملونة وبشرة ياسمينية ، كي تنطرح على رمال الصحراء البعيدة التي يغرق فيها صوت الكعب العالي وضجيج الالوان .

بدوية ثائرة تنتشل نفسها الغارقة على سطح الحياة الحاضرة الطافية كجثة زهرة بيضاء ، كي تغرسها في الماضي الذي ينعم حتى الآن بدفء الرمال وطراوة الحركة في ذراتها العربية القاسية .

لا ارنو الى الصحراء الافريقية او الاسترالية بل الى الصحراء العربية الصاعدة من نجد حتى شطآن الفرات . ولا ادري لم تلح علي هذه الفكرة كثيرا مع انني لم أصل ذروة الحضارة كي ابدأ بالانحدار والحنين الى الصحراء !!

ومع ذلك فأنا اعتبر انحداري صعودا .

حنيني للصحراء .. للاطلال .. للنخيل .. لطعم التمر ، وماء البئر .. لقافلة الابل وحداء حاديها .. للمضارب العربية تلعب في جنباتها الريح ، وتسهر فيها عيون حادة سوداء كعيون الصقور،وعيون مكحلة كعيون المها ،



الفنان محمود حماد ـــ دمشق

يحلو لها السهر على نغم المهباج ، ولهيب نار الحطب ، ورائحة القهوة المرة ، وعذاب الربابة ، وصهيل الجواد الاشقر ، وصوت الراوي في هدوء الصحراء يروي قصة العاشقين العربيين قيس وليلى ، اسطورة العشق العربي .

هذا الحنين يقتل كل صلتي بالحاضر ، بالحديقة المرسومة بالرصيف بجدران البيت ، بالابنية الواقفة في وجهي ، بالعيون الضائعة ، برائحة دخان المازوت ، بالقهوة الحلوة ، بالسيارة ، بالطائرة ، بالصاروخ ، بسفينة الفضاء ، بقنابل النابالم ، برؤوس الخنافس ، بالكلمة الحرباء ، بالميني جوب ، بزعيق الجاز ، بأدب الدود والعفن .

واتلفت حولي .. لا .. بل انا ارنو الى البعيد البعيد ، كي اسمع صدى صوت قادم من البادية ، من خط اللا نهاية ، يؤكد لي صفاء الحرف العربي .

فنجان قهوة مرة ، انتشلني من هوة السطح الى ذروة الاعماق ، وغبت عن الناس الذين كنت معهم ، ورحت اتأمل جوانب الفنجان !!

من منا ينظر الى فنجان القهوة العربية المرة ..!! ربما كلنا .. وربما لا أحد .

كانت على جوانب الفنجان رموز الحياة التي اشتاق اليها شوقا ملتهبا .

ليل ابيض .. نجمتان ذهبيتان .. خطان متوازيان ذهبيان ، تنبع من احدهما ثلاث نخلات ذهبيات .

الليل .. والصحراء .. والنخيل .. والنجوم بلون الذهب ، ولماذا الذهب ؟؟!! هكذا أراد صانع الفنجان ، وربما كانت ارادته نوعا من تقويم تلك الحياة الغابرة الذهبية تقييما لا شعوريا . ولو سألني لقلت له : يا عم .. انا افضل الماس .

ونظرت الى داخل الفنجان .. الى القهوة المرة ، الى عصير حضارة عربية نرتشفه في لمحة فأحسست بفرح حقيقي ، وسمعت صدى رنين الاجراس الصغيرة النحاسية في رقبة جمل يتهادى في الليل العربي ، يحمل على ظهره هودجا جدرانه من الشعر ، يضم برفق بدوية رائعة الحسن يشع من عينيها ضوء ذكي ، وترن في قدميها المرتاحتين مع حركة خفي الجمل المتعبين ، خلاخيل فضية تثير جنون فارسها بها .

ليل .. وصحراء .. ورجل وامرة .. وجمل يتهادى .. وطريق نحو المستقبل ..!! وارادة في الوصول ..!!

حياة عذبة غارت في لاشعور الحياة العربية الحديثة ، ولكنها تعود حارة متدفقة كدماء شريان احمر الى واقعنا الغافل ، كي تنقذنسا من تعب الركض والسأم واليأس وتحملنا على اجنحة شفافة الى حقيقتنا الانسانية المتميزة ..

أنا اهرب دائما .. أهرب من نفسي الحاضرة ، لا الى نفسي المقبلة ، بل الى نفسي الماضية ، وفي نفسي الماضية التي تجاوز عمرها مئات السنين ، يضحك بسعادة حقيقية سن بدوية طويلة الضفائر ، عارية القدمين ، حرة القلب والعقل .

انا اهرب .. اهرب الى نفسي المسلوبة مني ، المتمردة علي ، وساظل الحق بها ، ولو كلفني ذلك ضياع نفسي المقبلة .

وكلما غنت لي فيروز :

ارجعي يا الف ليلة

غيمة العطر

فالهوى يروي غليله

من ندى الزهر

ان اشواقي الطويلة

قصرت عمري

وحكاياك خميلة

في مدى الدهر

تتراقص في عيني دمعة الحنين ، واخلع حذائي ، واغمض عيني ، اتخيل نجمتين فضيتين ، وليلا حالكا ، ورمالا دافئة،وثلاث نخلات،وعاشقين واربع عيون ، عيني صقر وعيني مهاة .

• • •

مـلاكمـة ..

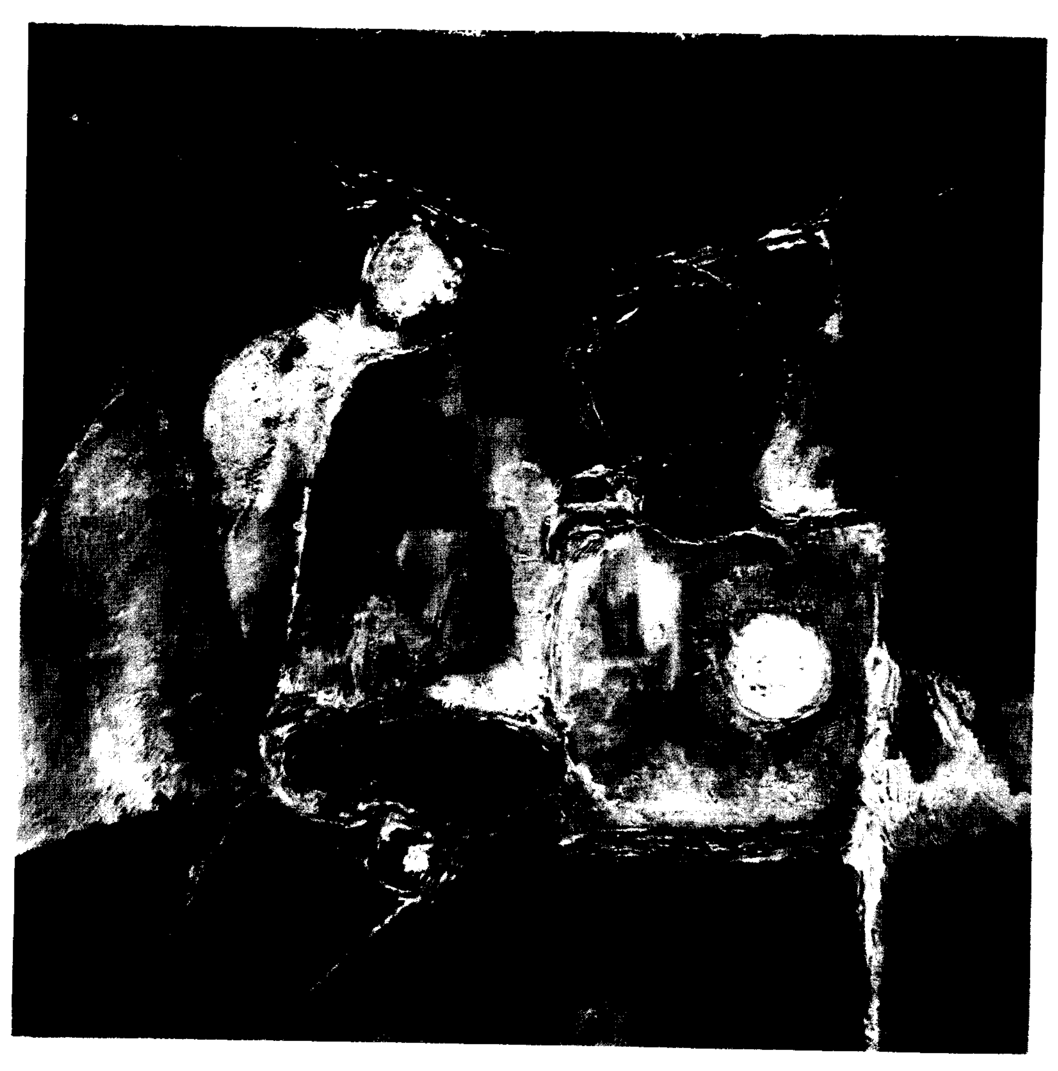
قالت :

كما استطاع جورجيو ان يفسر لي لوحات « بيكاسو » المشوهة وتماثيل « جياكومتي » المقددة في روايته « الساعة الخامسة والعشرون » فيبرر لي ملامح التشويه التي اصابت انسان العصر بسبب انتصار الآلة ، وشارات الجوع التي اثبتت ان الانسان يتدحرج ، فان حادثة الامس استطاعت على بساطتها وسذاجتها وفرديتها ، ان تفسر لي ايضا زوايا جديدة مختبئة في نفس الانسان عن الانسان، زوايا صغيرة تؤكد أن الانسان كلما توغل في حديقة المدنية المعاصرة التي تسلبه اهم ما في انسانيته ، هذا الانسان يربح اكثر مما يخسر ، ويصعد بقدر ما يتدحرج. ان جوعه الهائل لتحقيق نفسه يرقق ماهيته حتى ليغدو نقطة انسانية محبة مفكرة على سطر في صفحة الحياة المقبلة .

وفي ايامنا المعاصرة .. ابتعدنا كثيرا عن الجزئيات واصبح التجريد سيد حياتنا ، واعتقد ان اليوم الذي ستصبح فيه لغة الانسان نغمات موسيقية ، وطعامه حبوبا فيتامينية ، وشجاره ومعاركه خطوطا مستقيمة ومنكسرة ومنحنية ، هذا اليوم لن يكون بعيدا جدا ، وقد تتوقف الكرة الارضية عن الدوران حول نفسها وحول غيرها ، لان من يدب عليها من بني البشر قد قطع درجات عديدة عالية على سلالم افلاطون .

امس .. عندما بلغت الازمة في نفسي قمتها ، عرفت ان لا سبيل الى النوم الا اذا انتهت الازمة التي تطن في نفسي وتزن كنحلة سجينة في كأس زجاج مقلوبة ، تناضل كي تملك حريتها على الورق أرض الحرية .

ضغطت على زر من أزرار الحضارة ، فاستجاب النور كشمس لا تخيب امل النهار ابدا . وتحولت في ثوان الى انسانة صاحية تماما ،



الفنان عبد القادر ارناؤوط ــ دمشق

جالسة وراء المكتب وكأنها ما تمددت على السرير ابدا ، عيناها تتأرجحان بين راحتهما في العتمة وقلقهما في النور ، قدماها حافيتان الا من احساسها بالطراوة ، في يدها قلم وفي راسها تغلي العواطف ، وفي قلبها تتماسك عجينة الافكار ، وكأن القلب عندها لا يشرب الا من الفكر وبانبوب خفي لم تكتشفه بعد عيون الطب المعاصر .

واضحك بلا صوت .. هه ..

اسمع صوت الضحكة في حلقي ولست نائمة ولا واهمة .

الورقة ..!!

رأيت على المكتب الورقة التي دونت ازمة التوام قلبي وعقلي في النهار، وهي الآن في عيني صورة مضحكة عن قلقي ، يخيل الى من يراها — لا سمح الله — انني بحاجة لطبيب نفساني .

قد اكتشفت اني ملاكمة خطيرة اين منها محمد علي كلاي . هذه الخطوط المعقدة المتشابكة التي كانت تبحث برأس القلم عن اهدافها، ليست الا قوتي الهائلة التي حاربت بها في النهار ظلال الازمة المورقة التي ما زالت حتى الآن تهدد جانبا قويا من ارادتي ، والتي جعلتني ادوخ في دوامة كادت تبتلعني .

لم تكن الخطوط الصغيرة والكبيرة ، الفاتحة والداكنة ، الا لكمات قاضية كنت اضرب بها اهدافا غير مسماة غير مرئية ، وكانت في الوقت نفسه صورة دموية فاجرة لكدمات وجروح واصوات استغاثة ، ويظهر انني عندما شبعت ضربا بالذي دفعني الى فم الدوامة — الازمة ؛ توقفت عن الضرب وظلت على الورقة فراغات بيضاء محظوظة ، واستحالت دموعي على الورقة مع جروحه الحمراء ، الى دماء زرقاء تلطخ بياض الصفحة .

حدث كل هذا ولم يسمع صوت ضربات الملاكمة الثائرة الجلادة المنتقمة انسان ، ولا من يلبي نداء المعذب . حتى هو .. اعتقد انه كان في لحظة انتصاري عليه وانسياب دمائه امام عيني ، يشرب فنجانا من القهوة على الشرفة دون ان يحس بلسعات القلم الذي كان يثأر لآلامي الكبيرة الصامتة .

ولانه تركني وحدي اناضل ضد الازمة التي قد تضعه على جبل وتنفيني الى جبل آخر ، ولانه رد على الخبر بهدوء قائلا :

ـــ من يكون ذلك الرجل .. لن يأخذك احد مني ما دمت مصممة على أن اكون أنا رجلك الوحيد .

ولانه لم يسألني بفروسية رجال العصور الوسطى من يكون الرجل .. اريد اسمه .. سأحاربه وأحارب العالم لتكوني لي .. لانه قال ما قال .. ولم يقل ما يجب ان يقال شعرت ان القلم المهذب تحول بين اناملي الناعمة الانيقة التي يعبدها ، الى سوط لاذع في يد خشنة اعتادت التعذيب لا الابداع الفني والحنان .

الرجل .. ينسى ان القطة قد تتحول الى نمرة اذا اقترب أحد من أطفالها الذين يرضعون من اثدائها المتفجرة بالحليب والحنان .. وهو ينسى ايضا ان عاطفة المرأة نحو من تحب هي دفاع الانثى الكاملة عن اطفالها الذين لم يخلقوا بعد . تريد اطفالا من رجلها الذي اختارته ، تتمنى ان يكونوا صورا عنه ، وكأنها تنتظر ان تتكرر صورة حبيبها في الحياة اكثر من مرة .

والسؤال الآن .. هل يناضل الرجل من اجل ان تكون ابنته صورة ثانية عن حبيبته !! ام انه يتركها تخطط وحدها وتحارب العالم لتحقق أهدافها الواعية وأهداف رجلها اللاواعية ، بينما هو يمضي غير مبال الى مقهاه يستميت من أجل « دوشيش » والى ندوة فكرية يناضل من أجل وجهة نظر خاصة والى ميدان العمل يحارب الصخر لتأمين رغيف الخبز وحبات الزيتون ، ولا يملك الا أن يقبل زوجته في المساء !!؟

وبعد .. فهل زالت الازمة ؟ وهل يعود الانسان بعد الملاكمة الى النوم العميق ؟ وهل ستنتهي ملاكماتي عندما ينام طفلي الجميل .. صورة من أحب ، الى جانبي ويرضع من ثدي امه التي حاربت ، حتى الهواء ، من اجل ان يكون ؟؟

هل ستكون راحتي الحتمية المقبلة مرحلة من مراحل التجريد التي يصعد اليها الانسان بعيدا عن جداول النضال الانساني الجزئي ، أم أنها ستكون جزءا من حياتي في الغد . ولا بد ان اهب ليلة من فراشي الذي ينام فيه الى جانبي ابني ، صورة من احبه ، كي اضغط زر الحضارة المعاصرة وابدأ في رسم خطوط جديدة تعبر عن ازمة انسانية كبيرة تلاحقني باصرار من اجل الوصول لاهداف انسانية اكبر !!؟؟

سأقرأ من جديد رواية جورجيو « الساعة الخامسة والعشرون »

ربما وجدت فيها صورتي الى جانب تمثال جياكومتي الجائع وانسان بيكاسو المشوه . ترى كيف ستكون صورتي ؟

هل ستكون صورتي المقبلة « نقطة » واحدة على سطر في صفحة الحياة الطالعة في نموها وتوقها الى المطلق ؟

انني خائفة من صورتي يا جورجيو !!!

● ● ●

المطر وأنا

وليكن .. فلتغرب الشمس ، وسأسجل نفسي على ضوء شمعة ربما استطاع لهبها المتردد ان ينقذني من الصور اليومية اللاهثة وراء اهتمامات الانسان بها ، كالاعلانات الضوئية المستجدية في ليل المدينة الساهر .

حركة يومية بسيطة نرفع معها غطاء الفراش لنطمر به رؤوسنا ونسمع وحدنا صوت اعماقنا ، وتشوينا انفاسنا الساخنة ، ونستسلم لصورنا الداخلية العنيفة التي تحمل آخر صورة لنا مسافرة على سكة الحياة،صورة لا لون لها ولا صوت ولا حركة ، ولا يعترف بها العالم الخارجي من حولنا ، الا انها حقيقية مترعة بالمعنى .

الشمعة تعيدني الى نفسي ، وغطاء الفراش يؤكد لي وجودي ، والمطر يمسح من امامي العالم .

هطلت الامطار ، وكنت في الطريق ، وهرب الناس ، ولم أهرب ، فهذه الايام المبللة خلقت من اجلي ، ولست أنانية في ذلك .

الفلاح يفرح بها لانها تروي حبة القمح الجائعة العطشى تحت التراب ، اما أنا ففرحي بالمطر يكاد يكون الهيا ، ربما لانني لست جائعة وعطشى كحبة القمح ، وربما لانني املك في جوانحي روحا قوتها تفوق قوة المعدة .

في المطر .. أسير وأسير ، لا اسمع الا صوت نفسي ، وصوت فكري ، وصوت خطواتي ، لا ادري كيف يعاملني المطر ، انه يعاملني بصورة خاصة جدا وأنا اقدر له هذه العناية وافرح . الناس يلتصقون بجدران الشارع هربا من المطر ، وأنا أهرب من الناس ومن جدران الشارع من أجل لقاء انتظرته ايام الربيع المغرور والصيف الغبي .

لماذا يخاف الناس ؟ لماذا يخافون المطر والعاصفة والثلج والريح العاتية والبرد والشجر العاري والاوراق اليابسة والغيوم الداكنة ، ماذا



الفنان حزقيال طوروس ـ حلب

في الصيف غير شمس محرقة تلاحق الانسان في كل خطوة ، وسماء غبية باهتة لا تملك اي حس فني تزخر به ريشة الخريف الناعمة ويد الشتاء العنيفة المتمردة المتفجرة بالحيوية ، الحاملة جوهر الحركة والحياة .

ولماذا اناقش الناس فيما يحبون وما لا يحبون ، لادعهم ، لن ادلهم على ما احب حتى يكون لي وللقلة من امثالي . اللوحات الفنية امام الناس وبين ايديهم ، فليغرفوا منها وحدهم ، فالاحساس الفني شعور صادق ينبع من الداخل ويتفجر بقوة الارادة ، ولا تشير اليه عصا معلم .

والحياة معرض كبير ، نتفرج فيه على لوحات كثيرة ، احيانا نرسمها نحن ، واحيانا يرسمها غيرنا : المهم ان ندخل المعرض وان نقف طويلا امام انفسنا وامام الآخرين في لقائهم مع الطبيعة . اما الطبيعة الساحرة التي تشدني اليها في الخريف والشتاء ، فانها في نظري بشرية ، أراها من خلال طبيعتي وطبيعة من حولي ، من أحبهم ومن لا أحبهم .

المطر ، والشمعة ، والغطاء ، والشجرة العارية ، هي وسيلة لقائي بيدي وشعري ونفسي وأفكاري وأنفاسي ، انني تحت المطر التصق بنفسي واسمع لهاثي واشعر بحرارة الحياة تشع في عروقي .

ان الانسان في رأيي لا يبرز امام مرآة النفس الا في الخريف والشتاء .

انظر الى المدينة تحت المطر فأراها مدينتين ، واحدة فوق الارض وواحدة تحتها ، اما أنا تحت المطر فاغدو واحدة ، واحدة حقيقية ، وتختفي المزيفة ..

● ● ●

خرقة الطنجرة

لي صفحة احبها .. كنت أحررها في مجلة « الجندي » الحبيبة الى نفسي والتي كانت اكبر واهم مجلة في سورية تصدر عن ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي في الجيش العربي السوري .

وخلال عشر سنوات من حياتي الصحفية السعيدة في مجلة رسمية هامة كانت صفحتي التي كنت احررها للمراة ، تسير في قافلة تطور صفحات المجلة ، وكانت تحمل بين فترة واخرى اسما جديدا يتلاءم مع خطة التحرير الاخيرة .

وأذكر ان صفحتي أخذت الاسماء التالية : طريق السعادة . هذه الصفحة لك يا سيدتي . للمراة . خاص بحواء . آدم وحواء . جنة آدم . مجلة الاسرة . الاسرة . المراة .

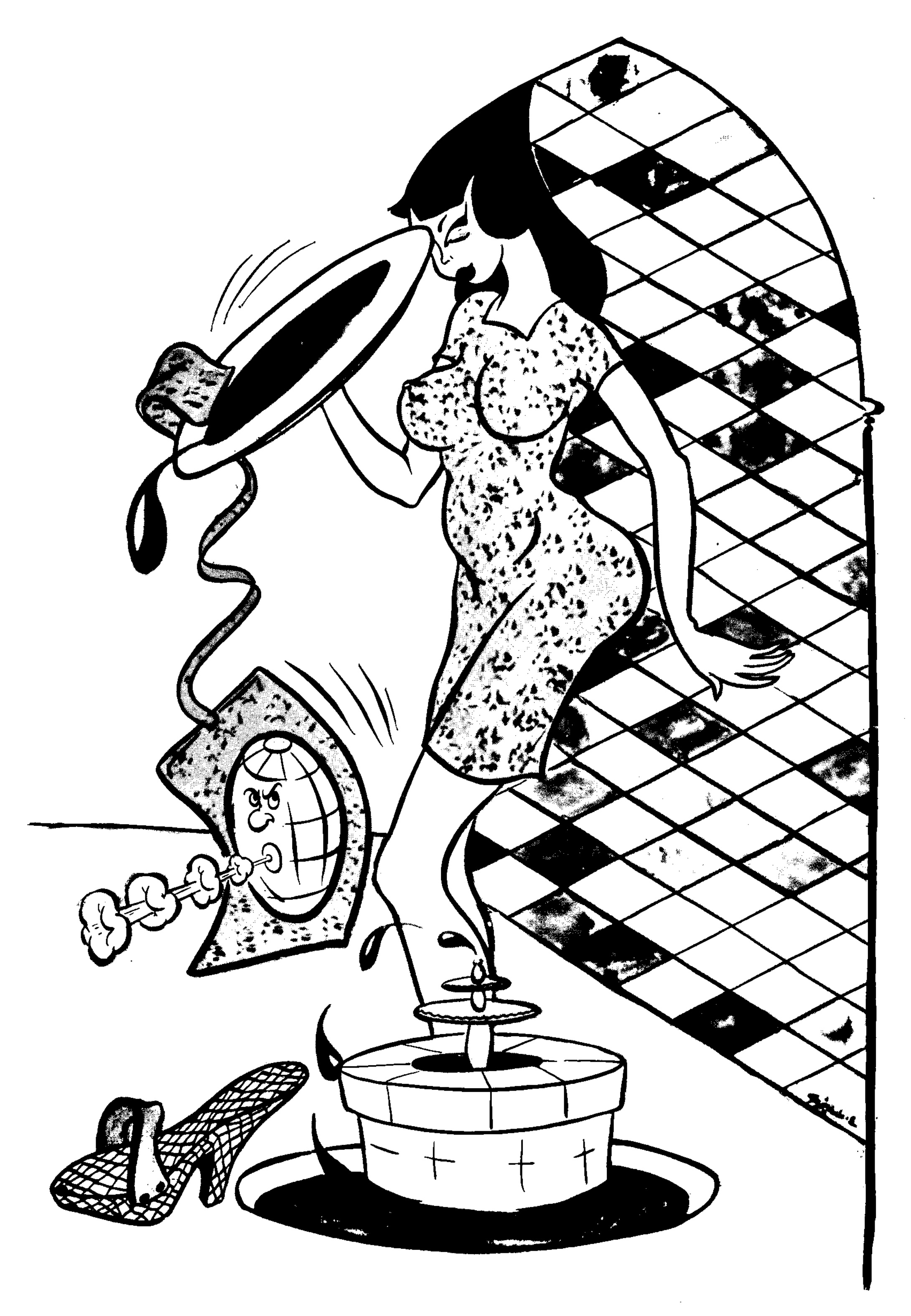
وفي الفترة التي لبست فيها صفحتي وشاحا جديدا كتب على طرفه « خاص بحواء » ، حدث لي وللصفحة حادث مثير ظللت أكتم امره حتى عن أقرب الناس الي وزمنا طويلا يتجاوز السنوات ، لاعتبارات سياسية ودولية .

بدات خيوط قصة « الخرقة المثيرة » عندما ظهر العدد رقم (٥٥٨) الثلاثاء في ١٩ حزيران عام ١٩٦٢ .

عدد جيد من أعداد مجلة الجندي فيه صفحة لي تحت عنوان « خاص بحواء » حرصت ان تكون صفحة مفيدة لربة المنزل بافكارها المبتكرة .

فكتبت تحت عنوان صغير : فكرة جديدة للمطبخ .. الكلمة التالية :

« حمالتان للطناجر والاوعية الساخنة مصنوعتان من القماش القطني على شكل كيس تدخل فيه اليد ويساعد على حمل الاوعية الساخنة جدا . يمكن صنع الحمالتين من أقمشة مربعة ملونة وتكون محشوة بقماش قطني، ومدربة على الماكينة كما تلاحظين في الصورة . انها فكرة عملية وسهلة ولن



الفنان عبد اللطيف مارديني ــ دمشق



تكلفك شيئا ، وستشعرين براحة كبيرة بتطبيقها » . وطبعا كانت ترافق الكلمة صورة للحمالتين .

وفي اليوم التالي لصدور العدد وصلتني مع المجند المراسل رسالة مغلقة .

فتحتها .. فاذا هو خط احد الزملاء الاصدقاء الذين اعتز بهم ، لما يتمتع به من وعي سياسي عربي وثقافة ناضجة وروح مرحة ذكية وقلب يتوهج بالاخلاق والصفاء والطيبة كحجر من الماس .

بدأت اقرأ .. وأنا اتوقع مفاجأة من مفاجآته ..!! وكانت الرسالة « مقالة » غاية في الرصانة والجد والتحليل الواعي . قرأت الرسالة حتى آخرها .. واخذت ارتجف بشدة (سوف تعلمون سبب هذه الظاهرة ، ظاهرة الارتجاف ، عندما تنتهون من قراءة كلماته) .

طويت الصفحات برفق ، واعدتها الى مغلفها ، وحفظتها في مكتبتي كوثيقة سرية هامة ، ستضعني دائما وجها لوجه امام الصديق البعيد الذي اعتز بصداقته رغم كل ما كتبه عني في الرسالة ورغم كل « الدس الرخيص » الذي سوف يكتشفه الناس عند اعلان هذه الوثيقة لاول مرة ، طبعا الدس ضد صفحتي الحبيبة ... التي لم تعبأ بحقد الحاقدين وكيد الدساسين فاستمرت تسير الى الامام بخطى ثابتة ..!!! والله الموفق ..!!

واني اذ اسمح لنفسي اليوم بنشر هذه القطعة ، اجد نفسي قد تخطيت مرحلة الخوف من نشرها ، لانني اصبحت واثقة من ان اصحاب العلاقة جميعهم من سياسيين ورؤساء دول عربية واجنبية ، قد تخطوا مرحلة خشية نقد فرد من الافراد ، بعد ان اعلنوا جميعا تمسكهم بمبدأ حرية الكلمة ،ولثقتي بانهم على مستوى يسمح بانتشار الكاريكاتور السياسي الهادف . وارجو ان يكون في نشر هذه القطعة ما يبرر ثقتي بانهم سيصفحون ويضحكون .

تحت عنوان « خرقة الطنجرة » كتب الصديق ما يلي :

« كان لنشر « خرقة الطنجرة » في مجلة الجندي في العدد رقم ٥٥٨ الصادر يوم الثلاثاء ١٩ ــ ٦ ــ ١٩٦٢ وفي صفحة « خاص بحواء » دوي مفاجيء في الاوساط المنزلية في جميع انحاء العالم . وقد تعدت صورة « خرقة الطنجرة » الاوساط المنزلية الى الاوساط الاقتصادية والصناعية

الكبرى ، وليس هذا فحسب ، بل ان بيوتات الازيـــاء التقطت الاختراع وعكفت على دراسة تأثيره في ازياء المرأة للموسم القادم ..!!

ان « خرقة الطنجرة » قد اثارت من النقاش الفكري والاقتصادي ما لم يسبق له مثيل في تاريخ الابتكارات منذ عصر العجلة حتى عصر الصاروخ . ولعل ناشرة الفكرة المشرفة على باب « خاص بحواء » في مجلة الجنـــدي العربي السوري ، هي اول صحفية في القرون الثلاثة الماضـــية ولا نقول القرنين الماضيين ، قد سببت في نشرها لهذه الفكرة ارتباكا اقتصاديا لـــم يسبق له مثيل في سرعة ذيوعه وانتشاره،بما أثاره من جدل لم يكن فيحسبان الصحفية الذكية ، ولا في حسبان المسؤولين عن مجلة الجندي التـــي زاد معدل توزيعها بعد نشر صورة « خرقة الطنجرة » مباشرة . ففي نيويورك تنادت الاتحادات النسائية لعقد المؤتمرات للتداول في اثر هذا الابداع على الاسرة الامريكية ، وقد القت المسز كارولين هيرفي محاضرة سجلتها جميع شركات التلفزيون وقالت فيها :

ــ لعل اعداء العرب يعيدون النظر بمعلوماتهم عن الشعب العربي، تلك المعلومات التي تمادت الصهيونية في ادخالها في اذهاننا نحن الامريكيين لاغراض خاصة مسمومة ومغرضة . وهذه هي المرأة العربية تعود ثانيـــة لتؤكد ان حواء هي حواء في كل زمان ومكان .

وقالت : ان الاسرة في العالم الذي نعيش فيه دخلت في عصر نستطيع ان نطلق عليه منذ الآن : « عصر الخروق » .

وكانت مؤسسة « فاير اوف انديانا » قد بعثت الى الرئيس كيندي برسالة تطالب فيها بوقف دخول مجلة الجندي الى امريكا كماطالبت الرئيس الامريكي باتخاذ اجراء سريع لنزع صفحة « خاص بحواء » من هذه المجلة على الاقل اذا كانت خطط وزارة الخارجية الامريكية تتعارض ومنع دخول المجلة الى الولايات المتحدة الامريكيـــة . وادعت الشركة من ان لفت نظر البيوتات الامريكية الى « خرقة الطنجرة » هذه قد اضر بمصالح الشركة التي انزلت الى الاسواق منذ مدة كميات ضخمة من قفازات المطاط التي لا تتأثر بالحرارة عند استعمالها من قبل ربات البيوت ، وان نزولا ملحوظا في بيع هذه القفازات قد حـــدث في اليوم الثاني لتوزيع مجلة الجندي بالقـــارة الامريكية .

وكتبت المسز هيثلي طومسون محررة الشؤون المنزلية في الهيرالد تريبيون والمعروفة بميولها الصهيونية تقول :

— هذه هي نتيجة سياسة التسامح مع العرب التي انتهجتها وزارة الخارجية الامريكية مؤخرا . ففي رأي كثير من العلماء انه لن يكون من السهل في المستقبل وقف اندلاع الافكار العربية على القارة الامريكيةوالغرب بصورة عامة بعد الآن . لقد سمحنا للافكار الشيوعية ان تنتشر في ربوعنا ولكننا لن نسكت عن مثل « خرقة الطنجرة » هذه في المستقبل !!

وفي باريس تناولت محلات كريستيان ديور بالاشتراك مع بيوتات الازياء الشهيرة في باريس وروما ولندن الفكرة وشرعت فورا بالتفنن بتزيين وخياطة الحبل الموصول بين « الخرقتين » بما يلائم ازياء هذا الصيف .

اما في الشرق الاقصى فكان للفكرة وقع صاعق . . ففي بورما والملايو والفيلبين تداعت الاوساط الاقتصادية الى تبادل البرقيات لعقد مؤتمر لدراسة هذا الاختراع وما سيحدثه من اثر على هبوط الكميات المصدرة من المطاط . وقد حدث في الهند ان اصحاب محال الخياطة قد بدأوا يواجهون المتاعب مع الزبائن الذين اخذوا يدققون في السؤال عن فضلات القماش المتبقية من بدلهم للاستفادة من هذه الفضلات في صنع « خرقة الطنجرة » .

ان « خرقة الطنجرة » لم تستحوذ على اهتمام الاقتصاديين وربات البيوت في العالم وحسب ، بل شغلت الاوساط السياسية والدبلوماسية ايضا .

ففي موسكو ادخل خروتشوف « خرقة الطنجرة » نهائيا في برنامج اعمال مؤتمر الحزب الشيوعي القادم وصدرت الاوامر حالا لجمع كافة الخرق لصالح الشعب والجماهير الكادحة من الشغيلة السوفيات .

كما ان المجلس الاعلى لدول السوق الاوروبية المشتركة قد الغى اجازات اعضائه وعكف على دراسة هذه الخرقة التي ظهرت ابان ازمة قبول انكلترا في دول السوق .

اما في الاوساط العربية والشرق الاوسط فنجد ان المسؤولين في تل ابيب عن دولة العصابات قد تظاهروا حتى الآن بعدم الاكتراث وان كان مراسل لوموند الفرنسية يؤكد الذعر الذي بدا في الدوائر الحكومية من سخرية الشعب الاسرائيلي من علماء اليهود . ويتوقع المراقبون ان تكون « خرقة الطنجرة » عاملا حاسما في الانتخابات القادمة باسرائيل .

وفي القاهرة قالت صحيفة الجمهورية شبه الرسمية بان الوحدة التي كانت قائمة بين مصر وسورية كرست جزءا عظيما من اعمال التوجيهالقومي لاثارة المواهب الكامنة ، وهذه هي ثمرات خطة التنمية الاقتصادية .

وقد كتب الاستاذ محمد حسنين هيكل في صفحته الاسبوعية في الاهرام يقول معلقـــا على نشر صورة « خرقـة الطنجرة » في مجلة الجنـدي السورية قائلا :

« في تصوري ان الانفصـاليين في سورية قد افلتوا زمام المراقبـة والكبت ، فقد طعنت الادبية والكاتبة الصحفية الداعين لتكريس الانفصال بالصميم عندما نشرت صورة الخرقة بجزئيها وهي واثقة بان كل جزء من جزئي الخرقة « خرقة الطنجرة » يرمز الى اقليم من اقليمي الجمهوريـة العربية المتحدة ، وكان الحبل الواصل بين جزئي « خرقة الطنجرة » واضحا في الصورة كما اراده الرئيس جمال عبد الناصر « انشوطة المشنقة » لاعداء الوحدة داخل اراضي الجمهورية العربية المتحدة وخارجها من الرجعيـين والانتهازيين .

ومضى هيكل يقول :

لم تصور يد الاشتراكية التعاونية كما صورتها « خرقة الطنجرة » فان كل جزء من جزئي الخرقة يعاون الآخر (بلا شك) وبنفس الوقت يدفع عن الايدي المؤمنة البناءة سخونة ليست في تصوري من السخونات العادية التي يعمل الرئيس جمال عبد الناصر على القضاء عليها بكل افكاره واعصابه حتى تنقلب الى برودة في المنطقة العربية وتمتد الى افريقيا وآسيا .

واستطرد الاستاذ هيكل يقول : ان ادعاء محترفي السياسة في اقليم سورية بان سياسة عدم الانحياز التي نادت بها الجمهورية العربية المتحدة، فكرة خيالية ، اصبحت الآن حقيقة واقعة اثبتتها لنا صاحبة باب « خـاص بحواء » الذكية بصورة « خرقة الطنجرة » حيث بدا جليا واضحا بان « خرقة الطنجرة » لا تتحيز في الاهداف التي اخترعت من اجلها ، فهي لا تميل الى الطنجرة ولا الى الايدي الناعمة .. لا للشرق ولا للغرب .

واختتم الكاتب الكبير مقاله الضافي بقوله :

يكفي ان الرئيس جمال عبد الناصر قال عندما سمع بالفكرة ما يلي بالحرف الواحد : « هذا الاختراع ... حاجة مش معقولة » .

انتهى كلام الرئيس جمال عبد الناصر ولم اجلب شيئا من عندي .

اما في سورية نفسها فان الوحـــدويين اعتبروا نشر الفكرة فكرة « خرقة الطنجرة » في هذا الوقت بالذات تحـديا للذين يسمون انفسهم باصحاب الفعاليات الاقتصادية .

وقال الاستاذ ميشيل عفلق السياسي المعروف بان المـــد الوحدوي ينبعث ثانية على نطاق جماهيري عربي صرف وهو غير مستورد ولا مترجم لان الناشرة لم تترجمه عن مصدر غير عربي .

ومن جهة اخرى صرح السيد عزت الطرابلسي وهو حجة في الامور الاقتصادية ومعروف بميوله اليمينية المضادة للاشتراكية الناصرية بان الجهد الفردي والمبادهة الشخصية والراسمال الخاص يجب ان لا يقيد بعد الآن على حساب الوحدة العربية لان في ذلك خير الامة العربية . وان الوحدة في دمنا ونحن اول من نادى بها وتعشقها . (يقصد الوحـــدة وليس خرقة الطنجرة) » .

● ● ●

٣+١٥+٣٠+٧٠=لانهاية

مليون امرأة يتدافعن كعاملات النحل في خلية عسل . كل واحدة تريد أن تكون وحدها امام الرجل .

الطفلة بنت الثالثة ، والمراهقة بنت الخامسة عشرة ، والناضجة بنت الثلاثين ، والعجوز بنت السبعين . الفتاة .. الغاضبة والراضية ، العفوية والمفكرة ، المتألمة والسعيدة ، الباكية والضاحكة . الساخرة والساذجة ، المتعجرفة والمنهارة ، الضعيفة والقوية ، الطيبة والماكرة .. ال ... وعند « الماكرة » توقف هو طويلا ، او لنقل توقف الرجل الماكر فيه بين مليون رجل يتدافعون تحت بشرته تدافع افراد كتيبة فرسان مقاتلة لنيل شرف الاستشهاد ، او النصر في ارض الماكرة ، ارض المعركة .

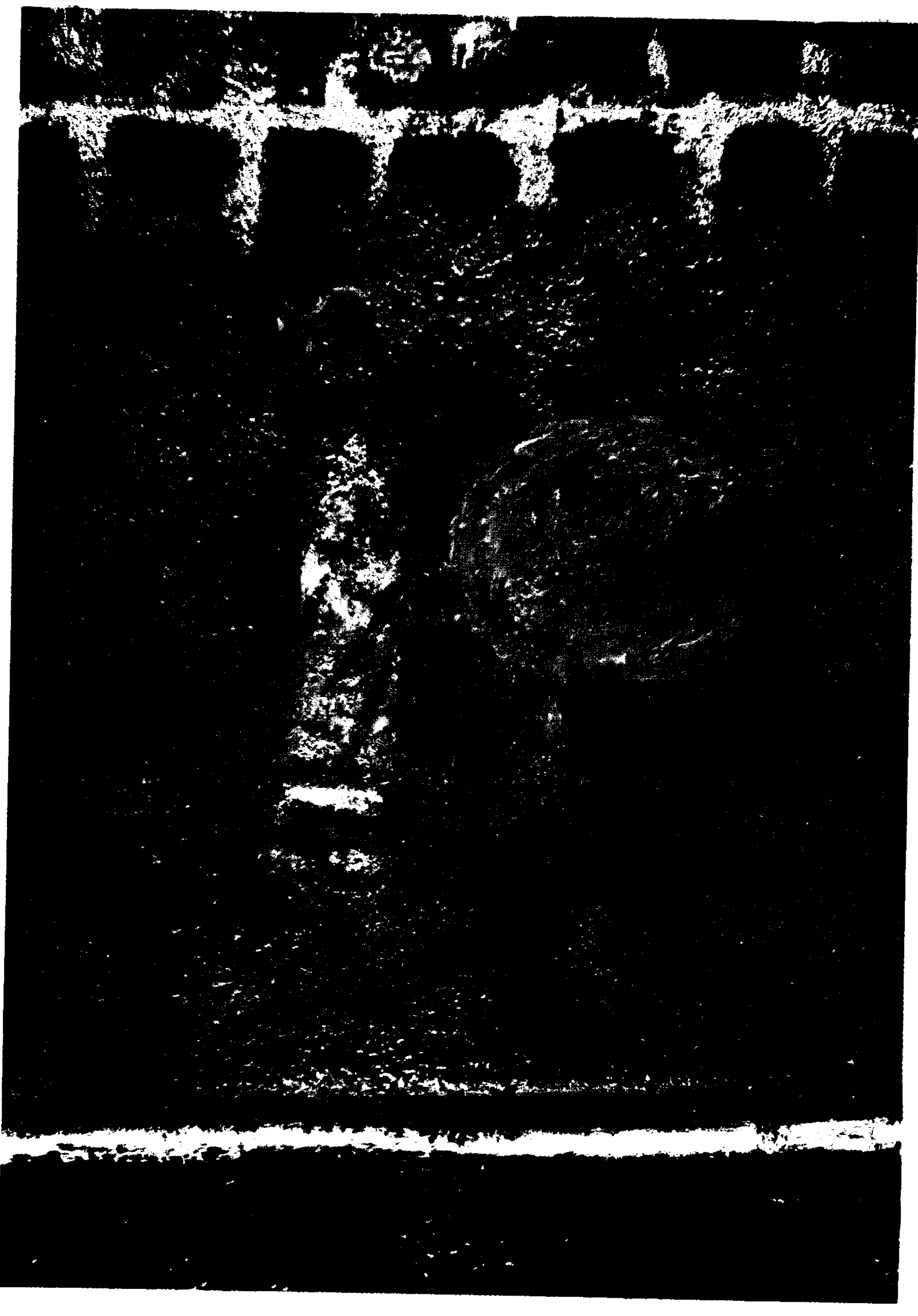
توقف عند الماكرة واعجب بها ، وهو يعرف ان مكرها مزيج من الذكاء والثقافة والعاطفة والخبرة في اناء شفاف اسمه المرأة ، كما يعرف ايضا انها ليست ماكرة مكر الثعلب لانها ليست من فصيلة الثعالب .

اطلق عليها لقب ماكرة واعجب به ، وفتح لهذه الماكرة النافذة المغلقة على داخله . قال لها أشياء كثيرة كثيرة ووعدها ووعد نفسه بالتحدث اليها عن اشياء اكثر .

اعترف . لا فائدة من الانكار . لقد استشفت عن بعد الجانب الآخر فيه ، البعد الثالث ، وهي لهذا السبب ستحق ان تسمع كل شيء عنه بلا تحفظ . يريد الآن ان ينتقل الى اعماقها عبر احاديثه عن نفسه ، يحترم آلامه بشكل لم يعد يحتمل معه ان يخفيها عن هذه الصديقة ، فمن الآلام برأيه يصنع الانسان الحقيقي .

ويقول :

يستطيع الانسان ان يلبس قناع الوجه الضاحك ولكنه يعجز امام



الفنان فاتح المدرس ـ حلب

مشاعر الالم ، يعجز عن رسمها على وجهه اذا لم تكن حقيقية ، والالم لهذا السبب اكثر اصالة في جوهره من الفرح .

سيزرع في قاع نفسها السحيقة جذور اعشاب قصصه وحكاياته التي صنعت منه مليون رجل في رجل .

يقف امامها الآن بكل ضعف وقوة ليقول :

ـ لا فائدة يا مليون امرأة .. يا من ابحث عنها كـل عمري .. لا فائدة .. أنت مصيري .

ـ ما عمرك ..؟

ـ ثلاثة أيام .

وسألها :

ـ وما عمرك ..؟

قالت :

ـ أنا .. أنا طفلة في الثالثة .. وأنا صبية مراهقة .. وأنا انسانة جدية .. وأنا عجوز شمطاء في السبعين .. اما عمري الحقيقي فلا أذكر انني عشته أبدا . أنا أتأرجح بين البداية واللانهاية .. وليس بين لحظـات حياتي معان مطلقة وحدود نهائية .. من يدري ربما كنت ابنة اللانهاية .

قـال :

ـ دعيني اتحدث اليك عن الشمس .. والقدر .. والحقيقة .. دعيني اتحدث عنك وأهرب .. سأهرب للمرة الاولى في حياتي قبل ان يفوت أوان الهرب . لا تسألي لماذا لانني لا أعرف . اشعر برغبة هائلة في الفرار منك .

ـ اغبطك .. لانك تملك شعورا واحدا .

ـ ماذا تعنين ..؟

قـالت :

ـ أحمل لك في صدري شعورين .

قال بلهفة :

ـ ما هما ..؟

— شعور الطفلة الغريرة التي تريد ان تركض اليــك .. وشعور الطفلة العاقلة التي تتمنى ان تركض بعيدا عنك .

— أنت ممزقة ..

— بين رجلين ..

— من هما ..؟؟

— أنت .. وانت .

قــال :

— هل تذكرين شارة اللا نهاية ؟

قــالت : .....

قــال :

— انها تشدني نحو الاله ..

قــالت : ....

قــال :

— عندما كنت صغيرا .. كنت اقف عند ضفة الفرات ارقب مغيب الشمس ، وتتفجر أمنياتي رغبة مستحيلة .ومن أمنياتي ان اسير فوق سطح النهر العظيم بخطوات واثقة لا تخاف الغرق الى ان اصل الــى الشمس وأمسكها .. كرة ملتهبة من الذهب لي أنا .. العب بها قليلا .. ثم أنثرها قطعا ذهبية نادرة فوق طين الضفتين .. فتزدهر الضفتــان .. ويرقص النهر طربا في عروق الارض وتتراجع الصحراء وتتوارى خجلا ، ويبقى على « الجزيرة » الورد والنخيل والقطن والقمح وخروف سمين وابتسامة حب .

قــالت :

— تذكرني بلوحة « عشتار تزور سد الفرات » للفنان فاتح المدرس. تؤكد نبوءة فناننا ان الهة الخصب والحب والجمال في حضارتنا القديمــة « عشتار » ستزور قريبا نهر الفرات وضفتي الفرات ، وسيترك خفهـــا الذهبي آثار خطواتها السحرية بعد ان تمشي على الطين الاحمر، وستلمس بعصاها الذهبية سد الفرات فتحيله الى سد من الذهب الخالص .. وستمر بعرق اخضر على التراب الاحمر ويغور التراب وترتفع سنبلــة وشجرة وزهرة ووجه يتفجر ألقا وعافية .

قـــال :

ـــ آه .. ليت الحلم يصحو ، وليت عشتار تعود الينا .

قـــالت :

ـــ وهل تحققت الامنية ولمست وجه الشمس ..؟

قـــال :

ـــ انا .. أبدا .. كبرت .. وكبر النهر العظيم وكبرت الشمس وكبرت الامنية دون ان تملك قدمي الجراة على السير خطوة فوق التيارات الرهيبة المغرية التي ستقدمني للشمس قربا منتشيا ملتهبا بالحياة والفرح والخلاص ..

قـــالت :

ـــ لانك بشر . اما عشتار فأظنها ستصل ، وستسير بخفيهاالذهبيين فوق سطح النهر دون ان تخشى الموت .

قـــال :

ـــ اعرف . واتمنى . ولكنني كأنسان اهفو الى المطلق وتقليد الآلهة لمعرفة الحقيقة .

قـــالت :

ـــ اظن ان الوصول الى الحقيقة يكلفنا حياتنا دائما .

قـــال :

ـــ وهل نملك الحياة حتى ندفعها ثمنا للحقيقة ..؟

قـــالت :

ـــ لا أظن انك تكلمني من العالم الآخر ..!

قـــال :

ـــ تأكدي .. لم يبق مني الا هذا الجسد ..

ـــ والروح !!

ـــ أبدا .. انها نائمة في كهف بعيد ، كفتاة عربية شرقية محجبة حلوة

التقاطيع طويلة الضفائر خلية البال تنتظر ان تمتد اليها اليد المحبة لتوقظها من سبات فرضه عليها الزمان والمكان فحرمها من الحياة .

قــالت :

— ومع ذلك فانت تمارس الحياة .

— أنت رهيبة ..

— بل أنا عادية جدا .

— هل تعرفين بانني ارى الحقيقة في دروب لا يمشي عليها الناس ؟

— أعرف .

— هل تصدقين بان أروع لحظة في حياة رجل مثلي كانت لحظة غروب شمس أحد الايام عن دمشق الحبيبة ، ولم تكن لحظة لقاء بامرأة تعجبني ؟

— أصدق جدا .

— كنت في حالة راكب عادي في احد الباصات ، وفجأة بهرتني لحظة أنفذ من السحر . غابت الشمس عن دمشق ، برقت أشعتها كحلم بـــين اوراق الشجر ورؤوس المآذن وسطوح البيوت وعلى زجاج النوافذ ، بدأت وأنتهت برفة عين ، ففقدت نفسي وفقدت العالم الباهت الذي خلفته تلك اللحظة الباهرة . هل تصدقين بان تلك اللحظة الغريبة قد منحتني اقصى فرح يطمح اليه انسان ؟؟ وانها ظلت تلازمني في كل حالة ؟؟ عندما أتكلم في الهاتف او اكتب او اقرأ او اغازل امرأة او اتلقى خبرا سارا . . .

قــالت :

— . . . .

قال : هل تصدقين انني اسهر ليالي بطولها انتظر مطلع الشمس على سطح منزلي !؟

قالت : . . . .

قــال :

— لماذا لا تتكلمين ..؟

— أنا اسمع .

— أقول تفاهات ربما ....!!

ـ هل يحملك التفاؤل على الظن بانني سأنكر عليك ذلك ..!؟

ضحك من اعماقه وقال :

ـ من انت ..؟

ـ انا انت .. ولكن في الجنس الآخر .

قـــال :

ـ عندما ادخل الاماكن الاثرية التاريخية اشعر برهبة .. واجـــد نفسي اقدم لها الطقوس والقرابين قبل ان ادخلها خاشـــعا . زرت ايوان كسرى فشعرت برهبة غريبة . هل تدركين معنى هذا السر في نفسي ؟!

ـ انا انت .. ولكن في الجنس الآخر .

قـــال :

ـ يخالجني شعور الرهبة هذا عندما اتحدث اليك .

قـــالت :

ـ . . . .

قـــال :

ـ تكلمي .. أريد ان اسمعك ..!

قـــالت :

ـ انا اتكلم .. لماذا لا تسمع الصمت ..!

قـــال :

ـ اسمعك .. واعيش انفاسك وكم اتمنى لو أرى الآن عينيك ..!؟

ـ تريد ان ترى نفسك فيهما .

ـ ربما ..!!

قـــالت :

ـ انك تراهما من خـــلال الاثير .. أنا اعتقد ان الانسان بعينيـــه وانفاسه وشفتيه ويديه وصوته ..

ـ تكلمي .. قولي اي شيء ..

ـ لم أسكت معك لحظة واحدة، حتى في لحظات صمتي كنت أتكلم..

وسوف اتكلم وانت سبب نفسك كنت تلعب بالحصى الملساء ، وفجاة تفجر الينبوع .. انه ينبوع . .تذكر .. وليس بئرا .

اذهب .. اهرب .. ولكن احدا غيرك لن يشرب من الينبوع لانه لا يتوق مثلك الى اللانهاية .. ولانه لم يعان تجربة التوق للسير الى الشمس فوق التيارات الرهيبة في سرير النهر العظيم الراحل نحو الشرق .

قال :

— . . . .

قالت :

— هذا الينبوع هو الجانب الآخر مني .

قال :

— أنت أنا .. ولكن في الجنس الآخر .

قالت :

— . . . . . .

قال :

— سأهرب .. الآن .

قالت :

— . . . . . .

قال :

— ارجوك .. دعيني اذهب .. ساعديني .. سكوتك رفض .

قالت :

— ان شارة اللانهاية تعذبني .. فأنا لا أملك يدي حتى تعيدك الى مكانك . لا استطيع ان احطم شعور الامتداد الذي ينمو في اعماقي نحوك بضربة صغيرة انيقة من عصا الامتثال للطلب .

ولكن صوتا رن في اذنه اولا ... ثم في اذنها ، يعلن الانتقال من اللانهاية الى النهاية .

ورغم تلك النهاية ، ستظل قطعة من دمشق التي يحبها اكثر مما

تحبها ابنة دمشق ، ستظل بين لانهاية ولانهـــاية . ينــام في بيوتهــــا أناس سعداء لم تقلقهم الى حد بعيد المشاعر الانسانية المختلطة بارتجافات اللانهاية التي عاشت في صدر مليون امراة ومليون رجل .

ليهرب .. لا فائدة .. لقد امتدت جذورها الى ترابه الاحمر،واشرأبت اغصانها الى سمائه الزرقاء .

ورفعت كتفيها .. ونامت .

● ● ●

الشيطان ذو القرنين الفضيّين

كتبت في يومياتها :

« تركت القلم . . . وانضمت بهذه الحركة البسيطة اوراق جديدة الى يومياتي . وفي اليوم التالي ، وأنا في جلسة خاصة مـــع نفسي اشوي يدي ووجهي وركبتي على حرارة الجمر المتوهج من « منقل » نحاسي عربي في ليلة باردة ، لمعت في ذهني فكرة ساخنة :

ما الذي يمنعني من البحث عن الوجه الآخر للصورة ؟ لماذا لا أتجاوز حدودي واقلب اوراقه السرية وأقرأ ما لعله قد كتبه عن اللقاء الفكري الذي كان بيننا في جلسة عابرة ، والذي تم فيه صنع وجهي الصورة ؟ عنـــدي وجه واحد للصورة سجلتـــه في يومياتي ، ويختفي بين اوراقه الوجـــه الآخر ؟!. .

ويفكر ذهني بالعامية وابتسم :

قالوا لكتير الغلبة نص الدنية الك ، قاللهن : والنص التاني لمين !؟؟. .

وعدت افكر واكتب على جوانب ذهني :

— ومن هنا انطلقت أحاكي « كتير الغلبة » ، ولن اهتم لو اكتشفت بان الوجه الآخر للقمر مظلم ، لانني سوف احدق في العتمة الواسعةوانا على يقين بأنني احدق في الموجود . وأتساءل !! هل يعقل ان تكون اللحظة بيننا على مستوى واحد من النضج والقوة ؟!

ويرتد لي سؤالي ثم يعود لينطلق « مني — الي » من جديد دون ان يخامرني شعور بالغرور الساذج :

ترى هل تنطبق على صورتينا فكرة العامة عن الانسان الجيد:« وشك وقفاك متل ليرة الدهب » ؟!



الفنان نعيم اسماعيل ــ انطاكية



وقبل ان اقرا ما كتبه عني ، لم يكن معقولا ان انكر انه وجه الليرة الذهبية ، وربما اكون انا ظهرها .

الرجل وجه الليرة الذهبية والمراة ظهرها، ويظل لليرة عندما نقلبها بين اناملنا وجهان من معدن واحد ثمين ، وصورتان من شكلين مختلفين . « هو » النقش و « هي » الطرة ، والفرق لا بد موجود . والقيمة الاكبر له، حقيقة لا بد من الاعتراف بها ،وسوف تؤكدها تجربتي ، تجربة الاطلاع على ما يكتبه الطرفان « هو وهي » عن لحظة لقاء فكرية واحدة في زمان واحد ومكان واحد .

كتبت أنا في يومياتي عن لقائنا الفكري :

قلت وانا أحييه :

ـــ أين أنت .. الازلت غارقا في بحيرة الصمت ، البحيرة الهادئة التي لا تسبح فيها الاسماك ، ولا تتحرك حول شواطئها اوراق الاشجار ، ولا تنقنق في ليلها الضفادع الساهرة ، ولا تزقزق في صبحها العصافير النشيطة !..

قال :

ـــ اذن فهي اشجار وعصافير وأسماك وضفادع اصطناعية !!

ـــ لا .. انها طبيعية كما تبدو لي ، ولكنها تصمت احتراما لصمت البحيرة ..

ـــ الصمت معك أسلم .

ـــ سوف تتغير الامور .. وسوف اضعك عند شواطيء الثرثرة ، وابدأ بتعلم السباحة في بحيرة الصمت .

ويمر صمت .. ثم يتغلب عليه ويقول :

ـــ ما هذا .. ارى انك عثرت اخيرا على زهرة البنفسج!!كنت ابحث لك عنها من بائع لبائع .. ولكن .. لا بنفسج .. لم ينزل البنفسج .. وسبقتني بالعثور على زهرتك المفضلة ، وحرمتني من متعة كنت انتظرها ثلاثة فصول طويلة .

ـــ اتمنى لو يتحول ماء البحر الى لون البنفسج لاسبح فيه واصبح مطلية بلون البنفسج واتخلص من لوني . صحيح .. قل لي .. لماذا لم يوجد بين البشر ذوو العرق البنفسجي ..!!

ــ حبك لهذا اللون كما يحلل شبنجلر الالوان يدل على شعورك بالتميز والارستقراطية . وقد قال شبنجلر عن الذهب انه لون العرب ، ويدل على تطلعهم الى عالم مثالي يودون صنعه لم يوجد بعد . كما فسر تطلع اوروبا للون الرمادي والازرق الداكن بالرغبة في البحث عن المجهول .

لاحظت ان حديثنا يتميز هذه المرة بالاضطراب وخاصة حديثي أنــا . وكان يمعن النظر الى وكأنه يكتشف جزءا من العالم الذهبي الذي يتطلع اليه العرب . وتجاهلت نظرته لاتمتع من زاوية خفية بمزيد من دهشته ، ولاترك له حرية الاستغراق في النظر الي دون ان اقطعها بنظرة « الادراك » الواثقة بما يدور في اعماقه من ضعف الاستسلام للفكرة العاطفية الجديدة، القديمة .

واذكر انه قال :

ــ هذا ما يميزك .. ان زوجتي لا تفهم ما اقول .

قلت :

ــ أتعلم .. لقد اكتشفت الآن انني أتأثر بالكلمة التــي تطري ذهني وتفكيري ، وكأنها كلمة غزل حارة تطري جمالي . واشعر الآن ان وجهي قد احمر .

لقد تطور مفهوم الانوثة عندي وتطور عندك علــى مستوى واحد وبدرجة واحدة . ومن هنا تبدأ الكارثة ، كارثة من تعيش في مجتمـــع يرى رجاله في « المرأة الانثى » ســـاقا جميلة متناسقة ورأسا جميلا مزخرفـــا بلا حشو .

اما أنت ..!! ما الفائدة !! لقد غدرت بي قبل ان تعرفني ، والتصقت براس مزخرف مطلي بماء الذهب المزيف دون ان تصبر على الزمن حتــى يعطيك « الكلمة الانثى » .

لا بأس .. أنت صديق .. وســـوف انتظر الزمن المقبل لارى كيف ستكبر صورة صديقي .

ــ لن أكون شيئاً .

ــ ستصبح شيئا كبيرا . أما أنا فسوف تجرني انوثتي الغالبة وأمومتي الراكدة عندما تسيل ، الى صورة عادية تحاكي صور بقية النساء . رأس مزخرف وبطن منفوخ وذهن مشغول بتدبيــر امور الرز والسمن واللحم والبقدونس والمازوت . وملل يرسم بأمانة تجاعيد البشرة التي لا تخفي

تحتها الا صدى الماضي الفني ابدا « الكلمة الانثى » وصوت الحاضر البليد « المراة الانثى » .

ـــ اخاف من الجدب والتوقف والنضوب .

ـــ لا يمكن ان تنضب لانك لا تتوقف مثلي عن تناول طعامك اليومي . انت تتغذى لا عن جوع فحسب بل عن تخطيط. ولا بد ان تستمر فترة طويلة قبل ان تستسلم للموت الفعلي الذي سيقتله خلودك الفني .

ـــ فترة الجدب الصغيرة عانيتها واخاف ان تستطيل كدكان لعب الاطفال في العيد تتجاوز الباب وتستأثر بالرصيف .

ـــ لا يمكن . . والمقارنة غير صحيحة . استطالة الجدب عندكنهاية. وامتداد دكان اللعب رغبة شرهة في حياة اطول .

ـــ مرة ثانية عندما اواجهك اشعر برغبة في العودة الى بحيرتي ، لو صحت تسميتك .

ـــ مرة ثانية ، بحيرتك ستصبح بحيرتي، ولن أدعك تصمت بعد الآن، حتى اسد بيدي ثغرة خساراتي السابقة ، وانقذ مدينتي النامية من طوفان صمتك ، بأنانيتي ، لا بتضحيتي . اريد ان اروي بطوفان كلماتك جدران نفسي العطشى . فعندما تتكلم اجد نفسي ، وأتأكد انني لست مجنونة . ولان لوني المفضل في رأيك ، هو شعور بالتميز غير المغرور ، لا دليل « الانانية » كما يؤكد لي رجل آخر يبحث عن راس مزخرف بشعر مستعار ميت ، لانك تعتقد بذلك وتفهم حقيقتي فانا لن اسكت عن صمتك وسأسكت عندما تتكلم » .

توهجت الغرفة . . وذهب قبل ان ينتهي فنجان القهوة .

وكتب « هو » في دفتر مذكراته عن اللحظة الفكرية نفسها فكان كلامه شيئا خاصا حلق باللحظة الى وجه الليرة الذهب :

« رائع الجمال كان هذا الشيطان الصغير الذي يقف بيني وبينها . اشقر الشعر في قرنيه النديين تتجمع اشعة الشمس الفضية ، وزرقة البحار البعيدة في عينيه ، وعلى بشرته الخارقة لون الورد والذهب .

ـــ كيف هي بحيرة الصمت ، قالت لي . . .

انتقلت ببلادة الى بحيرة سحرية يظللها الصفصاف وتصورت جسدين

بين الاسماك والطحالب يختصران اسرار الخلق . كنت انظر الـى الفراغ واسمع حديث ظل وقع على الجدار عندما سألتني :

ـــ وكيف رأيتهما . . ؟!!

كان الخبيث هذا الشيطان الصغير ما يزال يهمس في اذنها يحكي لهــا عن كل ما اتصوره بالاسلوب الذي يحلو له . ها هو يخونني الملعون شأنه في كل مرة . لقد اشتريت له اللعبواطعمته الشوكولاته كي لا ينقلتصوراتي لاحد ولكنه ما ان يعطب اللعب ويشبع من الشوكولاتة حتى ينسى ان شرطا كان قد قام بيننا . . ويحكي ما يجوز وما لا بجوز ويزيد ويحرف ويصيــغ الكلمات والعبارات كما يشاء . انه شاعر نبت هو والشعر في حبة واحدة .

وطالت الهمسات بينها وبين الشيطان الصغير واخذت تتلمس قرنيــه الفضيين وخصلات شعره الاشقر بوجد عجيب أثار في غيرة لا حد لهــا حتى كدت أختنق ، واندفعت لاقطع عليهما هذه النشوة :

ـــ ان ما اقوله لك لا يمكنني ان اقوله لانسان آخر . لكأن هذا الكلام خصص لك انت وحدك اتعلمين ذلك ؟

علا وجنتيهــا الاحمر وتناثرت على البحيرة زهرات لا عــداد لها من الليلك والبنفسج . وفجأة انتقل الي الشيطان ذو القرنين الفضيين وقــال لي مداعبا :

ـــ انت اطعمتني الشوكولاتة هذا الصباح .

ـــ ابعد عني ايها الملعون قلت ، فأنا لم أعد اصدقك ، ثم ادرت له اذني وهمس :

ـــ . . . . وكانت الاميرة في شرفتها المرصعة بالصدف واليــاقوت ترقب من بعيد عازف الناي وهو يتجول بين اشجار الصفصاف وتستمع اليه ودفء غريب يملأ صدرها الى ان . . .

قاطعته :

ـــ وهل طلبت منك ان تحكي الحكايا يا عفريت ؟ اذهب عني .

وامسكت بأنفه الصغير لئلا يذهب . . لقد كان في نبرة صوته جاذبيــة وحرارة . .

ـــ انت اشتريت لي اللعب الجميلة هذا الصباح . . .

قال ...

ثم تابع همساته :

ــ وكانت الارض قطعة من اللهيب ومجموعة من البراكين عنــدما انفصلت عن امها الشمس ...

دفعته عني . لقد كان يضحك علي . ابتعد وعانقها وهي تلقي الـــي نظرة كدت الا أفهمهـــا لولا انني تذكرت مشـــاهد بزوغ الشمس على طريق قريتي .

قـــالت :

ــ انني أنثى .. اولا واخيرا .
ولم أعد اشعر بعدها بالغيرة » .

★ ★ ★

خف وهـــج الحرارة ... وعدت احرك الجمر وازيـــل الرماد بعود صغير ... وابتسم . الآن تأكدت بان العقل يعشق . أنني اعشق عقله . انني أعشق الوجه الآخر لليرة الذهب .

● ● ●

قشة الدوامة

« الفيلسوف كما يقولون لا يخاف الموت ، وأنا أقول : الفيلسوف لا يخاف الحياة ، لان الحي مهدد في كل لحظة بالموت بالاضافة الى شقاء الحياة نفسها » .

كلمة قالها احد الاصدقاء ومضى . وقبل ان يمضي سألني عن سري فقلت :

— نعم .. لقد اصبحت المرآة تطالعني بأفضل صورة من صوري الماضية ، التي كنت تعرفها ، وذلك لانني اكتشفت سر الخلاص ، وغدوت قشة صغيرة واقعة في دوامة العبث ، تدور وتعي هذا الدوران اللامجدي الابدي . عرفت ان لا شيء حقيقي وان لا سبيل الى الوصول لحل . فنحن في كل لحظة اسرى تهديد الموت والآخرين . نحن رموش تهتز رعبا من هذا المصير ، الموت والآخرين . فنسيت الموت لبرهة قصيرة لا تتعدى سنوات عمري الكاملة ، واحببت الحياة كما هي ووضعت الآخرين خارج قوسي . لا شيء .. ابدا .. لا انسان يأخذني كلية . له الجزء والباقي لي .. للايام التي سوف يغدرني بها ويرحل . وسأظل واقفة من دونه ولن أقع ، فقد بقيت لي نفسي عمودا من المرمر الاصيل .

وهم كبير مضحك ان نحب انسانا ونموت في سبيله وحده من اول الدرب حتى آخره . فالحياة تقدم لنا في كل يوم « أنا » جديدة واهدافا جديدة سينتهي امامها رفيق الدرب الذي كنا نصلي له امس ، ان لم يسبقنا اليوم « بأناه » ، باهدافه .



الفنان عفيف بهنسي — دمشق



انا كالنبتة .. انمو .. وغدا سأزدهر .. وعلي « رجلي » ان يحافظ علي بمحافظته على نفسه في قناعتي . عليه ان ينمو مثلي ، بل اكثر ، لاني امراة ضعيفة تريد عندما تزداد قوة ان تقتل « ضعفها القوي » بوجود رجل قوي الى جانبها لا يضعف يؤكد ضعفها ويحمي هذا الضعف الانثوي الجديد من أن يتغير ويصبح معافى وبصحة جيدة . يجب ان تظل المسافة دائمـــا واحدة بينهما عندما يستطيل الزمن ويمتد ، وعليهما ان يحافظا على ايقـــاع سرعة الخطوات ، والا فان المسافة ستكبر ويصبح بقاؤنا في قلوبنا صعبا ، ويقترب احتمال انطفـــاء الصورة الغالية المقابلة التـــي كانت تحمل وهما فكرة المثالية .

سأحب انسانا يحب امراة تمشي ولا تتوقف عند الانثى فيها .. عنـــد الام .. وعند الحبيبة ، وعند الضعيفة .

ما نعرفه يقتلني ، وما لا نعرفه يفتح الورد الاحمر في شراييني ويلهب الفكر الازرق في رأسي ، ويدفعني للخروج من الفرد « الانا » الى المجموع « البشرية » ،كي أحيا من خلالها ، واسهم في تنمية الحس العام بالحيـــاة فيها . سأحب انسانا يحب في هذا التوق للنمو .

لن أخاف الموت ولن أخاف الحياة .. فأنا لست فيلسوفة اذن ، ولست امراة عابرة . سأتصرف بطريقة مغايرة .

سأقهر الموت بحبي للحياة ، وسأحيا عبر الموت وبعـــده كما حييت واحيا قبله . سأنتصر بفكرة الحياة عن طريق طفلي وشيء آخر . سأعيش غدا في طفلي وسأعيش على رف مكتبة في كتاب صغير .. ربما !! من يبحث عني يجدني ، يلمسني ، يراني ، يحبني ، يكرهني ، يتحدث الي ، ويسمع نبرات صوتي الحية رغم آلاف السنين التي سوف تمر على ترابي .

الموت امامنا !!

لا ...

الحياة امامنا .. لاننا نحبها ، لاننا نحب انفســـنا ونحب جنســـنا . وسيتحرك الذين ماتوا على سطح الكرة باشكال وصور متجددة فيها شيء

كثير من ملامح الذين رحلوا . وسوف تنتشر افكارهم عبر تموجات الزمن ان قدر لها ان تكتب او تسجل او تقال يوما ، تماما كانتشار الصوت في الطبيعة. قد يبتعد الصوت عنا ، ولكنه موجود في الطبيعة ، وعندما نتمكن من تحسين قوانا السمعية سوف تتحقق امامنا بصورة مادية نبوءة لافوازييه ، وسوف ينتفي الموت بصورة اكيدة ، لانه لا شيء يولد في الطبيعة ولا شيء يفنى .

نعم ايها الصديق . ارتدت لي عافيتي عندما بلغت هذه المرحلة من القدرة على الفهم . انها مرحلة خلاصي ، فأنا في العالم ، وأنا في برج المراقبة ، والعالم يتحرك تحت انظاري . انا معلقة في الهواء ومن الصعب جدا ان يتذوقني الثعلب وسيقول عني بكبرياء مكشوف مزور :

انها مرة !!

ولكني حلوة وصعبة المنال وبعيدة . فأنا قشة الدوامة التي تدور وتعرف أنها تدور . أنا انسان جديد يأكل الخبز والزيتون ويتغذى من الكلمة الحلوة الذكية ويرفض انصاف الحلول ، وتأسره الاسر كله عفوية سائق العربة الساذج الطيب ، ويحذر غدر الآخرين ، يعطيهم ظهره ولا يسمح لهم بدفعه الى فم الهاوية ، ويعي ايضا كونه انسانا ينتمي الى كامو .

كامو .. هو أنا .. ولم يمت كامو . من يبحث عنه يجده حتى في قلب افريقيا ورأس القطب وصدر الهند واطراف الجزيرة العربية .

فهل سأفعل في غدي ما يبرر انتمائي الى كامو؟وهل سأكشف لمن معي الآن ولمن سيأتي بعدي عن سر جديد من اسرار النفس « الغريبة » يجعل الصور الجديدة لنا على الارض توكد غدا للاجيال من بعدها صارخة بصوت واحد : نحن ننتمي اليها ..!؟

وضحكت .. فكرة فيها كثير من الغرور المضحك ..!! وقفزت قطتي .. وتذكرت .. تذكرت من أنا الآن .. تذكرت لماذا بدأت الكتابة . قال لي انه سيأتي .. وبدأت انتظر . مر الزمن .. وبلغت الصفحة الخامسة ولم يحضر وخفت ان تنتهي لحظات الانتظار قبل ان انتهي من الكلام ، لان حضوره سيجعلني اسكت لاسمع .

لم يحضر ، لا بأس . كنت اعيش . غيابه يعذبني وحضوره يجعلني اسكر من كثرة الشبع .

الجوع هو ضالتي . لم يحضر !! ليكن . ان الجانب الآخر في جاهز . في غيابه احيا واسجل على الورق شيئا من نفسي التي ستنام باطمئنان يوما على رف مكتبة .

وعندما يحضر بشكل نهائي ، سأمنح الحياة طفلا يحمل صورتي وصورته ودمي ودمه .

وبه وحده . في حضوره وفي غيابه سأظل حية رغم رقم جديد يدق على بابي يعلن لي تفتح زهرة عام جديد على اغصاني .

• • •

لعبة التناقض المريرة

بالحب يحيا الانسان وبالخبز .

والانسان في صورتيه المرأة والرجـــل يعطي الحب ويأخذه ، وتتفجر طاقاته الانسانية المبدعة عندما تلامس شفاه الحب حياته فتحيل رمادهـــا الى تراب احمر تتحرك في احشائه قوة الحياة .

الحب قوة الهية تخترق الانسان الى الانسان والى الاشياء فتصنع حياة الانسان ، تصنع الطفل ، وترسم لوحة جديدة ملونة بالوان قوس قزح للطبيعة وللوجود . ان حياة الانسان بلا حب موت بطيء للانسان . وان حياة التراب الاحمر دون حب النبات لهـــذا التراب الاحمر هو ايضا موت للطبيعـــة .

الحب .. انني أحب تسلطه علينا ، واكره ان نموت الا تحت ســـياطه وقبلاته . فأنا اؤمن بان في الحب الحياة وفي الحب الفناء . وحبة القمـــح السمينة لا تملك علينا ما يملكه الحب . قد نأكل حبة البطـــاطا ان اكلت الدجاجة حبة القمح لتقدم لنا بكـــل حب واخلاص ذرية لا تنقطع من اسرة الدجاج . ولكن ماذا نأكل لو التهمت الصدفة السيئة عواطفنا ، وابتلـــع المستحيل رغباتنا ، ماذا نأكل ؟ والطعام في ايدينا احيانا وفي داخلنا محرم علينا ، لا نستطيع ان نقول كلمتنا ولا نملك حتى ان نسمع كلمة الآخرين .

ماذا نأكل .. ولماذا يلعب الحب لعبة التناقض المريرة ، ولماذا ينتشر هذا التوزيع غير العادل بين القلوب ؟؟

اسئلة لن نجد وراءها اكثر من دموع انثوية صامتة يبتلعها القطن الطري تحت الرؤوس الجميلة في الظلام ، وحلقات من الدخان تسافر معها الى المجهول انفاس الخيبة وتنهدات الصدور المجروحة ، ويتناثر فيها رماد الاعصاب المحترقة .

رجال ونساء .. المائدة امامنا وكتب علينا في « اللوح المحفوظ » أن



الفنان يوسف أيوبي — دمشق



لا نأكل الا باذن . لسنا في حالة شلل او جبن او ضعف ارادة او قصور عاطفة ، ابدا ، بل نحن امام الواقع الذي يحمل في احشائه ضرورة التناقض. لك قلب وممنوع ان تحب . انت تحب هذه الانسانة ولكنها تحب انسانا غيرك قد يكون هو بدوره متيما بحب انسانة لا تدري بعذاب قلبه . والله يعلم ما يجري في قلب من تحبك .

ما رسمته لنا حياتنا هو غير ما نريده ونتمناه ، فارادة الحياة اقوى واكثر أهمية .

وافكر احيانا ، لو التقى المحبون كلهم على الارض ، في ارض واحدة ، لمالت الكرة الارضية ورمت الى الفضاء بثقلها الانساني الحقيقي المشبع بالحب والخير والجمال والحقيقة ، لان الحياة كما ارى تأخذ توازنها من التناقض ما دمنا نعيش هنا على سطح الكرة الانسانية .

قال لها يوما :

ـ في كل يوم اكتشف في قلبك حبا جديدا ، اليوم تحبين « الصوص الاصفر » وأمس قلت لنا : احب قطتي الرمادية الصغيرة التي لا تتعب من اللعب ، وقبل ايام اذكر كلماتك : « اشعر بان قلبي يرف لارتعاشة ورق نباتات حوض النافذة » وغيوم الشتاء الداكن تفتح ينابيع نفسك وتلهب عواطفك وتنشط ذهنك تماما كما يحس الناس في غوطة دمشق في الربيع ، ودقات حبات المطر على نافذتك في ليلة مطيرة تسرق النوم من عينيك ، وابتسامة طفل في حضن امه تركب الى جانبك في باص ، تنعكس على وجهك وتستدعي ابتسامتك ، والرجل المجهول الذي تحلمين به ، تزرع صورته « المجهولة » في عينيك وضحكتك وحروفك المنغمة ، الامل الفضي ، ويمنحك قوة اللامبالاة بقلوب المحبين المعذبين بصمت ، والاصدقاء الحقيقيون لهم في قلبك زوايا مضيئة حية تشع منها حرارة الصداقة . ما هذا كله .. انا لا أفهم .. اي قلب قلبك ..؟؟

ردت :

ـ انا أحب الآخرين لانني ارى فيهم نفسي ، وما أتوق ان تكون عليه نفسي المقبلة .

انا أختصر الزمن واقفز الى الكمال عن طريق الحب الموجود في نفسي قبل ان اوجد .

انا انسانة انانية احمل السلة في يدي والملم صورتي من الناس ومن الطبيعة ومن الحوادث ومن الاشياء . انا نرجسية ، تماما كما تقول انت عني . في كل يوم انظر الى « البحرة » العربية الصغيرة في صحن بيتنا

العربي ، وابتسم ، ثم ابتعد . واحاول في اليوم التالي ان اكتشف اكثر مما اكتشف نرسيس في صورته ، احاول البحث عن حقائق جديدة في صورتي هي نفسها الحقـــائق الجميلة التي اختطفها كالشوحـــة من الآخرين الذين احبهم .

الآخرون هم جنتي ، وليسوا الجحيم .

الآخرون معي اينما كنت ، والاشياء في كياني مهما تحركت . انـــا كالاسفنجة البحرية ، امتص العالم واعيد اليه نفسه عندما يعتصرني .

هل تصدق بانني أحس احساس نرسيس بشكل مغاير . نرسيس انسان ساذج احب نفسه فمات ، ثم تحول الى زهرة نرجس . اما انـــا فأحب في صورتي ميزات الآخرين التي امتصتها بشرتي مع الزمن . ولذا فأنا لن أنتحر لانني لا احب للآخرين ان يموتوا .

أنظر الـــى صورتي ، عفوا ، انظر اليهم وأقفز الى المـــاء من شدة اعجابي ، واسبح ، شعوري هو شعور زهرة لوتس ذكية تطفو على سطح الماء وترفض ان تموت بغباء قبل ان تشبع من الحياة ، فتركب ظهر موجـــة جديدة تتدفق الى شاطيء النبع ، لتعيد رسم نفسها الجديدة من الارض وتعود لترى صورتها في النبع الاكثر تكاملا وجمالا .

لن أقنع ولن أتوقف ، وسأحب عطـــاء الحياة لي ، فالحب يغـــذي تـــكاملي .

ولكن ماذا نأكل لو التهمت الصدفة السيئة عواطفنا وامتص المستحيل رحيق مشاعرنا ، وابتلع الخوف من الغد المجهول آمالنـــا بحب اكثر نموا واكثر امتدادا في اسرة الانسان .

أعود فأقول : فلتأكل الدجاجة رغيفي الاسمر ، ولكنني لن اسمح لاحد بحرماني من طعامي كأنسانة ، ولن أتأخر عن تقديم قلبي للانســـان وللطبيعة وللكائنات الحية وللاشياء . لرجلي ، للجبـــل والنهر والسماء والارض والبنفسجة والياسمينة والقطة والفراشة والطفل والاصـــدقاء والصديقات ، للضيعة وللمدينة ، لن اتأخر ابدا عن تقديم قلبي على طبق من ذهب للناس الطيبين كلهم وللاشياء الجميلة كلها .

فليأكلوا قلبي لانه من طعام الحياة .

وقـــال :

— اسمعي .. اريد ان اعرف ، من انا ، وماذا اشـــكل في صورتك الحالية .

ـ انت .. أنت في يد لعبة التناقض المريرة .

ـ ضائع تعنين .. تائه في دوامة اللعبة !؟

ـ بل في الجانب الذي يمنح الحيـــاة التوازن ويمنحني اللهفة نحو أناي المقبلة . في الجانب الذي انظر فيه الى مرآة النبع وابتسم لصورتي .

ـ انت نرجسية .. لا تحبين احدا .

ـ نعم .. انا نرجسية ، لانني احب صورة الانسان وصورة الوجود فيملامحي ووجودي .

ـ اتحبينني ...؟
ـ انت صديق ... عزيز كالصديقة ...

ـ وقلبك ؟

ـ لرجلي ..

ـ من هو . .أريد ان اعرفه ..! ان أرى صورته ..!

ـ انظر الى ملامحي .

ـ ارجوك .. لا تقفي معه في نقطة واحدة لحظة طويلة لانني واثق من أن الارض ستميل .. قولي لرجلك .. قولي له في يوم من الايام ، انه كان سببا في وقوع واحد من الناس في يد لعبة التناقض المريرة .

● ● ●

مع السلامة أيها الأمير

دمعة تنحدر الى اعماقي اثر دمعة .

فجأة أحسست بأهمية وجوده بيننا .. ولاول مرة اشعر بالحسد والغبطة بالالم والرضى بالمشرق والمغرب معا. الم يعتصر قلبي وقلب المشرق لرحيله ، وفرح يطير بقلبي وبقلب المغرب لقدومه .. فأنا في مطار دمشق ومطار الجزائر .. في نقطة الوداع وفي نقطة الاستقبال .

لا تأخذوه ... انه لنا ..!!

بل خذوه ... انه لكم ..!!

لهم او لنا ... لست أدري ..!!

ولكنني خلال الاحتفالات الكبيرة هنا وهناك ، ورغم لحظة تعانق العلمين العربيين الجزائري والسوري على جثمان البطل العربي العظيم.. ما زلت عاجزة عن تفسير معنى الدموع الخفية المرتجفة المتوارية خلف تاريخية الحدث .

ويظل قلبي الصغير اصغر من مستوى الحدث ، يظل انانيا وفرديا ، ولا استطيع ان اتظاهر او انكر انني ما تألمت كثيرا لدمشق تخسر ربحا سجله التاريخ باسمها منذ ثمانين سنة . انني افكر بطريقة ساذجة في حالات الانفعال . « فأنا » نصف سورية نصف جزائرية . ابي من الشام وامي من الجزائر .. ابي من المشرق وامي من المغرب .. ارضي هنا وارضي هناك .. فالى ايهما انتمي ..! هل الحق اخوالي او اتبع اعمامي!! او أظل سؤالا يتأرجح بين نقطتين عربيتين ، سؤالا وضعته ثورة ثائر ورحلة



الفنان عزيز اسماعيل ــ انطاكية

ثائر من المغرب الى المشرق ..!!؟ ام ان السؤال قد استرد جوابه الآن بعد ان غدت النقطتان المشرقية والمغربية نقطة واحدة ، واصبحت كل من الجزائرية والسورية « في » عربية !!؟ ام انني كنت في الاصل « واحدة » ثم تبعثرت اكثر من واحدة ، ثم عدت الآن « واحدة » ..!!؟

ترى هل لي ان افرح .. وهل زالت التفاصيل الصغيرة في التاريخ العربي لنصل الى مرحلة عالية من التجريد العربي ان جاز التعبير ..!؟

لقد منحني الحدث الكبير الجراة على التساؤل .. ونجح اللقاء العربي الجزائري السوري في وضعنا امام فكرة « العربي » المجرد مجسدا في اسم الامير الثائر عبد القادر الجزائري .

اتى الامير من الجزائر الى الشام على متون الامواج .

وعاد الامير من الشام الى الجزائر على متون الرياح .

اتى بجسده وعقله وقلبه ، وان ظل عقله وقلبه يهفوان الى ساحات امجاده وثوراته ، ويرنوان الى السهول والجبال التي شهدت صولاته على الدخيل الغاصب وجولاته .

وعلى الاثير .. عاد الثائرون المنتصرون برفاته . ولا اشك ابدا بان كل عاصمة عربية رفعت قلبها وعقلها تتطلع الى الطائرة التي حملت رفاته، لهفة وشوقا واملا في ان تكون هي صاحبة الحظ الكبير باحتضانها .

لمن البطل ..!؟

لدمشق .. للجزائر .. للقاهرة .. لبغداد .. لصنعاء .. لحيفا .. لبيروت .. لعمان .. لمكة المكرمة .. لتونس .. للخرطوم .. للدار البيضاء .. لطرابلس .. للكويت .. لمن ..! لمن ..!؟

وامسح دمعة .. وتطفر دمعة .. ويأخذني شعور ويعيدني عقل .

اهل الشام .. والمغاربة .. في الشام .. كالذي يبكي في « عرس » يبكي ولا يدري لماذا يبكي في مناسبة سعيدة!!والمصلون في الجامع الاموي.. يطلبون الرحمة للامير .

لقد رحل الامير .. واهتز قبر الشيخ محيي الدين بن عربي مودعـا البطل . واهتزت قبور الاجداد من المغاربة الثوار الذين رافقوا الامير في رحلته الى بلاد الشام .

ويسير احفادهم الآن رافعي الرؤوس لقد ثأروا للبطل من فرنسـا وعادت الجزائر حرة ..

وسينام ابن الجزائر الثائر الاول في الجزائر الحرة .

وأسأل امي الحبيبة وتقول :

— يا بنتي .. لا اذكر .. وكل ما أعرفه عن تاريخ رحيل اسرتي والاسر الجزائرية الاخرى مع الامير الى الشام هو ما قالته لي امي ..

— ما الذي قالته « ستي » يا امي ..؟

— قالت ان « ستي » ام امي قد ولدتها امها على ظهر الباخرة التي حملت « المغاربة » الى الشام التي اختارها الامير . واستوطن المغاربة حي « السويقة » وحي « الميدان » في مدينة دمشق .

— هل تتمنين يا امي العودة الى الجزائر الآن ؟

— يا ابنتي .. أنا أحب الجزائر وافرح بحريتها ويقولون انهـا من أجمل بلاد الدنيا ولكنني احب الشام كثيرا ، عشت فيها واريد ان اموت فيها الى جانب امي وابي .

يا ابنتي .. في عروقي دم جزائري ولكن جذوري في ارض الشـام امتدت ومن فرات « بردى » نهلت وارتوت ، واصبح من الصعب اقتلاعها .

— ايهما أحب اليك يا امي .. الجزائر أم الشام ..؟

— كأنك تسألين اي اولادك أحب الى قلبك ؟ الجواب مستحيل .

— لماذا لم تخرجي لوداع الامير يا امي ..؟

ـ لا استطيع .. فأنا ابكي بصمت . لماذا سمحت سورية بنقل رفاته ؟ لقد تجاوزت سورية وصيته بدفنه في الشام ولم يسأله احد رأيه .

ـ يا امي الرجل رمز لقضية امته .. والامير عبد القادر الجزائري رمز للقضية العربية وللوحدة العربية والامور لا تناقش بمثل هذا المنطق ، والانسان العظيم ملك لامته ...

ـ لا فائدة من اقناعي يا ابنتي .. فأنا ابكي . .ولا املك الا كلمة واحدة اقولها له :

مع السلامة يا امير .

• • •

زهـــرة الليلك

زهرة الليلك .. تعلو الآن مـــــع الموجة وتهبط ، تطفو وتغـــوص بين عقله وقلبه ، تحاول ان تركن الى مصير في البحر ، بحر اللاذقية او بحر نفسه لا فرق بين البحرين .

ترى هل سيكون هذا الشتاء الغني بالمفاجآت صادقا بعطائه ؟! وبدأت يده تمتد شيئا فشيئا الى الزهرة ، ورجفة الشك في عروقـــه تتبعها هزة اليقين تنوس بكيانه بين نعم ولا ، بين حقيقة ووهم ، بين جد ولعب ، بـــين زهرة طبيعية وزهرة اصطناعية ، بين زهرة ولا زهرة .

ترى هل يعقل ان تكون زهرة الليلك هذه زهرة طبيعية رغم هـــــذا الشتاء ..!! وهل يزهر الليلك في غير الصيف ..!! ام انها زهرة اصطناعية تغريه على البعد فاذا ما اقترب نفرت منها العين وارتدت عنها النفس !!

انه لا يحب الزهور الاصطناعية ابدا ابدا ، لقد مر من سوق الحميدية اكثر من مرة ورأى بعينيه العربات الخشبية الصغيرة يجرها انسان فقـــير وقد تكدست فوقها بلا ذوق ولا ترتيب انواع الازهـــار الاصطناعية كلها . قلدوا البنفسج والليلك والورد والفل والياسمين والقرنفـــل وورق الهوا وورق الليمون ، ولكنهم بهذه الطريقة الساذجة اكدوا وجود الاله .

لا .. لا يمكن ان تكون زهرته المفضلة زهرة اصطناعية ، انهـــا طبيعية رغم زخات المطر الخفيفة على ساحل البحر .. ورغم الثلوج التي تغطي رأس « الاقرع » .

زهرة الليلك يكاد يشم من رائحتها رائحة حبيبته ، ومن لون ورقهـــا



الفنان مروان شاهين ـ حمص

الليلكي النادر يكاد ينطق خفر حبيبته ، حتى شعور حبيبته هو في احساسه شعور ليلكي .

وراح يحلم .. والموجات العارمة في البحر تتحول الى صور انسانية متحركة . ليته يغرق ويختنق وحبيبته في بحر بلون الليلك ويصبح الموت شهيا ليلكيا .

يقولون فلانة دمها ازرق ..!! ولو علموا بان دم حبيبته بلون الليلك لانتحر عند شريانها كل نبيلات التاريخ .

ترك الحبيبة والعيد في دمشق وانطلق الى البحر في اللاذقية. وازدادت دهشته ، مرة جديدة يواجه ما كان يهرب منه ، وبدأ يرى البحر واحراش الفرلق وجبال كسب ووادي البسيط بلون شعور الحبيبة الغالية في دمشق.

ضحك اصدقاؤه :

ـ هل سمعت بعمى الالوان !! يا اخينا البحر ازرق .. والغابة خضراء .. والارض ترابية رملية والله رملية ، والافق يمتص احمراره من الشمس الراحلة ..!!

وظلت زهرة الليلك تصعد وتهبط مع الموجة . وضحك الاصدقاء :

ـ يا اخينا .. سمكة .. والله سمكة .. وبما ان السمكة ليست زهرة ، وبما ان السمكة ليست ليلكية ، وبما ان الازهار لا تسبح كالاسماك وليس لها زعانف ، وللادلة المنطقية والاثباتات المادية المذكورة اعلاه..فانت مصاب بقصر النظر !!

وظلت زهرة الليلك تتأرجح ، تلوح له بحياء من بعيد .. تظهر وتختفي كجنية البحر ، فقرر ان يمشي اليها ولو تحولت اليابسة الى بحر يبتلع كل من يتحداه بقدمين مغرورتين .واقسم ان تكون زهرة الليلك في هذا الشتاء القاسي له وحده دون الآخرين .

هذا يراها سمكة وآخر يظنها زجاجة فارغة طافية ، وثالث لا يراها ابدا ، ورابع يعتقد انها وردة برية حمراء افريقية شرسة متوحشة تبتلع كل من يقترب منها . اما هو فعلى يقين من انها زهرة الليلك الطبيعية التي زرعتها يد طيبة فنانة في يوم من الايام في حوض من احواض بيت شامي عتيق،

كثيرا ما كانت تلعب باوراقه الخضر الصغيرة قطة حلوة لعوب هي تــارة قطة وتارة نمرة .

وكبرت النبتة مع الايام وغدت شجرة الليلك عروس البيت تظللــه وتعطره بالطيب والبهجة .

اخذت شجرة الليلك من بردى عذوبته ومن المــاضي عطره الدسم الآسر كالعنبر ، واخذت عن القطة لين انسيابها ومن النمرة فيها شراستها وحذرها وشوكهــا وسطوتها على النفس ، واخذت من خــدود الجدات « الشابات » الحياء الليلكي .

يذكر الآن ... عندما كان يمر امام بيت الحبيبة وهي طفلة صغيرة .. وينظر دون ان يرفع راسه الى جدار بيتها العالي ، يذكر ان ابتسامته كانت أقوى من وقاره وقوة ارادته، وانه كان يتنهد فتهرع اليه رائحة زهرة شجرة الليلك في بيتهم ، تأبى الا ان تنام في صدره بين ذرات رئتيه وفي سويداء قلبه

قصة قديمة قديمة .. عتيقة عتيقة .. تعيش في العيون وفيما وراء العيون وبين الصدور ، شاء لها القدر ان تنفجر الآن وبعد عشرين ســنة وتعلن نهاية الصمت شلالا هادرا من الحب المتكامل .

وعهد أخذه على نفسه على شاطيء البحر ، ان تكون حبيبته له في هذا الصيف ، ولن ينتظر رأيها فهو لم يتعود ان يطلب الاشياء ، التي يحبها ، انه يأخذها مرة واحدة والى الابد .

وسوف يعد لحبيبته مفاجأة عندما يزهر الليلك في الصيف القادم .

ولم يبق بــين زهرة الوهم الشتوية وزهرة الحقيقة الصيفيــة الا ربيع واحد .

وسأله أحد الاصدقاء بفضول بدأ يتحول الى اهتمام :

— قل .. من هي .. ما اسمها ..!؟

ولم يجب .. كانوا في طريق العودة الى دمشق . ومن وراء راديــو السيارة اجاب عنه صوت فيروز :

لا تسألوني مـــا اسمه حبيبي اخشى عليـكم ضوعة الطيوب
والله لـو بحت بـــأي حرف تكـدس الليلك في الـــدروب

اما هي .. فكانت في دمشق تنتظر عودته ، شاردة تائهة .. انتهى عندها الكلام وانتشر في روحها الصمت الكبير .

التمت حولها ثلاث صديقات ذكيات .. صمتها يفرض عليهن الصمت . توارى السؤال خلف الشفاه . واشتعل في العيون . من هو .؟ من هو .؟ من هو ...؟؟!!!

وفتحت احداهن اوراق الصديقة الغالية الصـامتة لتقرأ الجواب . فقرات كلمات كبيرة ترمز الى حادث كبير قد وقع في قلب صاحبة الاوراق الليلكية . كتبت عنـه وعن نفسها وكأنها تكتب عن رجل وامرأة قصـة حيادية :

عينان تبحثان عن المصير الانساني بعذاب دونه عذاب الضمير . هو في هم دائم . كان يضع امامه اهدافا صغيرة ليبرر وجوده ويقاتل في سبيلها، وعندما يمسكها تفقد معناها ويكتشف عجزها عن منحه الخلاص .

وتتأرجح الحياة امامه من جديد تأرجح صبية لاهيـة بقلب حبيبها ، تدفع الارض بقدمها وتطلب القمة ، تنشد في عينيه تفسيرا جديدا ، تتماوج اصداء ضحكتها في اعماقه تماوج الحلقات المائية في بحيرة راكدة بعد وقوع حصاة ملونة فيها .

ويمسك السيجارة ورجفة القلق في انامله تداعبها ، وجمر الحـيرة يلاحقها حتى شفتيه .

الحياة تناديه .. تلح بالسؤال .. بماذا يجيب ..؟

لا بد من انتصارات جديدة في قلوب الآخرين ونفوسهم وعقولهم لا بد .

ولكن الانتصار الجديد يكلف ثمنا غاليا ، لانه اعترافها به ، وحدها دون النساء جميعا . لو رأى فقط في عينيها ، الباحث عنهما باستمرار ، ما يتمنى ان يراه !!

هو يعتقد انها لا ترى الرجل الآخر فيه . هو في جهل مطبق لا يدرك

معه انها تفتعل اهمالها لتتأكد من اهتمامه ، تفتعل المعركة لتراه في الساحة على حقيقته . ترى ماذا يكمن وراء هاتين العينين السحيقتين . . !! الغضب الهادىء هو مفتاح الرجل في رأيها . تثير غضبه وتنتظر . ولا يزال بصورة لاشعورية يحارب الطواحين الهوائية ويلوح لها بسيفه في كل مناسبة ولو كان هذا السيف نكتة لاذعة .

يريد ان يرى قوته على وجهها المنهار . وتقف في كل مرة وقفة اطول من سابقتها وتلتفت اليه دون ان تدير رأسها الصغير الذي يفلسف الامور بطريقة لينة عذبة ، وتتساءل بابتسامة خفية منتصرة :

ــ من يحارب هذا الرجل . . ؟

ان محاولاته العديدة اللامرئية التي تنوي زرع نفسه التي يحبها ، في عيني ، تشير باصبع الاتهام الى رغبته الجامحة في اختطاف هذه « الــلا » التي تفور من اعماقي كفورة بركان ثائر . في كل حركــة من حركاته أرى نزوعه الي،المس تمرده على قوتي ، انه يرفض السيف في يد المرأة ويؤيده . يحبها قوية ويحبها ضعيفة ، لا اقوى منه ولا أضعف . يريد ان يصعد اليها ويهبط في ثانية واحدة . امنيته الوحيدة ، الآن ، المبارزة مع هذا السيف الناعم الحاد بالذات ، ربما كان في هذه المعركة خلاص روحه مما فيها وسر المصير الانساني .

لقد تعلم ، كمــا قال لهــا مرة ، أن يتحدث الى المــرأة من عل . فقالت له :

ــ تذكر بان المرأة هي التي تمنح الرجل هذا الشعور . . وهو ايضا على درجات .

فقال لها :

ــ انت فتاة متعالية متمردة . . .

ــ سأرفع هدبي اليك عندما اقتنع بك لا عندما تلوح لي بالسوط . فضعفي يا صديقي هو قناعتي بعنف الحقيقة الانسانية فيك .

فقد انتهى بنظري عصر العضلات . سأحبك قويا من خلال العقــل وارجو ان تحبني جميلة من خلال العقل » .

اما هي فلا تزال صامتة شاردة ، هو في اللاذقية وهي في دمشق .

وتوقفت الاسئلة في افواه الصديقات ، ان الصديقة الغالية الطيبة في حالة حب كبير حقيقي ونهائي انها تحب رجلا قويا لا شك .

لقد بدأت تفكر فهي اذن تحب .

• • •

من لماذا متى أين كيف؟!

قالت : اشعر بانني اغلي ..

قال : لا يبدو عليك اكثر من درجة الصفر .

قالت : الصمت لا يعني الموت .. وقطعة الجليد لا يمكن ان تكون صخرة .

قال : ...

قالت : اريد ان اقول واكتب واتحرر من افكار كثيرة تنطحني قرونها الصغيرة الحادة من الداخل بلا رحمة ..

قال : قولي .. من الذي يمنعك ..!!

قالت : انظر معي الى هذه اللوحة ..!! هل تصدق بان لوحة « الغابة الحديقة » لتوفيق طارق هي احد هذه القرون التي تثير في شعور الغليان ، وتدفع الى التنور في اعماقي حطبة جديدة جافة سريعة الاشتعال ..!!

قال : اصدق .

قالت : من أنت ..؟

قال : ....

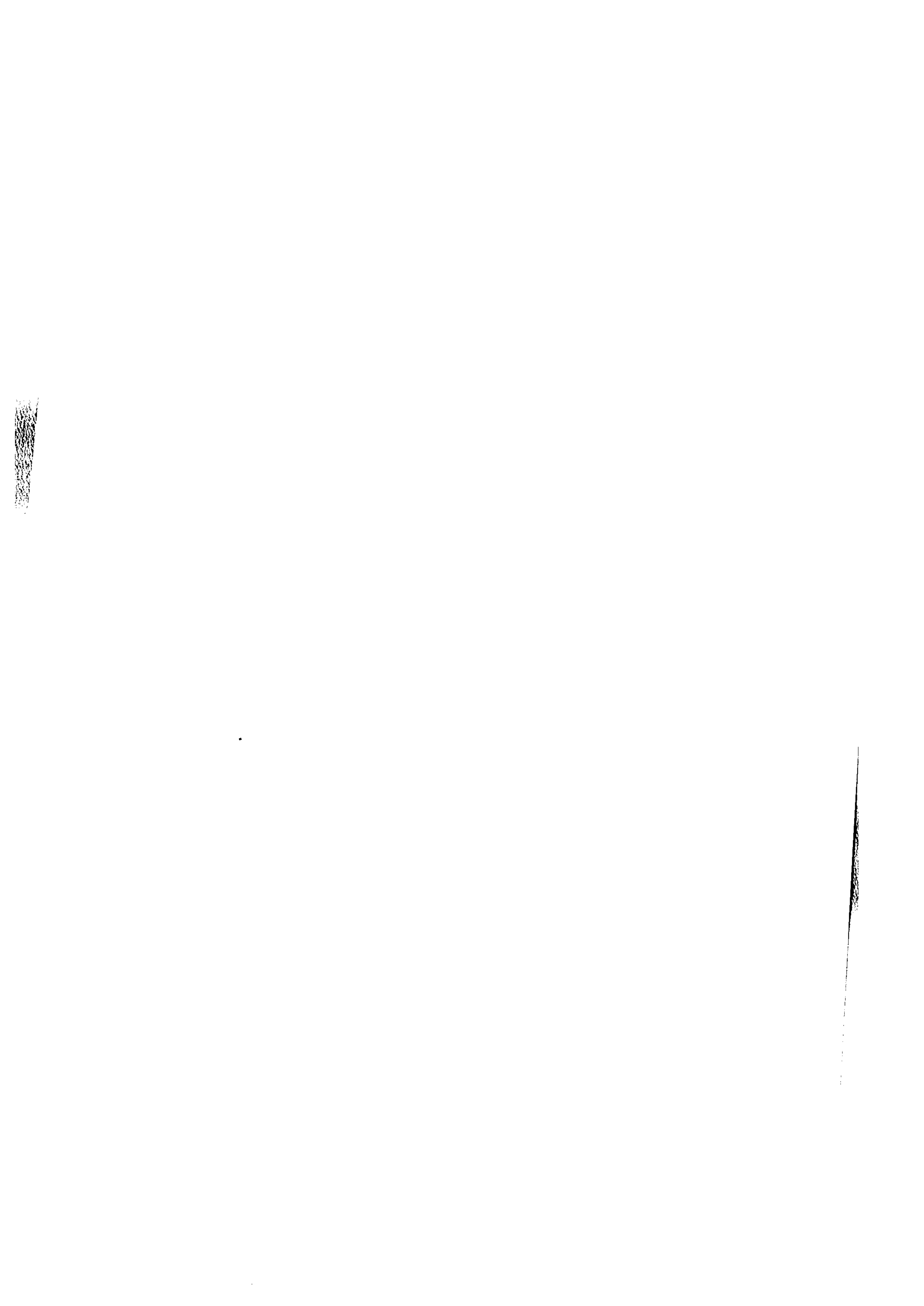
قالت : لماذا احب رجلا لم اعرفه كله بعد .!؟ ولماذا قدر لي ان يكتسحني انسان عجوز عمره بعمر دمشق ..!؟

قال : ....

قالت : متى تنطفيء هذه النار المشتعلة في النور ..!؟



الفنان توفيق طارق — دمشق



قال : ...

قالت : أين مكاني الحقيقي في مراعيك الملأى بالقطيع ايها الراعي!؟؟

قال : ...

قالت : كيف الخلاص بعد ان وصلت الى هذه النتيجة ..!؟

قال : اية نتيجة ..!؟

قالت : اخيرا انت تسأل .

قال : ولماذا لا اسأل ..!؟

قالت : سؤال آخر .. عظيم .. نصر جديد لي ..

قال : ومتى كان السؤال نصرا للطرف المسؤول ..!؟

قالت : عندما أكون انا انا .. وانت أنت .

قال : ....

قالت : عندما تكون المرأة انا .. والرجل المقابل انت .

قال : ايضا .. لم افهم .. تعرفين ان عدم الفهم من طبعي ..!

قالت : واحدة من نكاتك التي أحبها ..

قال : لا تهربي من الموضوع .

قالت : كنت اسأل .. اسألك .. وانت صامت صمت اوراق الخريف في لوحة توفيق طارق . قد يطير الهواء من جانبها .. ولكنها لن تتحرك .. ولن نسمع لها حفيفا يدغدغ روحنا ويريح قلق السؤال الملح في اعصابنا ، لانها لوحة ، وفي صمت اللوحة قوة تفتقد اليها طبيعـــة الخريف المتحركة .. الطبيعـــة الطائشة الباحثة التي تطرح اكثر من سؤال وترمي خلفـــه اكثر من اشارة استفهام . وانت ايها الانسان الحبيب تحمل قوة اللوحـــة .. وأنا أحمل ضعف الطبيعة . أنت تحاكي نصر الالوان عند توفيق طارق كطاووس مزهو متزن .. وانا امثل خسارة الاوراق اليابسة الطائرة في خريف غابة الفرلق تطير كفراشات مذعورة ليس لها انيس يحميها من ريح عاتية قد تحملها عبر الوادي الى البحر .

قال : ...

قالت : اصمت .. فصمتك قوة تؤكد ضعفي امامك .. ولتطقطق الاخشاب في تنوري . اسكت .. ففي سكوتك عن سؤالي نصر يؤكده ذل السؤال بلا جواب .. وخضوع الجدائل للشوارب .

من .. لماذا .. متى .. أين .. كيف ..!؟ كلمات جائفة .. حطبات ناشفة كأعواد الكبريت تزيد من درجة الاشتعال في كياني ، وتبقى الغابة في ضميرك مظللة باردة صامتة كحديقة توفيق طارق الانيقة الهادئة ، لا يجرحها نقيق ضفدع ، ربما يحمل معه ظل سؤال اخضر في خريف احمر وليل اسود ..

قال : احبك .. أعبد الارض التي تمشين عليها ..

قالت : الحب يا حبيبي في قلبي غابة تحترق .. اما الحب في قلبك فهو ورقة خريفية حمراء واحدة ساكنة ملتصقة في لوحة الغابة الحديقة ، كلمة لا تنمو .. وقوة كامنة لا تتحرك . وعندما تطير أوراق الخريف من لوحة توفيق طارق لتحط على راسي وكتفي وحضني ، فسوف اتوقف عن طرح السؤال على نفسي وعليك واوقن انك تحبني حتى العبادة .. وانني شهرزاد التي لن تسوقها الى الذبح عندما يدركك الصباح .

قال : اسأليني اجبك .. مري فأطيع .. اطلبي لبن العصفور فأحمله ..!!

قالت : تأخرت .. ولا أفهم لماذا يفهمنا الرجل متأخرا .. لقد جاء دوري .. لن أسألك ولن اطلب .. وان سألتني فلن اجب وان طلبت فلن اعطيك ، لانك عاملتني كالاخريات ولم تميزني . لقد تحولت العبدة الى سيدة ، كما تحول سؤالي الى جواب صامت ولهفتي الى احتراق ساكن . لقد خسرت في نفسي فرحا بك لا أظنه سيعود بسهولة ولو زرعت الارض تحت قدمي لؤلؤا وزمردا وياقوتا وعقيقا وماسا .
لن يعود ولو عطرت أجوائي أغنيات فيروزية ..

قال : لم هذا الغضب كله .. وماذا فعلت ..؟؟

قالت : ومتى كانت القوة الهادئة غضبا ..! انتبه جيدا للعبدة التي

بين يديك ولا تلعب .. لا تعاملها كبقية الجواري والامـــاء والعبيد ففي عروقها دماء سيدة حرة اصيلة .. وفي طبعها طبع فرس عربية تعرف جيدا متـــى يجب ان ترمي بفارسها ارضـــا ..

قال : متى ..؟؟

قالت : ....

قال : حبيبتي . . انت لي .. اليس كذلك ..؟؟

قالت : ....

قال : سيدتي ....

قالت : ....

• • •

اللوحة المعلقة

قالت ودمع العين يسبقها :

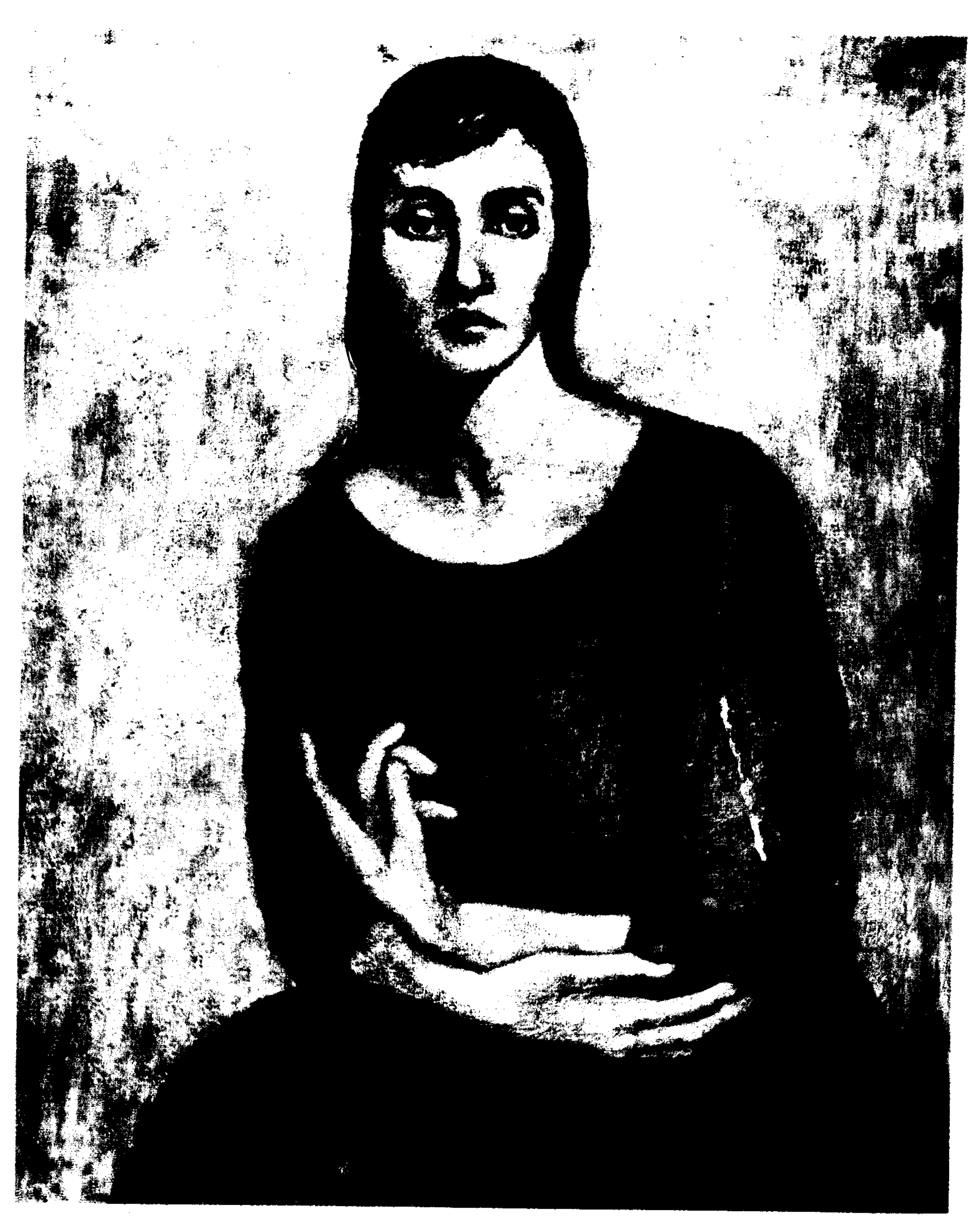
الايام.. تمر.. تمر .. وانا معلقة في مكاني . يوم يبتسم لي ابتسامة مهرج السيرك ويمضي ، ويوم يمسح على شعري بيده الحنون كانني طفلته النائمة ، ويوم يمسك خاصرتيه من شدة الضحك ثم يضرب ساقه بيده بحركة ظاهرة ثم يمضي تاركا لي صدى ضحكته الفاجرة ، ورابع .. يقف عندي ، يصمت ، انظر اليه فيفهمني بعمق ، ترفرف رموشه المبتلة بدمعة ذكية القلب والعقل ، ويغمض عينيه المخضلتين على صورتي الاخيرة ، ويحمل امتعته الثقيلة ويرحل قبل ان يرتفع بكاؤه الصامت الى مرحلة الشهيق ، فالايام الغبية التي سبقته قد تركت في اللوحة المعلقة ، التي هي انا، خطوطا عميقة الاثر اخترقت البشرة الصبية الى الشعور الفتي ، خطوطا انسانية بكل ما في الانسانية من تناقض يفضي الى الكمال ، التجربة ، الشيخوخة ، خطوطا لا ينفع معها اي ترميم او طلاء .

ويمر اليوم الخامس طيبا ذكيا ليلمس برفق وحب وتوق وتعاطف وجه اللوحة ، يريد ان يلتصق بها التصاقا كاملا ونهائيا ، ولكن يدا قوية تدفعه وتدفعه لتحتل مكانه برغبة خفية مصرة .. انها يد اليوم السادس ..

اما اليوم السابع .. فانه يمر امام اللوحة ، يقف عندها .. ثم ..!!؟

الايام تمضي ، واللوحة معلقة ، والايام لا تكتفي بالنظر في زيارتها لمعرض الحياة ، ولا بد ان تتجاهل لافتة « ممنوع اللمس » .. ولا بد ان تلمس الصورة الاصلية بغفلة عن عين « الفنان » الواقف غير بعيد يشرح ، بلا كلام ، لعدد من الايام الزائرة ، لوحةمن لوحاته الصعبة .

كل يوم ينافس ما قبله ويحاول الابداع والظهور على حسابي انا ..!! وانا .. انا مكبلة باطار مذهب الحواشي دق الى اطرافي بعناية حتى لا يسرقني لصوص القطع الفنية النادرة .



الفنان لؤي كيالي ـ حلب

أصابع من رمال

عندما نحاول ان نتمسك « بانسان » اليوم، فاننا سنقع حتما في شبكة الوهم .. كأسد مخدوع في غابة الحياة المتوحشة تتسلق جذوع اشجارها نباتات القلق .. وتنبت في ارضها الموحلة طحالب المادة العارية من غلالات الروح .

ضاعت الحقيقة .. وضاع الانسان الذي نحبه في ظلمات هذه الغابة الكثيفة .. ضاع منا .. وضـــاع من نفسه .. ولم نعد ندري اين تقف اقدامنا .. على صخرة .. ام على كهف تغطيه قشرة مضللة ..!؟

عندما نمسك بيد من نحب نشعر شعورا صـــادقا باننا نمســـك بيد الوهم .. باصابع من رمال .

هل هذه اليد لنا ..؟! لا . .ليست لنا .. وليست لاحد . يجب ان نعترف بشجاعة باننا فقدنا في هذا العصر حقنـــا في ان نملك ، حتى قلب الانسان الذي نحبه ويحبنا .

قد يحبنا اليوم ولا نملك حق الغد معه ، ونومنا العميق على مخـــدة الاستسلام للغد ما هو الا خدعة الحاضر وخدر اللحظة السعيدة ، وسراب « الآن » المشع بالابتسامات .

الغد في قلب من نحبه ، ملك الحياة ، حياة اللحظة ، لا بيدنا ولا بيد صاحب القلب .

وتمد اللحظة لنا لسانها عبر نافذة قطار العمر ، ولا نملك ، ادبا منـــا او تظاهرا بالادب ، ان نرد التحدي بمثله ، لسرعة القطار . ويبكي الغـــد المقهور في مآقينا . وتنحدر الدموع الى آبار الماضي المحفورة في اعماقنا ، ونحمد الله على انها تمتليء بالدموع المالحة ، لا بالبترول ، ماء الحاضر ، كي

الايام تمر .. في يد كل يوم فرشاة وسطل الوان . ومرة انا تعيسة تحت وطأة فرشاة « يوم » دهان ، ومرة انا محظوظة مغمورة بالوان ريشة « يوم » فنان ، والنتيجة كما ترين ، ليست من صنعي ، انها من صنع الايام على ورقة دقت الى جدار الزمن بمسامير لن تسقط الا معنهاية الزمن المحدد لها على جدار الحياة . وقد يضعوني بعد الموت في تابوت او في متحف .. من يدري ؟؟

وتظل الايام تمر من بعدي كما مرت من قبلي وكما مرت فوقي .

قلت لها :

ــ ولم الدمع !!؟ كلنا لوحات .. وفي كل لوحة وديان ومرتفعات ، فلماذا لا ترسمين على شفتيك ابتســـامة الجوكندا ، ابتســـامة الرضى والسخرية !! ابتسامة تتحرك بيننقطتين .. اليأس والامل .. اليأس من اليوم السابع والامل فيه !؟

• • •



الفنان أدهم اسماعيل ــ انطاكية

لا تتعرض لشرارات العاطفة المتولدة بين جوانحنا ، فينفجر كل شيء وننتهي الى حفرة العدم .

نشد على اصابع من نحب بقوة .. ونشعر شعورا خفيا بتسرب الرمال الى الاسفل وبهروب حلقات الدخان الى الاعلى ونضيع في دوامة من يريد ان يعرف هل هو امام انسان من لحم ودم وروح ، ام انه مع تمثال من رمال ودخان وزئبق !؟

ونتساءل : كيف السبيل لمعرفة الحقيقة الكامنة تحت بشرة هذه اليد الحبيبة !!؟ ونخرج بلا جواب .

لقد فشل العقل ، برأيي على الاقل ، في معرفة الطبيعة الانسانية ، وفي رصدها بمعادلات رياضية ثابتة،وفي تلخيصها بقوانين فيزيائية مستقرة، فماذا نفعل ..؟

سؤال لا نزال نطرحه بخجل في عصر العلم ...!

ويقهرنا صمت الجهل وعجز الانسان عن معرفة الانسان ، ونقف بذل امام لوحة « اعرف نفسك » ويحيرنا لغز « الانسان اللحظة » كما يحيرنا لغز « الموت الابدي » .

نشعر بقوة التعادل بين قبول الانسان لنا ورفضه لوجودنا . وينتصب امامنا من الماضي الشعبي مثل حي : « عيني فيه وتفوه عليه » ونصل الى نتيجة تكاد تكون ثابتة :

ــ لسنا وحدنا من يعاني تجربة « اللحظة » .. « الانسان الوهم » ... « الرجل السراب » .

لقد عانت الازمنة الثلاثة هذه التجربة بالذات فيمن جاء قبلنا ، كما نعانيها نحن ويعانيها من سيأتي بعدنا ، وان تكلم كل عصر بلغته الخاصة فكل اللغات تؤدي الى الانسان.. الى « الميدالية » ــ الانا ــ التي كتب على احد وجهيها « نعم » وعلى الآخر « لا » .

فانت لي ولست لي . .وانا لك ولست لك .. حقيقة « مرة حلوة » تفسر سفر انسانيتنا الراحلة نحو « اللاغد » ، بل تؤكد ان انسانيتنا تراوح في مكانها على ارض اللحظة .

وتهنئة حارة مني ابعثها بكل احترام الى السيدة « اللحظة » ، وينتهي كل امل لي بالمستقبل وتنتصر « اللا » في وجه الآخرين وتنتحر « النعم » عندي يأسا ، ولا يقرأ احد على طرفي الميدالية ــ الانا ــ الا « لا » .

ونلعب لعبة الحظ مع القطعة الثمينة ، وننظر بلهفة الى النتيجة ، ونقرأ على الوجه الظاهر للميدالية المرمية على ارض اللحظة « لا » .. « لا غد » .

ايها الانسان .. انسان اللحظة ... اليك هذه النتيجة :

تجب ثم تموت ويكتبون على الشاهدة « الفريسك » التي تصوربالوان الحياة الساحرة الحارة ، رمز راحة الموت ، امرأة جميلة نائمة نوما كاملا، يكتبون باحجار الفريسك الذهبية الصغيرة هذه الكلمات :

أحب ولم يحب ، كان محبوبا ولم يكن محبوبا ، كان انسانا يعيش في القرن العشرين على سطح الكرة الارضية ..

وتنحدر امام الصورة والكلمة ، دمعة من عين من يحبك .. وتشع معها ابتسامة ، لتستمر الحياة « حياة اللحظة » في اجسام من رمال ودخان وزئبق .. يخطيء كثيرا من يظن انه سيمسك بها الى الابد باصابع الحب القوية التي تنتمي الى عصر كان المستقبل فيه الها بين الآلهة .

يجب ان نطرح فكرة « الانتظار » من حياتنا العاطفية حتى لا تفجعنا الايام باللاشيء .

الانتظار خطأ فاحش يقتل حاضرنا ويلتهم لحظتنا التي تحمل في احشائها بذرة سعادة حتمية . يجب ان لا نرفض الحاضر من اجل سعادة الغد التي تحمل في ضميرها فكرة الاحتمال .

اشعر بان « الامل » قد غدا شبحا رومانسيا مضحكا في عصر كل ما فيه واقعي ويعتمد مبدأ الحتمية .

الامس .. هو الحقيقة .

واليوم .. هو الحقيقة تتشكل .

اما الغد .. فهو الاحتمال .

ماذا بقي لنا ..!!؟ لمن يجب ان نعطي انفسنا ..!!؟ وتختلط الايام الثلاثة ، وتتداخل احداثها بعضها ببعض كما يتداخل السكر بالماء او الملح بالماء .. ويصبح الفصل امرا اقرب الى المستحيل .

فالانسان هو هذه الايام الثلاثة معا . هو حقيقة الامس ودرب اليوم واحتمال الغد . فلا يمكنني ان اتوكأ على احد هذه الايام ، وانفي اليومين الآخرين من حياتي .

انا الذكرى واللحظة الحية وتوق المستقبل معا . انا الايام الثلاثة معا .. انا السكر وهي الماء .. وربما انا الملح وهي الماء .. والماء المالح او الماء الحلو من صنعنا نحن . فبنتيجة اللقاء بين العناصر الاربعة: الانسان والماضي والحاضر والمستقبل .. او بين العنصرين الكبيرين : الانسان والزمن .. او بين العناصر الانسانية الثلاثة : الانسان الماضي والانسان الحاضر والانسان المستقبل ، ترتسم على الواح كبيرة خفية قصص الحياة الملونة .. واللوحات البشرية المختلفة ، وما انا الا لوحة من هذه اللوحات، او قصة من ملايين القصص الانسانية ، التي تتمرد في لحظة من اللحظات على واقع التخلف الانساني الذي ما زال يعجز — في داخلها — عن الثورة على سجن الارتباط بالغد بالامل بالمجهول .

اليوم يقدم لي نفسه قويا متفجرا بالصحة والحيوية والوضوح والصدق .. ومع ذلك فأنا ما زلت الاحق الغد واتمسك باذيال ملابسه الهلامية في غابة المستقبل الموحشة المظلمة التي ما طلعت عليها شمس النهار ابدا .. وعلي فقط ان اجرجر ذيلالثوب الهلامي الى النور ، الى اليوم الذي اعيش فيه تحت الشمس علني اجد داخل الثوب املي في الحياة ..!!

فلا اجد بين يدي الا قطعة شفافة ملونة صغيرة زرقاء تعدني وتغريني بدهاء وذكاء بما ينتظرني من الحرير والديباج والدمقس واللآليء لو تابعت رحلة الانتظار بهدوء وصبر وارادة ، فالغد هو الافضل دائما ..!!

واقع مغشيا علي في كرسي الانتظار ، رغم كل التوثب الذي يهيب بي ان اقف واسير لاعانق اليوم وأطعن الغد بخنجر اللامبالاة ، ففي هذا الكرسي احلام الانسان الشرقي الطيب .

ومن جديد اتابع رحلة الانتظار ، وينتحر الرجل الالكتروني الذييحاول ان يحل محلي .

لا فائدة .. انا انتظر الغد ..

انا انسان .. لانني احب الغد الذي لا اعرفه .

• • •

الطائر العقيم

لها فلسفة خاصة في الحياة .

الحياة والالم عندها متلازمان كأنها والالم توأمان ، على الرغم من الابتسامة الحلوة العسلية في عينيها العسليتين الواسعتين .

احبوها ولم تحبهم .. واحبته واحبها ولكنه « رجل مستحيل » وهي « امرأة مستحيلة » ، والحب يطير بين قطبين لا لقاء بينهما بأمر من القدر ، كطائر عقيم .

وتقول لي :

مشيت طويلا وانا احمل قنديل ديوجين . ودخل هذا الرجل الذي احبه في دائرة الضوء على المسرح ولم اعد اسمع الا أغنيته ، ولم اعد ارصد الا خطواته ، وكسرت القنديل وتسمرت في مكاني امامه . وغاب الآخرون في الظلام المطبق خارج الدائرة لا ادري الى اين . وما يهمني مادمت قد وجدت الكل في واحد .

من أحبه انسان كبير يساعدني على اجتياز الدرب . هو بعمري ولكنه على الضفة الثانية التي ارنو اليها دائما . اتمنى لو كنت عنده ، ولكنني اخاف ان افقده عندما أصل الى عالمه واعادله فيغدو هو انا ، وتنتفي عند هذه النتيجة « صورة الحبيب » الشاطيء الآخر الاكثر هدوءا وأمانا وطمأنينة .



الفنان عبد القادر نائب ـ حلب ـ اريحا

القلق .. والالم .. والفوضى .. والصخب .. والغضب .. والجدب .. والخطأ على ضفتي .

وعند من احب أجد ما افتقده .. الطمأنينة .. والفرح .. والنظام .. والهدوء .. والرضى .. والخصب .. والصواب .

ويرد لها الفكرة ويقول :

ـ لو رأيت فقط ما ارى وانا على ضفتي لاحببت نفسك اكثر مما احب نرسيس نفسه . أنا اقف مقابل « الانسان » في عصر الآلة . وانا اشعر بالقوة لانني احب هذه « الانسانة المفكرة » الجميلة .

وتقول صاحبة العينين العسليتين والشعر الاسود والبشرة السمراء:

ـ اشعر وانا امسك بيده لنتابع الرحلة الهلامية ، كأننا نسير معا كطفلين على سكة الحياة .. نقلد القطار .. ونتحدى السقوط بجمع قوتينا معا . انقل قدمي واهتز قبل ان اضع القدم الاخرى امامها على شريط السكة الذي اقف عليه ، واعرف ان حبيبي لن يفلت يدي قبل ان استقر ، يسمح لي ان انقل قدمي واسير خطوة جديدة وهو اكثر اصرارا علىحمايتي من السقوط .

ـ السقوط الى اين ؟

ـ نحن نخاف السقوط الى مرحلة « اللاحب » في عصر ذاب فيه الحب كالملح .

وللالم عند هذه الانسانة فلسفة خاصة تؤثر في كقطعة من الماس وتشطرني دائما الى اثنتين ضعيفتين .

قالت لي مرة :

ـ لو كانت لهمومنا اوزان .. لما استطعنا ان نحملها .

وقالت مرة :

— الالم يبني في حياتي مسكنا مريحا له .

وقالت :

— قد لا يتمكن الالم من رسم التجاعيد على وجوهنا الفتية .. فمقدرة الشباب تفوقه الى حد ما ، ولكنه ينتصر في اعماقنا ويرسم تجاعيده بعناية. ولو رأى احدهم هذه التجاعيد في اعماقنا لتساءل بدهشة كيف استطاعت صاحبة هذه الاعماق المسنة ان تقوى على المسير امام الناس .!! وقد يقترب منها وفي يده مرآة ليضعها امام وجهها وينتظر بلهفة صدى لانفاسها الحية على الصفحة اللامعة ، فالحياة في رأيه تصبح مع تجاعيد هذه النفس معجزة لا تصدق .

وقالت :

— كان « المنا » في طفولة المدرسة « كقلم » الرصاص يكتب وتمسحه الايام بسرعة ، كمحاية اللوح الاسود تمسح الطباشير ، كان « المنا » يكتب ولا يعلم . اما « المنا » الحاضر فهو « كقلم » من الماس اينما وضعته يقطع الاشياء الى نصفين و « المنا » الآن « الم » فاصل ومعركتنا معه معركة حاسمة ونهائية . وهو الفريق الرابح طبعا وعلينا ان نجر اذيال الخيبة .

وقالت :

— ركبت مرة مع عدد من الزملاء والزميلات في سيارة العمل عائدين الى بيوتنا الصمت يخيم علينا . نظرت اليهم واحدا واحدة . هذا غير سعيد مع زوجته ، وهذه فتاة طيبة وجميلة وذكية ومرهفة ومطلقة ، وثالثة تحب شابا لا يحبها ، ورجل يحب امراة متزوجة ويصمت على الجرح لا يستطيع ان يتكلم او يتصرف ، وانا كنت في حالة قلق دامع على زوجي الطبيب المسافر واخفي جرح الحب البعيد المستحيل ..!! ما هذا كله !؟ كيف تقوى هذه السيارة على حمل هذه الاثقال دون ان تميل !!؟

وقالت مرة وفي صباح مبكر جدا بعد ان سهرت مع زوجها ليلة راس السنة، وبعد ان اصر زوجها الا ان تطلع عليهما شمس السنة الجديدة وهما يرنوان الى دمشق والغوطة من اعلى نقطة في قاسيون ، قالت بعد أن لمحت في طريق « النزلة » الوادي الاخضر يمتد بين الجبال الجرداء من دمر حتى الشام محتضنا في سريره بردى الحبيب ، قالت بفرح طفلة في عيد عن الشام التي تحبها مثلي واكثر :

ــ الشام احلى بلد في العالم مع انني لم أر العالم بعد .

وقالت مرة تشرح تأثير الصدفة التي تعيد ذكرى الحب الكبير :

ــ شعرت عندما مررت امام بيته وخلفته ورائي بخطوات متئدة مشدودة الى الخلف ، بصدى الرنين السحيق لحبي ، تماما كأنك تنقرين بأصبعك على كأس من الكريستال ، ويظل صدى الرنين الراقي العذب المسكر يهدهد روحك مسافة زمنية طويلة لا احد يسمع الصوت « الصدى » الا انت .

وقالت مرة :

كنت أجتاز الشارع وحدي ، وعندما وصلت ، التفت الى الطريق المؤدية الى بيته . اعرف انه قد سافر ، ومع ذلك اكتشفت شيئا فظيعا . الضجيج في نفسي قد طغى على ضجيج الشارع ، وخفت واخذت اتلفت حولي بذعر خوفا من ان يسمع الناس ما بنفسي .. ترى هل سمعني احد ..!!؟

قالت لي مرة :

ــ عندما يقرأ الانسان رواية « زوربا » يشعر بذهول امام آراء هذا الرجل زوربا . ولو حاولت ان اضع تحت كل كلمة هامة خطا بالقلم الرصاص « لتشحرت الرواية » .

وهذه الانسانة التي تعيش مع الالم في كوخ واحد ، هي سيدة مرحة جدا ولها علاقة صميمية بالفرح والضحك والكلمة الحلوة والنكتة الذكية .

تعرفني أحب زهرة البنفسج وفي « كوانين » تبدأ في البحث عنها .

جاءتني مرة ورنت الجرس . فتحت الباب فقالت لي على الفور وقبل كلمة « مرحبا » :

ـــ لبن العصفور مفقود من السوق !!

وابتسمت انا ابتسامة المنتصرة :

ـــ اما انا فلقد وجدت حزمتين من لبن العصفور !!

زهرة البنفسج الندية في كوانين وفنجان القهوة والكتـــاب الصديق وطفلها الاشقر الجميل وزوجها الطيب وامها الحبيبة .. هذا العالم الجميل الذي يحاول دون ان يدري ان يفصلها عن توأمها « الالم » بلا جدوى ، يظل هو العالم الاقوى الذي يرفع ابتسامة الامل بالحياة الى اسنانها اللؤلؤية وعينيها العسليتين وجفنيها الذابلين .

القطار يسير ... وما يزال يسير على شريطي السكة الحديديين ، ولا بد ان يهترىء الحديد من شدة وطء الحياة في دواليب الزمن وعندهـــا سيتوقف القطار عن المسير في هذه الطريق وعلى هذه السكة ليبحث لنفسه عن شباب جديد في حب جديد .

ولكن هل سينسى القطار ذكريات رحلاته ؟ وهل سيموت « الحب » بعدهما ! لا اظن . انهما يحملانه على جسر قوي يستند الى كلا الضفتين . هو وهي جسر من طين الانسان وقلبه وعقله ودمه وعينه ووده وجهـــده وحرصـــه ..

وستظل هذه « الانسانة » المحبة المتألمة ترنو الى الضـــفة الاخرى بلهفة وتوق ، يسير نهر الفكر العميق بينهما بهدوء مرعب لا يقل عن هـــدوء الفرات والنيل .

ويظل جسر الحب مرتفعا فوق الضفتين مستندا عليهما بشموخ وثقة. وعلى مدخل هذا الجسر وعلى حجر الاساس فيه قد كتبت عبارة هامة قيلت في حفلة تدشين الجسر :

— الحب بين قلبين كبيرين هو نقطة ارتكاز الانسان الدائمة .

وتسير هذه الانسانة على ضفة ويسير من تحبه على ضفة . تقنع بفكرة وجوده في الحيــاة على الاقل . وترتاح نفسه لذكرى حبهــا وذكر اسمهــا . . . .

وتسير هذه الانسانة على شريط السكة الحديدي . . ويسير من تحب على الشريط الآخر، يسيران الى المستقبل في خطين متوازيين لا يلتقيان، وتمر فوقهما عجلات الزمن تغني اغنية تعبق بين الحقول عنوانها : « الى شاطيء المستحيل » .

● ● ●

ذكرى مدينة

كنت امشي بين اعمدة تدمر الى مسرح تدمر .

كنت امشي بخشوع . .بهدوء اقرب الى الصلاة .. وحـــدي وآخر واحدة في المجموعة السياحية المرحة الشابة الصاخبة .

كنت امشي بطريقة مغايرة .. وحدي .. صامتة .. والضجيج يعلو في اعماقي .. يعلو مستوى الاعمدة والهياكل المتعالية .. واسئلة داخليــة أطرحها على « لا أحد » لتظل بلا اجابات حتى من شبح دليل سياحي واحــد يبرد نفسي من لوعة الاسئلة .

كيف كانت صورة هذا الممر العريق قبل ان تسقط بعض اعمدتهوتنهار اكثر اروقته ويتحول بلاط ارضه الحجري اللامع الـــى درب مكسرة معفرة بالرمال تطأها اقدامنا باستهتار ولا مبالاة سائح عربي ؟

هل انا سائحة في تدمر .. انا ..! ولماذا انا ..؟ ولماذا في تدمر ..؟ وهل انا غير تدمر ...! وهل تدمر مدينة لا يمتد اليها تاريخ امتي ..!؟

وجنت في رغبة لامعقولة .

ليتني اختفي الآن وراء احد الاعمدة الجبارة الواقفـــة تتحدى الالفي عام ، الساخرة من بقية الاعمدة التي استكانت للهزات وسقطت .. وامـــد راسي قليلا قليلا لارى الصورة وقد ازدهرت .. ومدينة التـــاريخ تدمر تضحك تفور بالحياة والحركة .. تتوهج في قلب الصـــحراء ماســـة نادرة تخطف الابصار وتقطع الانفاس وتبعث الدهشة .

ليت احدهم يأتي من الخلف ويغمض لي عيني بمداعبة لطيفة ثم يتركني اخرج من الظلام الى النور ...



الفنان توفيق طارق — دمشق

من تدمر الاثرية الى تدمر الحقيقيـــة .. من ذكرى حضارة الـــى حضـارة .

دقيقة واحدة ... ولتذهب الصورة .

ترى كيف كان سكان تدمر يعيشون ..!؟ امنيتـــي ان اراهم .. ان احدق في ملامحهم .. ان اسمع اصوات رجالهم ونسائهم لاتمتـــع بسحر حرفهم .. لاشاهد بنفسي اناقة ملابسهم وروعةالوانها وعظمة خطوطها.. يتهادون بها على هذا الممر التاريخي نفسه .. ربما لحضور حفلة مسرحية على مدرج المسرح التدمري العظيم !! ترى هل كانت ملابس النساء بلون النبيذ .. أم بلون السماء .. أم بلون الصحراء .. أم بلون النخيل .. !!

ودخلت المجموعة السياحية .. مسرح تدمر . ودخلت مع افرادها.. بل كنت آخرهم .. جلست على اول مقعد في أول صف من مدرج المسرح نصف الدائري .

اما المجموعة .. فقد تكومت كخلية نحل نشيطة على درجات المدرج في نقطة الوسط .. يتوسطها شاب ، عربي طبعا ، ينقر بمهارة علىالدربكة وتعاونه الجوقة ، مجموعتنا العربية طبعا، غناء وتصفيقا على ايقاع اغنيتنا الشعبية : « شلح التوب ولبس التوب » ، بينما قفز احد الشبان المرحـــين الى باحـــة المدرج وقد ربط خصره بايشارب أحمر واخـــذ يقلد الراقصة ناديا جمال .

لا ادري كيف مرت مئات السنين لتضـــــع الامور في غير مكانها . « جوقتنا » السياحية كانت تمارس نشاطها الفني على المدرج وفي مقاعد الجماهير ، « وبناء » المسرح الحجري الفخم الذي يواجه المدرج والـــذي يطل على الجمهور بخمسة ابواب لها اقواس مطرزة .. قد ظل بلا جوقة.. بلا ممثلين .. بلا موسيقيين .. بلا راقصين .. يهزأ من غدر الزمن بطريقة واحدة : الصمت .

يغنون بفرح ينتشر في اجواء المدرج كعطر زهر الليمون .. وخشـــبة المسرح « الحجرية » حزينة تتندى بالدموع على اصحابها الحقيقيين الذين ذهبوا بلا عودة ، وتعتب على هؤلاء الاحفاد الذين لا يقولون كلمة واحـــدة « جدية » لاعادة كل شيء الى اصله .

وكانت المفاجأة التي هزتني وحدي وهزت المسرح . لعب القـــدر المنصف دوره ، وبقدرة عجيبة ضاع ممثلنا الشاب الموهوب « هـــاني

الروماني » عن المجموعة وضل درب المدرج ، وظل يبحث بين الآثار في المدينة الواسعة الى ان وصل . ودخل هاني الروماني علينا لا من باب الجمهور كما دخلنا .. بل من باب المسرح الكبير في الوسط .. باب الممثلين الكبار .. فجأة وجدته على خشبة المسرح وحده ينظر الينا بعفوية سائح دون ان يدري من أين دخل ولماذا ..!! ترى هل انتقم القدر ليعيد التاريخ نفسه ولماذا هاني الروماني بالذات !؟ لست ادري ولا هاني يدري !؟ روما قهرت تدمر . ولكن تدمر اليوم قهرت « هاني الروماني » وقهرتني .

ومن باب آخر للممثلين .. دخل ايضا ممثل موهوب آخر .. أسامة الروماني شقيق هاني الروماني ..!! ولماذا أسامة ..؟ لست ادري ولا أسامة يدري ..!! ولكن المسرح ظل بلا ممثلين ... رغم اختيال الرومانيين الموهوبين على خشبته ..

من يدري ..!! ربما كانت الصدفة المحكمة دعوة من ارواح سكان تدمر وممثلي المسرح في تدمر لشبان هذا الجيل لاعادة بناء ما اندثر ما دمنا نملك ارض الفن ومعاول البناء .

وصورت الكاميرا السينمائية « الراقصة » الشاب وليتها التقطت معي اهم صورة من صور الرحلة هاني وأسامة الروماني فوق مسرح تدمر . ولكن .. ولكن .. ولكن !!

واقترب مني أحد زملاء الرحلة مقترحا بلطف ان انضم الى المجموعة متسائلا لماذا اجلس وحدي !!

كنت أفهم معنى حركته اللبقة . كان يخشى ان تؤلمني الوحدة وأكدت له اني سعيدة ، سعيدة جدا ، اتمتع بمدرج المسرح .. أراقبه .. اعد أبوابه .. أتلمس حجر درجاته بيد حنون . أتساءل عن معنى الحاجز الحجري نصف الدائري الانيق الذي يحمي ارجل جمهور الصف الاول ..! ربما كانوا يجرون العابا لحيوانات خطرة في باحة المدرج ..! واغالب دمعة تهدد بالسقوط من فرط تأثري بنقوش وزخرفات غاية في الدقة والجمال تتوج أعالي البناء وأفاريزه .. ولشدة حرصي على حضارة كانت لنا وبادت .

تدمر الاعمدة .. لحقت بها عند المغيب من شرفة الفندق الصغير الوحيد .. كانت اعمدة تدمر واقفة كأشباح التاريخ تودع الشمس لتستقبل الليل بكبرياء . اعمدة كثيرة تمنيت لو اضيع عن المجموعة لاعدها واحدا واحدا لاعانقها عمودا عمودا .. لاقبلها جذر عمود جذر عمود ، الجذور

باقية اذن ولو سقطت الاعمدة ..!! وتدمر باقية ولو ارتفعت « الامبساير ستيت » ..

سألني أحدهم بشيء من السخرية :

ـ لماذا تحبين الآثار لهذه الدرجة ؟

ـ لاني أحب الماضي .

ـ والحاضر .. الا تعتقدين انه بحاجة لنا .. وان من واجبنا ان نعيش حياتنا ..!!

ـ الحاضر أحبه .. ولكنني اشعر بارتباط خفي بالاطلال .. لانني اراها اكثر انسانية .

ومن اعلى نقطة في معبد « بعل » في تدمر رأيت مع بعض الذين اثبتوا شجاعة بصعود السلالم الداخلية الخفية .. رأيت مدينة التاريخ تدمر .

كانت يوما مدينة كبيرة جدا وسط غابة من اشجار النخيل .. تطوقها صحراء ملتهبة مترامية الاطراف .. وتحيط بهذه الصحراء سلسلة جبال دائرية ترتفع على أحدها قلعة عربية شاهقة . وعلى احدى التلال المجاورة لتدمر .. يرتفع قبر ينام فيه الاموات فوق الارض بامتار تتجاوز الثلاثين . انه قبر فوق الارض يحاول الصعود نحو السماء ويبدو من بعيد كالبرج .. في داخله وعلى الجانبين دروج كدروج خزانة حديدية ، في كل درج توضع جثة انسان عظيم يلصق تمثاله النصفي او صورته على الجدران ، او في أعلى سقف القبر .

هذه الحقيقة الغريبة عرفتها من وراء القضبان .

ولما سألنا :

ـ اين مفتاح القبر « المقبرة » ..!؟

ـ المفتاح ضائع .. انظروا من شقوق الباب الحديدي .

ـ اين باب المدينة الاثرية ..!؟

ـ لا باب .. ولا حدود للمدينة وهي مفتوحة الاطراف لكل زائر .

ـ لماذا ..!؟

ـ لا أحد يعرف .

— والسواح الاجانب والعرب ماذا يدفعون مقابل زيارة المدينة .. لا المتحف .. !!

— لا شيء .

— في مصر ... وصول السائح من الاقصر الى قبور الفراعنة في مدينة الاموات يكلفه اربعة جنيهات .

— ماذا تعنين ..؟!

— اعني اننا بحاجة لزيادة الدخل القومي عن طريق استغلال السياحة بذكاء ، كما تفعل الجمهورية العربية المتحدة ..

— ....

— وفنادق ومطاعم ومقاهي تدمر ومسابحها ..!!

— فندق واحد ممتاز .. ولا شيء آخر .

— ولكن لماذا .. أنا لا افهم ..؟!

— منذ التاريخ .. لا احد يفهم .

— والسكان الحاليون لماذا يعيشون بهذا الاهمال ..؟

— .... اسألي التاريخ .. !!

— والبلدية ...!؟

— من اغنى البلديات في بلدنا ..

— اذن .. !!

— ....

— وقوافل السياح التي تأتي بالطائرات والباصات اين تنام ..!؟

— لا تنام .. تعود بالطائرة والباصات في اليوم نفسه .

— والطائرة .. لماذا لا تحضر يوميا .. !!

— اسألي شركة الطيران .. لا احد هنا يعلم .

— اف .. اكاد انفجر .. كل هذه العظمة التاريخية في بلادنا .. وكل

هذه الثروة القومية الجاهزة .. وكل هذا التراث الذي يدرسه السائح وحده وعلى الطبيعة بكتاب اجنبي « وبلا دليل سياحي » .. ونحن لا نعلم ..!!

لماذا كتب علينا ان نرفع اكتافنا بلا مسؤولية وان نلصق على جباهنا شعار « لا أحد يعلم » مع اننا نملك حق المطالبة بالعلم وبحمل المسؤولية وبرفع اصبع الاتهام نحو من يربطنا الى جذع شجرة التخلف كخروف العيد الغبي !!

ان تدمر تدمع العيون .. ان سكان تدمر الحاليين فقراء اثرياء بلا عدالة في التوزيع .

ان تدمر أكثر من بئر بترول في صحرائنا فلماذا لا نفجره ونكسب الذهب ..؟

عادت الاسئلة من جديد .. معي على طريق العودة . وتنام تدمر ليلة جديدة بعد آلاف الليالي .. خلفناها وراءنا مدينة تنتظر ان يمسح احد عن وجهها الفاتن رمال الاهمال المتراكمة .

وبدأنا صراعنا المدمر مع طريق باص العودة .

واغمضت عيني .. واستسلمت لافكاري التي تقرقع كأحجار صغيرة داخل رأسي الذي يهتز بعنف محاولا الاستناد بيأس الى نافذة الباص .

لا بأس .. .رأيت تدمر ليوم واحد ..

كنت في زيارة « ذكرى مدينة عظيمة » كان اسمها « تدمر » .

● ● ●

ضفادع نبع بردى

حلمت ليلة الامس حلما اسطوريا .

صحوت .. وراح الحلم الطويل الجميل الذي تمنيت لو كان طويلا الى ما لا نهاية . وأخذت أتذكر ...

حلمت .. انني كنت نائمة في سريري .. ويرن الهاتف في بيتنا قبل السادسة صباحا ومع زقزقة العصافير .. ويرد صوت من عالم مجهول على الالو النائمة يقول :

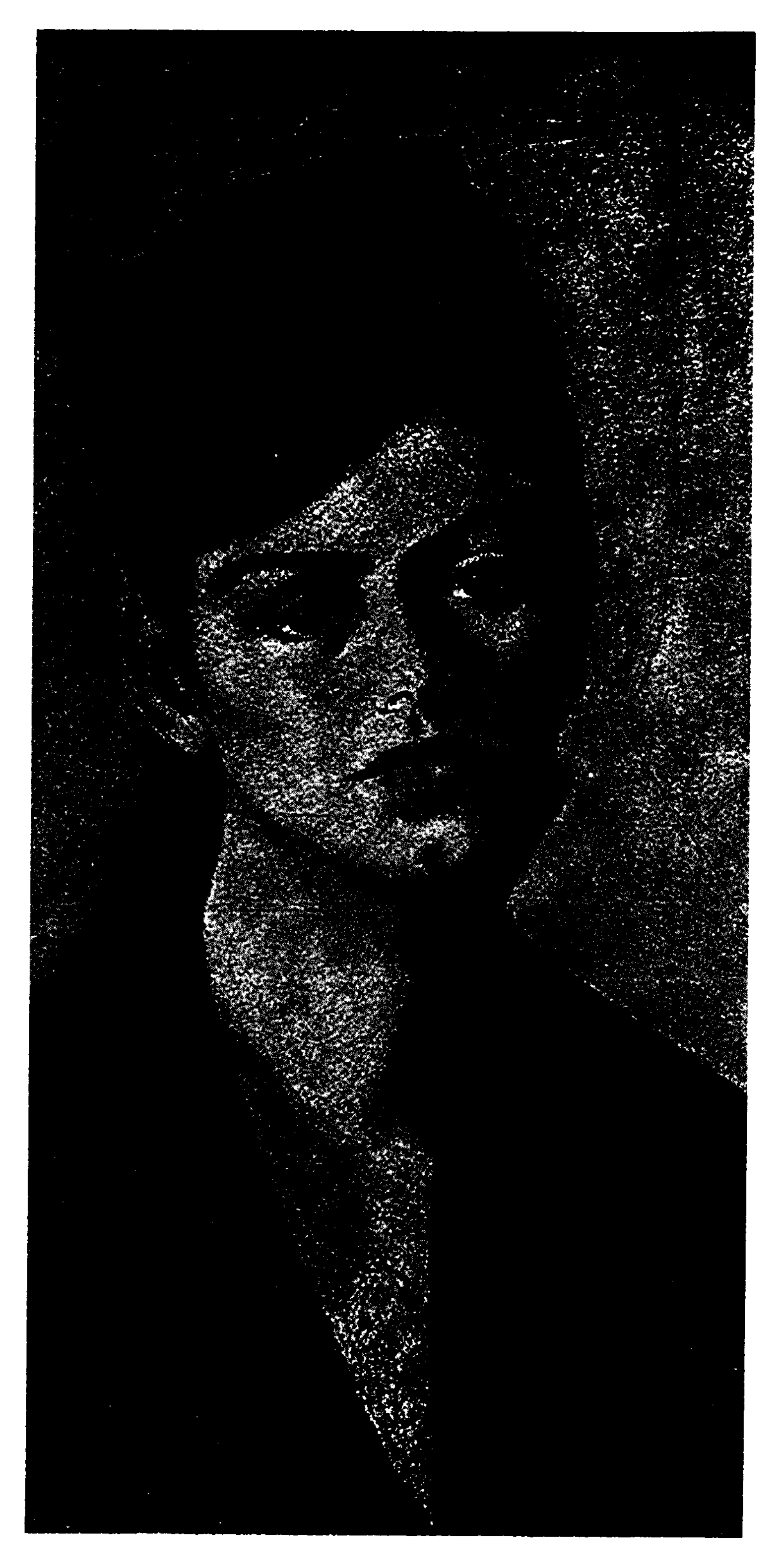
— صباح الخير يا حلوتي .. أنا أمير الاحلام الوردية وأدعو سندريللا الحبيبة الطيبة لرحلة الى نبع بردى .. قومي كفى نوما يا سندريللا الكسول .. سأطير بك الى شاطيء نبع الضفادع ، سنحضر معا حفلة سيمفونية تعزفها لنا الطبيعة بكل آلاتها الموسيقية .

وبثوب النوم الفيروزي طرت .. لبست خفا ذهبيا ونسيت خفا بعامل السرعة والفرح .. ولكنني لا أذكر انني لمست الارض بقدمي ، كان الفرح يطير بي ويرفع قدمي عن الارض ويجعلني خفيفة بوزن ريشة نعام .. أنا ريشة ..!! أنا ريشة ..!!

وقال الامير : لا .. انت انت .. انت الفرح .. وانت الانسان الطيب .. وانا لن أغدر بطيبتك .. وسوف أعطيك ما وعدتك به .. !! فالامير بلا كلمة لا شيء ولو صار ملكا .

وحط بساط الريح عند ضفة النبع .. وطلعت الشمس علينا .. وسكت الامير .. وتركني للضفادع .

وكان استقبال ضفادع نبع بردى لي في هذا الصباح المبكر هزة لاعماقي، لا مثيل لها .. سمعت سيمفونية خارقة من عمل آلاف الضفادع . انظر ..



الفنان لؤي كيالي ـ حلب

انظر .. ضفدع تقفز علـــى سطح النبع .. وتلك تنط .. الملعونـــة كأنها تلعب .. وقال الامير : بل ترقص فرحا بنا .. !!

بنا ..؟ نحن .. ؟ .. انتهت « الانا » وبدأت « النحن » .. !!

ونظرت في عينيه .. ثـم أحسست بانني ضعت .. ضيعني السحر والصدق في عينيه وفي الجبل وفي اللحن الغريب . لم أعد انا انا .. لقد غدوت قطعة من الجبل والنبع والضفادع والامير . أنا لست انا ، أنا هم وهم أنا .. وأحسست ان انفاسي قد تقطعت ، وان الدماء في عروقي قد تجمدت ، وان الزمن قد توقف لرهبة الموقف .

لقد نقلتني حركة الامير الى مرحلة انعدام الوزن وانعدام التفكـير وانعدام الحركة .. وظل القلب في صدري ينبض بالحب والفهم والحيـاة يؤكد لي انني حية وانني عند نبع السعادة .

والتفت الى وجه الامير .. وطار الامير ..

تركني وعاد الى قصره الحجري . وسار قلبي عائدا على الاحجـار بخف واحد . ولم أعد ادري هل أسـير على قلبي أم علـى قدمي !! قدمي الصغيرة الواحدة تؤكد لي منتهى الالم واليأس والصقيع ، وقدمي الثـانية تمنحني شعور الطمأنينة والراحة والدفء في أرض هشة من الثلج الابيض.

ونسيت موسيقى الضفادع .. نسيت رهبة الجبل .. نسيت صفاء النبع .. هـذه المرة ضـاع الامير من سندريلا ولم تضـع سندريلا من الامير .

سرت وحدي وحـدي يوما كاملا .. أبحث عنـه في جبال وسهول الزبداني وفي وادي بردى .. انادي .. اناديه .. ياأمير .. ياأمير .. يا أ ....!! وتصفر الريح الباردة حاملة معها أغنيات نجاة وفيروز وأسمهان .. « باستناك » « علموني » « يالعينيك » ... لا .. لا .. لا أريـد أن أسمع .. وهربت منرؤوس الجبال الى الوديان .. وهبط الليل على طريق عودتي .. وتدحرجت كحجر صغير متهور .. الى مزرعة خضراء قيل لي انها مزرعة التفاح الاحمر ... ووقفت أتلفت حولي والسحر يلفني ... ورأيت عاشقين غريبين متعانقين قيل لي انهما آدم وحواء ...

ثم رأيتهما .. يتوهجان بالحب تحت نور قنديل يضيء أغصان شجرة كبيرة عالية .

كان آدم يقطف لها التفاح بكثرة .. بحب .. بفرح ...

وكانت حواء ... الى جانبه فوق قمة السعادة ... تأكل التفاح .

كانا يتهامسان... كان يقبلها بالكلمات... كان يأكل التفاح منفمها.

وخجلت .. وتواريت .. وقال لي صوت من مزرعة الحب :

لا .. انهما أبوللو وفينوس ..!! ورفعت بكتفي قائلة : ما الفرق !! ما أحلى هذه القطعة من الارض ..!! انها لن تتكرر .

وقال الصوت :

انها الجنة المفقودة .

وتذكرت نفسي ... وبكيت بصمت .. وانسحبت بهدوء من الجنة الى طريق الجحيم .

وعلى قبة السماء الحالكة قرأت الى جانب النجوم الفضية كلمات فضية تتوهج بالايمان :

لا غالب الا الله ... لا غالب الا الله .. لا غالب الا الله .

وتابعت الرحلة الشاقة وحدي ... كان يقول لن أتركك وحدك !! وتركني وحدي ....

وعند سهل ابيض فسيح .. رايت لاول مرة ارضا كأرض القمر ..!! الليل والثلج وضوء القمر ...

وأحسست انني بحاجة اليه .. ليته يحضر الآن كي ارد له هديته الرائعة . لقد منحني صباحا نادرا ودلني على نبع الضفادع .. وسأمنحه ليلا شتويا نادرا واسير معه فوق ارض القمر .. قدم لي لوحة وسأقدم له لوحة تنام بخشوع عند اقدام النبي هابيل ..

وتذكرت .. هنا .. من هذه الطريق الجبلية نصعد الى قبر النبي هابيل .. قابيل قتل هابيل .. اخ يقتل أخاه .. فكيف لا يقتل حبيب حبيبته !!؟ لا شيء جديد .

وجاء الامير .. جاء طائرا يحمله جناح الشوق والحنين .. يرفرف باجنحته الفضية في الليل الهادىء الحزين .. فرحت .. رأيته في ضوء القمر يحمل لي شيئا بيده . ورمى لي على ارض الثلج « الخف الآخر » .. ثم عاد الى قصره الحجري .

وغاص الخف في الثلوج الهشة وغاصت يدي خلفه .. وضعته في

قدمي الصغيرة التي تقطر دما .. وعرفت ان عودة الخف دعوة من الامير لي بالعودة وحيدة الى دمشق .

وتبللت رموشي بدموع صامتة ... وصفرت الريح... ونادى صوت ذهبي في السهل الواسع ... ورددت الجبال البعيدة الصدى :

يا سندريللا .. انا شيخ الليل وحكيم الزمان .. ومعي عين سحرية ارى فيها ما تجهلين ..!!

اليك الصورة على الطرف الآخر :

لقد طار الامير .. وعاد من هنا الى قصره الحجري .. الى احضان بيته العربي القديم في دمشق العتيقة..!!عاد الى نقطة البدء التي لم تلمسها عصا التطور بعد .. عاد طفلا صغيرا في صورة شاب فتي نبيل .. عـــاد الى الملك والملكة وحده بلا سندريللا .. وفرح اخوته واخواته من الامراء والاميرات النبلاء . واقيمت حفلة شماتة راقصة في قاعات القصر ابتهاجا بعودة الامير الى احضان الاسرة المالكة دون ان تتمكن ابنة الشعب الفقيرة من الزواج منه .

واختاروا له اميرة نبيلة جميلة صغيرة ثرية عريقة .. وتركوه معهـــا يرقص حتى الصباح .. ولكن الاميرة كانت ترقص حافية القدمين ..!!

واعلن في الحفلة الملكية ان زفاف الاميرين النبيلين قريب ..

لا بد من زواجه حتى ينسى حبيبة قلبه ..

وناموا جميعـــا .. التيجان الذهبية على رؤوسهم .. راحة البال مخدة طرية تحت عقولهم .. والنصر عليها خدر لذيذ في أعصابهم .. فقد انتهى خطر عشق الامير لسندريللا ..

ويردد الصدى قبل ان يتكلم الشيخ :

ولم تنم سندريللا ...

ولم ينم الامير ...

الامير في عقل سندريللا ...

وسندريللا في عقل الامير ...

كل منهما في مكان .. وكل منهما عند الآخر ...

وتضيـــع المسافات اللئيمة في متاهـــة الصدق في الحب .. وتنتشر المؤامرات الملكية عند عتبة قصة حب لا فائدة من قتلها في قلبين عاقلين ..

ويسكت الصدى ويتكلم شيخ الليل :

انتهت الحفلة .. وعاد الامير طفلا صغيرا يبكي .. ثم تحول الـــى جنين صافي النيـــة طيب القلب ، يحب ان يظـــل متقوقعا في رحم امه الى ما لا نهاية ... ينام باطمئنان كلي .. لا شكوك رهيبة تقض مضجعه ، ولا عقد نفسية سوداء تؤرق سلام روحه .. وان حاولت امه الحبيبة الطيبـــة ان تلده مرة ثانية في غرفة القصر « العالية » الملكية التي تعانق نوافذهـــا اغصان واوراق شجرة الليمون ، فسوف يبكي بشدة .. ويصرخ .. لانه لا يريد ان يعود الى الحياة من جديد ، كي يكبر ويصبح طفلا ثم اميرا شـــابا تتحكم بمصيره عقلية اسرته المالكة .

ونام الامير تلك الليلة في رحم امه محاولا ان ينسى المشكلة .

وقلت لشيخ الليل :

ــ ولكنني يا حكيم الزمان ما زلت مظلومة ...!!

ــ ربما كنت الظالمة ..!!

ــ ابدا .. والله ابدا ...

ــ هل كذبت على الامير مرة ..!!

ــ ابدا .. ابدا .. الحب هو الصدق .. وحبيبي هو الاول في حياتي ..

ــ وهل صدق هذه الحقيقة ..؟!

ــ الشك الذي يؤرق سلام روحه بسبب خبث من عرف من الاميرات قبلي .. قد قضى علينـــــا ... وقتلت حقيقتي في غرفـــة متواضعة ، فقيرة هادئة في حارة النهر .. لا يجرح صمت الحب فيها الا خطوات قطة مارة على سقفها الطيني .

ــ سيعود ما دمت صادقة ...

ــ ما الذي سيعيده ...؟

ــ الايمان بالله الكامن في ضميره . فالاله معك ما دمت صادقـــة مع نفسك ومع من أحببت ..

ــ وأسرته المالكة ..!!

ـ انت اسرته المالكة .

ـ انا .. ؟!! هه ..!!

ـ سيعود ...

ـ لا اريده ان يعود .. كان عليه ان لا يرحل .. لن اجرحه بكلمة.. السماء سوف تعاقبه ...

ـ لماذا ترتدين الاسود ...؟ الاسود لون يكرهه الامير لانه باعتقاده يخفي الزيف ...!!

ـ يا الهي ..!! انا لست مزيفة ... وانا لا ارتدي الاسود الا لانه لون الليل ... لون الحقيقة التي جمعتني بالامير بعيداً عن عين القصر الملكي .. هو الذي اختار لي لون الليل .

آه ليتني لم أعرفه .. ليتني مت قبل أن أصدقه ...

ليت الارض انشقت وابتلعتني قبل أن أسمع هذه التهمة .. كفى كفى يا شيخ الزمان العادل ... لا تنقل لي من تصوراته الخاطئة عني اكثر مما نقلت ... دع له في قلبي بقية من الحب .

دع لي دموع الندم وارحل ... وخذ معك قبل ان ترحل عينك السحرية ... افضل ان اجهل بقية آرائه عني . لا احب ان اكتشف جهله بحقيقتي .

ـ انت كبيرة يا صغيرتي .. وسوف يفوت وقت طويل قبل ان يدرك الامير انه قد اخطأ .. لا قبل ان تموتي .

وغاب الصوت العاقل ... وصفرت الريح ... ووجدت نفسي ما زلت واقفة فوق ارض الثلج ..!! وابتسمت بسخرية من القدر الذي يعذب « الصدق » في الانسان بهذه الطريقة المرة مرار الصبر .

وقررت العودة بلا امل .

قطعت طريق الصحراء بصعوبة .. ونزلت منعطف الهامة .. أحسست بالعطش.. واستقبلتني رطوبة الوادي..وقرب اشجار الحورو الصفصاف الطالعة من ضفة بردى .. وتحت ضوء اصفر خافت وقفت لاشرب من « فيجة » ماء باردة . .وتحولت « الفيجة » فجأة الى بحيرة هادئة . نظرت في مرآة البحيرة الصافية فلم أجد نفسي .. بل رأيت صورة حمار باذنين

طويلتين .. التفت بذعر .. رأيت الحمـــار يجر « طنبرا » محملا باثقـــال الذكريات الحلوة والمرة مع الامير .. ضحكت .. ولم تعد ضحكتي ضحكة انسان . وتابع الحمـــار « والطنبر » طريقه محاذيا بردى . وعند مدخل دمشق .. عند الربوة .. تذكر الحمار أنه قد بدأ الرحلة الى نبع الضفادع بصورة طائر .. فكيف يتحول الانسان الى طائر والطائر الى حمار !!؟

وأخذ الحمار ينهق ضاحكا من هذه النتيجة وهو يقفز مسرعا علـــى قدميه الخلفيتين بخفين ذهبيين عائدا الى البيت الى سرير من التبن !!

ونقرت يد امي الحبيبة على بابي ... وافقت مذعورة .. اين الحلم!؟ طار الحلم .. والساعة تقترب من الثامنة .

لماذا يا امي لم تتركيني مع احلامي !؟ اريد العودة الى النبع !! يا امي أنا لم أعد أنا .. يا امي لو تدرين ..!!!

وردت امي :

ــ يا ابنتي يا كبدي .. الحلم حلم .. حاولي أن تنسي .. وقومي ارتدي ملابس العمل كي تواجهي نهار الواقع .

ــ كان حلمي واقعا ..!!

ــ كان واقعك حلما . نحن في عصر الفضاء ولسنا في عصر الاساطير .. نحن في عصر الآلة لا في عصر سندريللا والامير .

ــ يا امي ... لقد أحببت الامير بصدق وبساطة . .أعطيت الامير في الحلم كل شيء ... اعطيته كل انتظاري له قبل ان أراه .. وسوف اعطيه كل انتظاري رغم اني لا أراه .. ولن أراه ..!!

ــ الزمن يلاحقك .. الساعة تشير الى الثامنة ...

ــ تصوري يا أمي.. انني تحولت في المنام الى طائر ثم الى حمار .. فهل يمكن ان يتحول الانسان الى حمار ؟ وما تفسير الحمار في الحلم ؟

ــ الطيبة .

ــ وهل يمكن ان يكون الانسان الطيب حمارا ؟؟

ـ في زمانكم يا ابنتي كل شيء ممكن . من يصدق كل شيء يقال له فهو حمار !! ومن يمنح قلبه الطيب يخسر كل شيء . . وتسقط « تضحيته » العظيمة في هوة « النكران » .

ـ ولكن لماذا الحمار ؟؟ أريد تفسيرا « لمنامي » ؟

ـ لا تفسير « لمنامك » الا انه رغبة العصر المكبوتة تفجرت في ليـل الحقيقة ثأرا من نهار الزيف .

● ● ●

فـــيروز ..

فيروز ...

وتعود بي الذكرى .. واتذكر بحيرة « مسعدة » الفيروزيـــة جنوب سورية ، واتذكر بحيرة « تل ابيض » الفيروزية ، « عين العروس » شمال سورية . واتذكر خاتم جدتي الفيروزي في يدها المعروقـــة ، واتذكر ثوبي الفيروزي وسواري وقلب حبيبي يحب اللون الفيروزي وصوت فيروز .

عندما تغني فيروز تطـــير روحي كفراشة فوق حقول بلون احجـــار الفيروز فوق جبال من الفيروز وتسبح في مياه بلون الفيروز .

للاغريق افروديت .

للرومان فينوس .

لقدماء السوريين عشتار .

ولنا نحن العرب ، فيروز .

فيروز على مسرح دمشق تنتصب « الهة للطرب » ويصلي الدمشقيون للصوت الالهي . تغني فيصمتون ، تنادي بردى .. تناديهم .. ويصفق الحور والصفصاف ويصفقون .

فيروز .. في لبنان ارزة ، وفي سورية وعلى ضفاف بردى صفصافة ، وفي الشام عريشة ياسمين ، وفي اللاذقيـــة زهرة ليلك ، وفي حلب شجرة فستق ، وعلى ضفاف الفرات زهرة كميزة حلوة وشجرة غرب .

فيروز .. نخلة على ضفاف دجلة في العراق ، وعلى ضفاف الاردن شجرة عناب ، وفي فلسطين بيارة برتقال ، وفي الجزيرة العربية هي حبـــة تمر وجدول مأء رقراق في الصحراء ، وزهرة لوتس على ضفاف النيل في مصر والسودان ، وغصن زيتون في تونس ، وبئر بترول في ليبيا والكويت والبحرين وقطر وعدن وعمان ، وجبل شاهق في اليمن ، وشجرة صنوبر في



الفنان وليد عزت ــ دمشق

الجزائر ، وشجرة زيتون في مراكش ، هي شلال في لواء اسكندرون وعامود رخامي من اعمدة الحمراء في الاندلس .

فيروز عرق اخضر ينبض في ارض الوطن العربي .

عندما تأتي فيروز الينا .. الى الشام التي تحبها ، في ايلول لتغني على مسرح معرض دمشق الدولي اغنية للشام فتقول في سنة من السنين :

طالت نوى وبكى من شوقه الوتر

خذني بعينيك واهرب ايها القمر

تهب دمشق مهللة للصوت والكلمة واللحن الذي يصعد الى النفوس فيلهبها حبا ويمنحها قوة :

وتعود فيروز لتغني الاغنية كاملة :

طالت نوى وبكى من شوقه الوتر
خذني بعينيك واهرب أيها القمر
لم يبق في الليل الا الصوت مرتعشا
الا الحمائم الا الضائع الزهر
خذني بعينيك واهرب أيها القمر



لي فيك يا بردى عهد أعيش به
عمري ويسرقني من حبه العمر
عهد كآخر يوم في الخريف بكى
وصاحباك عليه الريح والمطر
هنا الترابات من طيب ومن طرب
وأين في غير شام يطرب الحجر



شآم اهلوك احبابي وموعدنا
أواخر الصيف آن الكرم يعتصر
نعتق النغمات البيض نرشفها
يوم الاماسي لا خمر ولا سهر

*

قد غبت عنهم ومالي بالغياب يــد
انا الجناح الذي يزهو بــه السفر
يا طيب القلب يا قلبي تحملنــي
هم الأحبة ان غابوا وان حضروا

❋

شآم يا ابنــة ماض حاضر أبــدا
كأنك السيف مجــد القول يختصر
حملت دنيــا على كفيك فالتفتت
اليك دنيــا واغضى دونك القــدر

❋

وعندما تقف فيروز على مسرح دمشق في « صدر الباز » الاخضر في مدينة المعرض ، غير بعيد منها ينساب بردى ، لتنادي بردى :

انا صوتي منك يا بردى   مثلما نبعك من سحبي

اشعر ان نبعا قد تفجر في صدري وان بردى اخذ يتسرب من خــلايا قلبي ويرشح من عروقي .

يقول سعيد عقل الشاعر اللبناني الذي يحب الشام ، وتغني فيروز ، ويبتل الصوت في حلقي . اسمعها عطشى فأرتوي. اشرب من بردى وكأنني اشرب صوت فيروز . واضيع بين الحقائق والاوهام بين النبع والانســان تضيعني فيروز . ما هذا الحب بين الطبيعة والانسان ...! بردى يشرب من لبنان ، وفيروز تسرق صوتها من بردى ، والدنيا تشرب من صوت فيروز بلا ارتواء ...؟ ويتوقف السؤال بلا جواب .

ليتني اسكت وتفتحون الصفحات وتغني لكم فيروز ، لتكون هـــذه القطعة « الاغنية » في كتابي احلى قطعة .

جيلنا العربي جيل تعب يقف على جسر القلق والثورة والاهــداف الكبيرة .. واستطاعت فيروز الكلمة واللحن والصوت ان تعدل عواطف هذا الجيل ، وتنطلق به جوادا عربيا أصيلا الى مستقبل عربي أخضر .

تهيب بجيلنا ان ينهض الآن لاستعادة فلسطين قائلة :

الآن الآن وليس غدا

اجراس العودة فلتقرع

فيروز تمنحني الحرية ، تزرع اقدامي في ارض ماضينا العربي العريق المزدهر بين الهند والاندلس ، وتطير بعقلي الملهوف الى سماء المستقبل المجهول ، وتهدىء من روعي مما يجري في هذا الحاضر . تحملني على جناحين شفافين الى من أحب ، وتزرع الحقد في نفسي على عدو اسرائيلي لئيم داس بقدميه كنيسة القيامة وجامع المسجدالاقصى ، فتملأ سمع العرب والعالم في اغنيتها بعد عدوان الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ على العرب، « زهرة المدائن » مبشرة بالثأر :

الغضب الساطع آت

بجياد الرهبة آت

وسيهدم وجه القوة

القدس لنا

صوت فيروز اغنياتها الريفية ، تطير بي الى ربى بلادي ، فأشم من اغنياتها رائحة الريف العربي الاسمر ، واتفيأ بظل صوتها الرطب من رمضاء الصحراء العربية،واسهر مع صوتها في ليل الصيف العربيوأمسياته الحلوة ، وتشدني حنجرتها الفضية الى امي وابيواختيواخيوجدتيوجدي وعمتي وعمي وخالتي وخالي وابنتي وابني . . الى الوطن بأسره . . الىالجبل والوادي والمدينة والقرية والنهر والحقل والانسان والطير والخروف والقطة . .

لو سألوني أي اغنيات فيروز تحبين لضعت في مسكبة من البنفسج والفل والزنبق والحبأ والمنتور والريحان والسوسن والورد والنرجس : غيمة العطر . . . لا تعتب علي . . . سائليني يا شآم . . . بعدو الحبايب . . . سهار . . . القدس العتيقة . . . خذني بعينيك . . . قرات مجدك . . . علموني . . . يا طيرة طيري يا حمامة . . . خايف اقول . . . غنيت مكة . . . مر بي . . يا را . . لا تسألوني ما اسمه حبيبي . . سكن الليل . . !!؟زهرة المدائن . . جسر العودة . . والله لست ادري . . لست ادري . . !!

افلامها ومسرحياتها . . !! احبها كلها . . . جسر القمر وبياع الخواتم والليل والقنديل وهالة والملك وسفربرلك .

ويغازل شاب في دمشق فتاته على الهاتف فيقول لها بحرارة الصدق :

ــ حبيبتي . . شعرك يذكرني بصوت فيروز ، خصرك يذكرني بصوت

فيروز ... صوتك يذكرني بصوت فيروز . عندما اراك أرى صوت فيروز متجسدا في اجمل واحب امرأة الى قلبي .

حتى العاطفة في قلوبنا فقد اضفت عليها فيروز بوجودها في حياتنا لونا لا مثيل له بين الالوان .

الاضواء على فيروز .. والقلوب راكعة امام الهة الطرب القادمة من لبنان الى دمشق .. وأنا مع فيروز لا أنسى العملاق الذي يقف امامها في الظل يقود بعصاه السحرية الفرقة الموسيقية ، لا تغفل عينه لحظة عن فيروز ... عيناه مثبتتان في وجهها في فمها ... يريدها فوق مستوى القمة، انه زوجها الفنان العظيم عاصي الرحباني ، اما العملاق الثاني الذي يقف خلفها ، شقيقه منصور الرحباني فلا أحد يراه ، انه خلف ستائر الشعر والموسيقى . شاعران وموسيقيان وصوت الهي يصنعون في فننا المعجزات .

ومن خلف ستارة عريضة فضية ينطلق صوتها :

بردى هل الخلد الذي وعدوا به

الاك بين شوادن وشوادي

قالوا تحب الشام قلت جوانحي

مقصوصة فيها وقلت فؤادي

مطربتنا تحب بردى وتحب الشام وتحب السوريين، ولو عرفت فيروز كم يحبها بردى وكم تحبها الشام وكم تحبها سورية لبكت .

من أجل معرفة هذه الحقيقة الكبيرة التي اسمها فيروز قررت ان التقي بفيروز .

قلت لها :

— فيروز الشام تحبك وبردى في لهفة دائمة لتوامه ولكن ما سر حبك لهما . وهل كانت قصيدتك « شام ياذا السيف » من وحي حبك انت يا فيروز للشام أم انها حب لبنان للشام تجسد في قصيدة سعيد عقل ؟

قالت فيروز بهدوء :

— انا احب الشام حبا لا ينتهي وفي كل موسم خريفي يجب ان اغني لبردى ودمشق . وقصيدتي الاخيرة عن الشام وضعت من اجل هذا

ء الشعر

الموسم وقصة ولادتها قصة غريبة . تم نظمها ليلة الاحد وتم تلحينها الاثنين وحفظتها الثلاثاء وغنيتها الاربعاء في دمشق ، وكانت كما سمعتها دمشق لاول مرة هل اعجبتكم ..؟!

اعجبتنا ..!! قولي لقد شرقنا بدموعنا عندما سمعناها . لقد عرفنا الآن من أين يشرب بردى .. اننا نشرب مع ذراته صوتك ويشرب هو قطراته من سحب الجبل الذي أنبتك . لقد عرفنا الآن لماذا نحبك الى ما لا نهاية .

قالت فيروز :

ـ أنا أحبكم اكثر . أحب جمهوركم لانه يتذوق الشعر ويتقن الاصغاء ويتجاوب مع طريقتي في الغناء .

ـ وهل هي طريقتك ، ام انها صوتك وكلمات والحان الاخوين رحباني ..؟!

ـ بل هي طريقتي ، فأنا عندما احفظ اللحن أحفظه على طريقتي الخاصة وكما يقول الاخوان رحباني عني :

« انها تفيرز اللحن » .

فيروز مزروعة في نفس كل عضو من اعضاء فرقتها الفنية الغنائية الراقصة، ارزة قوية ممتدة الجذور والاغصان الى ارض كل فنان من فرقتها وسمائه .

قالت غيتا داية واحدة من اشهر راقصات فرقتها الفولكلورية :

ـ لا احد يعرف فيروز كما نعرفها . انها اكبر بكثير مما يعرفها الناس . نحن أسعد الناس حظا لاننا معها دائما . هي انسانة طيبة متواضعة مخلصة لرفيقاتها . رقيقة رقة سحرية ، وهي سيدة بيت ممتازة وام عظيمة . تخدم ضيوفها بنفسها ، تتصرف في بيتها بصورة طبيعية كأية زوجة عادية ، تطبخ بيديها ، « وتبولة فيروز عمري ما لقيت اطيب منها تبولة » ..

ـ والحب بينها وبين زوجها عاصي الرحباني ..؟!

ـ تحب زوجها عاصي حب العبادة ويحبها حب العبادة ، يغار عليها من نسمة الهواء وتغار عليه من رفة غصن .

وقالت سميرة بعقليني مدربة الرقص في فرقة فيروز :

الفهرس

	الصفحة
ـ الاهـــداء	آ
ـ من القلب	ب
ـ رشــة مازهــر	جـ
ـ رسالة صباح قباني	د
ـ صورة رسالة صباح قباني	هـ
ـ يا مال الشــام	٦
ـ أنــا رجعيـــة	٨
ـ شـآم ما المجد	٣٢
ـ سمية وهند وكلثوم	٣٨
ـ وأتمتــع بـأمــي	٤٤
ـ اوها ياعريس لا تعبس	٥٨
ـ أكيدنيــا يــاحلوة	١٠٩
ـ أنبــوبـــة	١٢٠
ـ يرحم أهل أول	١٢٦
ـ صــور شــاميــة	
ـ قــال لي أبـــي	١٥٢
ـ قالت لي أمــي	١٥٤
ـ عنـــد الحكيـــم	٢٥٦
ـ من قامرس الشام	١٦٦
ـ العمــر لكــم	١٧٢
ـ كراكـوز وعيـــواظ	١٧٨
ـ سكر وتتـــن	١٨٠
ـ دمشقي ودمشقي	١٨٣
ـ عنتر ابو الفوارس	١٨٤
ـ اين تسكن دمشــق	١٩٢
ـ ياعيني على قصــر العظـــم	٢٠٠
ـ أبلــق بجلســـة	٢٠٨

- السفربرلك ٢١٨
- الحرب العامة الاولى ٢٣٠
- يوميات فتاة دمشقية ٢٥٠
- فلسفة ٢٦٦
- الشتاء ٢٧٠
- لوحة ليلية ٢٧٢
- حوار ٢٧٦
- ارجعي ياالف ليلة ٢٨٠
- ملاكمة ٢٨٤
- المطر وانا ٢٨٨
- خرقة الطنجرة ٢٩٠
- ٣+ ١٥ + ٣٠ + ٧٠ = لانهاية ٢٩٦
- الشيطان ذو القرنين الفضيين ٣٠٤
- قشة الدوامة ٣١٠
- لعبة التناقض المريرة ٣١٤
- مع السلامة ايها الامير ٣١٨
- زهرة الليلك ٣٢٢
- من لماذا متى اين كيف ٣٢٨
- اللوحة المعلقة ٣٣٢
- اصابع من رمال ٣٣٤
- الطائر العقيم ٣٣٨
- ذكرى مدينة ٣٤٤
- ضفادع نبع بردى ٣٥٠
- فيروز ٣٥٨
- الفهرس ٣٦٦

الغـلاف الاول : بريشة الفنان خالد معاذ سنة ١٩٤٤ ٠ طريق صدر الباز ٠
شارع بيروت مع التكية السليمانية ٠ دمشق ٠
الغـلاف الاخير : بكـاميرا الفنـان مروان مسلماني سنة ١٩٧٥ في بساتين
الهامة ٠ دمشق ٠
الروتوش : زهراب حصرجيـان ٠
الخطـوط : الفنان سهيل ميدع ، الفنان سمير مولوي ٠
عـدد اللوحـات الملونـة ٤٣ لوحـة ٠
عـدد اللوحـات العاديـة ٣٣ لوحـة ٠

الطبعـة الثانيـة ١٩٧٨

تم طبع الكتاب واللوحات الفنية الملونة والعادية في مطابع الادارة السياسية
للجيش والقوات المسلحة ٠ دمشق ٠



صورة والدتي عزيزة بنت الشيخ علي قاسم البهلول في صباها أيام السفر برلك . وعمرها ١٤ سنة . في بيت والدها في حارة عسقلان — باب مصلى في حي الميدان . وهي في قمة جمالها وأناقتها قرب شجرة التين الشهيرة في بيت جدي لأمي .



صورة والدي فهمي بن مصطفى آغا الترجمان وجدتي لأبي عائشة بنت سعيد آغا رمضان. وأمي عزيزة بنت الشيخ علي قاسم البهلول الجزائري. وأختي البكر.
١٥ مايس ١٩٢٣ . ٢ شوال ١٣٤١هـ . دمشق.



بيتنا في حي العمارة في دمشق.
وأنا أقف إلى جانب باب الغرفة التي
ولدتني أمي فيها «والدنية كانت تلج».
أخذت الصورة عام ١٩٦٦.
كاميرا الفنان مصباح السراج — حماه.



عند الشجرة التي كانت تقف تحتها أمي في صباها ، وقفت في بيت جدي لأمي الشيخ علي قاسم البهلول الجزائري ، تحت شجرة جديدة ، أستعيد ذكريات الماضي الذي أحبه في مدينتي قبل أن تصل يد الهدم لملاعب طفولتي في حارة عسقلان — باب مصلى — حي الميدان . دمشق . ١٩٧٨ . كاميرا الفنان حسن مرشد — السويداء .



أنا أقرأ الفاتحة على روح الولي «عسقلان» ابن خالة النبي محمد عليه السلام، كما قالت لي أمي. وعسقلان قرب موقف الترامواي عند باب مصلى في حي الميدان العريق، حي أهل أمي. ولا تزال دكان المحمصاني مكانها تماماً كما كانت عندما كنت أشتري منها «القضامة» مع اخوتي عندما نذهب للزيارة في بيت تيتي أم عزيزة بيت جدي لأمي، داخل حارة عسقلان. الفاتحة على روح أمي وأبي وأهل أمي وأبي. الفاتحة على روح عسقلان.



وداعاً يا سوق ساروجة .... صورة من سوق ساروجة في دمشق القديمة وقد بدت الدكاكين مغلقة يوم الجمعة . يد الهدم والتنظيم ستأتي على ما تبقى فيه من رائحة الماضي العريق في حي «استنبول الصغيرة» . كاميرا الفنان حسن مرشد — السويداء .

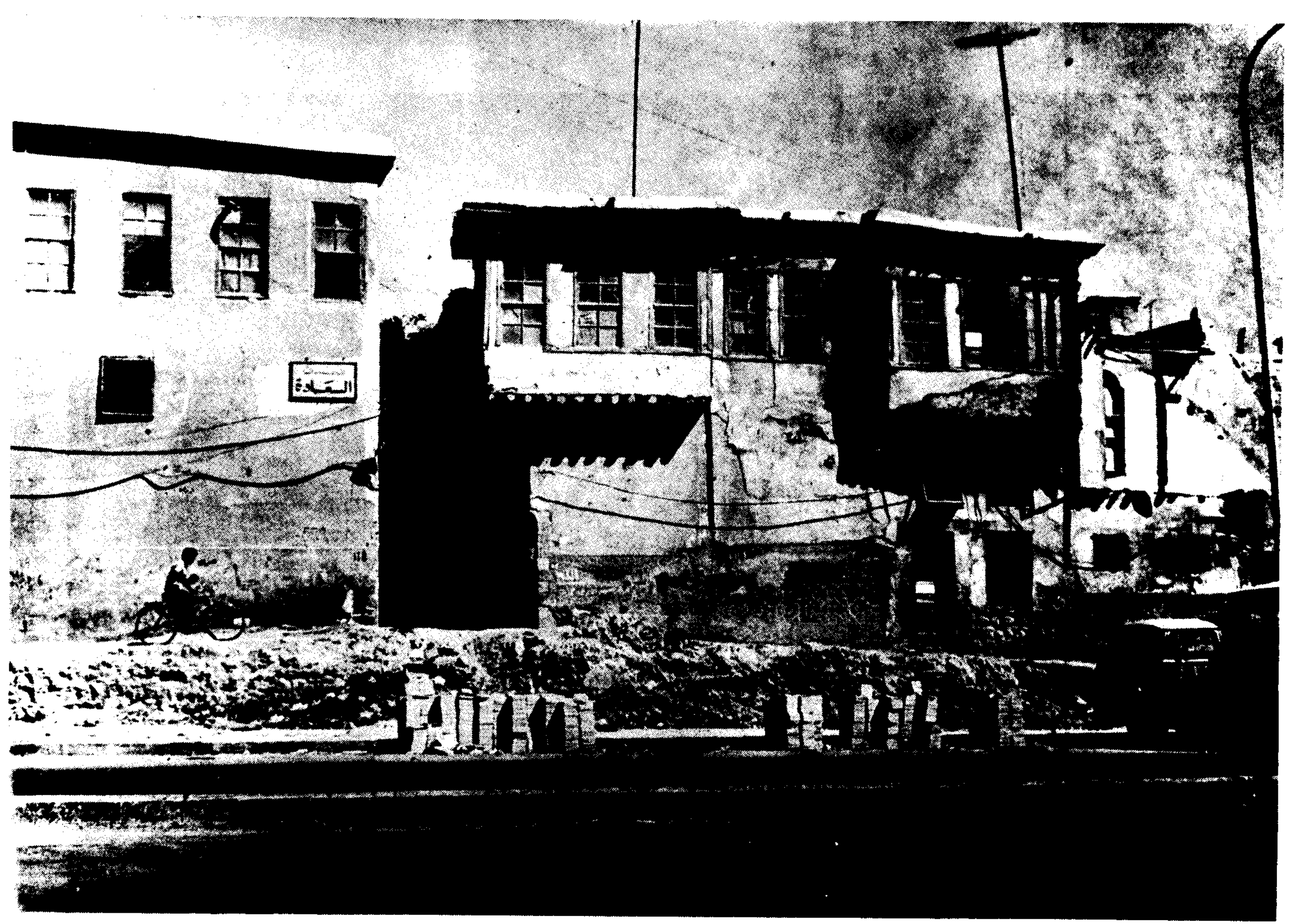


« فيجة » سوق ساروجة أشرب منها ماء الفيجة بهناء . وأودعها لأنها تحمل ذكريات طفولتي . فمنها كنت أعبىء « حق الماء » لبيتنا . وعليها كسر معي « حق الماء » مرة . وأخذت أبكي خوفاً من أن تقتلني أمي . وتجمع الأولاد حولي . سقى الله أيام الطفولة وأيام حارتنا .

دمشق — ١٩٧٨ . كاميرا الفنان حسن مرشد — السويداء .



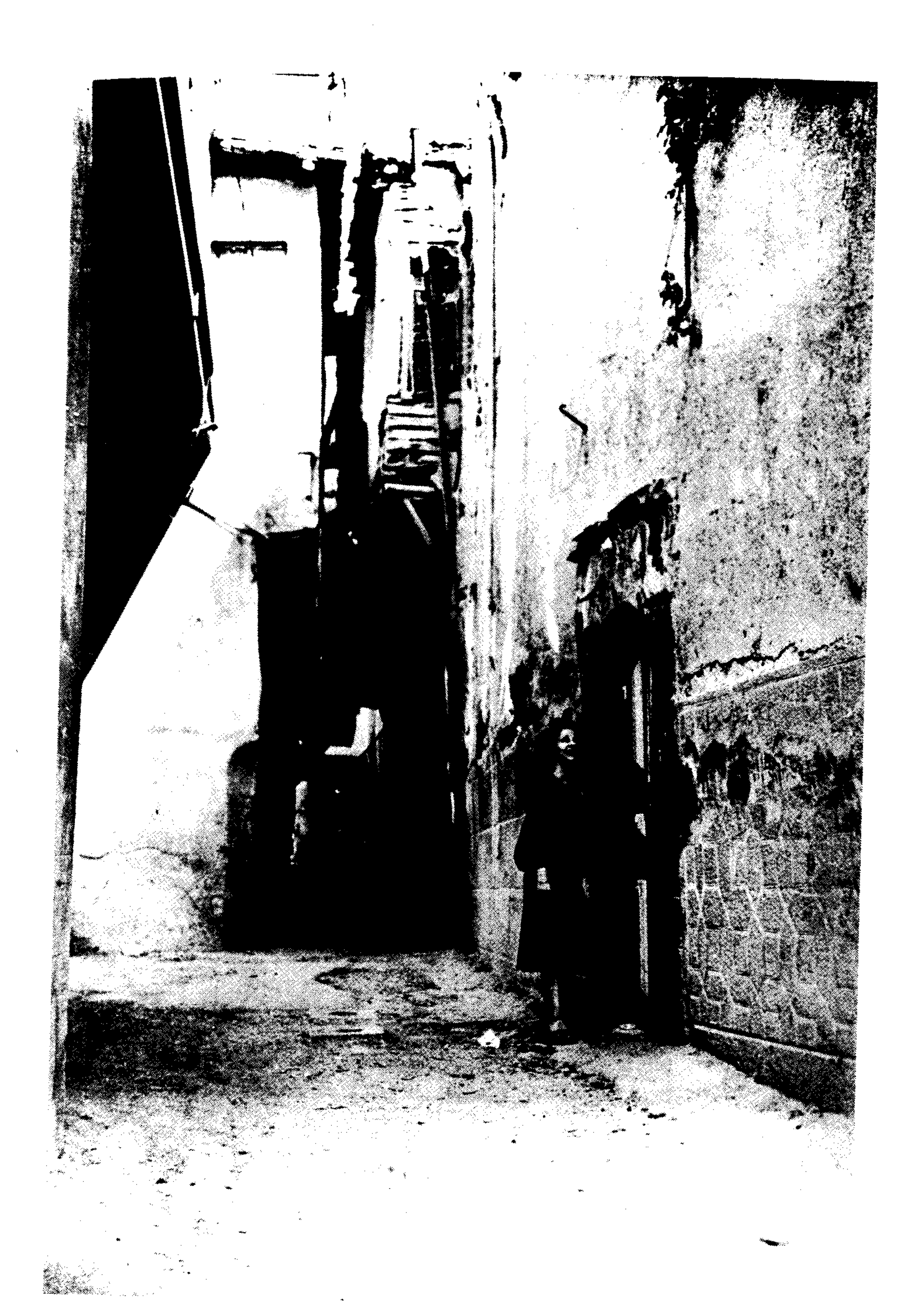
بيت الترجمان في حارة القرهماني من الخارج . قبل التنظيم والهدم . في حي سوق
ساروجة . دمشق — ١٩٦٦ . كاميرا الفنان مصباح السراج — حماه .



. بيتنا في حارة القرهماني من الخارج ، في حي سوق ساروجة بعد أن اقترب منه الهدم والتنظم. ١٩٧٨ . كاميرا الفنان حسن مرشد — السويداء.



بيتنا . بيت الترجمان في حارة «القرهماني» في حي سوق ساروجة. دمشق عام ١٩٧٨. كاميرا الفنان حسن مرشد— السويداء.



أنا أدق على باب بيتنا العتيق عام ١٩٧٨ في حارة القره ماني في سوق ساروجة. وفيه بيت الكيلارجي وبيت عوض وبيت الصباغ وبيت المرتضى من الخارج. كاميرا الفنان حسن مرشد — السويداء.



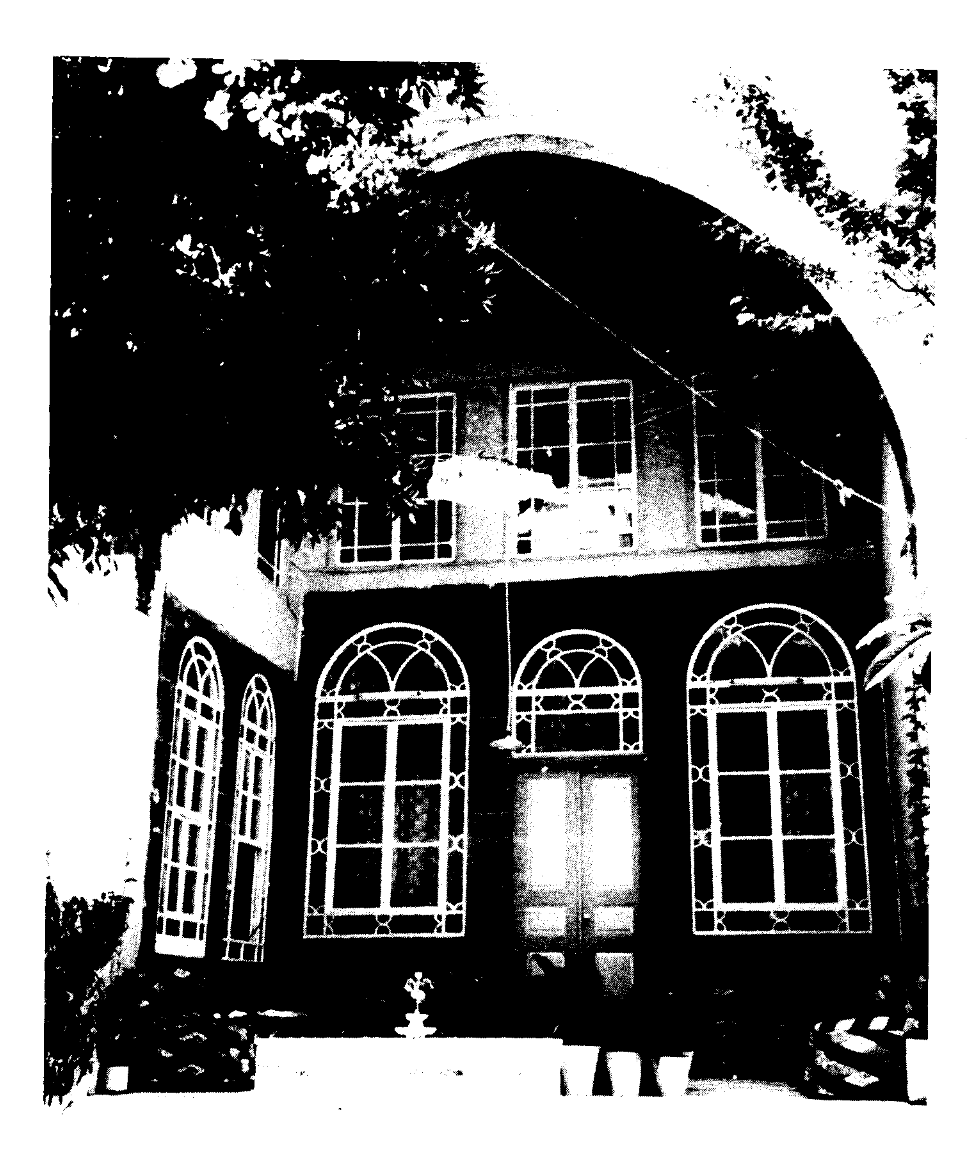
أنا في بيت الكيلارجي في حارة القرماني في حي سوق ساروجة. دمشق. عام ١٩٧٨. كاميرا الفنان حسن مرشد— السويداء.



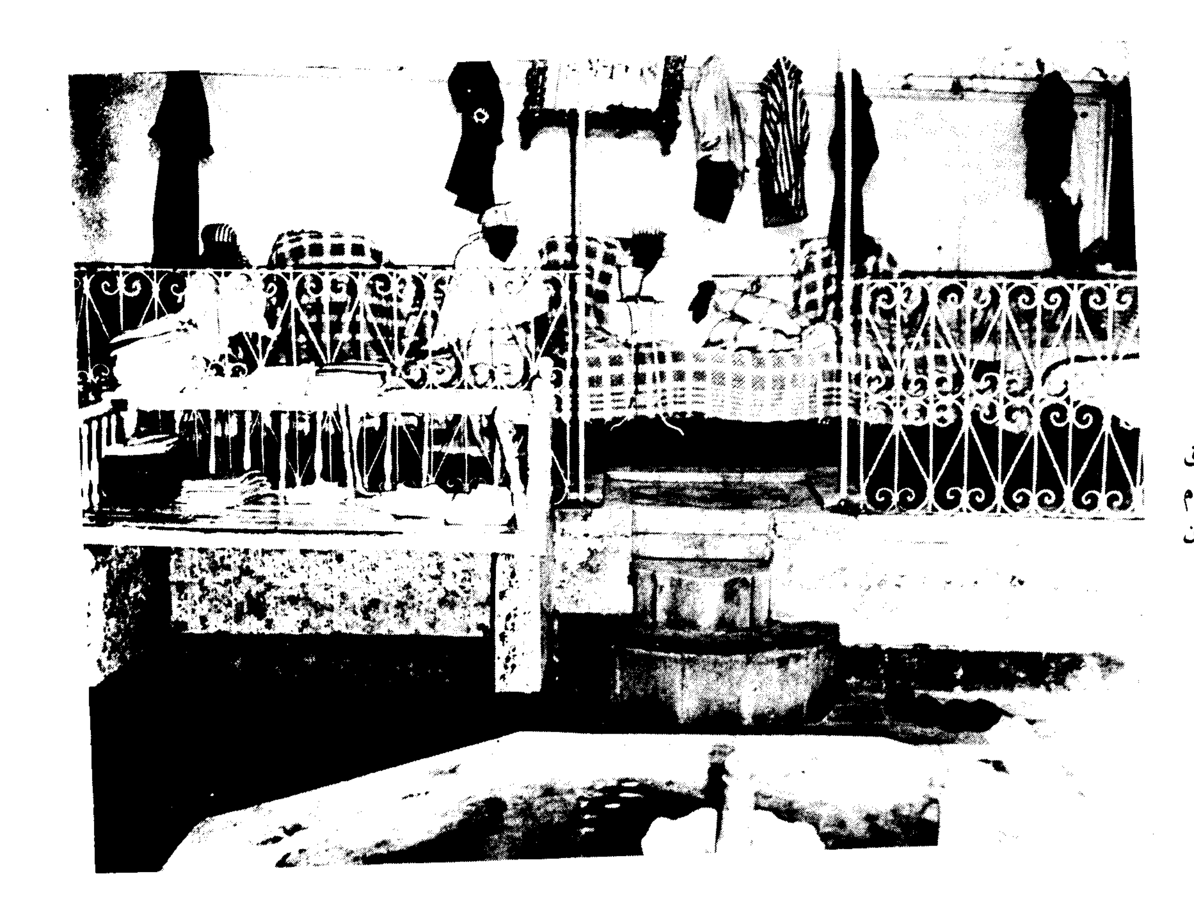
عودة إلى الذكريات والماضي الذهبي. أنا والحمام الزاجل. في بيت جيراننا بيت الكيلارجي سابقاً بيت الكباريتي اليوم في حارة القرماني حي سوق ساروجة. دمشق ١٩٧٨. كاميرا الفنان حسن مرشد ـــ السويداء.



أنا في بيت جيراننا ...
بيت الكيلارجي في حارة القرهماني في حي سوق ساروجة. دمشق. ١٩٧٨.
كاميرا الفنان حسن مرشد— السويداء.



بيت الخضري في حارة «قولي» في حي سوق ساروجة. دمشق. ١٩٦٦. كاميرا الفنان مصباح السراج— حماه.



حمام الهنا ...
في حمام الورد.
في حارة الورد في حي سوق ساروجة المعرض للهدم نهائيا. عام ١٩٧٨. كاميرا الفنان حسن مرشد ـــ السويداء.



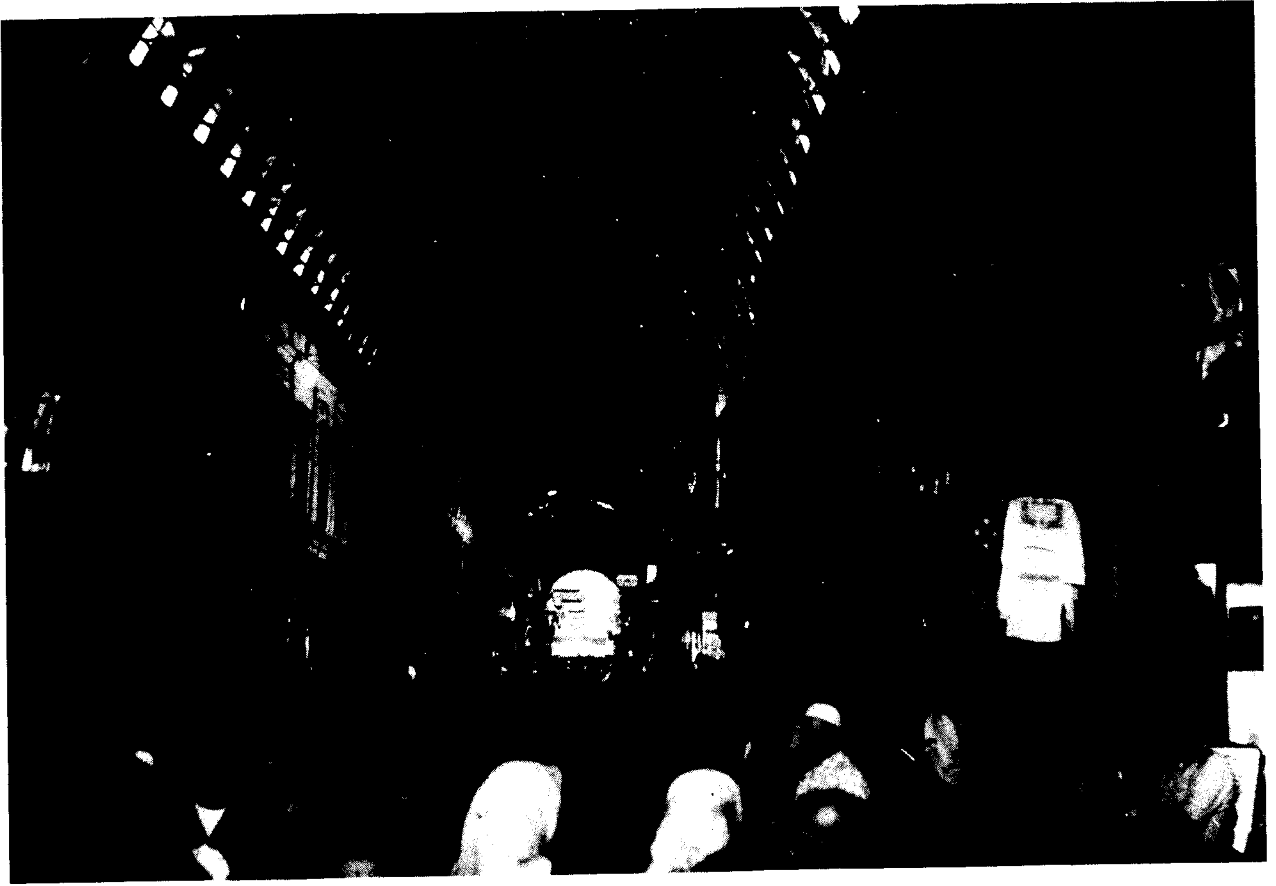
ابنة عمي أم عدنان شفكي بنت صبحي الترجمان في بيتها بيت زوجها ابن عمّي عزت السادات في حارة الورد. حي سوق ساروجة. دمشق ١٩٦٦. كاميرا الفنان مصباح السراج — حماه.



أبي فهمي وأمي عزيزة وأخي محمد علي وزوجته في جلسة عائلية سعيدة في بيتنا في حي السبكي . أبو رمانة . دمشق . عام ١٩٦٤ . كاميرا الفنان عبد الكريم الأصفر — حماه .



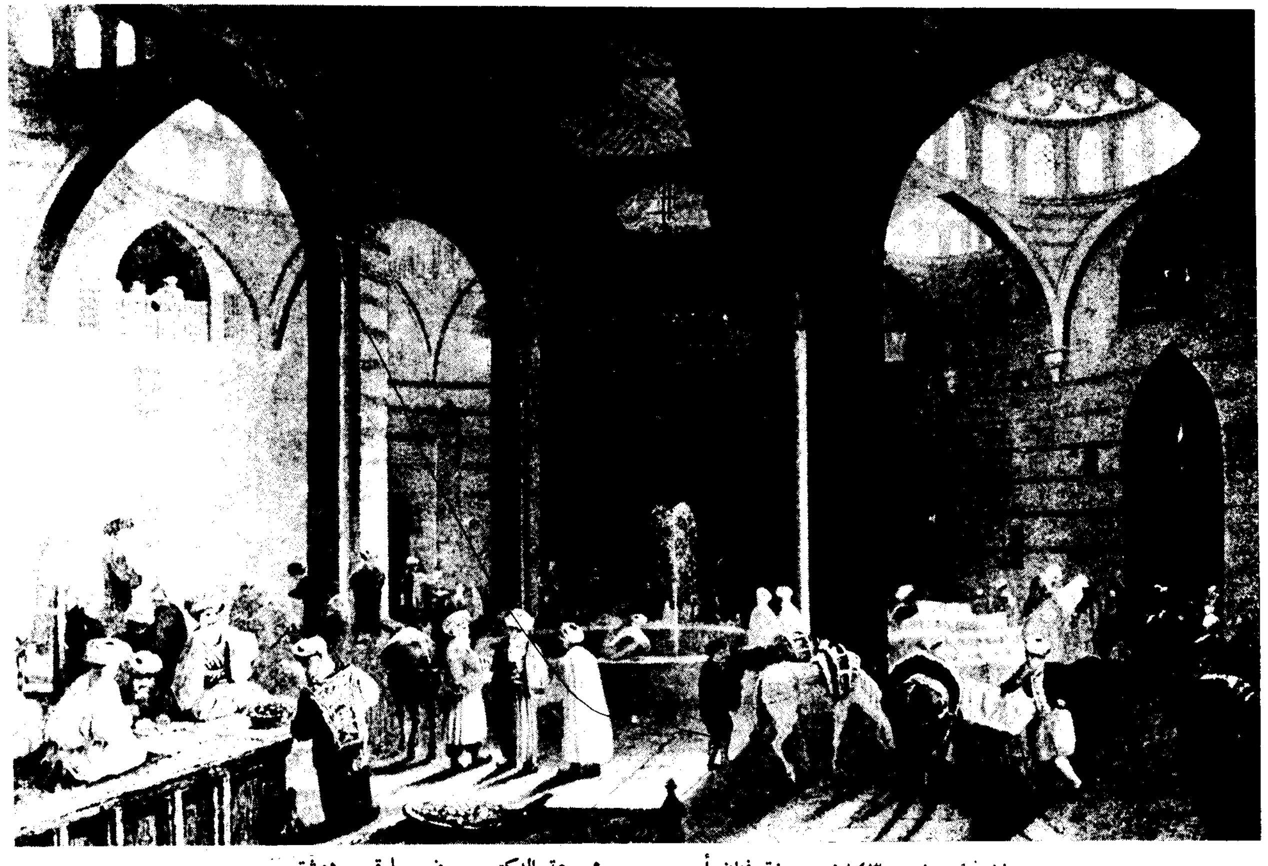
أبي فهمي وأمي عزيزة وأخي صلاح وأنا وأولاد أختي في جلسة عائلية سعيدة على جهاز عرس أبي وأمي الصدف . في بيتنا في حي السبكي ، دمشق الجديدة . أبو رمانة . ١٩٦٨ . كاميرا الفنان عبد الكريم الأصفر — حماه .



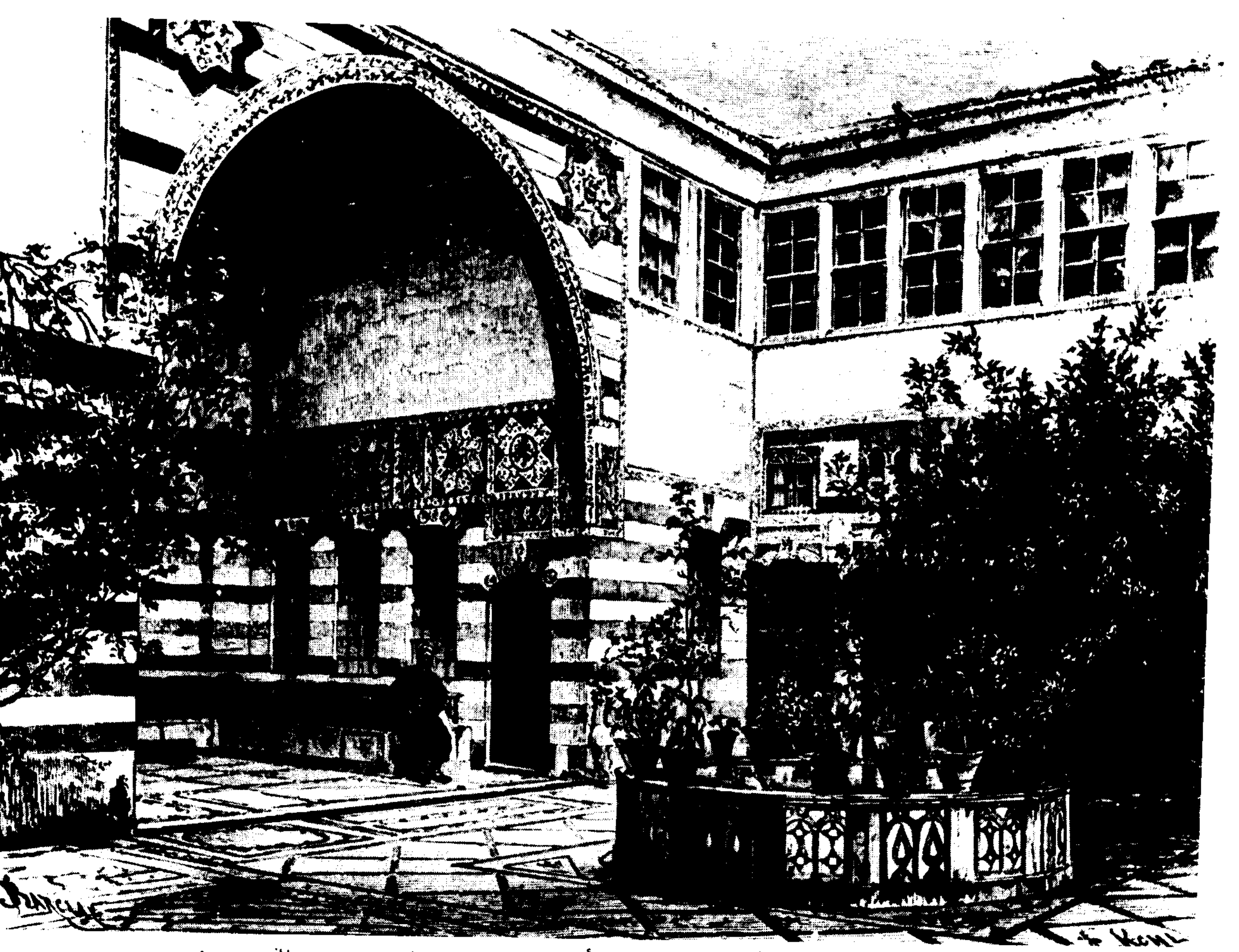
سوق الحميدية. دمشق ١٩٦٠. كاميرا الفنان علي مارديني— دمشق.



سائحة انكليزية وملابس عربية في قصر العظم . ١٩٦٦ . كاميرا الفنان مصباح السراج — حماه .



خان في دمشق. ١٨٤٣. بريشة فنان أوروبي. من مجموعة الدكتور يوسف سمارة — دمشق.



دار السباعي. بيت عربي دمشقي. بريشة فنان أوروبي. من مجموعة الفنان مروان مسلماني — دمشق.



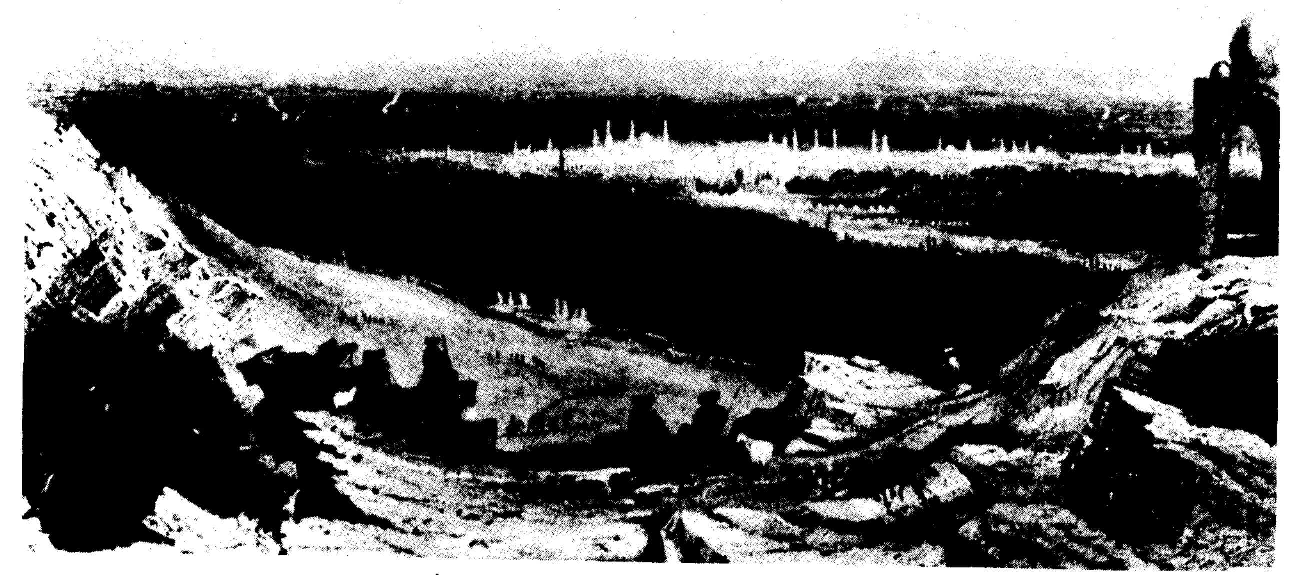
نساء دمشقيات في بيت عربي دمشقي. دمشق. ١٨٤٣. بريشة فنان أوروبي. من مجموعة الفنان مروان مسلماني — دمشق.



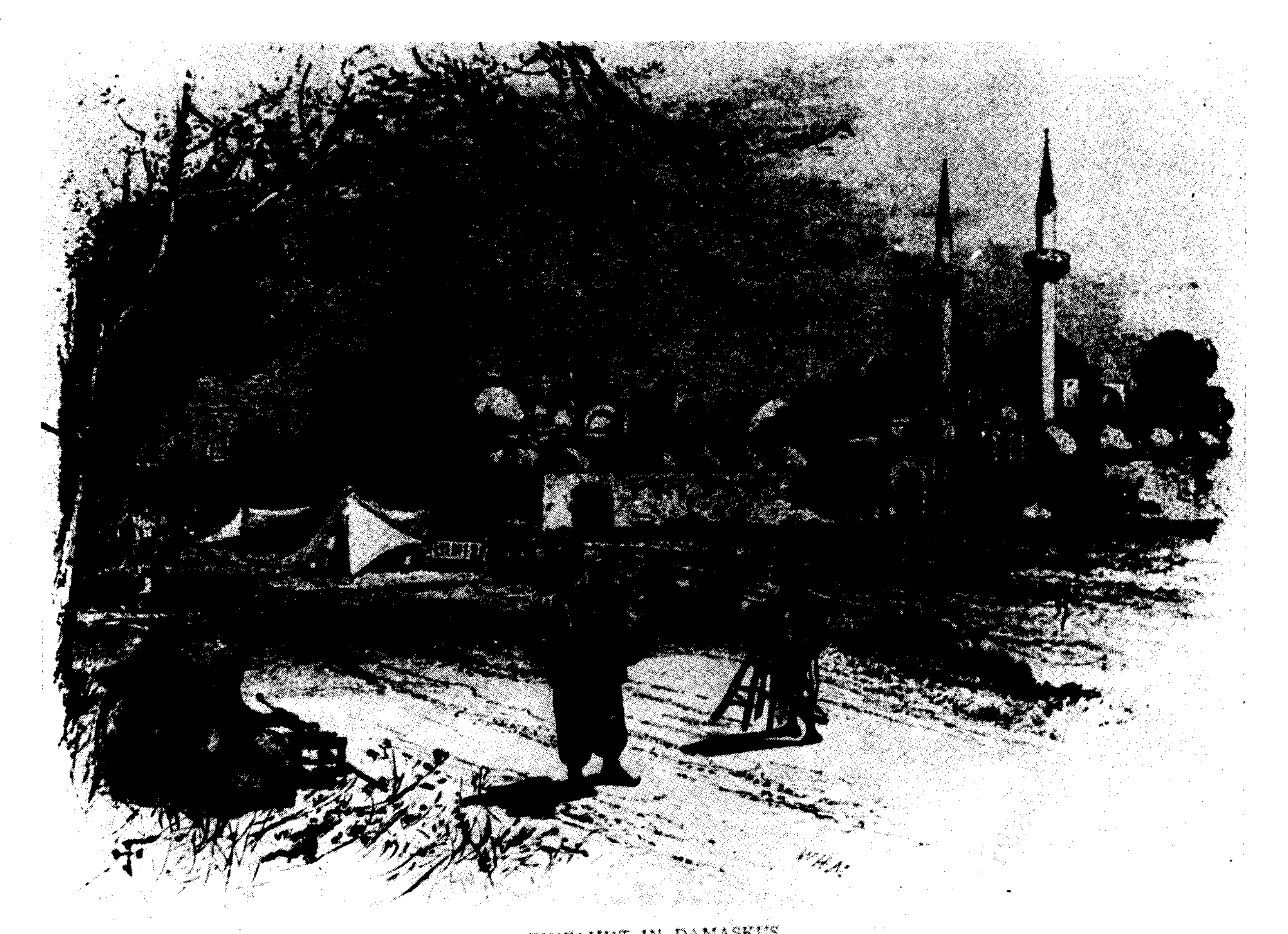
باب شرقي. دمشق. ١٨٤٣. بريشة فنان أوروبي. من مجموعة الفنان مروان مسلماني — دمشق.



غلاف كتاب باليستينا. فلسطين باللغة الألمانية ومترجم عن الإنكليزية ١٨٨٣. إعداد جورج إيبرس. وهرمان جوتة. ويضم صور بلاد الشام ١٨٤٣. بريشة فنانين أوروبيين انكليز وألمان صوروا سورية وفلسطين والأردن ولبنان عام ١٨٤٣، في لوحات فنية واقعية خالدة. والكتاب من مجموعة كتب الدكتور يوسف سمارة النادرة في دمشق.



الغوطة حول دمشق من جبل قاسيون — ١٨٤٣ . بريشة فنان أوروبي . من مجموعة الدكتور يوسف سمارة — دمشق .



EINFAHRT IN DAMASKUS.

جامع التكية السليمانية قرب نهر بردى . دمشق . ١٨٤٣ . بريشة فنان أوروبي . من مجموعة الدكتور يوسف سمارة — دمشق .



CAFE AM BARADA, GEGENÜBER DER CITADELLE.

Libanon gemacht. Durch ſeinen heimlichen Uebertritt zum Chriſtenthum waren die chriſtlichen Maroniten, deren Hauptſitze uns ſpäter in der Nähe von Beirut begegnen werden, ſeine näheren Freunde geworden. Die Unzufriedenheit mit den Zwangsmaſsregeln, durch welche der Emir Beſchir und Ibrahim Paſcha die Militäraushebung durchführen wollten, erregte daher zunächſt die Gemüther der Druſen. Ihren Widerſtand ſuchte der Emir durch Entwaffnung zu brechen. Ibrahim Paſcha aber erſtickte jahrelang

مقهى قرب نهر بردى . دمشق ١٨٤٣ . بريشة فنان
أوروبي . من مجموعة الدكتور يوسف سمارة — دمشق .



سوق الخيل. دمشق. ١٨٤٣. بريشة فنان أوروبي. من مجموعة الدكتور يوسف سمارة— دمشق.



سوق الخيل الذي تحول إلى سوق العتيق وسوق للخضار والفاكهة واللحوم. دمشق. ١٩٦٦. كاميرا الفنان مصباح السراج— حماه.



حارة في دمشق . عام ١٨٤٣ بريشة فنان أوروبي . وكأنها حارتنا حارة القره ماني في سوق ساروجة قبل مئة سنة ونيف . من مجموعة الدكتور يوسف سمارة— دمشق .

mufste ihm ein anfehnlicher Theil des Privatvermögens zum Opfer fallen. Eine andere Neuerung diente zur Hebung der Einkünfte des reformliebenden Wali. In der Nähe der franzöfifchen Poftftation liefs er ein Gartenreftaurant nach abendländifchem Mufter einrichten. Aus einer anziehenden Umgebung von Rafenplätzen und Blumenbeeten



DIE GROSSE PLATANE IN DAMASKUS.
Ihr Umfang beträgt 12 Meter.

erhob fich bald ein freundliches Gebäude mit Billardzimmer und geräumiger Veranda. Die Gäfte fafsen auf Bänken und Stühlen an einzelnen Tifchen, wie die Sitte des Abendlandes es fordert, und tranken nicht nur Scherbet oder Kaffee, fondern auch Wein und andere geiftige Getränke nach dem Gefchmack der Franken. Die Konzerte, welche in der Kühle des Abends ftattfanden, liefsen keinen Zweifel darüber, dafs hier wirklich die

شجرة الدلب في العصرونية وقطرها ١٢ م . دمشق ١٨٤٣ . بريشة فنان أوروبي .
من مجموعة الدكتور يوسف سمارة — دمشق .


مع أنني كنت صغيرة..
لا زلت أذكر متعة
السيران بعربيات
الخيل للربوة والشادروان
ودمر والهامة..
واللعب بين شجر
الجوز والرمان والصفصاف
على ضفاف نهر بردى
سقى الله...
أيام زمان..
في الربوة ودمر والهامة.
السعر ٤٠ ل.س أو ما يعادلها